

ترجمت الرواية إلى 24 لغة وحققت مبيعات قياسية

زلفى ياسر درويش

بينما تنمو أشجار الليمون

ترجمة: أميمة صبحي

مكتبة رواية ياسمين

"كل ليمونة ستنجب طفلاً ومحال أن ينتهي الليمون"

نزار قباني

تتبع هذه الرواية المذهلة حكاية سلامة الشابة السورية -ابنة مدينة حمص- التي انهار عالمها فجأة وقضى قصف دموي ونظام همجي على أسرتها، ولكنها تحاول رغم ذلك الصمود لمساعدة من اضطر للبقاء في مدينتها المحاصرة.

تضطر سلامة أن تقوم بدور الطبيبة الوحيدة المتبقية في المدينة، ولكن التعامل مع المصابين ومع الأموات والمخاطر الجمة جعلها ممزقة بين مغادرة سوريا وبين بقائها في ذلك الجحيم.

يتغير المصير حين تقابل سلامة الحب الذي كان مقدراً لها فيما مضى، تتطور المشاعر تحت القصف دون أمل، ولكن هل انعدم الأمل فعلاً!

"بينما تنمو أشجار الليمون" هي عمل عن الصدمة واليأس والفقد، وعن الحب الذي بمقدوره إنقاذنا من أنفسنا وحملنا إلى طوق النجاة. ستترك الرواية بصمة دائمة على كل من يقرأها، لأن ما أن تبدأ سطورها الأولى، لن تتمكن من تركها.

زلفى ياسر درويش: كاتبة كندية من أصل سوري، ثمتهن الصيدلة وتدرس الماجستير في علوم الأدوية والصيدلة في سويسرا. تعد "بينما تنمو أشجار الليمون" روايتها الأولى وقد تُرجمت إلى 24 لغة، من بينها: الألمانية والفرنسية والإيطالية واليابانية والأندونيسية والإسبانية والتركية، وغيرها.

وتعتبر زلفى درويش أول كاتبة سورية شابة تُنشر أعمالها في الولايات المتحدة وانجلترا في الوقت نفسه.

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

كتاب
GETSARA PUBLISHING HOUSE



كل ليمونة ستنجب طفلاً
ومحال أن ينتهي الليمون

نزار قباني

ثلاث حبات ليمون ذابطة، وخبز بلدي جاف في كيس بلاستيكي، أكثر جفافاً من أن يصل إليه العفن. هذا كل ما يقدمه هذا السوبر ماركت.

أحرق بعيون مرهقة قبل أن التقطهم، وعظامي تؤلمني مع كل حركة. أتجول في الممرات المتربة والفارغة مرة أخرى؛ على أمل إيجاد شيء فاتني، لكن كل ما أجده هو شعور قوي بالحنين. أيام الطفولة التي كنت أنا وأخي نهرول بها إلى هذا السوبر ماركت بعد المدرسة ونملاً ذراعينا بأكياس الشيبسي والجيلي. يجعلني هذا أفكر في ماما، والطريقة التي كانت تهز بها رأسها؛ محاولة ألا تبسم لطفليها ذوي الوجهين الأحمرين والعيون البراقة وهما يبذلان أقصى جهدهما لإخفاء غنائم الحرب في حقيبتي الظهر الخاصة بهما. كانت تمشط شعرنا...

أهز رأسي، كفاية.

عندما أتأكد أن الممرات فارغة حقاً من أي أطعمة، أسير بثقل إلى الكاونتر لأدفع ثمن الليمون والخبز بأموال بابا المذخرة، ما استطاع سحبه قبل ذلك اليوم المشؤوم. يعطيني صاحب السوبر ماركت -رجل عجوز أصلع في الستينات- ابتسامة متعاطفة قبل أن يعيد الباقي لي.

أخرج من السوبر ماركت، لأواجه منظراً قاحلاً. لا أراجع عن الفضي في طريقي، فلقد تعودت على هذا الرعب، لكنه يضخم الألم في قلبي. كان الطريق متشققاً، والأسفلت قد تحول إلى حطام. والمباني رمادية متهاكة أو منهارة؛ حيث تسعى الطبيعة لإنهاء ما بدأته قنابل الجيش. دمار مطلق وتام.

بدأت الشمس تذوب ببطء بقايا فصل الشتاء، لكن
البرد لا يزال هنا، فالربيع رمز الحياة الجديدة، لا
يمتد إلى سوريا الفتعبة، ولا سيما مدينتي، حمص.
أرى البؤس يخيم بقوة على الأغصان والأنقاض
الساقطة والثقيلة، ولا يثنيه سوى الأمل في قلوب
الناس.

تغلق الشمس منخفضة في السماء بادرة وداعها
لنا، وتتغير الألوان ببطء من البرتقالي إلى الأزرق
الثقيل. فأهمس لنفسي: «الأقحوان.. الأقحوان..
الأقحوان.. زهور الأقحوان العطرة».

أرى على مرمى بصري عدة رجال يقفون خارج
السوبر ماركت، وجوههم شاحبة وملينة بعلامات
سوء التغذية، لكن عيونهم تتلألأ بالنور. عندما أمُرُ
بجانبيهم أسمع بعضاً من حديثهم، لكنني لم أتباطأ.
أعرف عنما يتحدثون، إنه ما تحدث عنه الجميع
خلال التسعة أشهر الماضية. أسرع في مشيي
مبتعدة عنهم، لا أريد الاستماع، فأنا على علم بالفعل
أن الحصار العسكري المفروض علينا هو حكم
بالإعدام، وأن إمداداتنا الغذائية تتناقص ونموت
جوعاً، كما أعلم أن المستشفى على وشك الوصول
إلى مرحلة تصبح فيها الأدوية ضريبة من الخيال.
أعلم ذلك لأنني قمت اليوم بإجراء جراحات دون
تخدير، الناس يموتون أمامي من النزيف والالتهابات
ولا توجد طريقة لمساعدتهم. وأعلم أننا جميعاً
سنخضع لمصير أسوأ من الموت إذا لم يستطع
الجيش السوري الحر إيقاف تقدم الجيش على
حمص القديمة!

بينما أتوجه إلى المنزل يصبح النسيم بارداً،
وأضغط حجابي بإحكام حول عنقي. أشعر بوضوح
بنقاط الدم الجافة التي تمكنت من التسلسل تحت

أكماد معطفي الطبي، فلكل شخص لا أتمكن من إنقاذه خلال نوبتي في المستشفى، قطرة دم إضافية تصبح جزءاً مني، تتسرب دماء الشهداء تحت جلدي، بصرف النظر عن عدد مرات غسل يدي، بل وتندمج في خلايا جسدي، حتى إنها قد تكون مشفرة الآن في حمضي النووي. واليوم، يرا في رأسي باستمرار صدى المنشار المتأرجح خلال عملية البتر، الذي جعلني دكتور زياد أقوم بإجرائها. لمدة سبعة عشر عاماً ربّنتي حمص وزرعت أحلامي: الشخّج من الجامعة بمعدل تراكمي عالٍ، والحصول على وظيفة رائعة في مستشفى الزيتونة كصيدلانية، وأخيراً أن أكون قادرة على السفر خارج سوريا ورؤية العالم. لكن لم يتحقق سوى حلم واحد منهم، وليس بالطريقة التي توقّعتها.

قبل عام من الآن، بعد اندلاع الربيع العربي في المنطقة، انتزعت سوريا الأمل الذي أيقظ الشعب ونادى بالحرية، وردّت الديكتاتورية بإطلاق العنان للجحيم.

ومع استهداف الجيش للأطباء عمداً، أصبحوا نادرين مثل الضحك. لكن حتى دون الأطباء، لم تتوقف القنابل، وأصبحت مستشفى الزيتونة على حافة الانهيار؛ فما اضطرهم إلى ضمّ كل يد قد تساعد، حتى إنهم وطفوا عمال النظافة كمرضى.

كنت مساوية في العلم لطبيب مبتدئ بعد قضائي سنة في كلية الصيدلة، لكن لم يكن هناك اختيارات بعد أن ذفن الصيدلي الأخير تحت أنقاض منزله. ليس مهماً أنني كنت لا أزال في الثامنة عشرة من عمري، ولم يهم أن خبرتي الطبية مقتصرة على كلمات الكتب المدرسية، خل كل هذا عندما وضعت أول جثة أمامي لأخبطها، فالموت معلّم ممتاز.

في السنة أشهر الأخيرة، شاركت في المزيد من الجراحات مما لا يمكنني حصرها، وأغلقت المزيد من العيون أكثر مما كنت أتوقع. لم يكن من المفترض أن تكون هذه حياتي!

يذكرني الطريق العائد إلى المنزل بصور الأبيض والأسود التي رأيناها في كتب التاريخ لألمانيا ولندن بعد الحرب العالمية الثانية؛ بيوت مسطحة تفيض بخشبها وخرسانتها الداخلية مثل الأمعاء المثقوبة؛ رائحة الأشجار المحترقة التي تحولت إلى رماد.

الهواء بارد يلدغ من خلال قماش معطفي الطبي المهترئ، ولمسته الخشنة تجعلني أرتجف، وأغمغم: «فيفرفيو، تبدو مثل زهور الأقحوان، تعالج الخفى وآلام المفاصل. فيفرفيو، فيفرفيو، فيفرفيو».

أخيذا أرى منزلي ويتسع صدري. ليس هذا هو المنزل الذي كنت أعيش فيه مع عائلتي يومًا ما، لكنه ما منحطني إياه ليلى بعد أن سقطت قبلة على منزلي، دونها كنت سأشرد في الشوارع.

مكان ليلى -بيتنا، على ما أظن- هو منزل من طابق واحد متكّس بجوار أخرى تشبهه تمامًا. جميعها تحمل آثار طلاقات الرصاص التي تزيّن الجدران كفنّ قاتل. كلها هادئة، وحزينة، ووحيدة. أمّا حينًا، فهو الأخير الذي تبقت فيه معظم المنازل سليمة. ففي الأحياء الأخرى ينام الناس تحت أسقف مُحطمة أو في الشوارع. القفل صدئ ويصدر صريرًا عندما أدير المفتاح وأنادي: «لقد غدت إلى المنزل!»... «أنا هنا». تردّ ليلى.

جننا إلى هذا العالم معًا عندما تشاركت أمهاتنا نفس غرفة المستشفى. إنها صديقتي المفضلة، وصخرتي، ولأنها وقعت في حب أخي حمزة، فهي

زوجة أخي. والآن، مع كل ما حدث، هي مسؤوليتي،
والوحيدة من عائلتي التي بقيت لي في هذا العالم.
عندما رأت ليلى هذا المنزل للمرة الأولى، فُتنت
فوراً بجماله الخارجي، فقام حمزة بشرائه لها على
الفور. غرفتا نوم كانتا مثاليين للزوجين الجديدين،
ولإضفاء لمسة خاصة على المكان، قامت ليلى
برسم فروع من الكروم الخضراء من أسفل أحد
الجدران وصولاً إلى الأعلى، ونقشت أزهار اللافندر
البنفسجية على جدار آخر، ثم غطت الأرضيات
بسجاد عربي سميك، شاركتها في شرائه من سوق
الحميدية. كما دهنت المطبخ باللون الأبيض لتتباين
مع الرفوف المصنوعة من خشب الجوز، وملأتها
بتشكيلة مختلفة من الأكواب التي صممتها بنفسها.
ويطل المطبخ على غرفة المعيشة، حيث كانت
في يوم من الأيام، أدوات رسمها تملأ كل زاوية من
الزوايا، وكانت الأوراق المملوكة بأصابعها الملونة
متناثرة على الأرض، والدهانات المتسربة من
صندوقها تنقطر من فرش الألوان. كثيراً ما جئت إلى
المنزل فوجدتها ممدة تحت حامل اللوحة، شعرها
الأشقر مبعثر وتحقق إلى السقف، وتغني كلمات
أغنية عربية شعبية قديمة.

كان المنزل تجسيدا لروح ليلى، لكن لم يعد كذلك
بعد الآن. فقد بريقه، وأصبحت الألوان باهتة تمافاً،
تاركة في أعقابها ظلاً رمادياً غائزاً، بمثابة قشرة
للمنزل. أتجه نحو المطبخ لأجد ليلى في طريقي
مستلقية على الأريكة المطبوعة بزهور الأقحوان
في غرفة المعيشة، فأضع كيس الخبز البلدي على
الكاوثر. بمجرد رؤيتي لها، يختفي إرهاق جسدي.
«سأسخن الحساء. هل تريدان بعضاً؟»، تجيب: «لا،
لست جائعة». صوتها على عكس صوتي؛ قوي مع

وعد الحياة. إنها كبطانية دافئة تحيط بي بذكريات حلوة. «كيف سار موضوع القارب؟» هراء. أظهار بالانشغال بصبّ حساء العدس المخفّف بالماء في القدر وإشعال الموقد الغازي المحمول. «هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين بعضًا من الحساء؟». تجلس ليلى مستقيمة، وبطنها المنتفخ بجنين عمره سبعة أشهر ملحوظ أسفل الفستان الأزرق الداكن الذي ترتديه. «أخبريني كيف كانت الأمور يا سلامة».

ألصق عيني بالحساء البني، مستمعة إلى حسيس النار. منذ وقت قريب بعد انتقالي هنا، أصبحت ليلى تزعجني بحثي على التحدث إلى أم في المستشفى. لقد سمعت قصصًا عن السوريين الذين يجدون ملاذًا آمنًا في ألمانيا، كما سمعت أنا. بعض مرضاي تمكنوا من تأمين عبورهم عبر البحر المتوسط بمساعدة من أم. كيف استطاع إيجاد القوارب، ليس لدي أدنى فكرة! لكن مع المال، كل شيء ممكن. «سلامة!».

أتنهد، وأضع إصبعي في الحساء فأجده دافئًا، لكن معدتي الفقيرة تفرقر ولا تهتم بدرجة سخونته، لذلك أزيحه من على الموقد وأجلس بجانبها على الأريكة. ننظر لي ليلى بصبر، حاجباها مرفوعان، وعيناها الزرقاوان الأوسع من المعتاد تتسعان فوق معظم وجهها. دائمًا ما بدت كأنها خريف مجسد، بشعرها الأحمر الذهبي ونمشها المبعثر وبشرتها الشاحبة. حتى الآن، ومع كل هذا الألم، لا تزال تبدو باهرة الجمال. لكنني أرى كيف برز مرفقاها بشكل غريب، وكيف ذبل خذاها اللذان كانا ممتلئين.

«لم أسأله»، أقول أخيرًا، وأتناول ملعقة من الحساء وأعدّ نفسي لتذمّرها... وها قد أتى: «لماذا؟

لدينا بعض المال...». «نعم، مالنا الذي نحتاجه للبقاء عندما نصل هناك. لا نعرف كم سيطلب منا، وعلاوة على ذلك، القصص...». تهرأ رأسها، وشعرها متساقط على خدها. «حسناً، نعم. بعض الناس لا يصلون... إلى اليباسة، لكن هناك المزيد الذين يصلون! سلامة، نحن بحاجة إلى اتخاذ قرار. نحن بحاجة إلى المغادرة! تعلمين هذا، قبل أن أبدأ في الرضاعة». لم تنته بعد من الكلام وأنفاسها وشت بتعبها. «ولا تجربين على اقتراح أن أذهب من دونك! إما أن نركب قارباً مغاً أو لا أحداً لن أكون في أي مكان، الله وحده يعلم أين قد يكون، خائفة من عقلي ووحيدة، لا أعرف ما إن كنت ميتة أم حية. لا يمكن لهذا أن يحدث بأي شكل من الأشكال! ولا يمكننا المشي إلى تركيا... أنت قلت ذلك بنفسك!». تشير إلى بطنها المنتفخ، وتكمل: «ناهيك بحرس الحدود والقناصة المنتشرين في جميع الأنحاء مثل النمل، سيتم إطلاق النار علينا بمجرد خروجنا من منطقة الجيش السوري الحر. لدينا خيار واحد. كم مرة علي تكرار ذلك؟».

أسعل، الحساء سميك في حلقي، وينزل كالحجارة إلى معدتي. إنها على حق. هي في الثلث الثالث من حملها، ولا يمكننا أن نمشي أربعمائة ميل للوصول إلى مكان آمن، ونتجنب الموت على طول الطريق. أضع القدر على طاولة القهوة المصنوعة من خشب الصنوبر أمامنا وأحرق في يدي. الندبات المتشابكة التي تغطيها، هي علامات ما تركه الموت عندما حاولت الانتحار. بعضها خائفة وفضية، في حين أن بعضها أكثر وعورة، والجرح الجديد لا يزال يبدو حديثاً على الرغم من أنه شفي. إنها تذكير بالعمل أسرع، والتغلب على الإرهاق وإنقاذ حياة أخرى. أحاول سحب أكمامي فوقها، لكن يد ليلى تغطي

إحدى يدي بلطف فأنظر إليها. «أعرف لماذا لم تسألني، وليست المشكلة في المال».

ترتعش يدي تحت يدها. ويهمس صوت حمزة في ذهني، مشوبًا بالقلق: «سلامة، عديني. عديني». أهز رأسي، محاولة التخلص من صوته، وأخذ نفسي عميقًا: «ليلي، أنا الصيدلانية الوحيدة التي بقيت في ثلاثة أحياء. إذا غادرت، فمن سيساعدهم؟ الأطفال الباكون. ضحايا القناص. الرجال الجرحى». تمسك فستانها بإحكام: «أعلم. لكنني لن أضحي بك!». أفتح فمي لأقول شيئًا، لكنني أتوقف عندما تجفل وتغمض عينيها بقوة. أسألها: «هل الطفل يركل؟»، وأقترب منها. على الرغم من أنني أحاول ألا أدع القلق يظهر، فإنه يغلبني. مع الحصار، تكاد تكون الفيتامينات السابقة للولادة شحيحة والفحوصات المخبرية محدودة. تعترف ليلي: «نعم، قليلًا». «هل يؤلمك؟». «لا. فقط شعور غير مريح». «هل هناك أي شيء يمكنني فعله؟». تهز رأسها. «أنا بخير». «حسنًا، أستطيع سماعك تكذبين من على بُعد ميل. استديري». أقول، وهي تضحك قبل أن تستدير. أضغط على غددات الإجهاد في كتفيها حتى أشعر بالتوتر يتلاشى منها. ليست لديها الكثير من الدهون تحت جلدها، وكل مرة تلمس أصابعي عظامها في منطقة الكتف والظهر، أرتجف. هذا... هذا خطأ. لا ينبغي أن تكون هنا.

«يمكنك التوقف الآن». تقول ليلي بعد بضع دقائق، وتظهر ابتسامة ممتنة على وجهها. «شكرًا لك». أحاول العودة إلى النقطة التي توقفنا عندها. «إنها الصيدلانية في داخلي، تعرفين. الحاجة إلى العناية بك في عظامي». «أعلم». أنحني وأضع يدي على بطنها، وشعرت بالطفل يضغط قليلًا

بالمقابل. «أحبك، يا طفلي، لكن عليك التوقف عن إيذاء أمك، فهي تحتاج إلى النوم». أتمتم بنعومة. بينما تعفقت ابتسامة ليلى وربتت على خدي. «أنت لطيفة جدًا يا سلامة. يومًا ما سيختطفك شخص ما بعيداً عني». «الزواج؟ في هذه الأوضاع الاقتصادية؟».

أقول وأنفخ، وأفكر في المرة الأخيرة التي أخبرتني بها ماما أننا سنستقبل عمة وابنها لتناول القهوة. من الطريف أنهما لم يصلا أبدًا. حدثت الانتفاضة في نفس اليوم. لكني أتذكر أنني كنت أشعر بالحماس لهذه الزيارة. عند تفكيري في فرص الوقوع في الحب. عندما أنظر الآن إلى الماضي، يبدو لي كأنني أشاهد فتاة مختلفة ترتدي وجهي وتحدث بصوتي. تغضت حواجب ليلى. «قد يحدث، لا تكوني متشائمة هكذا». أضحك على تعبيرها المستاء وأقول: «كما ترين!».

ذلك الجزء من ليلى لم يتغير. في تلك الأيام، عندما اتصلت بها لأخبرها بالزيارة، كانت على باب بيتي في غضون خمس عشرة دقيقة، تحمل حقيبة كبيرة مليئة بالملابس والمكياج، وتصرخ بصوت عالٍ: «سترتدين هذا!»، أعلنت بعدما جذبتني إلى غرفتي، وطرحت قفطانها الأزرق السماوي. كان القماش غنيًا ينساب بسلاسة على ذراعي، وكانت حاشيته مخيطة بالذهب، وكذلك الحزام في الخصر، حيث تدفق القماش من الجوانب مثل الشلال. كان اللون يذكرني بالبحر المصنوع من المطر في فيلم «المخطوفة» (1). سحري، هذا ما يمكن القول عنه. «فلنضع الكحل الأزرق، وسيتوسل إليك لرؤيته مجددًا»، غمزت، وضحكت أنا، «تبدين رائعة للغاية عندما تضعين الكحل الأزرق!». «أعرف

ذلك»، هززت حاجبي، «من مزايا كوني ببشرة بنية»،
«في حين أبدو أنا كأنني جثة مكدومة!». مسحت
دموعي وهمية من عينيها، وخاتم زواجها يتلألأ في
أصبعها. «أوقفي هذه الدراما يا ليلي». ضحك.
تحولت ابتسامتها إلى ابتسامة شيطانية، وتوهجت
عيناها الزرقاوان. «أنت على حق. يحبها حمزة
كثيرًا». بحركة فورية، قمت بتغطية أذني بيدي.
«أوووه، لا! لا أحتاج إلى معرفة أي شيء عن ذلك!».
ضحكت بشدة، وشدت ذراعي، محاولة إثارة
إحراجي أكثر، لكنها لم تستطع تركيب جملة
مفهومة؛ وذلك بسبب تعابير وجهي المفزعة التي
جعلتها تنهار في نوبة من الضحك. صوت تنهيدة
ليلي يعيدني إلى واقعي. تقول: «الحياة أكثر من
مجرد النجاة يا سلامة». أجبت: «أعرف ذلك».
اختفى مزاجنا الهزلي. تلقّيتني بنظرة حادة: «حقًا؟
لأنني أرى كيف تتصرفين. أنت تركّزين فقط على
المستشفى، والعمل، وعلي. لكنك لا تعيشين فعليًا.
لا تفكرين في سبب حدوث هذه الثورة. كأنك
لا تريد التفكير فيها على الإطلاق». (تتوقف،
وهي تحدّق في، ويجف حلقها)، «كأنك لا تهتمين
يا سلامة. لكن أنا أعرف أنك تهتمين. تعلمين أن
هذه الثورة تتعلق بإعادة حياتنا. إنها ليست مجرد
محاولة للبقاء. إنها عن كفاحنا. إذا لم تستطيعي
الكفاح هنا، فلن تستطيعي ذلك في أي مكان آخر.
حتى لو غيرت رايك ووصلنا إلى ألمانيا!». أقف
وأومئ إلى الدهانات الباهتة والمتقشرة على
الجدران. إلى لا شيء.

«كفاح ماذا؟ سنكون محظوظين إذا كان أسوأ
ما يحدث لنا هنا هو الموت، وتعلمين ذلك! إنما أن
يعتقلنا الجيش أو أن تقتلنا قنبلة. ليس هناك شيء

يستحق الكفاح لأننا لا يمكننا المحاربة. لا أحد يساعدنا! أنطوع في المستشفى لأنني لا أتحمل رؤية الناس يموتون. لكن هذا كل شيء». تنظر لي ليلي ولا يوجد في عينيها أي غضب، بل رحمة فقط. «نحن نحارب بينما نحن لا نزال هنا، سلامة، لأن هذه بلادنا. هذه أرض والدك وجذك قبله. تاريخك محفور في هذا التراب. لا يوجد بلد في العالم يحبك كما يفعل بلدك».

تلسع الدموع عيني. تردد صدى كلماتها من كتب التاريخ التي قرأناها في المدرسة. حب بلدنا في نخاع عظامنا. إنه في النشيد الوطني الذي كنا نغنيه كل صباح من أول يوم لنا في المدرسة. الكلمات كانت مجرد كلمات حينها. لكن الآن، بعد كل هذا، أصبحت واقعنا.

نفوس أباة وماضٍ مجيد

وروح الأضاحي رقيب عتيد

أتجنب نظرات ليلي. لا أريد أن أشعر بالذنب. لقد اكتفيت من ذلك بالفعل. «لقد فقدت الكثير في هذه الحرب». أقول بمرارة. صوتها حازم: «ليست حرباً يا سلامة، إنها ثورة!». «أيا كان!»، وبهذا، أعود مرة أخرى إلى غرفتي، وأغلق الباب خلفي لأتمكن من التنفس. كل ما يهمني كل ما لدي من بقايا في هذا العالم- هو ليلي والمستشفى. لست وحشاً، هناك أشخاص يعانون وأستطيع المساعدة. هذا هو السبب الذي دفعني لأصبح صيدلانية. لكنني أرفض التفكير في سبب وصولهم إلى المستشفى، ولماذا يحدث كل هذا. السبب وراء أخذ ماما. أتذكر أصابعها الباردة على أصابعي. أخذوا بابا وحمزة إلى مكان لا يعلمه إلا الله. لا أريد أن أسهب في الحديث عن الماضي. لا أريد البكاء بسبب كيف سأنهي

مراهقتي بلا شيء سوى الأمل المفقود والأحلام
المليئة بالكوابيس. أريد النجاة. أريد عائلتي. أريد
عائلتي فقط. حتى لو كان ما تقوله ليلى حقيقة.

أقوم بتغيير ملابسني إلى البيجاما الوحيدة التي
تبقت لدي، سترة وبنطلون من القطن الأسود،
لأنقة بما يكفي إذا اضطررت للهروب في الليل. في
الحمام، أتجاهل انعكاسي الهزيل وشعري البني
الجاف الذي يتدلى على كتفي، وأفتح صنوبر الماء
كالعادة. لا شيء. لم تصل الماء أو الكهرباء إلى
الحي منذ أسابيع. كانت تأتي على دفعات، لكنها
توقفت تمامًا بسبب الحصار. لحسن الحظ، تساقطت
الأمطار الأسبوع الماضي، لذا وضعنا بعض الدلاء
لجمع الماء. استخدمت قبضة يدي الصغيرة للوضوء
والصلاة.

انطفأت أشعة الشمس الضعيفة من ألواح الأرضية
المخدوشة في غرفتي، وسيطرت عباءة الليل
القائمة على حمص. اصطكت أسناني لبعض الوقت
مع الترقب قبل أن أغلق شفتي بإحكام وأبتلع ربيقي
بصعوبة. أي سيطرة أمارسها خلال النهار تتداعى
عندما تغرب الشمس.

أجلس على سريرتي، أغلق عيني وأتنفس بعمق.
أحتاج إلى تصفية ذهني. أحتاج إلى التركيز على
شيء آخر غير الخوف والألم اللذين تجذرا في
روحي. «أليس (2) الحلوة. حلوة كاسمها»، همهمت،
وأدعو ألا تخذلني أعصابي. «بتلات بيضاء. تُستخدم
لتخفيف الآلام. كما تُستخدم للأنفلونزا والتشنجات
البطنية والسعال. حلوة. حلوة».

طريقة فحالة. تبدأ رئتاي في توزيع الأكسجين
بالتساوي في دمي، وأفتح عيني وأراقب كتلة من
الغيوم الرمادية خارج نافذتي. الزجاج منشقق على

الجوانب منذ أن تعرض منزل ليلى للقصف القريب، والإطار ممزق. أتذكر أنني عندما انتقلت إلى هنا، كان علي تنظيف الدم من فوق لوح الزجاج. على الرغم من أن النافذة مغلقة بإحكام، إلا أن البرد يخترق الغرفة وأرتجف، أعلم ما سيحدث. الرعب الذي أراه ليس مقتصرًا على المستشفى، فإن رعيي قد سكن في عقلي، مكتسبًا حياة وصوتًا، ولا يتردد في الظهور كل ليلة.

«كم من الوقت ستجلسين هنا دون التحدث إلي؟» يأتي الصوت العميق من جانب حافة النافذة؛ مما يجعل جلد رقبتني يقشعر بالكامل. صوته يذكرني بالماء البارد الذي أُرشه على جسدي عندما أعود غارقة بدماء الشهداء. إنه أحجار تثقل على صدري، وتفرقني في الأرض أسفلنا. ثقل كيوم رطب، وصاخب كالقنابل التي تلقيها علينا القوات النظامية. إنه ما بُني عليه مستشفانا، والأصوات الصامتة التي نصدرها. أستدير نحوه ببطء. «ماذا تريد الآن؟»

ينظر خوف إلي، بدت بدلته نظيفة ومنتعشة. يزعجني بالرغم من تلك البقع الحمراء على كتفيه. كانت هناك منذ لقائنا الأول، ولا زلت لم أعتد عليهم. كما لا أحب أن أنظر إلى عينيه أيضًا، فهي زرقاء كالجليد. بشعره الأسود اللامع، لا يبدو بشريًا، وأعتقد أن هذا هو الهدف. إنه يبدو كأنه أقرب ما يمكن إلى الإنسان.

«أنت تعرفين ما أريد»، تماوج صوته، وارتجفت أنا.

2

لقد فقدت كل شيء في يوليو الماضي ، كل ذلك في غضون أسبوع واحد.

في ذلك الوقت، كنت مستلقية على سرير المستشفى، والدموع الصامتة تلسع الجروح على وجهي، وفخذي اليسرى تؤلمني من السقوط، وضلوعي المصابة بالكدمات تحتجّ بألم في كل محاولة للتنفس. كانت يدي ملفوفة في شاش ثقيل، منتفخة كأنها قفازات. أحدثت الشظايا ثقوبًا في يدي، وتفجّر الدم كالينبوع. لكن كل ذلك كان يمكن التحكم فيه.

كانت الإصابة الخطيرة الوحيدة في مؤخرة رأسي، حيث دفعتني قوة الانفجار إلى الخلف، وارتطمت قاعدة جمجمتي بالخرسانة؛ مما أدى إلى ترك ندبة مدى الحياة. قام حينها الدكتور زياد بتخييطي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي به فيها. قال لي إنني محظوظة لأنني نجوت بندبة فقط. أعتقد أنه كان يحاول تشتيت ذهني عن حقيقة أن ماما لم تكن بنفس حظي، أن القنبلة انتزعتها بعيدًا عني ولن أتمكن أبدًا من احتضانها مرة أخرى.

فيما بعد في ذلك اليوم، عندما ظهر خوف وأخبرني باسمه، استغرق الأمر بعض الوقت حتى أدركت أنني الوحيدة التي تراه. في البداية، اعتقدت أن الأدوية جعلتني أرى رؤى، وأنه سيختفي عندما ينتهي تأثير المورفين. لكنه بقي بجانبني، يهمس بأشياء مرعبة بينما أبكي على ماما. حتى عندما هدا الألم، وشفيت الأضلاع، وتحولت الجروح في يدي إلى ندوب، لم يغادر. وبمجرد أن استقرت هذه القناعة، جاء الذعر بعد فترة وجيزة.

لقد كان هלוوسة، ظهرت لتبقى في صورة شخص يأتي كل ليلة على مدار الأشهر السبعة الماضية، وينثر مخاوفه بقسوة، وينفخ الحياة فيها. ليس لدي تفسير آخر. وضعه أمام التفسيرات العلمية هو الطريقة الوحيدة التي أستطيع من خلالها مواجهته. «ما يجعلك مرتاحة أكثر». يتسم في شر.

أفرك ندبة رأسي الخلفية، وأتحسس الحواف الخشنة بأصابعي. «الأقحوان»، أهمس. «أقحوان، أقحوان».

خوف يبعد شعره عن عينيه، ويأخذ علبة سجائر من جيبه الأمامي. العلبة حمراء، دائماً نفس البقع على كتفيه. يختار سيجاراً طويلاً ويضغطه بين شفتيه قبل إشعاله. يتأجج الطرف، وتتأكل الحواف، ويأخذ نفساً طويلاً. ويقول: «أريد أن أعرف لماذا لم تتحدثي إلى أم. ألم تعديني بالأمس بأنك ستفعلين ذلك؟».

صوته خافت، لكن لا شك في أن التهديد يسقم كل كلمة. هكذا بدأ الأمر معه: ملاحظة دنيئة هنا وهناك تحفز أفكاره على مغادرة سوريا، حتى قزر يوماً ما أن علي طلب مكان على قارب من أم. ولم يتوقف من حينها عن المطالبة بذلك. أحياناً أتساءل كيف يمكن لعقلي أن يخلق شخصاً مثله.

تساقط قطرة من العرق البارد على رقبتني. وأجيب بصعوبة: «نعم...».

ينقر السيجارة فيتساقط الرماد على الأرض، ثم يختفي كما لو أن عليه الاصطدام بالأرض. «ماذا حدث؟» توفيت فتاة في الخامسة من عمرها، كان لها شعر بني مجعد، بسبب رصاص قناص أصابها في قلبها بينما أنقذت أخاها الأكبر من التسمم الدموي. أنهم في حاجة إلي. «أنا... لم أستطع».

عيناه تضيقان. «لم تستطيعي!»، يكرّر بجفاء. «لذلك أفترض أنك تريددين السقوط سحقاً تحت هذا البيت. حية ومكسورة وتنزفين. لا يأتي أحد لإنقاذك لأنه كيف سيتمكنون من ذلك؟ فالعضلات التي تعاني من سوء التغذية مثل عضلاتك يمكنها بالكاد حمل الأجساد، فضلاً عن الخرسانة. أو ربما تريددين الاعتقال. يأخذونك إلى حيثما يوجد بابا وحمزة. أو الاغتصاب والتعذيب للحصول على إجابات ليست لديك. يضع الجيش الموت كمكافأة وليس كعقاب. هل هذا ما تريدينه يا سلامة؟».

ترتجف عظامي. «لا!».

ينفخ الدخان مرة أخرى قبل أن يهرس السيجارة تحت كعب حذائه ماركة أكسفورد. تم يجتاز العتبة ويقف أمامي. أرفع رأسي للنظر إليه. عيناه باردة مثل نهر العاصي في ديسمبر.

«لا يمكنك مخالفة وعدك»، يقول، «لقد وعدت أنك ستطلبين من أم مركبنا اليوم. ومز بجوارك ثلاث مرات ولم تفعلي ذلك». شد عضلات شفتيه مكوناً خطاً رقيقاً. «أم تريددين مني أن أراجع عن صفقتي؟».

«لا!» صرخت. «لا!».

طرقة واحدة من أصابعه ويمكنه أن يغير واقعي تماماً، ويطلق العنان للهلوسة التي تُدخلني في حالة هذيان، ويظهر للجميع أن القناع الذي أضعه ليس أكثر من أغصان هشة ضد الرياح القوية. ولن يسمح لي الدكتور زياد بالعمل في المستشفى بعد الآن. ليس عندما قد أشكل خطراً على المرضى. فأنا بحاجة إلى المستشفى، أحججه لأنسى المي، لإبقاء يدي مشغولة حتى لا يصرخ عقلي بنفسه بصوت أجش. أنا في حاجة إلى إنقاذ الأرواح.

الأسوأ من ذلك، أنني سأزيد من هموم وقلق ليلى؛
مما يؤثر على صحتها وصحة الطفل. لا، سأتحمل
كل هذا من أجلها. سأغرق في دموعي وأقدم روحي
له إذا كان بإمكانني الحفاظ على ليلى آمنة بالتظاهر
أنني على ما يرام. وهكذا، فقد وعد خوف بالآ يظهر
أثناء النهار وحصر الرعب الذي يظهره لي في الليل
فقط، بعيداً عن أعين أي شخص آخر.

ابتسامة غير لطيفة ترفع شفثيه إلى أعلى. «هذه
فرصتك الأخيرة يا سلامة، وأقسم لك، إذا لم تسأله
غداً، فسأمزق عالمك».

يتصاعد الغضب من بين دقات قلب الخوف. قد
يجعلني العقل الباطن تحت ضرسه، لكنه في النهاية
عقلي الباطن.

«ليس الأمر بهذه السهولة، يا خوف»، أهمس إليه،
وأنا أبعد عن ذهني نظرة كانت على وجه الصبي
عندما كان يحمل أخته الصغيرة بين ذراعيه،
وجسدها النحيل. صغيرة جداً. «قد لا يكون لدى أم
قارب. وحتى لو لديه واحد، فسيكون الثمن باهظاً
لدرجة أننا لن نتمكن من دفعه، لذا فإن المخرج
الوحيد هو السير إلى تركيا؛ ممّا يجعلنا هدفًا مثاليًا
للجيش. هذا إن نجت ليلى من المشي».

يراوغ بحاجبيه لاهياً. «لماذا تختارين تجاهل
الوعد الذي قطعته لحمزة بخصوص إخراج ليلى من
هنا؟ مشاعرك المتضاربة حول المستشفى تُسبب
فوضى في قلبك. الفكرة المهمة هي أنك قدّمت
وعوداً والآن تتراجعين. كل هذه الثروة ليست أكثر
من مجرد أعذار لإبعاد شعورك بالذنب. ما الثمن الذي
لن تدفعيه مقابل سلامة ليلى؟».

نظرت بعيداً وخبثاً يدي في جيبي، وغرقت
داخل المرتبة.

«هذه الذكرى...» -يستقيم ويبتسم- «يجب أن تعزّز قرارك». وقبل أن أصل بقدرتي على الصراخ، يقرع بأصابعه.

رائحة النعناع الغنية والقرفة المطهية في مرق اللبن، واللحوم، تغزو أنفي بينما أنا غارقة في النوستالجيا. أتردد لثانية قبل فتح عيني. عندما أفعل ذلك، أجد نفسي لم أجد في غرفتي المتعفنة بل عدت إلى البيت، بيتي.

كان المطبخ بالضبط كما أتذكره. الحوائط الرخامية بين البيج والبني، حيث تظهر اللوحات المعلقة بالخط العربي والليمون الذهبي المرسوم. مساحة التخزين أسفل الكاونتر تحمل القدور والأواني المكدسة بعناية. مفرش أبيض من الساتان المطرز بالزنابق فوق طاولة المطبخ. حول الطاولة تتراص أربعة كراسي خشبية، وفوقها تتدلى زهور الأوركيد من فارة كريستال. زهور أوركيد كنت قد اشتريتها من أجل زيارة كان من المفترض أن تتم في وقت لاحق من ذلك النهار- اليوم. لقد اشتريت دالفا الأوركيد الأزرق حين كان لدينا مناسبة اجتماعية.

استدريت أخيرًا إلى يساري، حيث تقف ماما بجانبني، وعيناها على شُشبرك(3)، تقلّب القدر بملقعة خشبية. بين حين وآخر شفتها تتحركان بالدعاء.

تهمس: «احفظهم يا الله. احفظ زوجي وأولادي بأمان. أعدهم إلي أحياء وبصحة جيدة. أحهمهم من أولئك الذين يتمنون لهم الأذى».

أنا متجذرة في مكاني، وقلبي ينقسم نصفين. إنها بجانبني. بضع دموع صامتة تتساقط على خدي، والحاجة إلى إلقاء نفسي بين ذراعيها تغمرني. أريد

ماما. أريدها أن تهدئ حزني وتقبلني بينما تناديني
«يا عمري» و«تؤبريني». حياتي ومماتي.

بدلاً من ذلك، أنغز ذراعها برفق. كانت تنظر بعينين
محتقتين بالدم، مشتتتين، قبل أن تظهر ابتسامة
متعبة على شفثيها، ويمكنني أن أرى كيف غيرتها
هذه الحرب بشكل جذري. وجهها، الذي لم يبذ أن
عمره يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، فرهق
من التوتر، وجذور شعرها البني الأشقر رمادية. لم
تدع جذورها تصبح رمادية أبداً، دائماً ما تكون في
صورة أنيقة ولائقة. وقد ظهرت عظامها بشكل حاد
وظلال داكنة تحت عينيها لم تكن موجودة من قبل.
«تؤبريني، سنكون بخير. إن شاء الله»، همست
وهي تلف إحدى ذراعيها حول كتفي وتضمني إليها.
ادفيني قبل أن أدفئك.
وفعلت.

«حسناً يا ماما»، تمكّنت من الالتصاق بها، والذوبان
في لمستها.

ينادي حمزة وهو يدخل مع بابا من غرفة المعيشة:
«أه، سلومة»، وكدت أبكي. إنهما هنا. عيون حمزة
العسلية مليئة بالحياة، انعكاس لبابا. كلاهما يرتديان
معاطف مع علم الثورة السورية يتدلى على كتف
واحدة. التفت وأخذ وتحول إلى ما يشبه الأنشودة.
«هل ستبكين فعلاً؟».

لا أسأل حمزة عن مكان ليلي لأنني أعرف أنها
عادت إلى منزلهما، في انتظاره. لكنه لن يعود إليها
اليوم.

«حمزة، لا تضايق اختك»، قال بابا، وهو يمشي
تجاه ماما. قامت على الفور بابتلاعه في حضنها،
ولفت ذراعيه حولها، فهمهم بشيء في أذنها.

لا أستطيع تحفل رؤية هذا، لذا ابتعدت. أسأل حمزة وصوتي يتكسر، ولا بد لي من إمالة ذقني لأعلى للنظر إليه: «أنت ذاهب الآن؟». لم أفعل ذلك منذ سبعة أشهر. يبتسم بهدوء. «التظاهر يحدث بعد الصلاة، لذلك يجب أن نصل مبكرًا».

أمنع نفسي من النحيب. كان قد بلغ للشئ الثانية والعشرين من عمره، وتخرج حديثًا في كلية الطب، وتقدم بطلب للحصول على عمل في مستشفى الزيتونة. لم يكن يعلم أنه سيكون أبًا. هل كان ذلك سيمنعه من الانضمام إلى المظاهرات؟

«لا ت... تذهب»، أتأتى. ربما قد تنتهي هذه الهلوسة بشكل جيد. ربما يمكنني تغيير الأحداث. «أرجوك أنت وبابا. لا تذهبا اليوم!». يتجهّم ويقول: «أنت تقولين ذلك في كل مرة!».

أمسكت بذراعه بإحكام، وعيناي تتذكران مؤخرة عنقه المنخفضة، والغمازة في خذه الذي تظهر عندما يبتسم. هذه آخر ذكرى لدي من أخي. مع مرور الوقت، تتشوّه الذكريات، وأنا أعلم أنني سأنسى ملامحه الدقيقة. سوف أنسى شعر بابا البني، المخطط بالشيب، والتلألؤ اللطيف في عينيه. سوف أنسى كيف أن حمزة على الأقل أطول بشبرين وأنا نتشارك نفس ظلال الشعر البني. سوف أنسى الغمازات في خدي ماما وابتسامتها التي تضيء العالم. صور عائلتنا مدفونة تحت أنقاض هذا المبنى، ولن أستعيدها أبداً.

«يا الله! سلامة، لماذا أنت قلقة هكذا؟»، يقول، ثم يهز رأسه عندما يرى الدموع في عيني، ويضيف بلطف: «اعدك بأننا سنعود». تنقبض رنتي. أنا أعرف ما سيقوله بعد ذلك. لقد أعدت هذه المحادثة في ذهني بشكل متكرر حتى تتدافع الكلمات مغا. «لكن

إذا لم أفعل...»، يأخذ نفساً عميقاً، ويتحول إلى كلام جاد. «سلامة، إذا لم أفعل... إذن ستعطني بليلي. تأكدي من أنها وماما بخير. عليك التأكد من بقائكم أنتم الثلاثة على قيد الحياة، وبأمان». أبتلع ريشي بصعوبة. «لقد وعدتك بذلك بالفعل».

عندما غمر الناس الشوارع خلال المظاهرة الأولى، أخذني حمزة على الفور جانباً وجعلني أقسم على ذلك بالضبط. كان دائماً حدسه عالياً. ذكي، متجاوز عدد سنوات عمره. كان يشعر بي دائماً عندما أكون محبطة، حتى لو لم أقل شيئاً. وصل قلبه، الناعم كالغيمة، إلى كل من حوله. كان يعلم أن ماما، على الرغم من رعبها، ستحتاج إلى سحبها من سوريا وهي ترفس وتصرخ، وأن ليلي ستتهكم إذا طلب منها الهرب وتركه وراءها. لكنني سأحرص على أن كليهما ستبقيان على قيد الحياة. أود أن أضع سلامة عائلتي فوق كل شيء، أو من بقي منها.

«عديني مرة أخرى»، قال بعنف. «لا يمكنني الخروج إلى هناك بضمير مرتاح دون أن أعلم على وجه اليقين. أحتاج إلى سماع هذه الكلمات». العسل في عينيه يحترق كالنار.

«أعدك»، تمكنت من الهمس. كلمة ثقيلة إلى حدٍ لم أشهده من قبل. الآن من المفترض أن ينكش شعري قبل أن يخرج مع بابا... دون عودة. لكنه لم يفعل، بل تتخذ يداه موضفاً على كتفي، وسأل: «هل فعلت ذلك؟»، أتلعثم وأجيبه: «ماذا؟».

النيران تشتعل في عينيه: «بعدما اختطفتني قوات النظام وبابا، هل قمت بإخراج ماما؟ هل أنقذت ليلي؟ أم أهدرت حياتيهما؟»، ترتجف عظامي. «سلامة، هل كذبت علي؟»، يتساقط الألم من تعابير وجهه. أعود إلى الورا، وأضع يدي على

صدري. «هل تركت ماما تموت؟»، يسأل، صوته أعلى الآن. يقف ماما وبابا بجانبه، والدم يتساقط من الجانب الأيمن لوجه ماما. يسقط على السيراميك التي كانت تُلْقعه كل يوم. أشعر بكل قطرة كأنها سكين تخترق القلب. «أسفة»، أتوسل. «رجاء. اغفر لي!».

«أسفة؟»، يقول بابا، حاجباه متجهَّمان. «تركت أمك تموت، وتركت ليلي تموت. لماذا؟»، يقول حمزة: «ربما تسامحك ماما، لكني لن أفعل. إذا تعزّضت ليلي للمعاناة بسبب اختياراتك يا سلامة، لن أسامحك أبداً!».

أنهار بكاءً على الأرض. «أسفة... أسفة...»، «لا يكفي»، يقولون جميعاً بصوت واحد. تهتز الأرض تحتي، وتلتف الكثير من الأغصان حول كاحلي لتسحبني تحت البلاط. ينهار مطبخي ومنزلي، وأسقط في الهاوية السوداء، صراخاً. يصطدم ظهري بحجر، وأتكدّد صعوبة في استنشاق الهواء. عندما أفتح عيني، أجد دخاناً صاعداً من مبنى مشتعل يغطي السماء الزرقاء الفاتحة أعلى رأسي.

يصبح الأكسجين قليلاً في رثتي، وأسعل، وترتجف قدمي. أمامي يقف المبنى المكوّن من سبعة طوابق الذي كنت أسميه بيتي. منشور بالشرفة في الطابق السادس ملابس في انتظار أن تجف، وتحتها يتدلى علم الثورة السورية بفخر من الدرايزين، يتلوى مع الرياح، يبدو كما لو أنه سيطير. لكن حمزة ربطه بإحكام من كل جانب للتأكد من ثباته. لم تتحمل ماما فكرة إزالته، بعد اعتقاله ومعه بابا.

الهواء من حولي هادئ جداً. أعرف أين أنا دون الحاجة إلى السؤال. سحبني خوف إلى أسبوع في المستقبل، إلى واحد من أسوأ أيام حياتي.

ماما.

أناؤه. «لا... لا».

«لا يمكنك إنقاذها». يقف خوف على بُعد عدة أمتار مني. «لقد ماتت بالفعل». مبنائي على بُعد خمس عشرة خطوة. يمكنني إنقاذها. يمكنني إنقاذها. أصرخ: «ماما!»، راکضة باتجاهها. «أخرجني! أخرجني! الطائرات قادمة!».

لكنني متأخرة جدًا، فالطائرات أسرع من صوتي، والقنابل لا تهتم بوجود الأشخاص الخطأ بالداخل. يدوي الصوت العالي في أذني حينما يضربون المبنى ليتحول إلى حطام ملطخ بالدماء، لكن الرجفة لا تساعدني على الابتعاد. يسودون المبنى حتى يصبح ركامًا، وأنا واقفة فوق جثة أمي المشوهة. لم تكن ترتدي الحجاب، شعرها البني أصبح رماديًا بفعل الأتربة، وكان رأسها ملتويًا في زاوية خاطئة. والدم، هناك الكثير من الدم الذي يلطخ قدمي العاريتين، وأحس بالغثيان من الرائحة المعدنية الحادة.

أبكي، وأسقط على ركبتي، وأحتضن جسدها، محاولة سحبها بعيدًا عن الموت. ترتعش يدي بشكل لا يمكن السيطرة عليه حيث أحاول تمشييط الشعر الملتصق بخذيها، لكنني ألطخها بدمها فحسب. تنطابير قطرات من دمها في فمي. «يا ماما! يا الله، ليس مرة أخرى! ليس مرة أخرى!»، تلمع عيناها، تحذق بي مباشرة. «لماذا لم تنقذيني؟»، تهمس ماما، عيناها فارغتان. «لماذا؟».

«أنا أسفة»، أتلُفُظ بهذا الكلام بين الشهقات. «من فضلك، أرجوك، تسامحيني!»، تنزل دموعي على وجهها الساكن، شفتي تتوشل إليها أن تعود، وأحتضنها. حتى مع كل الدم الذي يفمرنا، لا تزال

رائحتها هي نفسها. «انتهى الأمر يا سلامة»، يقول خوف من خلفي. «انظري، أنت هناك».

ألقي نظرة على المكان الذي يشير إليه. بين انقاض القنبلة ودخانها المتلاطم، هناك كانت نفسي السابقة. خذاها لا يزالان ممثلين، وعيناها تبدآن في التأقلم مع الألم الذي سيصبح رفيقها الدائم. إنها فقط في السابعة عشرة من عمرها، وبالكاد تلمح لديها الرعب الحقيقي. تسعل، ملابسها وحجابها ممزقان، إنها تسعى للزحف نحو جثة ماما قبل أن تفقد قوة عضلاتها ثم تسقط أرضاً فاقدة الوعي.

الغضب والحزن يتداخلان في قلبي، مشتملين على عظامي المتدهورة. «هذا يكفي»، أتنفس بصعوبة، وأضغط على جسد ماما بشدة. «أعذني إلى الحاضر».

يجلس خوف بجانبني، يمسح نقطة دم من خدي ويبتسم. لا يصل الحطام إليه، ملابسه لم تتأثر. ومع ذلك، يبدو أن البقع الحمراء على كتفيه تزداد، ولا أعرف ما إذا كنت أرى الأمور بشكل صحيح، ولكن يبدو أنها تتسرب على طية صدرته.

يطرقع بأصابعه وأنا أعود إلى سريري، حيث يختفي كل آثار الحطام والدم. أرمش بعيني، أنظر إلى يديّ الجافتين المجففتين، وأشعر بالاضطراب بسبب اختفاء ماما فجأة من حضني. الدموع على وجهي، لا تزال رطبة، هي الدليل الوحيد على ما تحفلته. يأخذ خوف نفساً عميقاً، والرضا ينحت كل خطوط وجهه الشاحب، وينحني على النافذة.

«إذا استمررت في العناد، سيحدث هذا مع ليلى». يستل سيجارة جديدة. «لقد كسرت نصف وعدك بالفعل، هل تريد أن تكون نتيجة نقاعسك هي وفاتها؟»، يخونني جسدي، يرتجف في كل مكان،

وأنا أمسك ببطانيتي الرثة لأخفي ذلك.

يطلق سحابة دخان رمادي داكن تسقط على الأرض المتهالكة في خيوط قبل أن تختفي. «يموت مرضاك يوماً بعد الآخر. كل واحد منهم يشكّل ندماً آخر في قلبك. البقاء هنا سيدمرك حتى لو بقيت ليلى على قيد الحياة». أنذمر: «ارحل». أكره عقلي لجعله يفعل هذا بي. «لا أحب أن أتعامل كأحمق يا سلامة»، يهمس. «أعطيني ما أريد وقد أدعك وشأنك».

لساني جاف والندوب على راحتي تبدأ في التآلم بسبب أظافري التي تنشب بها. بدلاً من الإجابة عليه، ألتفت بعيداً، وعقلي يصطدم بجمجمتي. تتساقط عيناى على الأدراج المغلقة للطاولة الجانبية بجوار السرير، حيث أحتفظ بمخزني المخفي من حبوب بانادول. لقد كنت أجمعها منذ يوليو تحضيراً لدخول ليلى في مرحلة المخاض، ومن أجل اللحظة التي سأفكر في تناول حبة واحدة، ثم قرّرت ألا أفعل. أنا لا أعرف إذا كنا سنتمكن من الوصول إلى أي دواء آخر في أي مكان سنكون فيه.

«ياسمين. ياسمين. ياسمين...»، أردّد مراراً حتى أشعر وكأنني أستطيع شم رائحته مثلما كنت أشعر بها عندما كانت ماما تحتضنني.

في الصباح التالي، أقبل ليلى على خدّها وأتوجّه إلى العمل، لا نعرف أبداً إن كنا سنرى بعضنا ثانية، فكل لحظة هي وداع. قالت: «تحدثي مع أم»، ابتسامتها دافئة تذكّرني بحمزة. أوماث، غير قادرة على قول أي شيء، وانسلت من الباب، وأغلقتة وراني.

تقع المستشفى على مسافة خمس عشرة دقيقة سيرا على الأقدام من بيت ليلى. وكانت هذه ميزة يتطلّع حمزة إليها؛ إذ لن يحتاج للقيادة كطبيب شاب يتدرب في مستشفى حيّه. منذ أن استطاع القراءة، في الثالثة من عمره، أدرك ماما وبابا أن ابنهما عبقرى. التحق بالمدرسة في سن مبكرة، وأنجز بسهولة المراحل المتوسطة والثانوية، واختار من بين الجامعات التي قبلته، جامعة في حمص لكي يكون بالقرب من عائلتنا، لكنني عرفت أن الأمر يتعلق بقربه من ليلى وبدء حياته معها.

الآن، لقد أخذت الوظيفة التي كان من المفترض أن تكون له، وظيفة بعيدة تماماً عن مجالي. فالصيادلة يصفون الأدوية لكن لا يجرون عمليات جراحية. كان من المفترض أن أتخرج وأصبح هذا النوع من الصيادلة، أو حتى باحثة. لست جزاخا، لم أخلق لأقوم بقطع الأجساد وخياطة الجروح وبتر الأطراف، ولكنني تركت نفسي لأصبح هذا الشخص.

عندما أخرج، يبدو المنظر في حمص لي كما لو كان مستوحى من كتب التاريخ. الدمار الذي أمامي، كنت قد رأيته في العديد من المدن عبر السنين. نفس القصة ولكن في مكان مختلف. أكاد أجزم أن أشباح الشهداء تتجول في المنازل والشوارع المهجورة، أصابعهم ترفرف على أعلام الثورة التي

تم رسمها على الجدران. أما الناجون، فجالسون خارجاً على كراسي بلاستيكية، ملفوفين بالمعاطف والأوشحة. اليوم، يلعب الأطفال بما استطاعوا سحبه من تحت الأنقاض. تصرخ امرأة مسنة عليهم ليحذروا شظايا الزجاج المفروشة كسجاد على الأرض، وحين ترى معطفي الطبي، تبتسم، فأرى بضع أسنان مفقودة. تقول: «الله معك!»، ابتسم بحرج وأطرق برأسي.

المستشفى ليس بمأمن من الديكتاتورية، وتوضح الجدران الخارجية الملوثة بالأصفر والأحمر المتلاشي ذلك. وهذه التربة التي أضغط فوقها بحذائي القديم ملطخة بدم الجرحى الذين ينقلونهم يوماً بعد يوم، والأبواب دائماً مفتوحة، واليوم لا يختلف عن سابقه، إنه مزدحم كالمعتاد، ويتردد أنين وصراخ الجرحى بين جدرانه.

نعاني من نقص حاد في أدوات الجراحة والأدوية، وأستطيع رؤية آثار ذلك على الوجوه المنهكة المستلقية فوق الأسرّة من حولي. في الآونة الأخيرة، بدأت استخدام محلول ملحي وإخبار المرضى أنه مخدر، على أمل أن يؤمنوا به بما يكفي حتى يعمل كدواء وهمي. أذكر المقالات التي قرأتها حول الأدوية الوهمية في السنة الأولى من دراستي في الجامعة والتي أثبتت نجاحها. في ذلك الوقت كنت أجلس في زاوية السلم خارج قاعة المحاضرات، مع الترمس الخاص بي ممثلاً بالشاي الأخضر، وكنت أتدرب على الملاحظات التي كتبتها في الصف. أضيّع بضع ساعات من الدراسة المكثفة حتى تأتي ليلى عند غروب الشمس وتلمس أنفي لجذب انتباهي.

على الرغم من ذلك النقص في الموارد الذي نعاني

منه، يتمتع مستشفانا بحالة أفضل بكثير تحت إدارة الجيش السوري الحر مقارنةً بالمناطق التي تخضع لسيطرة جيش النظام. لقد سمعنا قصصاً عن الأشخاص الذين قبض عليهم الجيش النظامي، حيث يموت المرضى في المستشفيات ليس بسبب الجروح التي أصيبوا بها خلال الاحتجاجات، لكن بسبب ما يتعرضون له داخل المستشفى. بينما نحن نعاني هنا من الحصار فحسب، يتم ربط مصابي الاحتجاجات هناك بالأغلال ويتعرضون للتعذيب، وينضم بعض الأطباء والممرضين في بعض الأحيان إلى هذه الأعمال.

هنا في مستشفانا، الأبرزة مكثسة جنباً إلى جنب، محاطة بالعائلات؛ لذا يتعين علي أن أتقدم بينهم لأسأل المريض عن حالته. يتجه الدكتور زياد مهرولاً نحوي، وهو يخطو بحرص بين أجساد المرضى الملقاة على الأرض، الوحيدون في هذا العالم دون عائلة، ولا حتى سرير. شعر دكتور زياد المختلط أسوده بالبياض المبعثر، وتبرز التجاعيد حول عينيه البنيتين. أخذ الوظيفة كرئيس جراحة بعد وفاة طبيب آخر في هجوم سابق. كان يعمل في البداية كطبيب للغدد الصماء بعدد ساعات يحددها بنفسه، ويرسم خطة تقاعده ببطء. عندما بدأت الاضطرابات، أرسل عائلته إلى لبنان وأصبح المستشفى موطنه. تمامًا كما تم إجباري على أن أصبح جراحاً، فقد أجبر على ذلك العمل أيضاً.

«هناك إصابات، تقارير تفيد بقصف الغوطة. عشرون ضحية. السبعة عشر المصابون يجري نقلهم إلى هنا»، يقول الدكتور زياد. كرئيس جراحة، فهو على اتصال بالجيش السوري الحر، الذي يزوده بأي معلومات يحصلون عليها والتي يمكنها مساعدتنا

على إنقاذ المزيد من الأرواح. يتسع قلبي لثانية واحدة مع الشعور الارتياح. وقع الحادث هذا على الجانب الآخر من حثي، على بُعد نصف ساعة بالسيارة. ليلى بأمان إذن. ثم تنقلص أمعائي، القنابل تعني أن أي شيء قد يأتي من خلال هذه الأبواب، أحشاء خارجة وملتوية داخل الجسم، حروق، أطراف مفصولة.

انتظر بجوار المدخل مع الدكتور زياد الذي يهمس بآيات من القرآن تتحدث عن السكينة ورحمة الله. يهدأ العرق البارد الذي يتدفق على رقبتني. في أي لحظة الآن، ستفتح الأبواب بقوة. في أي لحظة.

يظهر خوف بجوار النوافذ أمامي، وبدلته تلمع رغم انعدام الإضاءة في المستشفى، وشعره مصفّف إلى الخلف دون ترك شعرة واحدة خارج مكانها، ويبتسم لي. يحب خوف المستشفى، ويعرف أن خوفاً من كون ليلى قد تصبح الجسد التالي الذي سادفنه، سوف يفني عزيمة بقائي على قيد الحياة. وفي النهاية سأرغب في مغادرة سوريا.

نسمع صراخاً قبل فتح الأبواب؛ ممّا يعطينا لحظة ثانية للتحضير. لكن لا يمكن لأي عدد من التحذيرات أن يعدّني لمنظر إنسان يكافح من أجل التنفس. هذا ليس طبيعياً، ولن يكون أبداً.

«سلامة، توجهي للأطفال أولاً»، يقول الدكتور زياد بحزم، بينما يركض بالفعل نحو المرضى. «نور، تأكّدي من عدم نزيف أحدهم. محمود، لا تدعهم يفرغون الضمادات. استخدم الشراشف إذا لزم الأمر. اذهب!».

خمسة ضحايا محمولون على النقلات بينما يحمل متطوعون الباقين من موقع الحادث. يوجد حشد

كبير يتجمع حولهم، جميعهم يصرخون ويتلأؤون. يواصل الدكتور زياد صياح الأوامر إلى بقية الطاقم، ومرة أخرى أشعر بالامتنان لهدوئه في مواجهة هذه الفضائع. إنه الشخص الذي يمنحنا الثبات. هو السبب في قدرتنا على إنقاذ هذه الأرواح.

يقف خوف بشموخ، يشاهد الفوضى تنتشر بابتسامة راضية، ويبدأ في دندنة لحن، ثم يردد بصوت عالٍ: «كم هي حلوة الحرية»، النشيد الذي كان يردده المتظاهرون، لكن ليس لدي وقت لأعلق بأي شيء، فالموت لا ينتظر أي شخص.

بالنسبة لي، العمل على تضميد الجروح ومحاولة شفاء المرضى، يأتي مع تحديات أكثر من مجرد الحفاظ على حياتهم. في بعض الأحيان يراني بعض المرضى، وبطالبون بطبيب أكثر خبرة وكبير في السن. في البداية كنت أجفل، أحاول التوقف عن الرعشة، وأتلعثم في شرح كيف أن جميع الأطباء مشغولون، وأنتي بنفس قدرتهم. لكن الآن، إذا حاول أي شخص إضاعة ثوابي قيمة، أخبرهم «أنا أو الموت!»، هذا يساعدهم على اتخاذ قرارهم بسرعة. العمل هنا جعل قلبي يتحول إلى الصلابة والرقّة بطرق لم أتخيلها أبدًا.

بينما كنت أقوم بتضميد مريض الخامس، لاحظت شخصًا يبدو مضطربًا، يحمل فتاة صغيرة على ذراعيه. لا يبدو أكبر سنًا مني، بل في أواخر المراهقة. كان رأس الفتاة مائلًا إلى الجانب، والدم يقطر من قميصها على الأرض. تتبع عيني الشاب، والضوء الخافت في المستشفى ينعكس فوق شعره الكثيف والمجعد. يبدو مألوفًا، لكن قبل أن أحاول تذكره، يدعوني الدكتور زياد لمساعدته في إنقاذ مريض آخر، كان العظم الزندي في يده مكسورًا،

ومزق ذراعه. يجعل مشهد العظم الخارج من الجلد الحمض في معدتي يرتفع إلى حلقي، مُحرقًا إناءه. ابتلعه، وأشعر بهطوله إلى المعدة يذوب مخاطها، ثم أبدأ في العمل على إعادة العظم إلى مكانه الصحيح.

أثناء راحتي بعد ثلاث عمليات جراحية متتالية، أرى أم يمز، وأتذكر أنني يجب أن أتحدث إليه اليوم، وأشعر بنظرة خوف التي تخرق عظام جمجمتي من الخلف، وتهديداته تتردد في عقلي. «سأفجر عالمك».

يصرُّ على إجباري مغادرة سوريا، وسيفعل أي شيء لجعل ذلك يحدث. لم أفهم يأسه طوال الأشهر التي عرفتته فيها. ولكن اليوم، تتردد الهمسات في عقلي؛ نتيجة لمحادثتي مع ليلي. ما الضرر في السؤال؟ أنت فقط تحصلين على معلومات. فقط لمعرفة كم يكلف الأمر. افعلي ذلك من أجلها.

«أم»، أتلعثم، وهو يتوقف ويتجه نحوي. «نعم؟» يقول بدهشة. إنه أصغر سنًا مما يبدو، لكن مع كل ما يحدث، ليس غريبًا أن يبدأ رجل في أواخر الثلاثينيات في الوصول إلى الشيب.

«أنا... كنت أتساءل عن...» أتلعثم وأنا أسب نفسي، كان يجب أن أفكر فيما سأقول. «هل تريدان قاربًا يا سلامة؟» يقول، فيوقف تلعثم، ويتدفق الدم في وجهي. أتعلق بمعطف المختبر المتعثر، وأنا أجفد نسيجه الخشن. يظن أنني جبانة. من بين جميع الأشخاص الذين يطلبون منه وسيلة للخروج، أنا الأخيرة والوحيدة الصيدلانية في ثلاث أحياء متجاورة. «هل تريدينه؟» يكزر، ويرفع حاجبيه.

وردت الصورة الشاحبة لوجه حمزة في ذهني، «نعم»، أجيبه. ينظر على الجانبين، ويتأكد من عدم

وجود أي شخص يستطيع سماعنا قبل أن يقول: «حسنًا، انتظريني في الردهة الرئيسية بعد عشر دقائق».

يمكنني قضاء بضع دقائق قبل أن يأتي دكتور زياد أو نور بحثًا عني، يصّر دكتور زياد دائمًا على أن أستريح قليلًا، ولكن مع ذلك، تتعزق يدي. يمكن أن يحدث الكثير في عشر دقائق. فشل تنفسي مفاجئ مثلًا، أو أزمة قلبية، أو مريض آخر يتقيأ الدم وبعض الإفرازات. قد يحدث أي شيء، لكنني وعدت حمزة. وليلى هي شقيقتي، عائلتي الوحيدة، تحمل طفلة أخي، الذي لا يعلم بها ولن يلتقي بها أبدًا. وأنا بحاجة إلى معرفة ما إذا كان بإمكاننا تحمّل تكاليف الهجرة عبر البحر. كما أنني لا أريد اختبار حدود خوف. إذا ما تحقّق تهديده، فإن اليوم قد يكون آخر يوم لي في العمل هنا.

«زنبق النهار»، أ همس لنفسي بينما أسير نحو الردهة الرئيسية، محدّقة في الأرض الموحلة. «يخفف تشنّجات العضلات والتقلّصات. يمكنه علاج التسمم بالزرنيخ. زنبق النهار... زنبق النهار...».

الردهة الرئيسية مليئة بالمرضى، وأفهم لماذا اختار أم هذا المكان؛ إنها دعاية مجانية له لأن الناس هنا يمكنهم سماعنا، سوف يعرفون من هو أم، وماذا يفعل، وما يمكنه تقديمه لهم: فرصة للحياة.

يأتي أم إلى المستشفى كل يوم للبحث عن أشخاص قد يقبلون عرضه. دفع كل ما يمتلكون مقابل الإبحار على قارب إلى قارة أخرى، لا يعرف الكثيرون عنها سوى ما قرؤوه في الكتب. الجميع في المستشفى يعرفون أم، حتى الدكتور زياد الذي يعتقد بقوة بضرورة بقاء الناس في سوريا، على الرغم من أنه لن يمنع أي شخص من الرحيل إذا

اختاره، حيث إنه أرسل عائلته بعيداً. طالما أن أم لا يعرقل إنقاذ حياة المرضى، فهو حُر في نشر أجندته. لذلك يركز أم على المرضى ويتجنب الأطباء، يتأكد من أن الجميع يعرف عن الرحلات الناجحة عن طريق عرض صور لأولئك الذين وصلوا أخيراً إلى الشواطئ الأوروبية. لن يخاطر أي شخص خصيضاً مع احتمال الفرق دون ضمانات بنجاح هذا العبور. في نقطة ما، ربما حتى بدون ضمانات، فرصة بسيطة للنجاة أفضل من العيش تحت رحمة الإبادة الجماعية. على الرغم من أن لا أحد يختار الصعود على قارب متهالك في البحر لو كان لديه خيار آخر. من بين الوجوه المتعبة، يبرز وجه خوف مع عينيه المتلألئتين وابتسامة تدل على معرفة. ربما يمكن شرح سبب عزمه على كسري لإجباري على الصعود إلى القارب بطريقة علمية: إنه آلية دفاعية قدمتها دماغي لي، يحاول ضمان بقائي على قيد الحياة بأي وسيلة. لكن لا تزال معدتي تعاني من الرعب الذي ينتظرني بين يديه.

في غضون عشر دقائق، يجدني أم في الردهة الرئيسية، ويتقدم في طريقه من بين الجموع حتى يصل إلي بجانب نافذة مكسورة ومغطاة بورق رقيق. جهازني العصبي يعمل بشكل متهور ويصدر إشارات كهربائية تمر عبر جسدي ولا يمكنني تهدئتها مهما جُزِبْتُ طرقاً مختلفة. شعور القلق بشأن ظهور الدكتور زياد بشكل غير متوقع عالٍ، واضطرت إلى دش يدي في جيوبي لإخفاء رعشتهما. لا أعتقد أنني سأكون قادرة على الاستمرار في هذه المحادثة إذا رآني، فأنا أدير ظهري لشعبي.

«كم عددكم؟» يسألني أم، وأنا أُلجِه بسرعة نحوه. «اثنان»، أقول بصوت خافت. يتفحصني لثانية

«هذه عائلتك بأكملها؟» ينكسر قلبي في ذلك الوقت وأنا أسمع صوت تكسر رقائق قلبي، ثم يتساقطون من خلال عظامي. «نعم» يومي برأسه، لكن تعبير وجهه بارد. لم يفد غريبتنا أن تكون الأسرة مكونة من شخص واحد الآن. «سأقودك إلى طرطوس»، يقول كما لو كان يناقش الطقس. «عادة ما تبحر القوارب من هناك. يستغرق الأمر يومين ونصف عبر البحر الأبيض المتوسط ثم تصلين إلى إيطاليا. ستكون هناك حافلة في انتظارك هناك لنقلك إلى ألمانيا. أهم شيء هو الوصول إلى إيطاليا».

ينجلط قلبي بكل كلمة يقولها. وعلى الرغم من صوته الجاف، يمكنني أن أرى الرحلة تتكشف أمامي. القارب يتأرجح بلطف فوق البحر الأزرق، والمياه تتلوى على الشواطئ التي تعد بالأمان. ليلى تتحول إلي، وتفلت من بين شفتيها ضحكة صادقة: «نحن أمنون». وأشعر أن الشوق يمزق معدتي.

يبكي طفل رضيع فيقطع أحلام يقظتي، وتصبح أهات المرضى مؤلمة جدًا لأذني. لا. لا. كيف يمكنني التفكير في سلامتي وقد تعهدت بشفاء المرضى؟ ولكن ليلى حامل، وقد وعدت حمزة. ليلى لن تغادر بدوني، ولا يمكنني تركها عالقة وحيدة في أوروبا وهي بالكاد تتحدث الإنجليزية، ولا تعرف الألمانية أو الإيطالية. فتاة حامل بمفردها ستصبح فريسة سهلة. الوحوش ليست مقتصرة على سوريا. التردد هو سُم ينمو في شراييني. أتحنح. «كم يكلف الأمر؟» يفكر لحظة ثم يجيب: «أربعة آلاف دولار. وهناك طابور انتظار». أرمش بعيني. «ماذا؟» «أتعامل بالدولار، الليرات ضعيفة. أربعة آلاف دولار. ألفان لكل واحد».

يفرغ الدم من وجهي ويجف حلقي. هذا أكثر

بكثير مما لدينا. كان بابا قادرًا على سحب ستة آلاف دولار في البداية، لكن معظم المال قد صرف، كما ارتفعت أسعار الطعام. لدينا بالكاد ثلاثة آلاف دولار متبقية. يلاحظ تغيير تعابير وجهي ويزفر. «هل كنت تعتقدين أن الوصول إلى أوروبا سيكون رخيصًا؟ هل كنت تعتقدين أنه سيكون سهلًا؟ نحن نتحدث عن تهريب اثنين من الأشخاص إلى قارة مختلفة. بالإضافة إلى رشوة جميع الجنود في طريقنا إلى هناك».

لقد فقدت الإحساس بساقي. «أنت... لا تفهم. الشخص الآخر هي زوجة شقيقي. وهي حامل في الشهر السابع. إذا قامت بالولادة... سنكون بحاجة إلى المال للحفاظ على حياتها. لا يوجد لدي ما يكفي. من فضلك».

يفكر في الأمر لمدة دقيقة. «أربعة آلاف دولار، وسأتيح لك الفرصة لتجاوز طابور الانتظار. هذا كل ما يمكنني فعله بلطف. لا تستغرق وقتًا طويلًا في التفكير في الأمر، فالقارب لا ينتظر أحدًا».

ثم يبتعد ويتركني متأرجحة على الأرض بينما يحدق خوف خلفه بعينين ضيقتين. وأتساءل أنا ماذا سيفعل دماغه في هذه العقبة.

4

عندما يجدني الدكتور زياد، يراني ملقاة على الأرض في زاوية إحدى غرف الإنعاش، أمسك ركبتي بين ذراعي، وأتحرك للأمام والخلف وأبكي وأحاول تهدئة نفسي. تستلقى أمامي فتاتان صغيرتان، مثقوبتان بثقوب الرصاص في حنجرتيهما. نحن نعرف أنهم ينشرون القناصة العسكريين على الأسطح على الحدود بين مواقع الجيش ومناطق الجيش السوري الحر المحمية. الفتاتان القتيلتان تبدوان في السابعة من عمريهما، ملابسهما ممزقة والركب مكشوفة.

غالبًا ما يكون ضحايا القناصة الأبرياء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، من الأطفال والمسنين والنساء الحوامل. أبلغ الجيش السوري الحر الدكتور زياد بأن الجيش سيستهدفهم في البداية من أجل اللعب، حتى إن ليلى كادت أن تتعرض لإصابة بالغة في أكتوبر. الآن لا أسمح لها بمغادرة المنزل، أبدًا. لا بُدَّ من وجودي معها. يجئو دكتور زياد بجانبني، وجهه الطيب متألفًا. «سلامة»، يقول بلطف. «أنظري إلي».

أبعد عيني عن الوجوه الصغيرة ذات الشفاه النازفة لألقي بعيني. أضع يدي على شفتي، أتوشل إليهما أن يتوقفا عن الارتجاف. «سلامة، تحدثنا عن هذا. لا يمكنك العمل بجذ حتى تصلي إلى هذه النقطة. يجب أن تهتمي بنفسك. إذا كنت مرهقة وتعاين من الألم فلن تتمكني من مساعدة أحد. لا يجب على أي شخص التعامل مع هذا الرعب، خاصة إذا كان في مثل سلك المبكرة هذه»، ثم تلين نظراته ويكمل: «لقد فقدت أكثر مما يجب أن يفقده أي شخص. لا تُقَيدي نفسك في المستشفى. اذهبي إلى

المنزل.

تسقط يدي على فخذي وأنا أفهم ما يقوله. خلال الأشهر السبعة الماضية، أصبح دكتور زياد مثل أب لي. أعرف أن إحدى بناته في مثل عمري، وأنه يراها في. أعرف أيضًا أنه لن يطلب منها ما يتوقعه مني كل يوم، أن أغرق يدي في دماء الأبرياء وأعيد حفظها في أجسادهم. شاهدة على الرعب ولا أزال أعود في اليوم التالي. جزء صغير جدًا مني يحسده لذلك، على الرغم من أنه يحاول جاهذا العناية بصحتي وعدم السماح لي بتجاوز حدودي.

أتنحج. «لا يزال هناك مزيد من المرضى...»، «حياتك مهمة بنفس القدر كما هي حياتهم»، يقاطعني، صوته لا يترك مجالاً للتفاوض. «حياتك مهمة بنفس القدر». أغلق عيني، وأحاول الإمساك بكلماته، أحاول أن أصدقها، لكن كلما حاولت الإمساك بالحروف، تتلاشى من بين يدي. مع ذلك، أقف على ساقي المرتجفتين بينما يلقي الدكتور زياد غطاءً أبيض على الجثث.

ليلي لا تقول شيئًا لفترة طويلة بعدما انهرت وجلست على الأريكة. وبينما أغلق عيني، أعيد على مسامعها حديثي مع أم، وصوتي يتكسر عندما أخبرها بالسعر. أكرهه. حياة الأبرياء لا تهفه، المهم ملء جيوبه من معاناتنا. لا أحد يريد الهرب أكثر من الأشخاص الذين تم تحطيمهم حتى النخاع، إنهم يبحثون عن خط النجاة، مهما كان هشًا.

«قولي شيئًا»، أتوسل إليها، وأفتح عيني لمواجهة صمتها. فأجدها محدقة في الطاولة الموجودة أمامها، إنها تفكر في خطة، ومن ثم تعبر عن استيائها. «ليس لدي شيء لأقوله»، يتجعد جبينها، «إلا إذا...». أسألها: «إلا إذا ماذا؟».

«يمكننا بيع ذهبنا؟» تلّف خصلة من شعرها حول إصبعها. تتدفق أشعة الشمس في وقت متأخر من بعد الظهر من بين النوافذ المتسخة وتتجمع في نقر بمنتصف غرفة المعيشة، محاولة البساط العربي الذي نجلس فوقه إلى شيء روحاني. أراقب كيف يرقص الضوء حول ظلي بين النباتات الخضراء الداكنة التي تطرز البساط. إذا ركزت في ذلك، يمكنني التظاهر بأن أي شيء موجود خارج هذه الهالة الصفراء على ما يرام، أو بالأحرى: آمن.

«بيع ذهبنا!».

الذهب في أسرتنا يمزّر، تحت سطحه المتلألئ العميق، يحتفظ بتاريخنا وقصصنا في خيوطه المضفورة السميقة. عندما عدت إلى مبنى المنزل الفدّم بعد القصف، لم أتمكن من العثور على أي شيء ينتمي إليّ. الجرائيت أغلق عليّ الطريق. ذهبيتي لا تزال هناك، مدفونة، لكن ذهب ليلي هنا. ذهب أعطاه حمزة لها كجزء من مهرها. «من سيشتريه؟» أسأل. تجيب ليلي بلا اهتمام: «ربما يقبل به أم بدلاً من المال».

لم أسمع من قبل عن أي شخص يشتري طريقه بالذهب، ونحن بالتأكيد لسنا الأوائل الذين يفكرون في هذه الفكرة. على أي حال، لا أرغب في التخلي عن ذهب ليلي - ذهب عائلتي - بهذه الطريقة، خاصة لشخص غير مستقيم مثل أم.

«لم يقل مالا أو ذهبًا». أخذت في نزع الخيوط المتدلية من الأريكة. «إذا أراد الذهب، لقال ذلك». تراقبني ليلي بينما أستمّر في النقر على الخيوط. «إذن لا تريد أن تحاولي وتسأليه؟» تسأل أخيرًا. أقول: «سأساومه». تعضّ شفّتها قبل أن تنفجر في الضحك. «تساومينه؟» تكرر. «ماذا تعتقدينه؟ سوق

الحميدية؟».

أشير إلى الإطار الماهوجني الذي يحتوي على لوحة رسمتها ليلي. إنها لوحتها التي أحببت النظر إليها دائمًا. سماء زرقاء داكنة تمتزج مع البحر الرمادي عند الأفق. لا أعرف كيف تمكنت ليلي من التقاطه بوضوح كهذا، كما لو كانت صورة فوتوغرافية. يشعرك الماء أحيانًا وكأنه سيتسرب من حواف الإطار، مبللاً السجادة. والفيوم متجفدة ومتقاربة، رسمت اللحظات قبل العاصفة. «من أقنع ذلك الرجل بالسماح لك بشراء هذا الإطار بنصف الثمن؟» أطبق ذراعي على صدري، وأكمل: «هذا الإطار الجميل بشكل مذهل؟ هل كان أنت؟»، تبتسم ليلي: «لا، بل أنت».

«نعم، كان أنا. لذلك... سأفاوضه».

لا أقول بقية ما أفكر فيه، أنني فقط أكنفي بموافقتها، وأني ممزقة بين واجبي تجاه أخي وبين المستشفى، والحبال التي تمسكني من كل جانب تتأكل عند الحواف، ولا أعرف أي منهما سيتم قطعه قبل الآخر. لكن شيء ما في نظرتها يجعلني أشك في أنها تعرف كل ذلك.

«تحدثين عن ألمانيا كما لو كانت الأرض التي ستتحقق فيها كل أحلامنا!» أعيد تركيز نظري على اللوحة. تبدو حقيقية جدًا. «نحن لا نتحدث اللغة الألمانية. يكاد يكون بإمكاننا التحدث باللغة الإنجليزية، وليس لدينا عائلة هناك. سنكون عالقين في منتصف لا مكان، وهناك العديد ممن سيحاولون الاستفادة منا. يتم خداع اللاجئين فيما يخص كل ما يملكون كما تعلمين. ناهيك عن الاختطافات».

مرة، قبل حين، أردت العيش في أوروبا لمدة عام، كما أردت العيش في الولايات المتحدة وكندا

واليابان. كما أردت زرع البذور في جميع القارات. أردت أن أدرس الماجستير في العلوم النباتية، وأن أجمع النباتات والزهور الطبية من جميع أنحاء العالم. أردت أن تتذكر الأماكن التي زرتها أن سلامة كساب سارت فوقها. أردت أن اخذ هذه الخبرات واكتب كتبنا للأطفال بصفحات محفورة بالسحر وكلمات تحرك القارئ إلى عوالم أخرى. «وأنت؟» سألت ليلي يوماً، «إلى أين تريد الذهاب؟».

كنا في الريف في مزرعة جدتي وجدتي بعد أن انتهينا من الثانوية العامة، حيث الحياة الجامعية على بُعد شهرين فقط. كان المشمش ناضجاً، وقضينا الصباح بأكمله في ملء السلال به لتناوله وتقديمه لجيراننا. وبعدها كنا نأخذ استراحة، ونستلقي على ملاءة النزهة ونشاهد السحب. الشمس كانت مختبئة خلفهم، بينما تحوّل أشعتها السماء إلى زرقاء فاتحة. وعلى مرمى البصر فراشة تحرك جناحيها ونحلة طنانة تختبئ داخل زهرة أقحوان. كان يوماً هادئاً وجيداً حيث يتم تداول الآمال والأحلام. حيث يتم إعادة زيارة الذكريات الطفولية الحلوة. تنهدت ليلي بعمق، مأخوذة برائحة المشمش وقالت: «أريد رسم الترويج».

«البلد كله؟» ضحكك.

تلفت نحوي وترفع يدها لتضرب أنفي. أصرخ وأغطيته.

«أنت لست مضحكة». تغمض عينيها، لكن الابتسامة تلعب على شفتيها. «أنا مرحّة». قلت وأنا أستلقي على جنبي. انزلق حجابي قليلاً وسقط شعر مقدمة رأسي، لم يكن هذا مشكلة لأننا كنا نختبئ بعيداً عن أعين أي مارة، فقممت بإسقاطه أكثر قليلاً، وتدلى شعري إلى الجانب.

تجلس ليلي مستقيمة وتنظر حولها، لا ترى أحداً، ثم تجمع شعري من وراء ظهري وتخلع مشبك الشعر. «رايت كل درجات اللون الأزرق، باستثناء درجة منه، في النرويج»، قالت بصوت هادئ. تعلق صوتها بالنسيم، «رايته فقط على جوجل، وكان رائفاً. أريد رؤية اللون الحقيقي. أريد رسم كل درجات اللون الأزرق وعقد معرض فني. شيء ما يسقى الأزرق من كل زاوية. لا أعرف».

أتلفت حولي وأقول: «هذا يبدو جميلاً جداً يا ليلي. مثل ستوديو جييلي». ابتسمت وبدأت تضرع شعري، وهو شيء تفعله كلما كنت متوترة. «لدي أحلام تأخذني بعيداً عن هنا». في نظرتها، كنت أرى السؤال: هل سأكون بخير إذا غادرت؟ كنا مغا منذ ولادتنا، وكانت ليلي أقرب إلى أخت لي، وكونها ابنة وحيدة وأنا الابنة الوحيدة؛ تشكلت علاقتنا بالكامل بيننا. «سلامة!» كنا نسمع صوت حمزة ينادي من بعيد. «ليلي! يلاً، الغداء جاهز».

تتلاً أينما ليلي عند سماع صوته، وتقفز وتركض نحوه. يمسك هو بها من الخصر وكادا يقعان. لقد وقفت، وأنا أشاهدهما، وشعرث كأني واقفة على الجانب الآخر من باب لا يمكنني المرور من خلاله.

تجفد حاجبا ليلي. «ماذا؟» أدرك أن تعبير وجهي بانس وسرعان ما أقوم بإزالته بابتسامة. «لا شيء». كم كانت مشاكل ساذجة في ذلك الوقت. كم كانت أحلامنا بريئة. الآن، فتاة حامل جائعة تجلس أمامي، عيناها كبيرتان جداً بالنسبة لوجهها، في حين ترتجف معدتي كطبل فارغ. «سلامة»، تقول ليلي، وأنا أنظر إليها، مستيقظة من حلمي. «كان اليوم مليئاً بالحزن، أليس كذلك؟» أهرق كم ثوبي. «كل يوم كذلك». تهز رأسها قليلاً وتطرق فخذها. «ضعي

رأسك على فخذِي».

وأفعل ذلك.

تفرق أصابع ليلي في شعري وتبدأ في عمل صفائر صغيرة، بينما يرقد حجابي مهملاً في مكان ما بجوار الأريكة، وأتنفس بارتياح مع لمستها اللطيفة. بطنها المنتفخ يحيط برأسي وأشعر بركلات الجنين داخل بطنها. فلا شيء سوى النسيج، وطبقات من الجلد، وسائل مشيمي يفصله عن رعب هذا العالم.

تقول، وأنا أصدق بها: «لا تركزي على الظلام والحزن»، ثم تبتسم بدفء. «إذا فعلت، لن تري النور حتى لو كان يحرق في وجهك»، أجيبها بتذمر: «عن ماذا تتحدثين؟»، فتقول: «إن ما يحدث الآن، ومهما كانت فظاعته، ليس نهاية العالم. التغيير صعب، وهو مختلف حسب ما يجب تغييره. انظري، سأحدث حتى بلغة العلوم، إذا كان سرطانٌ قد انتشر، فلن يكون ما يجب القيام به لإزالته هو نفسه ما يجب عمله لإزالة بثرة، أليس كذلك؟»، ابتسامة تهدد شفتي. «منذ متى تعرفين المصطلحات الطبية؟» أسألها بينما تلمع عيناها. «كفانة، أنا طالبة في مدرسة الحياة. خذوها بخفة يا سلامة».

أقول ببطء: «مع السرطان، نحتاج إلى إجراء عملية جراحية لإزالة الورم، ولكنها عملية صعبة.. فرص البقاء على قيد الحياة... قطع الأنسجة غير الصحية؛ هي أمور كثيرة يجب النظر إليها». «ومع البثرة؟» أهر كتفي وأكمل: «فقط يمكننا علاجها بحمض الساليسيليك». «وعندما تنجح عملية استئصال السرطان، وعندما يكون المريض قد قاتل من أجل حياته، ألن يتحسن وضع حياته؟» أومئ موافقةً. «ألا تعتقدين أن الديكتاتورية السورية أكثر شبهًا بالسرطان الذي ينمو في جسم سوريا

منذ عقود، وأن الجراحة، على الرغم من المخاطر، أفضل من الاستسلام له؟ مع شيء متأصل بعمق في جذورنا، لا يأتي التغيير بسهولة، له ثمن كبير». لا أجيبها.

«هناك نور يا سلامة»، واصلت، «على الرغم من الألم، نحن أحرار لأول مرة منذ أكثر من خمسين عامًا». أشعر بثقل أصابعها في شعري. «تحدثين وكأنك تريد البقاء هنا»، أقول. تنظر إلي نظرة ذات معنى. كما لو كانت تعرف بالضبط ما أخفيه في قلبي. «النضال ليس في سوريا فقط يا سلامة. إنه في كل مكان. كما قلت لك، يبدأ النضال هنا. ليس في ألمانيا أو أي مكان آخر».

تختار كلماتها بعناية، وتراوغ كل كلمة وهي تخرق قناة أذني، صدى فوق طبلة أذني، مباشرة عبر الخلايا العصبية إلى دماغي. تستقر هناك مثل بذور صغيرة زرعت بين الخلايا. «كيف لا تشعرين بالمرارة مثلي؟» أمزح بضعف، لكن الجملة تخرج خافتة وأكثر صدقًا مما أرغب.

عندما اعتقل حمزة، مرّت ليلي بتغييرين كبيرين: خلال الخمسة أسابيع الأولى، كانت لا تتقبل العزاء. تبكي حتى أصبح صوتها هزيلًا، لا تأكل أو تستحم. ثم، فجأة، عادت إلى نفسها القديمة. هادئة ومحبة، بابتسامة يمكن أن تشغل حمص بأكملها.

«أولًا، لا يمكن للجميع أن يكونوا كاملين»، تقول، وأخيرا أبتسم. وتستمر هي راضية: «لأنني أرى حبك لي. أرى تضحياتك وطيبتك. أركز على الأمل بدلًا من عدّ حسابي بالخسائر. لديّ حب في قلبي بسببك، بسبب كل المساعدة التي قدمتها لي عندما... عندما أخذوه».

يظهر دمع في زاوية عينها، ينزلق على خديها

وأمسك به قبل أن يصل إلى ذقنها. فقدت والديها عندما بدأت القنابل تتساقط. ثم في منتصف الحداد على عائلتها، في غضون أسبوع واحد، فقدنا ماما وبابا وحمزة. الأسوأ من ذلك؛ إننا لا نزال نجهل ما إذا كان حمزة وبابا على قيد الحياة.

أريد أن أؤمن أنهما ماتا. وأنا أعلم أن ليلي تريد الشيء نفسه. الموت هو نهاية أكثر رحمة من العيش كل يوم في العذاب.

«لو كان الجميع في العالم مثلك!» أتمتم. تضحك ضحكات متقطعة، وأمسك بيدها بإحكام. لكن نسمع صوت عاليًا خارج المنزل يجعلنا نقفز. يتبخّر أي دفء كنا نشعر به، ويصبح الهواء باردًا مرة أخرى. تضغط ليلي على يدي، وتغلق عينيها. أدعو معها أن يكون صوتًا عابزًا. أرجوك يا الله، ألا تكون غارة! ألا تكون غارة! رجاء!

يصعد قلبي لحلقي لعدة دقائق. لكن عندما لم يخترق أي صراخ الليل، هدأت قبضة ليلي. «أعتقد أنها مجرد أمطار»، تهمس، محاولة إخفاء الخوف من صوتها. «فلتحضري الذلاء إذن»، أقوم من فوق الأريكة بينما يهتز الليل مرة أخرى بانفجار رعدي. ويدور رأسي قليلًا، وأشعر أنني ينقصني الأمان الذي كان يوفره حضن ليلي. «ولا تنسي الدعاء، الدعوات تُجاب عندما تمطر»، تذكّرني.

تمر الرياح بجانبني عندما أفتح باب الشرفة لوضع الذلاء خارجًا. وتبرد بشرتي الحارة، ويعود قلبي تدريجيًا إلى مكانه في صدري. اتنفس كل ما أستطيع من السحب المتساقطة، رمادية وكثيفة، مما يجعلني أمل أن تحميننا من الطائرات الحربية التي يمكن أن تحطم حياتنا.

بعد ذلك، أساعد ليلي على الاستعداد للنوم. لم

تعد تنام في غرفتها بعد الآن، فهناك الكثير يذكروها بحمزة. أما أنا، فلم أدخلها منذ اليوم الذي انتقلت فيه إلى هنا. لا أريد أن أرى ملابس أخي المعلقة في الدولاب، وساعته المفضلة على الكومدينو، وصورته وهو يضحك ويُقبل خذها في يوم زفافهما.

لذلك تنام ليلي على الأريكة حيث أضع لها الوسائد والبطانيات، وعيناها مملتان بالدموع، وتعبيرات وجهها شاردة. أعرف هذه النظرة الموجهة إلى الماضي، ولا أريد أن أفزعها أثناء حلم اليقظة. على الرغم من الألم الذي تسببه الذكريات، إلا أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكنا من رؤية أحبائنا، عندما نعيد سماع كلماتهم، ونترك خيالنا يضخم أو يخفف من صوتهم كيفما نريد. تنحرك ليلي بوضوح مع ذاكرتها العضلية وتستلقي على الوسائد.

وأخيرا، تبدو عيناها واضحتين وتنظر إلي. «سلامة»، تنادي وكأنها لم تعرف أنني كنت هناك طوال الوقت. أرث عليها: «أحتاجين ماء؟ بانادول؟ يمكننا السماح ببعض الأشياء الآن أنك في الثلث الأخير من الحمل»، تجيبني: «لا، شكرا. الطفلة مهذبة جدًا اليوم». فأقول لها: «إنها تهتم بمشاعر أمها». «هي؟» تقول ليلي بلطف، ويصبح تعبيرها أخف. أومن: «إنها فتاة. أستطيع أن أشعر بذلك». «هل هذا جزء من قدراتك الطبية؟» تدور عينيها بلطف. «عندما تكونين في هذه المهنة لفترة طويلة مثلي، تحصلين على حاسة سادسة بشأن هذه الأشياء»، أغمز لها وأكمل: «ثقي بي، أنا صيدلانية». تبتسم: «أثق فيك بحياتي. وحياة طفلي». «مسؤولية كبيرة جدًا» أنظاها بالانهيار، وهي تضحك. «هل فكرت في أي أسماء؟» تقول بجدية: «حسنًا، عندما كنا، حمزة وأنا، نناقش أسماء الأطفال

في المستقبل، كان يفكر دائمًا في أسماء الأولاد. كان يريد دائمًا صبيًا. وقال لي إنه لن يكون قادرًا على رفض أي طلب لابنته الأولى. إنه لن يتمكن من تجاهلها». «أوه، نحن نعرف جميعًا أن حمزة سيصبح سندا حقيقيًا لابنته للاعتماد عليه».

«لذلك علينا أن نترك هذا المكان» تهمس، «لا يمكننا السماح لها بالولادة هنا. إذا كان الأمر يتعلق بك وبي يا سلامة، فلن أترك زوجي لكنها ابنته. إنها طفلي». تتعالى أنفاسي وأضم قبضة يدي. خصائص اللافندر: مضاد للالتهابات ومضاد للجراثيم، زهرة بنفسجية، يمكن استخدامها لمشاكل النوم، لافندر. لافندر. لافندر. «كنت تخبريني عن الأسماء؟» أتكلم بصعوبة، وتسقط نظرة عينيها فيما بيننا. «نعم»، تجيب بعد دقيقة. «إذا كان ذكرًا، مالك، وإذا كان أنثى...».

«سلامة»، أقاطعها. «كيف عرفت؟» تصرخ. أعود إلى وعيي مذهولة. «ماذا؟ كنت أمزح!»... «أنا جادة، سأسميها سلامة إذا كانت فتاة!»، أجيب مع ابتسامة سخيفة: «ولم لا؟ فسلامة اسم رائع»، وتضحك هي. «أنا أوافق معك».

أترشح جانبًا وأهمس فوق بطنها. «عليك أن تكوني فتاة. أحبك، سالومة الصغيرة». بالكاد تلاشي الألم في عيون ليلى، لكن أثاره لا تزال موجودة وتكفي ليفرس الذنب شوكة في قلبي. أخذ نفسيًا عميقًا وأخرجه. «ليلة سعيدة»، أمزر يدي على شعرها وأشد بطانية حولها.

تعصر يدي في المقابل، وهي تستسلم لأحلامها، أخيرًا أظهر خوفه، وتكرر الكلمات التي قالتها لي في دائرة في ذهني: «بحياتي وحياة طفلي».

5

«ماذا ستفعلين؟» يسأل خوف من الزاوية المظلمة، فأقفز وأضع يدي على صدري. «ماذا؟» يخرج من الظلال، تتلاشى الظلال عنه، وعيناه تلمعان. «ماذا ستفعلين بشأن أم؟»، «لا أعرف»، «هذا يعني أنك لن تفعلي شيئاً»، «يعني أنني لا أعرف». أبتلع قلقي. «أتركني وحدي». يقضم شفتيه، وهو يفحصني من الرأس إلى القدم، وأضغط ساقي على صدري لأتقلص وأقول: «فعلت ما تريد، سألت أم، هل هذا خطئي أن الثمن مرتفع جداً؟» لا يجيبني، بل يسحب سيجارة ويضعها بين شفتيه. طريقته في التدخين تذكرني بجدي. عندما يتم سؤاله عن شيء ما، كان -رحمه الله- لا يجيب حتى يسحب نفساً من سيجارته. لكن جدو كان يبتسم بلطف، وكانت لديه طريقة فخورة في النظر إلي، ولا يوجد شيء من ذلك في خوف. لا شيء.

«لا، ليس كذلك. ولكن يبدو أنك قد تخلّيت عن الأمر. ألم تخبري ليلي بأنك ستفاوضين معه؟».

أهز رأسي بلا اهتمام. تركّز عيناه على عيني. «على الرغم من أن حماسك الظاهر رائع»، يسخر، «إلا أنه ليس كافياً. تحتاجين إلى الصعود على ذلك القارب»، أقول بضجر: «لقد بلغت حدودي هنا. ماذا تريد يا خوف؟»، يحجب دخان فضي رؤيتي له. «لماذا، سلامتك بالطبع». يبتسم. «ألا تعتقدين أنني نوع من آلية الدفاع؟» أزمجر بابتذال.

يقف أمامي وأنا بغريزة إنسانية أرتجف. «سلامة، يجب أن تعرفي، على عكسك، باني لا أتعب، ولا أشعر بالألم، ولن أتوقف حتى أحصل على ما أريد. محاربتي هي محاربة عقلك». يلف أصابعه ويتسارع نبضي بينما يغلفنا الظلام الدامس حتى

لا يمكن رؤية أي شيء سوى عينيه الزرقاوين الثلجيتين ووميض أسنانه البيضاء، «لن تفوز». لا أستطيع رؤية أي شيء، ولا أستطيع سماع أصوات الاحتجاجات الخافتة في الخارج. لا شيء موجود سوى خوف وأنا في هذه الحفرة السوداء. يمد يده إلى ذقني وأنا أترجع، ولكنه لا يلمسني. ومع ذلك، فإن سلطته علي كبيرة، لدرجة أنني أنظر إليه، وأشعر بالعرشة وأنا متجمدة في مكاني.

«أنا لا محدود، لكن أنت لست كذلك»، يهمس. يمر بإصبعه الذي لا أشعر بها على حلقي، لكن أسناني لا تزال تصطك كما لو أنني أشعر بحدة أظفاره. «ابحثي عن طريقة للحصول على ذلك القارب».

تتدفق شمس الصباح على جسدي المرتجف. أبدل ملابس، وأحاول تجاهل ثقل وجود خوف في حياتي. تفرقر معدتي جوعاً، وتؤلمني أطرافي. لكن لا يهم أيًا من ألمي طالما يمكنني إنقاذ الأرواح اليوم. إذا استطعت التعويض عن قصوري. عن كل الأرواح التي لم أستطع إنقاذها بالأمس.

لا تعد سنة دراستي في كلية الصيدلة كافية لإعدادي لهذا العمل. وحتى لو تخرجت، لم يكن سيحدث فرقاً. لم يكن من المفترض أن أقوم بالعمل الذي أقوم به الآن. كانت دروسي في السنة الأولى نظرية بشكل رئيسي، وكانت دورات المختبر عن مزج التراكيب البسيطة، وهو الأساس للبناء عليه في السنوات القادمة.

أول يوم لي في المستشفى، كان بمثابة إلقاء نفسي بلا دروس سباحة في المياه العميقة. علمت نفسي كيف أسبح، كيف أرفع رجلي وأبقى فوق سطح الماء قبل أن تجرفني أمواجه الثقيلة للأسفل.

في الظهيرة، تضرب الفاجعة على شكل شظايا تمطر على مدرسة ابتدائية قريبة. تسقط على الأطفال. عندما ينقلون بالأسرة الطبية، تتباطأ حركة العالم. تتركز رجلي على الدم اللزج الذي يلطخ حذائي. أنا واقفة في وسط الأشلاء، أرى اللحظات بين الحياة والموت تتكشف أمامي. تلتقط عيناى كل دمعة تسقط وكل روح ترتفع لتلتقي خالقها. أرى طفلاً يبكي وينادي والدته التي لا تظهر.

أرى طفلاً بفم صغير، لا يكتر عمره عن عشر سنوات، وجهه شاحب كورقة، ويوجد شريحة كبيرة من المعدن محشورة في ذراعه اليمنى. يعثر عن ألمه بعبوس دون إصدار أي صوت، لا يريد أن يخيف شقيقته الصغيرة التي تمسك بيده الأخرى وتبكي «تؤبرني».

أرى الأطباء، القلائل الذين تبقوا في حمص، يهزون رؤوسهم على الأجساد الضعيفة الصغيرة الهشة، وينتقلون إلى الآخرين. أرى فتيات صغيرات بأرجل ملتوية في وضع غير طبيعي. تحمل أعينهن معنى الحدث بكل كلمة. بتر أطرافهن. أتمنى أن يتم بث ما نراه حاليًا على جميع القنوات والهواتف الذكية في العالم حتى يتمكن الجميع من رؤية ما يسمحون به أن يحدث للأطفال.

يبدأ طفل صغير يغني بعينيه الزجاجيتين، يحرق في السقف. بلا قميص، وشعره الأسود خفيف. صدره يتمايل مع كل نفس، يجاهد لملء رئتيه. يمكنني رؤية ضلوعه، أعد كل واحدة منها. يغني إحدى الأغاني العديدة المستخدمة من قبل المتمردين للتعبير عن الحرية. صوته الصغير هادئ ولكن قوي. ينتشر فوق الفوضى ويفرس نفسه في جدران المستشفى. إذا كانت هذه الجدران يمكن

أن تتحدث، تخيل ما ستقوله. أمشي نحوه وأنا في حالة ذهول، موجهة فقط بنغمة غنائه. لا يوجد أحد بجواره. يده وذراعه في مكانها. لا يوجد دم يخرج من فمه أو ينزف من رأسه. ليس أولوية. ولكن... أمسك يديه بيدي. باردتين كالجليد. يجب أن يكون معطفه الصغير في المدرسة، مدفوناً تحت الأنقاض. «هل أنت مصاب؟» أسأل بدموع صامتة. لم يتوقف عن الغناء، لكن صوته أصبح منخفضاً. فحست نبضه. بطيء وغير طبيعي. لم أراي جروح.

«أنت مصاب؟» أسأله مجدداً بشكل عاجل. بمعدله الحالي، قلبه سيتوقف. يلتفت نحوي. «اسمي أحمد. عمري ست سنوات. هل يمكنك مساعدتي في العثور على ماما؟» يقول بصوت هادئ. عيناه الزرقاوان العميقتان غارقتان في جمجمته، أشعر بالخوف من اختفائهما.

إنه في حالة صدمة. أخلع معطفي الطبي وأضعه حوله، وأحمل يديه في يدي، وأقبلهما. «نعم، حبيبي. سأجد لك أمك. هل يمكنك أن تخبرني إذا كنت تشعر بالألم؟»، «أشعر بالغرابة»، «أين؟»، «رأسي. أشعر... بالنعاس»، يسعل بقوة «وصدري... لا أعرف». نزيف داخلي. أناذي دكتور زياد. يتجه الطبيب إلى جانبي بسرعة ويفحص نبض أحمد. يخبر دكتور زياد بأنه يشعر بالعطش الشديد في حين يفحص رأسه. العطش الشديد يمكن أن يعني شيئاً واحداً فقط. بتنهد عميق يهز رأسه. «ماذا يعني هذا؟» أسأل، «هل ستتركه؟».

«سلامة، ليس لدينا جراح أعصاب. لا أحد هنا يعرف كيفية إجراء جراحة لنزيف داخلي في الدماغ». يتحدث الطبيب بصوت جاد وملء بالأسف. «ماذا؟ إذن، ستتركه...؟» أهمس، لكن لا

يمكنني التفوه بهذه الكلمة الرهيبة. لا أريد أن يسمعها أحمد.

يمسك الطبيب شعر أحمد ويزيحه عن جبينه. هناك قطرات من العرق تغطيه. ابتلع المرارة بفمي. «هل تشعر بالألم يا بني؟» يسأله. يهز أحمد رأسه. «الأدرينالين والصدمة. لا يحتاج مورفين. لا يمكننا فعل شيء سوى جعل لحظاته الأخيرة أفضل!».

«سأقوم بنقل الدم». ألتفت حول نفسي حيث تكذس المعدات. فصيلة دمي O-، لذلك أنا متبرعة عالمية. لدينا جهاز يدوي صنعه الدكتور زياد لتبرع الدم للمرضى لأن آلات النقل لا تعمل دائمًا، خاصة مع نقص الكهرباء. «يمكنني إعطاؤه دمي. سأعطيه...»، «لن يساعد». يقول بصوت مؤلم. «دكتور زياد...» يرفع يده ويقاطعني: «سلامة، لن يساعد. إذا كنت أستطيع أن أعطي حياتي حتى يكون هذا الصبي آمنًا وسليفاً وصحياً، فسأفعل. ولكن لا أستطيع. لا يمكنني مساعدته. ولكن يمكنني مساعدة الفتاة الصغيرة التي برزت أمعاؤها على الأرض. لا يمكننا إنقاذ الجميع». يغادر قبل أن أصرخ. «يا طنط» يبدأ أحمد بلين في التنفّس. «نعم

حبيبي؟» ألتفت إليه وأعود لأمسك بيديه في يدي. أقسم إن عشت، سأعتني بك. فقط عش. من فضلك. فقط عش. «أنا سأموت؟» يسأل، ولا أرى أي خوف. هل يعرف جميع الأطفال البالغين من العمر ست سنوات ما هو الموت؟ أم أنها معرفة يحملها أطفال الحرب فقط؟ ترتجف يدي. «هل تخاف من الموت؟» أجيب بدلاً من ذلك. «أنا...» يسعل، وقطرات حمراء تتدفق من شفتيه. يا إلهي. «لا أعرف. بابا مات. قالت لي ماما إنه في الجنة. هل سأذهب أنا أيضًا إلى الجنة؟» أرتعد. «نعم، سوف تذهب. سوف ترى

بابا هناك». يبتسم برفق. «الحمد لله. ماذا يمكنني أن أفعل في الجنة، يا طنط؟» كيف يمكن للطفل أن يتمتع بالكثير من الهدوء في وجه الموت؟ ابتلع دموعي، غارقة في الداخل. «سوف تلعب طوال اليوم. هناك ألعاب وطعام وحلوى وألعاب وكل شيء يمكن أن تريده». «هل يمكنني التحدث إلى الله أيضًا؟» أذهلني سؤاله. «بالطبع يمكنك، يا عمري». «حلو».

نجلس بصمت لبضع دقائق، وأستمع لكفاح رئتيه. يفقد بالفعل تركيزه، وتصبح أنفاسه أكثر ضحالة في ثانية. أدعو لروحه وأتلو آيات من القرآن بصوت منخفض. «طنط، لا تبكي، عندما أذهب إلى الجنة، سأخبر الله بكل شيء»، يتلعثم. أنظر لأعلى، ووجهه قد أصبح هادئًا. عيناه زجاجيتان، ويبدو وكأن نجومًا صغيرة عالقة في قزحيته الزرقاوين.

6

لم أتحرك من جوار جسد أحمد لفترة طويلة. حتى لم أترك يديه. أضغطهما على شفتي، محاولة أن أجعل الحياة تعود إليه مرة أخرى. الأصوات الخلفية مكتومة في أذني. كل ما أسمعه يتكرر مثل شريط مكسور: «سأخبر الله بكل شيء».

يقشعُ جلد رقبتني، وأشعر بالبرد يتخلل عظامي، قد يحل غضب الله. تقوم يذ بالنقر على ظهري، فأتجاهلها. حتى إنني لا أسمع ما يقوله الشخص. «أنت!» النقر يزداد ويصل إلى مستوى مزعج.

أنا في حالة حزن على صبي لم أعرفه، لكنني خذلت. «ماذا؟» أنفجر بغضب وأستدير. إنه شاب. في نفس عمري أو أكبر. يلهث ويرتجف. لا يستطيع أن يبقى يديه ثابتتين، يجريهما على وجهه وشعره الكيرلي الكستنائي، عيناه الخضراوان جامحتان. يبدو مألوقاً، وأستغرق لحظة حتى أدرك أنه الشاب الذي رأيته أمس، الذي كان يحمل فتاة صغيرة بين ذراعيه.

«من فضلك... من فضلك! عليك أن تساعدني». يتكلم بسرعة، وكتفاه يرتجفان. صوته يجلبني مرة أخرى إلى واقع الأمر. قد يكون أحمد قد توفي، ولكن الأحياء لا يزالون هنا. أدفع حزني إلى أعماق عقلي المظلمة، سأتعامل معه لاحقاً ثم أقفز على قدمي. «نعم؟ ماذا حدث؟»، «أختي -من فضلك- جاءت أمس بسبب القنبلة- كانت هناك شظايا في بطنها- تفت إزالتها- أخذناها إلى المنزل- قالوا في المستشفى إنه لا يوجد مكان- قالوا إنها ستكون بخير- من فضلك- فقط...» يتلعثم، غير قادر على مواكبة وتيرة كلماته من الذعر النقي. انقر بأصابعي أمامه. «استرخ! أحتاجك أن تهدأ الآن. تنفّس

بعمق». يوقف نفسه ويحاول التنفس، لكنه بانس. لا يستطيع أن يهدأ بما فيه الكفاية.

«أختي»، يبدأ بصوت هادئ مضطرب. ووريده ينبض في حنجرتة. «في الليلة الماضية، أصابتها حمى شديدة، ولم تنقطع طوال اليوم. حتى عندما أعطيتها بانادول. الأمر سيئ. سيئ حقًا. تقنيات ثلاث مرات، ولا أستطيع حملها إلى هنا. في كل مرة أحاول تحريكها، تصرخ من الألم. من فضلك... يجب أن تساعديني».

أعرف فورًا ما هو الأمر. بتردد، أخلع معطفي الطبي عن جسد الصغير أحمد. لا يمكنني حتى أن أقول وداعًا. ثم ألقى نظرة حولي لأرى ما إذا كان أي من الأطباء قد يتمكن من المساعدة، ولكن يبدو أن كل واحد منهم مشغول بمرضاه. يجب أن أفعل ذلك بنفسني. عندما بدأت هنا قبل بضعة أشهر، رأيت كيف يبذل الدكتور زياد جهودًا إضافية لمرضاه، مما جعلني أرغب في القيام بالمثل.

على الرغم من اعتراضاته، لأنني أعرف عواقب عدم القيام بذلك، تعلمت كيفية إخراج الشظايا، وخياطة الجروح الواسعة، ومحاولة إيقاف الموت بمفردي. أصبحت جراحًا بالقوة. قمت بإزالة ما يكفي من الرصاص لصهره ليتحول إلى ضلب ويدخل في صناعة سيارة. أمسك بحقيبة الجراحة الطائرة وأشير للشاب ليقود الطريق. «أين تعيش؟» أسأل ونحن نسارع خلال طقس بعد الظهر البارد. عيناه مشدودتان إلى السماء وأعلى المباني. إنه يبحث عن القناصين والطائرات. «فقط بضعة طرق قبلنا. يا دكتور، لماذا تشعر بالألم؟ هل تعرفين؟» أتردد لبضع ثوانٍ قبل الرد. «أعتقد أنه ربما يكون هناك قطعة شظايا داخل جرحها». يهمس بشباب.

«أنا أسفة».

يهز رأسه. «لا. مع الضغط الزائد على المستشفى مثل هذا، أفهم كيف يمكن أن يحدث ذلك. على الأقل إنها قطعة واحدة». أمل أن تكون واحدة فقط. «كم عمرها؟»، «تسعة»، اللعنة. من المحتمل أنها جوعانة للغاية ومعرضة للعدوى بشكل كبير. «علينا أن نسرع». يزيد من الوتيرة، وأنا أتابعه عبر الأزقة القديمة في مدينتنا المتمزقة. بعض الناس في الخارج، إما غارقون في محادثاتهم أو في انتظار الدور في المخبز.

«أنا كنان»، يقول فجأة، وألتفت نحوه، مشتتة. «ماذا؟»، «كنان»، يكررها، وينجح في التبسم قليلاً. «سلامة»، أقول. اسمه بدأ مألوفًا، كما لو أنني سمعته في الحلم مرة.

ولكن قبل أن أحاول فك ربطة التعرف الخافتة تلك، يتوقف. أمامنا مبنى. أو ما تبقى منه. مثل كل المباني المحيطة به، المتأثرة بالعديد من القذائف المتناثرة وطلقات البنادق. الدهان متشقق ويتقشر طبقة تلو الأخرى. يتألف من خمسة طوابق ولا بد أنه كان بنيانًا بُني اللون في وقت ما.

يفتح كنان باب المبنى ببطء ويطل علي بنظرة مترددة. يكفهر وجهي، غير فاهمة. يتغير كل سلوكه تمامًا. كأنه يشعر بالخجل. نتسلق السلالم الخرسانية المتشقة على الحواف حتى نصل إلى الطابق الثاني. بابهم خشبي وقديم ويفتح على غرفة المعيشة، التي تبدو كما لو انفجرت فيها قنبلة صغيرة، تمامًا في الوسط. أثاث مكسور وجدران تتدهور وسجاد ممزق ومغبر. من الجهة الأخرى، اندهش من حالة الشرفة. هي مدمرة بنسبة أكثر من نصفها. أجزاء منها سقطت بوضوح إلى الشوارع

أسفلها. ثقب ضخّم يسمح لنسمات الهواء الشتوي بتجميد من في الداخل. الوقوف بالقرب من الحافة يعرضك لخطر السقوط.

ينادي، وأحد إخوته، اعتقد، يهرول إليه. هو صغير، يدق باب سنواته المراهقة. هناك ثقب كبير في جانب قميصه، وينطلونه يتدلى فضفاضاً عليه. أستطيع سماع شقيقتهم تناؤه من حيث تستلقي على الأرض في غرفة المعيشة. أحتاج إلى العمل بسرعة. ينزل كنان على ركبتيه بجانبها ويسأل عفا إذا كانت بخير، ويهمس بالتشجيع والحب. يقف الصبي الأصغر بجوار الباب، يتململ بيديه ويلقي نظرات متوترة على الطفلة الصغيرة.

«لمى، هذه الدكتورة ستساعدك». الفتاة الصغيرة تتنفس بصعوبة قبل أن تومئ برأسها. وجهها كله ملتهو من الألم. أجلس بجانبها. «لمى، حبيبتي. أريد أن أساعدك، ولكن عليك مساعدتي أولاً. حسناً؟» توافق مجدداً.

«هل أعطوها دماً في المستشفى أمس؟» أسأل كنان فستخرجه الأدوات التي سأحتاجها. «نعم»، يتنهد. «أحد الأطباء تبرع بالدم. فصيلة سالبة ربما؟» أوافقّه وأفتح قميصها. بشرتها شفافة، وأضلاعها تبرز كما كانت لأحمد. لا يمكنني أن أسمح للدموع بأن تعترض نظري، لذا أرجو نفسي ألا أبكي. كنان يمسك يدها ويستمر في الحديث، يحاول تشتيت انتباهها عن ألمها. تصيح من الألم عندما أزيل قميصها المبتل بالعرق. أضع راحة يدي على جبينها الساخن. «لمى، من أين يأتي الألم؟» «من... من بطني»، تتنفس بصعوبة، العرق يتدفق على خدها.

أقطع الضمادات بعناية قدر استطاعتي وأقول:

«سأضع يدي على بطنك، وعندما يصبح الألم شديداً جداً، أخبريني». تومى بوهن. يراقب كنان كل حركة لي بعيون مليئة بالدموع. وأنا مندهشة من هدوني في اللحظة التي لمس فيها بطنها، تصرخ.
اللعنة.

أضغط بقوة وتصرخ بصوت أعلى. أزهار الأقحوان. الأقحوان. الأقحوان، أكرز لنفسي، وأثبت يدي. «ماذا تفعلين؟» يقول كنان بصوت مبحوح.

«أحتاج أن أعرف أين مكان الشظايا». تستمر لى في الصراخ، لكني لا أستطيع أن أتوقف. يجب أن أشعر بحافة جسم معدني يضغط على يدي. «أنت تؤذيها!» يصرخ. أسكته بنظرة تعلمتها من ماما. «أعتقد أنني أرغب في فعل ذلك؟ أنا بحاجة لمعرفة أين هي!» يصمت، لكن يمكنني رؤية النار تشتعل في عينيه. «لديها كدمات وقرح في كل مكان. لا يمكنني تحديد أي منها نتيجة للشظايا. هذا هو السبب وراء ما أفعله». يطرق برأسه، ووجهه أبيض كالورقة.

«لى، يجب أن تخبريني عندما يصبح الألم أشد، حسناً؟ أنت شجاعة جداً، وأعلم أنك ستكونين قوية الآن أيضاً. حسناً؟» تنزلق دموع من عينيها قبل أن تومى مرة أخرى، «شاطرة». أضغط برفق، وأمشي خطأ على بطنها. تعض أسنانها ولا تصرخ بعد الآن، لكن أنفاسها تخرج بانفجارات قصيرة حتى أصل إلى أسفل شزتها. «هنا!» تصرخ. أتوقف على الفور. شعرت بحافتها قبل أن تخبرني. «شاطرة يا لى». أتنفس، محاولة جعل صوتي خافتاً. «أنت رائعة. الآن الشيء الوحيد الذي تبقى هو إزالة الشظايا». «افعلي ذلك»، يقول كنان. «أنا فقط...» ابتلع الحمض في فمي وأنظر إليه. «سيكون الأمر صعباً قليلاً». «لماذا؟» أهز رأسي. كيف يمكنني أن أقول

هذا؟

«أحتاج...»، «تحتاجين شئ بطنها، ولا يوجد تخدير»، «نعم»، أهمس.

يمز كنان بيده فوق شعره ووجهه، متحظم. «يجب علي أن أفعل ذلك الآن. قبل أن تتحرك الشظية وتنتهي في مكان لا يعلمه إلا الله». يتشثت تنفسه. «افعلوها. ليس لدينا خيار. فقط افعلوها». صوته متألم كصوت أخته.

«أحضر لها شيئاً لتعض عليه». يخلع حزامه. «لمى، أنا آسفة جداً. أعلم أنك تشعرين بالألم، ولكن يمكنك فعل ذلك. أنا هنا. إخوتك هنا». تبدأ في البكاء. «عضي على الحزام»، أخبرها. هذا ليس ما توقعت أن أقوم به أبداً. كان من المفترض أن أكون صيدلانية. لم يكن من المفترض أن أقوم بقطع بطون الأطفال في منازلهم. ترتعش يدي بينما أخرج المطهر والمشرط. حتى الآن، كل مرة قمت فيها بالعملية وحدي كانت في المستشفى، مع الدكتور زياد دائماً في مكان ما، قريباً، في حال أخطأت. من الطمأنينة أن أعلم أنه هناك. لكن هنا، إذا انزلت، إذا قمت بقطع وريد أو تسببت في مزيد من النزف الداخلي، فإنها ستموت. وسأكون قاتلتها.

أغلق عيني بشدة، أحاول ضبط تنفسي وأفكر في الأبقحوان. «مرحباً»، أسمع كنان يقول. «هل أنت بخير؟» أفتح عيني على الفور، وأقول: «نعم»، وأنا فخورة بأن صوتي لم ينكسر. جميع المرات التي كان علي فيها الحفاظ على هدوئي في المستشفى تؤتي ثمارها. عيناه تتلطف، وأعتقد أنه يمكنه قراءة الخوف الذي أحاول إخفاءه بجنون. أتجاهل لحظة التردد السريعة التي تمر بتعابير وجهه، ثم أنظر إلى لمى، التي تحديق في السقف ودموع تتلألأ في

عينيهما. ترتعش شفتاها حيث تعض على الحزام. إنها صغيرة جدًا على هذه التجربة.

يا الله، أرجوك أرشد يدي، واسمح لي بإنقاذ هذه الفتاة المسكينة. أعقم معدتها والمشرط وأنظر إلى كنان. سيؤلمه هذا أكثر مما سيؤلمها. «أمسك يدها»، أوجه له التعليمات. يوافق بوجه شاحب. أضغط بالمعدن البارد على بطنها، وتناؤه. «لمى، انظري إلي فقط»، يقول شقيقها.

أتنفس عميقًا وأقوم بتحريك المشرط لأسفل وأحدث قطعًا صغيرًا. لكن ذلك لا يمنع لمى من الصراخ. تحاول دفعي بعيدًا، وتركل بساقيها، ولكن كنان يمسك بها. «لمى، من فضلك، أحتاجك أن تبقي هادئة!» أقول وأعمل بأسرع ما أستطيع.

تنفجر الدماء من الجرح الذي أحدثته، وأغرز إصبعين للبحث عن الشظية. تبكي هي، تتوشل لي أن أتوقف. أشعر وكأنني وحش. لكن ليس هناك وقت لأكون لطيفة. يلامس طرف إصبعي الحافة الحادة. «وجدتها!» أصرخ وأمسك بها. إنها مفروسة في منطقة ضحلة، بعيدة عن الأمعاء الكبيرة، وأكاد أن أسقط من الارتياح. على الرغم من ذلك، أدعو بشدة لكيلا تسبب أي نزيف داخلي. أسحبها ببطء. كانت هذه حركة خطيرة. بحرص، أتأكد من عدم وجود مزيد من الشظايا قبل أن أخيط جرحها. كل ثقب في جلدها يرسل موجة جديدة من الألم لها ولكنان ولي. الخياطة سيئة، وبالتأكيد ستترك ندبة، لكنها على قيد الحياة، وهذا هو الأمر الأهم. أضغط حول معدتها، متأكدة من عدم وجود شيء آخر. «انتهيت»، التقط أنفاسي بصعوبة، كما لو أنني ركضت ماراتون، وأبدأ في تلفيفها بلطف بمجموعة من الضمادات النظيفة. ترتاح قسمات وجه كنان.

يقبّل جبينها، يزيح شعرها الرطب من التعرّق.
 «لقد قمت بعمل رائع يا لى. أنا فخورة جدًا بك.
 أنت شجاعة جدًا». تتداخل دموعهما مغا. تبسم
 بضعف، عيناها تترقرقان من الإرهاق. لكن عملي
 لم ينته بعد. أقوم بالتهوض لغسل دمها من يدي،
 لكن أتذكر فجأة أن المياه مقطوعة. «ها هنا»، أسمع
 كنان يقول من خلفي. يحمل دلوًا كبيرًا من الماء،
 الذي ربما يستخدمونه للشرب والطبخ. أهز رأسي.
 «لا يمكنني فعل ذلك. أنتم بحاجة إلى هذا الماء.
 سأغسل يدي في المستشفى». «لا تكوني سخيفة.
 تعالي هنا واغسلي الدماء. لدينا دلاء من الماء». لا
 أحد لديه دلاء من الماء. لكنني أخذه منه. يتدفق
 الماء على ندوبي مثل أنهار صغيرة تغسل الدماء.
 «هل أعطوك بالمستشفى أي مضادات حيوية؟»
 أجف يدي على معطفي الطبي. «نعم». يلتقطها من
 جيبه ويسلمها لي. سيفالكسين، 250 ملغ. «أعطها
 حبتين كل اثنتي عشرة ساعة، لمدة سبعة أيام».
 يهرع ليعطيها حبتين منها. تشتكي بأن جانبيها لا
 يزالان يؤلمان، لكنها تتناول الدواء. يظهر أخوها
 من وراء الباب ويجلس بجوارها، محاولاً أن يجعلها
 مرتاحة قدر الإمكان. يتنهد ويفرك عينيه الحمرأوين،
 وهي تبسم قليلًا قبل أن تغلق عينيها. إرهاقها
 بات بارزًا للغاية، حتى إنني أشعر به على بشرتي
 الخاصة.

أنظر إلى ساعتني. إنها تقترب من الساعة السادسة
 مساءً. يجب أن أعود إلى لى. عاد كنان إليّ.
 «شكرًا جزيلاً يا دكتورة. لا أعرف ماذا أقول». أترفع
 عن تقديره. «ليس بالأمر الكبير. أقوم فقط بعمل
 كصيدلانية». يقول بينما ينظر إليّ في ذهول:
 «أعتقد أن هذا ليس ضمن حدود وظيفتك»، يقولها

بإعجاب يتسلل إلى عيني. يتدفق الأدرينالين من جديد في جسدي وأشبح بنظري بعيدًا. هناك حياة في عينيهِ. شيء لم اعتد رؤيته خارج عيون ليلى. «وأنت صغيرة السرُّ أيضًا». أعبت بأصابعي وأجيبه: «لست أصغر كثيرًا منك». يهز رأسه قائلاً: «لم أقصد بهذا أي سوء. اعتقد أنه من الرائع أن تستطيعي فعل كل هذا».

أهز كتفًا واحدة قائلة: «ظروف الحياة». يقول: «نعم»، وتستمر نظرتي نحوي لبضع ثوانٍ قبل أن يلتفت بعيدًا، ويتورد خذاه. أتنحى وأشير باتجاه لى قائلة: «الآن، لن تستطيع أختك تناول أي شيء لفترة من الوقت. هنا يأتي دور السوائل. دعها تشرب قدر الإمكان. حساء، ماء، عصيرًا... أي شيء فعلاً. الفواكه أيضًا إذا وجدت».

يومي موافقًا على كل كلمة أقولها، ويخزنها في ذهنه. يمكنني أن أرى أنه يحاول التفكير في المكان الذي سيحصل منه على كل هذه الأشياء. إنهم لا يتضورون جوعًا باختيارهم. لم أسأل عن والديه. إذا لم يكونا هنا، فإنه ليس لغزًا ما حدث لهما.

«سأكون في المستشفى إذا احتجت إلى أي شيء. عندما تتمكن قليلًا من التحرك، فم بإحضارها إلى هناك حتى نرى ما يمكننا فعله بشكل أكبر». «شكرًا لك». أرفع حقيبة الجراحة على كتفي. «مرة أخرى، لا داعي للشكر». يمشي بجانبني إلى الطابق السفلي. «سأقوم بإيصالك إلى المستشفى». «لا، أنا بخير. أنا ذاهبة إلى المنزل على أي حال. أختك بحاجة إليك أكثر».

يبدو ممرقًا بين رغبته في أن يكون شهفًا وبين البقاء مع أخته. «لا بأس»، أكرر بحزم. يقول: «دعيني على الأقل أصطحبك إلى الخارج»، صمّث

موافقة. نمشي مغا، نازل السلم في صمت. عند الباب الأمامي، استدرت نحوه بينما يبتسم. «شكراً مرة أخرى»، يقول، «عفوًا»، أجيب واتخطى عتبة الباب. «خذ...» لكن صوته يختفي عندما تدوي الطلقات في الهواء. ألتفت بخوف لأرى عينيه تتسعان، وفورًا يمسك ذراعي ويسحبني للداخل. «مهلاً!» أحتج، منزلة ذراعي بقوة من قبضته، لكنه لا ينتبه، بل يغلق الباب بقوة.

يضع إصبعه على شفتيه ويلصق أذنه بالإطار المعدني. أنتظر بفارغ الصبر، داعيةً ألا يكون ما أخشاه. يتلاشى الأمل عندما تتبعها المزيد من الطلقات وتؤكد أسوأ شكوكنا. «ليس أمنا الخروج الآن»، يقول أخيرًا.

«هذا واضح. لكن يجب أن أذهب». أحاول التحرك جانبًا، لكنه يسد المساحة بجسده. «ربما الجيش يتصادم مع المتظاهرين. يجب أن تبقي في الداخل حتى ينتهي الأمر. سيكون لديهم قناصة في كل مكان على أسطح المباني».

على الرغم من توقع حدوث هذا في أي وقت، لكنني بدأت في الذعر. ليلي وحيدة. لا يمكنني تركها هكذا طوال الليل. «يجب أن أذهب. ليلي بحاجة إلي»، أكرر صدى أفكاري. «من ليلي؟»، «صديقتي. إنها أيضًا زوجة أخي، وحامل في الشهر السابع. لا أستطيع تركها». «كيف ستكونين عونًا لها إذا كنت ميتة أو معتقلة؟» يقول بقوة، وبشكل درغا بشريًا عند الباب. اللعنة. «أليس بإمكانك الاتصال بها؟».

«لدينا هواتف، لكننا لا نستخدمها. أنا خائفة جدًا من أن يقوم الجيش بتعقب الاتصال ويعلم أنها وحيدة». يتردد لبضع ثوانٍ، ثم يسحب موبايل نوكيا قديمًا. «هذا هاتف غير معروف. يُستخدم

فقط للاتصال بالناس. يمكنك استخدامه». أسأل باندهاش: «كيف حصلت عليه؟»، «أتريدين طرح الأسئلة، أم تريدین الاتصال بها؟» يسلمه لي ويعود إلى الطابق العلوي. يتوقف كنان في منتصف الطريق ويقول: «لا تركزي نحو الموت». أومن، ويختفي.

أطلب رقمها، قلبي يدق بصوت عالٍ مع تقدّم الجرس. لا ترد، وأكاد أفقد وعيي من الرعب. ثلاث محاولات أخرى. ولا يوجد رد. يتجسد خوف أمامي، والقلق يفتح أسود حفرة في قلبي. «ماذا يحدث؟» ألهم. «تخيلي لو كانت في المخاض الآن»، يقول، والأرض ترتجف تحت قدمي.

«هذه هي الخيارات التي تختارينها كل يوم يا سلامة». يقف قربي أكثر، ينظر إليّ برثاء. «أنت تقامرين بحياة ليلي. ناهيك عن حياة جنينها الذي لم يولد بعد. ابنة أخيك. أيهما أهم؟ المرضي أم ليلي وطفلها؟» أسمع عظامي تطقطق تحت ثقل كلماته. أتذكر ألم ليلي عندما تم اختطاف حمزة. كيف قضت أسابيع تصرخ وتضمّ وجعها الذي يفيض مثل الفيضان، يهدد بإغراقها. أتصور ما سيقوله حمزة لي إذا سمحت لأي أذى أن يصيب ليلي. إذا ماتت بسببي.

أفتح باب شقة كنان وأدخل كجسد ممسوس.
الأمور لا تبدو على ما يرام. أحتاج أن أكون مع
ليلي. «كيف حال أختك؟» يسأل كنان وهو يخرج
من المطبخ. «لم تجب على الموبایل». أبتلع ريقى
بصعوبة. «احتفظي بالموبایل»، يقول، مدركاً خوفى.
«وحاولي مرة أخرى». أهمس: «شكراً لك».

أومئى وأنا أقف بجانب الجدار، أحاول تهدئة
أعصابى المتوترة. يبدأ اللون البرتقالي الضبابي
لفترة المغرب في التلاشي، جالبا النسيم البارد
القاسي إلى داخل شقة كنان نصف المدفورة. أرتجف،
وأضغط معطفي الطبي أكثر حول جسدى. يلاحظ
كنان ذلك، وبمساعدة شقيقه يعلق بطانية صوف
رمادية على جانبي الثقب؛ في محاولة للحد من
وصول الهواء البارد. «شكراً لك»، أهمس، ويبتسم
لي، ورأسه تهتز في تفهم.

يدخل إحدى الغرف ليحلب فراشا قديما ويسحبه
على الأرض. شقيقه يلقي علي نظرات خجولة،
وجنتاه غائرتان، وعظام رسغيه بارزة. يشبه كنان
قليلاً، على الرغم من أن عينيه لونهما أفتح من اللون
الأخضر وشعره أغمق من البني؛ سمتان يشتركان
بهما مع أخته. «إذا، سنضع الفراش بجوار لى.
أعتقد أنك ستشعرين براحة أكثر بآلا تكوني وحدك
الليلة». ثم يقول كنان بسرعة، كما لو أنه يحاول
إخراج الكلمات بأسرع ما يمكن: «إذا أردت، يمكنك
أن تأخذي أيًا من هذه الغرف. سنكون -يوسف وأنا-
مستيقظين طوال الليل. لكن إذا كنت بحاجة إلى أي
شيء أو فقط...».

قاطعته: «أنت على حق. لا تزال لى تعاني من
الحمى، وأريد التأكد من أنها ستكون بخير. لن

أستطيع النوم أيضًا. يجب أن ينام أخوك، لا يبدو منطقيًا أن تظل العائلة كلها مستيقظة». لا يجادلني ويهمس شيئًا ليوسف، ويمرر يده على شعره. يصل يوسف بالكاد إلى ذقن كنان، وهو ينظر إليه بإعجاب قبل أن يدخل غرفته.

أنا سعيدة أن شخصًا ما سينام، لأنني لا أعلم ما إذا كنت سأتمكن من النوم بعيدًا عن ليلى. أتجه إلى الفراش وأجلس بجانب ليلى، وأفحص درجة حرارتها. لا تزال دافئة جدًا، ولكنني أمل أن تعود إلى طبيعتها بفعل المضادات الحيوية. أمسح جبينها بقطعة قماش مبللة، أتذكر كيف كانت ماما تفعل ذلك عندما كنت مريضة. أصابعها الناعمة، وكلماتها المشجعة عندما أشرب كوبًا من عصير الليمون. «برافو، توبريني»، كانت تقولها، وكفها الباردة على جبیني اللامع بالعرق. «أنا فخورة جدًا بك. هيا، اشربيها كلها. اقضي على كل تلك الجراثيم». أغلق عيني بقوة، لا، لن أفكر في ذلك.

«كيف حالها؟» يسأل كنان، وهو يجلس على الجانب الآخر من فراش ليلى. أظهر ابتسامة. «على الرغم من الحمى، تنفسها أفضل. أنا متفائلة». «الحمد لله». يمدني بشطيرة حلوم، وأنا مندهشة. الخبز والجبنة لا يأتيان بسهولة. ألاحظ أن ليس معه ساندوتش كذلك. «أنت ضيفتنا»، يقول، ولا يسعني إلا أن أتساءل ما سيكلفهم هذا. «لا أستطيع أن أتناوله. أعطه لشقيقك». «لا، لديه بالفعل واحد. إذا لم تتناوليه، سأرميه، وحينئذ لن يأكله أحد. لذا، من فضلك، لا تحاولي مجادلتي في ذلك».

قد يبدو التهديد فارغًا لو كان قادمًا من أي شخص آخر، لكنه لا يبدو مازحًا. عيناه صلبتان، لا تتسعان للتفاوض. تنهدت وشطرته إلى نصفين، ومددت له

الجزء الأكبر. «خذه». يهز رأسه.

«إذا لم تأخذه، فسأرميه الآن، ولن يأكله أحد». يضحك ويأخذه من يدي. «لم يكن أمراً صعباً، أليس كذلك؟» «أنا متأكد أن روحي والدي تحذق في من السماء الآن لقبولي. ولكنني كنت مخادعاً». يضحك مرة أخرى. تقع نظراته على يدي، على ندباتي، لثانية فقط. تصبح معدتي فارغة وأسحب أكمامي فوقها. الفعل لم يمر دون أن يلاحظه، لكنه لا يقول شيئاً. «يجب أن يكون الإنسان ذكياً في هذه الأوقات»، أقول، حاولت أن أضفي لهجة عادية على صوتي.

حوّل الفسق السماء إلى اللون الوردي الغامق المرقط بالأزرق. بعدما أنهينا طعامنا، نادى شقيقه وصلينا معاً. يبدأ كنان بتلاوة آيات من القرآن بلحن جميل وهادئ. أشعر وكأنني شجرت بكل كلمة، استيعاب المعنى، شعور بأنها تجلب السلام والهدوء لكل خلية في جسدي، تفصل الأحزان بعيداً. لا أستطيع تذكر آخر مرة كنت فيها بهذا السلام، تقريباً خالية من القلق. وبعد الصلاة، أفحص لمى. لا تغيير. يحضر كنان عدداً من الشموع ويشعلها، وبفضل البطانية التي تغطي الثقب في الجدار؛ لا تنطفئ. اعتذر للذهاب إلى الحمام لإنعاش نفسي وأحاول الاتصال بليلي مرة أخرى دون جدوى.

هي بخير، أكّز لنفسي وأنا أدلك فروة رأسي وأرش ماءً على وجهي لأهدأ. عندما أعود إلى غرفة المعيشة، يجلس كنان بجانب أخته، وأجلس أنا في الجانب المقابل على الفراش. يكون اللاب توب على الأرض بجانبه وشاشته مغلقة. «متى سنعرف عندما تصبح بخير تماماً؟» يسأل، وهو يبذل جبينها بقطعة قماش. «يستغرق السيوفالكسين حوالي عشر إلى أربع وعشرين ساعة للوصول إلى تركيز ثابت في

الدم. غذا، إن شاء الله، ستكون بخير». ينظر إلي.
«أنت بالتأكيد لديك معرفة جيدة بالأدوية». أهرز
كتفي. «هذا عملي». «نعم، لكنك تعرفين الأوقات
والأشياء عن ظهر قلب بلا تردد. يجب أن يكون هذا
مستوى متقدم».

«نعم، إنه مستوى متقدم». أشعر أن وجهي يحمر
وأحاول نظري إلى النافذة بجانبنا، مركزة على
اللون الأزرق الذي يتحول إلى اللون الأسود. يتضح
لي أخيرًا أنني سأقضي الليل في منزل شاب. في
ظروف استثنائية، نعم، ولكن ذلك لا يغير الواقع.
تصبح يدي رطبة بالعرق، وأحاول ألا أتخيل عيون
ليلي تتسع بسماعها هذه المعلومة المشوقة. أكثر
شيء فاضح فعله أي شخص أعرفه هو عندما
قبل حمزة يد ليلي بعد مراسم قراءة الفاتحة. ولم
يكونا حتى مخطوبين رسميًا. كان ذلك في حفلة
خطبة مبدئية. كنت أزعج حمزة بشأن ذلك كلما
رأيتة، حتى إنه قام بدعك أنفي، ولم يتركها سوى
حمراء تمامًا. والآن أنا هنا، جالسة على أرض غرفة
المعيشة بجوار شاب لا يفصلنا سوى بضعة أقدام.
«ما زلت تتذكرين كل هذه المعلومات حتى بعد
التخرج؟» يسأل كنان فجأة، فألقيت نظرة سريعة
نحوه، مدركة التغيير في طريقة كلامه. إنه يحاول
أن يشئت انتباهي، وفي المقابل، يُشغل نفسه عن
الإحراج في هذا الموقف.

أتنحنج، وتهدا الأصوات في ذهني. «لم أخرج
بعد. بدأت فقط العام الثاني عندما... كما تعلم». لا
أخبره أنني توقفت عن الذهاب عندما اندلعت
الاحتجاجات في جامعتنا واعتقل الجيش العشرات
من زملائي في الصف. لا أعرفه بما يكفي.
«أنهيت العام الثاني في العام الماضي. حصلت

على شهادة في علوم الكمبيوتر. كان لدي حلم أن أصبح رسامًا للرسوم المتحركة. كل شيء كان يسير بشكل مثالي، قال متأملًا، وهو يرفع ذقنه نحو اللاب توب. «من المفارقة، مع كل ما حدث، لدي الكثير من القصص لأرويها. لتصبح أفلام رسوم متحركة». «تعني مثل أفلام هايوا ميازاكي؟». «تمامًا مثلها»، يقول مندهشًا. «هل تعرفينه؟». «أنا مهووسة بأفلامه».

يعتدل في جلسته، عيناه تلمعان بالحماسة. «أنا أيضًا! ستوديو جيبلي هو هدفي. ذلك المكان حيث تجري الأفكار والخيالات بحرية. هم يحاكون القصص كالسحر هناك».

حماسه يثير شيئًا في قلبي. «هذا يبدو جميلًا»، أتمتم. يغمض عينيه، ويبتسم. «زب ضارة نافعة». هناك فرحة حقيقية في صوته، ولكن لأول مرة هذه الليلة، أستطيع رؤية وجهه الحقيقي وراء الشظايا التي اضطرز لإعادة تجميعها مرارًا وتكرارًا. يبدو كمنكسر، وقلبي يحزن لأجله. ولكنه يبدو أيضًا مألوفًا وكأنني أعرفه.

أهز رأسي وأسأله بصراحة: «هل سبق وأن التقينا؟» يفتح عينيه بسرعة، متفاجئًا. «ماذا تقصدين؟» يجيب ببطء. «قد لا يكون شيئًا». ألعب بطرف سترتي. «لكن أعتقد أنني رأيتك من قبل. ليس في المستشفى، بل في... مكان آخر».

صوتي يؤثر في آخر الكلمات كأنها سؤال. يعض شفتيه، ولا أستطيع قراءة التعبير على وجهه. الحماس قد تحول إلى شيء آخر. الارتباك؟ الشك؟ الشفقة؟ لا أعلم. فجأة، ظهر خوف بجانب الباب الأمامي وانزلق ببطء بالقرب مني. العرق يتصبب على مؤخرة رقبتني. «أنا... أه...» يتنحج كنان، حاكًا

الأرض بيده. «لم نلتق يوماً ما».

هاه.

أقول: «لا بُدَّ أن هذا في خيالي، أظن»، متظاهرة بأنه مجرد خطأ شائع ومحاولة ألاَّ أسمح لحضور خوف بوضعي في حالة من عدم الارتياح. «لا بُدَّ أنك تشبه شخصاً أعرفه أو تعاملت معه». يومئ، لكن الأمر واضح كالنهار: هناك شيء آخر يحدث. «ما اسم عائلتك؟» أسأل بصوت عالٍ، فيقفز من مكانه. بطريقة ما، يعزف الجميع في حمص بأسماء عائلاتهم. تستطيع جدتي سرد تاريخ عائلة شخص ما إذا أخبرها بلقبه العائلي. ستعرف من كان جده، وماذا درست عمته في الجامعة، وما العائلات الأخرى التي تربطهم بها صلة قرابة. ستسفي كل ذلك، تحليل السلالة كما يفعل العلماء عند فحص الخلية تحت المجهر. هذا تخصص يشترك فيه السوريون جميعاً. يبتسم ويجيب: «الجندي». إنه لقب عائلي معروف يشاركه الكثيرون. أحاول أن أتذكر إذا ذكرت ماما يوماً ما الجندي، لكن لا أستطيع.

يضيق خوف عينيهِ بغضب، وينظف بدلته بصبر قبل أن يستخرج سيجارة. خوف لا يهتم بمكان وجودنا. لا أفعل شيئاً غير تجاهله، مركزةً على كنان ولمى، وأدعو ألاَّ يعذبني. لا يمكن السماح له بسؤالي بخصوص واقعتي مع كنان وأخته هنا. لا يمكنني أن أفقد نفسي هذه الليلة.

«كانت أختك رائعة اليوم»، أبدأ. يرفع خوف حاجبيه. «لم ألتق بالعديد من الأطفال الذين يبلغون تسعة أعوام ويستطيعون المرور بكل هذا وما زالوا قادرين على أن يبتسموا لأخوتهم».

«نعم، إنها قوية»، رثب شعرها بلطف إلى جانب

رأسها. «كانت دانقا كذلك. أعتقد أنها تكره نفسها لأنها كانت تصرخ كثيرًا، مما يظهر مدى الألم الذي كانت تعاني منه». أشعر بالذنب. «أنا أسفة». «لم أكن أحاول لومك! يجب أن يكون الأمر صعبًا عليك أيضًا». يتدخل خوف: «أسأليه مرة أخرى. من أين تعرفينه؟» مطلقًا دخانًا فضيًا. أستمع في تجاهله. «افعلي ذلك، ولن أزعجك مرة أخرى هذه الليلة». أترجاه في ذهني: «أرجوك، اذهب بعيدًا!». «هل أنت راضية حقًا بهذا الجواب المتردد؟ يعرف أي أحقق أنه يخفي شيئًا. ماذا لو كان أمرًا سيئًا؟ ماذا لو كان شيئًا يمكن أن يؤذيك؟». أطلق عليه نظرة غاضبة، إلا أنه لا يبدو مذعورًا على الإطلاق.

«أنت هنا، وحدك، ليلة كاملة. وحتى لو علمت ليلي أين أنت، ما هي قدرة فتاة حامل على مساعدتك؟ كل ما لديك هو مشرطك». يستقيم، متأملًا كنان من الأعلى لأسفل. «وبناءً على بنيته، على الرغم من أنكما على وشك الموت جوعًا، يمكنه التغلب عليك في خمس ثوانٍ. ثلاث ثوانٍ إذا لم تقاومي». العرق يتزايد فوق مؤخرة رقبتني. لماذا يفعل هذا بي؟ يدخل كل شك ورهبة في دماغي حتى لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر غير ما يقوله.

كنان الجندي. اسمه يبدو مألوفًا جدًا. أين سمعت به من قبل؟ «هو يعرفك»، يصرّ خوف. «لقد تعرّف إليك. هذا يعطيه اليد العليا. أراهن أنه عرف بالفعل اسمك. لم يسألك عن اسم عائلتك». تبتأ، لديه وجهة نظر! أتنحرج. الجزء العقلاني من دماغي يعلم أن كنان لن يؤذي، لكن الجزء الآخر منزعج لأنه يخفي شيئًا.

«كنان. أنا أسفة، لكنني أشعر أننا التقينا حقًا». لا

أترك مجالاً للمفاوضة في نبرتي. ينعكس تراقص لهيب الشمعة فوق عينيه المتعكرتين. «قلت لك إننا لم نلتق»، يصرّ. أنظر إليه، ونظرتي تتحول بسرعة إلى البرودة. «أنا متأكدة تمامًا أننا التقينا». يتنهد بصوت عالٍ ويقف. ينتقل جسدي فوراً إلى وضع الدفاع، لكن حقيبة الجراحة بعيدة بعض الشيء لأحضر مشرطاً منها. حتى لو وقفت، سيظل أطول بكثير مني، وأكره ذلك. كان يجب أن أستمع إلى حدسي وأمشي إلى البيت، حتى لو كان القنّاصة في كل مكان.

اهدئي!

«أنا لا أكذب يا سلامة، عندما أقول إننا لم نلتق»، يستدير لينظر في وجهي. خوف يستمتع كثيراً بهذا، يلقي نظرة إلى كنان ثم مرة أخرى إلي. «إن؟» أشعر بالضعف من مكاني على الأرض. «لم نلتق لأننا لم نحصل على الفرصة لذلك». أتعلم؟ أنا سأقف أيضاً، وقلت: «هل يمكنك التوقف عن التحدث بتورية؟» ينظر إلي بحسم ويحيب: «كان من المفترض أن نلتقي لتناول القهوة قبل حوالي عام». القهوة. الجمعة.

قبطان ليلي الأزرق.

«يا إلهي»، أتنفّس بهدوء، وأبدأ في تجميع أجزاء اللغز منذ أكثر من عام. «كنت أنت...» أخيرًا أتمتم، «كنت نعم، لكن الحياة تغيرت».

«كنت ستأتي إلى بيتي لمناقشة زواجنا!».

يطلق خوف صيحة ويصفق بيديه.

يحذق كنان في وجهي، ويحمز خذاه وأذناه،
وأنظر إليه أنا أيضًا، متذكّرة ماما وكيف بدأت بداية
النهاية.

في ذلك اليوم قبل انهيار عالمي، كنت جالسة
على هاتفي أتصفح خلاصة أخباري على فيس بوك.
كنت قد أوقفت فلم «الأميرة مونونوكي» مؤقتًا
على اللاب توب -ليلى كانت قد أرسلت لي فيديو
تعليميًا للمكياج- عندما دخلت ماما الغرفة، ونادت:
«سلامة».

رفعت رأسي، شعري ينسدل على عيوني. رفعته
للوراء. كانت ابتسامتها مترددة، وقد مزّرت أصابعها
على أوراق نبات اللبلاب التي تتدفق من رف الكتب
على الأرض. أهدتها لي ليلي عندما تمّ قبولي في
كلية الصيدلة، وأطلقت عليها اسم «أرجوان».
الاسم ساخر، حيث إنه يعني «بنفسجي»، في حين
أن أوراق نبات اللبلاب كانت بأغمق درجات اللون
الأخضر لكنه اسم أحببته. الطريقة التي تجتمع
فيها الأحرف «أ، ر، ج، ن» لتشكّل كلمة موسيقية
تبدو الأكثر تعبيرًا عن اللغة العربية. أرجوان
بدت جميلة بجانب الجرار المملوءة بالأعشاب
والزهور والألومين الذين يجمعان كل المعلومات
التي جمعتها عن الزهور والأعشاب الطبية على
مزّ السنين، مع البتلات المجففة الملصقة على
الصفحات الثقيلة والتعليقات المكتوبة على
الجانب، وساعدتني ليلي برسوماتها عند الحاجة.
كنت فخورة جدًا بهذه الألبومات، حتى إنني
أظهرتهما لأستاذي، الذي أثنى عليّ أمام الفصل
بأكمله. كان ذلك اليوم الذي قرّرت فيه التخصص
في علم الأدوية.

جلست ماما بجانبى على السرير. «سيأتون غدا». أنا متأكدة أنها لم تتوقع أن يحين هذا اليوم بهذه السرعة. خاصة بعد أن تزوج حمزة ولبى قبل أقل من سنة. «في الساعة الثالثة بعد صلاة الجمعة»، قلت بصوت شخص يقرأ أحداث تاريخية، «اعلم».

مضغت خذها، وفي الضوء الذي سقط على وجهها من الشمس، بدت أصغر سنا بما فيه الكفاية لتخطئ وتظن أنها توأمتي. «لماذا تشعرين بالقلق؟» ضحكت. «كنت أعتقد أن من المفترض أن يكون هذا حالي». تنهدت. بالرغم من أن وجوهنا متشابهة ولون ونعومة شعرنا البني المحمر، فإن أعيننا هي المكان الذي ينتهي التشابه فيه. في حين كانت عيناى مزيجا من البني والبني المائل للأخضر، مثل لون قشور أشجار الليمون لدينا، كانت عيناها زرقاوين عميقتين، لون سماء الغسق، والان كانت تشعر بالدفع تجاهي.

«حسنا، أنت لا تبدين قلقة»، قالت بسخط. «لذلك، أنا أقوم بذلك نيابة عن كلينا». بعد توقف صغير، قالت: «ربما يجب أن نؤجل الأمر». «لماذا؟» لقد رأيت صورته على فيس بوك، وأعجبت بما رأيت. أردت أن أرى ما إذا كان شخصيته تطابق وجهه الجذاب. «بعد...» توقفت، أخذت نفسا واستكملت بصوت منخفض. «لست متأكدة مما إذا كانت المظاهرات في درعا لن تؤثر علينا هنا في حمص».

كانت المظاهرات التي كانت تحدث عنها نتيجة اختطاف الحكومة لأربعة عشر صبيا، جميعهم في أوائل المراهقة. تم تعذيبهم وتمزيق أظافرهم، ثم أعيدوا إلى عائلاتهم، كل ذلك لأنهم كتبوا «حان دورك يا دكتور» على الجدران بعد نجاح الثورات في مصر وتونس وليبيا. بال«الدكتور» كانوا

يقصدون الرئيس بشار الأسد، الذي كان طبيب عيون. السخرية من رجل غارق في دماء الأبرياء ويتعهد بعدم الإيذاء، ليس غريباً عليّ.

أعُض شفتي، وانظر بعيداً. لم يتحدث أحد عن ذلك في الجامعة، لكنني شعرت بالثوتر في الهواء وفي الشوارع. هناك شيء تغيّر. لقد رأيت ذلك في كلام بابا وحمزة على مائدة العشاء. «درعا بعيدة عن هنا»، قلت بصوت هادئ. «و... لا أعرف...». «لا يهم»، أخذت ماما يدي بين يديها وضغطت عليهما. «إذا أظهرنا حتى القليل من المقاومة، فلا يمكنني السماح لهم بأخذ أطفالنا بعيداً عني».

«ماما، اهدئي»، قلت متألّمة قليلاً عندما أحكمت قبضتها. «لن أذهب إلى أي مكان».

«نعم، ستذهبين»، قالت بابتسامة حزينة. «إذا نجحت الأمور مع كنان غداً، ستتزوجين يا حبيبتي». نظرت إلى نبات اللبلاب، معجبة بالأوردة التي تنبثق من الأوراق والتفاصيل المعقدة. «هل الأمر فعلاً سيئ هناك بسبب المظاهرات في درعا؟ من يرغب في العيش تحت سلطة حكومة مثل هذه؟ لقد كنت تخبريني دائماً عن كيفية اختطاف جدي وأخيه وأنت لم تريهما مرة أخرى». كانت ماما الشخص الذي انتفض هذه المرة، لكن عندما التفت نحوها، لم أجد إلا السكينة على وجهها. «نعم، اختطفوا والدي وعمي»، كانت عيناها مبللتين. «قاموا بسحب بابا أمام أخواتي وأمي وأنا. كنت أبلغ من العمر عشر سنوات فقط، لكنني لن أنسى ذلك اليوم أبداً. كنت أتمنى موته. هل تصدّقين ذلك؟» توقفت، عيناها اتسعتا، لكنني لم أشعر بأي مفاجأة.

كنت أعلم أننا عشنا لخمسین عاماً في خوف،

لا نثق بأحد لنعبر عن الأفكار الثائرة التي تجتاح عقولنا. اقتطعت الحكومة كل شيء منا، وأزالت حريتنا، وارتكبت إبادة جماعية في حماة. حاولوا إخماد روحنا، حاولوا زرع الخوف فينا، لكننا صمدنا. كانت الحكومة جرحاً مفتوحاً، تستنزف مواردنا لصالحها بطمعها وورشاويها، ومع ذلك، نحن مستمرون. رفعنا رؤوسنا عاليًا وزرعنا أشجار الليمون تعبيرًا عن الثورة، ندعو -عندما يأتون- أن يوجهوا رصاصة لرؤوسنا، لأن ذلك أكثر رحمة مما ينتظرنا في أحشاء نظام سجونهم.

أخذت أمي نفساً عميقاً. «بالطبع أرغب في العدالة لعائلتي يا سلامة. لكنني لا أستطيع أن أفقدك أنت أو أخاك، ناهيك عن والدك ويلي. أنتم الأربعة عالمي». أصبحت عيناها مشغيتين. «إذن، كنافة؟» قلت بصوت خافت، محاولةً جلبها للعودة إلي. حدقت. «أه، نعم. كنافة. وقرث لك كل المكونات التي ستحتاجينها».

«سأصنعها فور انتهائي من هذا». ابتسمت. «لكن لماذا الكنافة؟» كانت شفتا أمي تخفيان سراً. «لأنك جيدة جدًا في تحضيرها، وأنا أؤمن بالقدر». «ماذا يعني هذا؟» نهضت وقبّلت جبيني. «لا شيء، حبيبتي. أحبك». «أنا أيضًا أحبك».

كان يمزُّ بيده على شعره، وعيناها تلتفتان إليه بسرعة، قلبي ينبض بالأم في قفص أضلاعي. «أنا على حق، أليس كذلك؟» اتلعتهم، أشعر بالحرارة تتصاعد من جسدي بسبب الكنزة الرقيقة والمعطف الطبي. كان يلتفت بعيداً، يطرقع مفاصل أصابعه. «أقترح الزواج، ذلك الذي رُبّته أمهاتنا» يتجهّم وينظر إلي مرة أخرى. «عندما تصفينه بهذه الطريقة، لا يبدو أمراً رومانسياً على الإطلاق».

شعرت بأن الهواء خرج مني، وتراجعت إلى الوراء على الفراش وعانقت ساقي. يا إلهي، ليلي ستحظى بيوم مشوق بالتأكيد بعد هذا! أنا أختبئ في منزل الشاب الذي ربما كنت سأتزوجه، ربما.

يا لها من كلمة! إنها تحمل إمكانيات لا حصر لها لحياة محتملة. العديد من الخيارات مرصوفة واحدة فوق الأخرى، مثل البطاقات في انتظار اللاعب لاختيارها واختيار مصيره، لتجربة حظه. أرى شظايا من حياة كانت من الممكن أن تحدث، تتماشى أرواحنا تمامًا منذ أول محادثة لنا. تزدهر بقية زيارتنا. أعد الثواني حتى نقول «موافق». نشترى منزلًا جميلًا في الريف، نرقص في الفسق، نسافر حول العالم، ننشئ عائلة، نكتشف طرقًا جديدة للوقوع في حب بعضنا البعض كل يوم. أصبح أخصائية في علم الأدوية مشهورة، وهو أحد رسامي الرسوم المتحركة المشهورين. نعيش حياة طويلة مفا، شركاء في الجريمة، حتى تلتقي أرواحنا بخالقها.

ولكن هذا ليس الواقع.

مستقبلنا مظلم. شقة فدقر نصفها، مع أخته الصغيرة تكافح من أجل حياتها. حياتنا هي طعنات الجوع، وأطراف متجمدة، وأشفاء يتيمون، وأيد ملطخة بالدماء، وشظايا قديمة، وخوف من الغد، ودموع صامتة، وجروح جديدة. تمرق مستقبلنا بين أيدينا.

في مكان بعيد، أسمع لحن الحرية المألوف، أو ربما هو خوف يغمغمه لنفسه.

كنان يعبت بأصابعه. «لم أكن أرغب في أخبارك لأنني لم أكن متأكدًا مفا إذا كنت ستتذكريني». ينفخ في الهواء. «كم كان سيئًا إذا قلت: مهلا،

والدثانا حذدنا لنا زيارة اجتماعية حول زواجنا المستقبلي. هذا هو إجابة سؤالك؟» أهرق عيني وأضحك لنفسي بصمت. يجب أن يشعر بالانزعاج والإحراج، مما يساعد كثيرًا. «لا بأس، أفهم ذلك». أبتسم، فينظر لي بحذر. «لماذا تبتسمين؟». «لأنه آخر شيء كنت سأفكر فيه». أضحك حتى يتحول إلى ضحك بالغ، تتسع ابتسامته حتى ينضم ضحكه إلى ضحكي. في كل مرة نلقي فيها نظرة على بعضنا البعض، نضاعف ضحكنا. المثل العربي لم يكن أكثر صدقًا: شُرُّ البلية ما يضحك. يدخن خوف سيجارته وينحسر إلى زاوية الغرفة، راضيًا عن النتيجة. نهدأ، نضحك بهدوء. «حسنًا، إنه واحد من أجمل الطرق لكسر الجليد بيننا»، أقول. «إذا كنت أعلم أن هذا سيحدث، كنت سأعترف بالأمر في وقت سابق».

فجأة تستيقظ لى، تطلب «ماء» ويتغير المزاج فورًا. يقف كنان على قدميه على الفور ويحضر إبريق ماء. أمسح جبينها مرة أخرى وأشعر بالارتياح حينما أجد أنها لا تزال تتعرق. «تعزقت في كامل قميصها». أبتسم. «وهل هذا جيد؟» يسأل بحاجب مرتفع ويساعدها على الشرب. «إنه ممتاز. لى، اشربي المزيد من الماء، من فضلك». تطيع. «هذا علامة جيدة. إنها تعني أن جسمها يتعافى. يمكنك أن ترى أن تنفّسها مستقر، ولا يوجد صديد حول الجروح. الحمد لله. إنها تُحقّق تقدّمًا. احرص على أن تُبقيها دافئة وتجعلها تشرب الكثير من الماء».

تمتلئ عيون كنان مرة أخرى بالدموع. بالتأكيد اعتقد أنه سيفقدها وكان قد عزم على قبول حقيقة أنها قد لا تفتح عينيها. عندما تعود لى للنوم مرة أخرى، ألف بطانية أخرى حولها. يحرق في وجهه أخته، يأخذ يدها الصغيرة في يده، مغموسًا فيها

تمامًا. عندما يتحدث، يبدو أنه في حالة غيبوبة.

«هي الصغرى في العائلة. كنا جميعًا سعداء عندما وُلدت. اثنان من الأولاد يشكّلون عبئًا كبيرًا، ثم جاءت هذه الملاك إلى العالم. أتذكر صوت بابا وهو يبكي من السعادة عندما قالت له الممرضة إنها فتاة. كانت مدلّة جدًا. الفراشة التي تلامس جلدها كانت كارثة. لم ندع أي ضرر يصيبها. كيف نستطيع أن نسمي أنفسنا إخوتها بعد ذلك؟ خماتها؟ والان... جسدها يتأذى بسبب الكراهية». يتلصّص صوته، غاضب ومستاء. «فشلت. لم أتمكن من حمايتها. يوسف لم يتحدث منذ وفاة والدي، وهو يتجاوب بالرعب من أدنى صوت. كانت هي وأنا اللذين تمكّنّا من أن نبقي الأمور تحت السيطرة. لكن... جعلوها تعاني في النهاية. وعدت بابا بأنني سأحميهما بحياتي و... لقد خذلته». بينما يضبط البطانية حولها بيديه المرتجفتين، أفكر في بابا وحمزة. ويلي. أرجو أن تكوني بخير يا ليلي، أدعو من فضلك. «ماذا تفعل خلال النهار؟» أسأل، محاولة تغيير موضوع مروع إلى موضوع أقل ترويعًا بقدر بسيط.

«من أجل المال؟ لديّ عائلة في ألمانيا، يرسلون بعض المال عندما يكون ذلك ممكنًا». أعبت بأصابعي. «المستشفى لا يدفع، لكنه يساعد الناس. على الرغم من أنه من يدري إذا كنت سأبقى طويلًا». أتوقف فورًا عن الحديث، وينظر كنان إليّ، وحاجباه مجفدان. من السهل عليه فهم كل شيء من تعبير وجهي. أضغط يدي على صدري وأردّد في نفسي «أقحوان، أقحوان، أقحوان». لا أستطيع أن أصدق أنني تفوّهت بهذا الأمر. لا بُدّ أن يكون السبب نقص النوم والرعب الذي عايشته اليوم.

«سوف ترحلين؟» يسألني. أفكر للحظة. «لا أعلم». يبدو متحيزًا. «لا تعرفين؟» أمضغ لساني. «ألن ترحل أنت أيضًا لو أتاحت لك الفرصة؟» لديه شقيقان يعانيان من سوء التغذية تحت رعايته كأسباب للرحيل، فما يمنعه؟ المستشفى هو الشيء الوحيد الذي يمنعني من الرحيل.

«لا» يقول دون تردد، وهو ينظر إلي نظرة مباشرة. «ماذا، ماذا عن يوسف ولمي؟» يأخذ نفسًا عميقًا وينظر إلي لمي. وجهها مشدود بالألم، وفمها مفتوح أثناء التنفس. خيوط من شعرها ملتصقة بجبينها، ويقوم كنان بتمريرها بأصابعه المرتجفة. «لربما كنت سأرسل أخي وأختي بمفردهما لو كان الأمر أمرًا بالنسبة لهما، لكنه ليس كذلك. يوسف عمره ثلاثة عشر عامًا. هي عمرها تسعة. هما... لا يمكنهما القيام بذلك بمفردهما». أحقق فيه وأسال: «إذن لماذا لم تغادر معهم؟» يختفي الحزن من عينيه، ويحل محله نظرة شرسة. «هذه بلدي. إذا هربت... إذا لم أَدافع عنها، فمن سيفعل ذلك؟». لا أصدق الكلمات التي أسمعها.

«كنان»، أبدأ بهبط، ولا أعرف ما إذا كان السبب ضوء الشموع المتذبذب، لكن وجنتيه تبدوان محفرتين. «نحن نتحدث عن حياة إخوتك». يبتلع ريقه بصعوبة. «وأنا أتحدث عن بلدي. حول الحرية التي أنتمي إليها بحق. أنا أتحدث عن دفن ماما وبابا، وإخبار لمي أنهما لن يعودا إلى المنزل أبدًا. كيف...» صوته يتقطع. «كيف أترك ذلك؟ متى ولأول مرة في حياتي كلها أتنفس الهواء السوري الحر؟». كيف يكون بهذا العناد؟ أريد أن أهزه.

«لا أفهم. كيف أن إقامتك هنا ستساعد هذه الحرب؟ هل فقط عن طريق استنشاق الهواء

السوري الحر؟». يستهجن كنان من اختياراتاتي للكلمات، لكنه لا يعلق عليها. يأخذ نفساً عميقاً ويقول: «أسجل المظاهرات». أفقد كل الإحساس بركبتي ومعدتي تنهار. «أنت... أنت ماذا؟» أهمس. يرتجف ويضيق قبضته على يد لمى. «لهذا السبب لا يمكنني المغادرة. أعرض للناس -للعالم- ما يحدث هنا». يشير برأسه إلى اللاب توب الخاص به. «أحفل مقاطع الفيديو على يوتيوب عندما تعود الكهرباء». أضغط بأظفاري بعصبية على الأرض. «لماذا تخبرني بهذا؟ هل تدرك أنه إذا تم اكتشافك، ستكون في حال أسوأ من الموتى؟ إذا فشل الجيش السوري الحر في الدفاع عنا أمام الجيش، فسوف يتم القبض عليك».

كنان يضحك، لكنه ضحك بصوت أجوف. «سلامة، إنهم يعتقلون الناس بدون سبب. سوف يعذبونني للحصول على إجابات لا أملكها، وهم يعلمون جيداً أنني لا أملكها. ولست الوحيد الذي يسجل. هناك الكثير منا يحتجون على طريقته الخاصة. في داريا، قام رجل واحد، هو غيثا مطر، بتوزيع الورود على جنود الجيش. إنه يحارب البنادق بالورود. وأنا أعلم في قلبي أنهم يرون ذلك كتهديد. أي شكل من أشكال الاحتجاج، سواء كان سلمياً أم لا، هو تهديد للديكتاتورية. لذلك لا يهتمهم ما إذا كنت أسجل أم لا. أعيش في مكان يحميه الجيش السوري الحر. نحن جميعاً في نفس الخطر، لأننا جميعاً في حمص القديمة. أنا متواطئ فقط من خلال التواجد هنا. إذا كنت مذنبا في كلتا الحالتين، فقد أحتج أيضاً». ينظر إلى يدي، وأغطينها مرة أخرى بأكمامي. إنه بعيد جداً بالنسبة لي لقراءة وميض العاطفة الحارق في عينيه. لكنها تبدو مثل الألم.

فمي جاف وأنا أحنق فيه. لا أعتقد أنه غير فبال
 بالتهديد بالاعتقال. ينزلق نظري إلى الجانب، إلى
 مدخل غرفة النوم، وأرى عيني يوسف تطلان تحت
 شعره الفوضوي. إنه صبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر
 عامًا. من المفترض أن يكون على وشك أن يترك
 وراءه العجائب البريئة التي تمتع بها في طفولته
 حيث إن المراهقة تشكّل عقله وتمدّد أطرافه. لكني
 لا أرى ذلك فيه. أرى صبيًا خائفًا يتراجع إلى طفل.
 يرغب في العودة إلى وقت كان أمنا مرة أخرى،
 عندما كان والداه على قيد الحياة، وكان قلقه
 الأكبر هو ما إذا كان سيسمح له بمشاهدة ساعة
 إضافية من الرسوم المتحركة. عيونه ضخمة ومليئة
 بالدموع. إنه يفهم تمامًا الخيارات التي يتخذها
 شقيقه. والعواقب.

أرى ليلي فيه. أرى خوفها في كل مرة أهرب فيها
 من موضوع الهروب. يا إلهي. يا إلهي! إذا حدث أي
 شيء لي، فسوف تهلك. سيكون أسوأ من الموت.
 ترتجف يدي، وأعطى وجهي، وأمر نفسي بأخذ نفس
 عميق. هل هذا صوتي؟ عنيد جدًا، لا أستطيع أن
 أرى كيف تدمر أفعالي من حولي؟ أفعال نبيلة كما
 أعتقد، إلا أن هذا لا يقلل من مدى تأثيرها المدمر.

يجب عليّ أن أغادر. يجب أن آخذ ليلي وأغادر،
 وإلا فلن تنجو من هذا. ليس الحمل ولكن أنا. لن
 تنجو من موتي. وأنا لن أنجو منها. إذا ماتت ليلي،
 آخر فرد من عائلتي -أختي- سأصبح قشور شخص.
 لقد اقتربنا كثيرًا من أكتوبر. ماذا أفعل إذا رحلت؟
 ضحكة خوف المنخفضة تجذب عيني إليه، وهو
 يهز رأسه مبتسفا باستخفاف. يقول: «الآن ترين».
 أضرب بقبضتي على جبهتي، وألعن نفسي بغبائي
 وسذاجتي. كان خوف على حق. ما الثمن الذي لن

أدفعه مقابل سلامة ليلي؟ يجب علي أن أغادر.
القرار يزيد الوجد في قلبي وأسفل جفوني يحترق
بالدموع التي ترفض السقوط. كيف لا أراه؟ نظرت
مرة أخرى لأرى خوف يقف خلف كنان، مثكنا على
الحائط، بابتسامة راضية. يغمز. «الآن كل ما تبقى
هو التذلل لام». يشعر رأسي بالدوار بينما يستقيم
هو، وينفض الغبار عن سترته اللامعة. «ووفقًا
لكلمتي، سأتركك وشأنك الآن. لكنني سأراك لاحقًا».
عندما رمشت، رحل.

استقرت نظراتي على الأرض، وكان كنان يحدق
بي في حيرة من أمره، ويلوي أصابعه. يقول: «أه يا
سلامة»، وهو يتعامل مع كل كلمة وكأنها مزهريّة
رفيقة كان يمسكها بيديه. «هل كل شيء بخير؟»
تحدثت، ليس تعليقًا على الكلام، ولكن على نبرته.
«نعم»، أجبت بسرعة كبيرة. «لماذا؟» يهرش
مؤخرة رأسه. «لا أعرف. كنت تنظرين ورأني كما لو
كان الشيطان نفسه يقف هناك، وارتعبت جدًا من
الاستدارة والتحقق بنفسي». يخرج صوته خافتًا،
تحولت شفثاه إلى ابتسامة متردة ومازحة.

ابتسم لكنني أشعر بالإجبار. «أنا بحال ممتازة،
شكرًا لك». هذا أفضل ما يمكنني فعله الآن. اطمأن
كنان وهدأت حيرته، وأدركت أنني لا بُدّ صمتُ لفترة
من الوقت. ولا بُدّ أن ابتسامتي بعد هذا الصمت
الطويل كانت فريبة. أتنحج: «على الرغم من أنني
أختلف معك بشأن البقاء هنا». ينظر إليّ لثانية قبل
أن يقول: «أست صيدلانية في المستشفى تقومين
بتضميد الجرحى المتظاهرين؟».

«هذا ليس له علاقة بأي شيء. أنا خضعت ليمين
أبقراط. أنت تضع نفسك وإخوتك في مرمى
النيران». يهز كتفيه. «أعتقد أنني أحب سوريا

لدرجة أن العواقب لا تهتم». شيء ما ينفجر بداخلي.
«وبإخبارك بالمغادرة، أنا لا أحبها؟»

ينزعج. «لا لا، ليس هذا ما قصدته على الإطلاق!
أنا... سلامة، هذا بيتي. طوال حياتي -طوال تسعة
عشر عامًا- لم أكن أعرف أي شيء آخر. سأحطم
قلبي بالمغادرة. هذه الأرض أنا وأنا هي. تاريخي،
أجدادي، عائلتي. كلنا هنا». يذكرني قراره العنيف
بحمزة والخطب الحماسية التي كان يلقيها عندما
عاد من المظاهرات مع بابا. بالتأكيد كان سيحب
كنان. هذه الأفكار تجعل معدتي تنقبض.

أهز رأسي وأركز على الوعد الذي قطعتة على
حمزة. التركيز على سعادة ليلي عندما أخبرها أنني
كنت مخطئة وأنني أسفة. أنني سأنقذها وسأنقذ
نفسي. على الرغم من أنني أعلم أن كنان على حق.
عندما أغادر، لن يكون الأمر سهلاً. سوف أمزق قلبي
إلى شرائط وستتناثر كل القطع على طول الشاطئ
السوري، مع صرخات شعبي تطاردني حتى يوم
وفاتي.

استيقظ مخضوضه، وتطير يدي إلى حجابي. لقد
تعثرت وكاد يسقط أثناء الليل. أضع يدي على رأسي،
محاولةً تذكّر ما يحدث. أيقظني كنان لأداء صلاة
الفجر، ثم عدت إلى النوم على الفور.

«آه...» أنا أتأوه، أفرك جبهتي وأعدل حجابي
بسرعة. لاحظت جسد لى الصغير يتحرك بجانبى.
زحفت إليها على عجل وأتنفس الصعداء حين ألمس
خديها. لم تغد محمومة بعد الآن. يخرج كنان من
المطبخ حاملاً كوبين من الشاي الساخن ويسلمني
أحدهما. شعره منتفش وبرز من جميع الجهات
بسبب النوم. إن منظر وجنتيه الورديتين وعينييه
المرضعتين بالنجوم تجعلني أشعر بالارتباك.

يا إلهي، قضيت الليلة هنا. في شقتي. يقول:
«صباح الخير». «شكراً لك». أقبل الشاي بامتنان.
«تحسنت حالة لى للغاية، الحمد لله». الشاي
ساخن وأنا آخذ رشفة. شاي بالنعناع. لذيذ. ليلى
تحب الشاي بالنعناع. ليلى. اختنقت من الشاي، فرفع
كنان نظره قلقاً. «ماذا حدث؟».

«أنا بخير»، شهقت، وعيني تتألق من الشاي وهو
يحرق لساني. «لقد نسيت أمر ليلى. أنا بحاجة
إلى المغادرة. كم ساعة؟ أنا بحاجة للوصول إلى
المستشفى. يا إلهي، كم من الوقت نمث؟ لا يهم.
أريد أن أعود إلى ليلى! أبق عينك على أختك،
حسناً؟ إنها بخير، لكن ستستمر بالمضادات الحيوية.
شكراً لك على الشاي».

أشربه على جرعة واحدة، واتجهم بينما فمي
يحترق، وأقفز على قدمي. «كنان، كم الساعة الآن؟»
أقول، فشتتة الانتباه، عندما أجد نفسي مصادفة
داخل إطار المراة. يا إلهي، أبدو فظيعة. أمسك

بمعطفي الطبي، وأسرع إلى الشرفة الفدفرة، وأنظر إلى الخارج. يقوم كنان بإزالة البطانية للسماح بدخول النسيم، والهواء النقي هو ما احتاجه لجسدي المحموم.

«هل هو آمن؟» ارتدي معطفي الطبي. «هل هناك قنّاصة؟ أنا قلقة على ليلي. من الأفضل أن تكون بخير. كنان، كم الساعة؟ لديّ نوبة عمل في المستشفى». أطرّق بأصابعي خلف ظهري لجذب انتباهه أثناء مشاهدة الشارع بالخارج. إنه تقريبًا فارغ، ويبدو أن لا أحد يحاول الاختباء على أسطح المنازل.

أدرك أن كنان لم يقل أي شيء منذ بعض الوقت. استدير، أراه يحتسي الشاي، ويراقب ارتباكي بنظرة مسلية. «لماذا لا تجيبني؟» أسأله. يأخذ رشفة أخرى ويضع كوبه على الأرض. «لم تعطني فرصة مع مناجتك تلك. كانت ممتعة للغاية». يقولها مبتسماً. «سعيدة لأنك تستمتع بهذا». أحملق به، لا يبدو منزعجًا على الإطلاق. يقول: «هل أنت دائمًا هكذا؟».

«هكذا؟» أكرر، أرفع حاجبي. «هل تشعرين بالذعر مع لمحة من الهوس بالسيطرة؟». «نعم، أغلب الأيام». «هذا جيد» يقول مازحًا، ما زال مبتسماً، ولا أعرف إذا ما كان ساخرًا أم لا. إنه لا يبدو ساخرًا. على أي حال، ليس لديّ الوقت لتحليل لهجته أو ملامحه. «تمام. أحتاج أن أذهب الآن. هل يوجد قنّاصة في الخارج؟» أقوم بسحب حقيبتني بقوة أكبر على كتفي. أكره أن أشعر بالوعي الذاتي تجاه شكلي، بشفتي المشقوقة والحجاب المتجعد. «كيف لي أن أعرف؟» يقول. «إنهم يغيرون توقيتهم دائمًا. الجيش السوري الحر يدفعهم إلى الورا في بعض

الأحيان».

أنتهد. سأضطر إلى تجربة هذا بنفسي. «حسنًا، سأندبر الأمر»، أقول بفتور وأتقدم نحو الباب. يرفع ذراعه على المدخل. «أين تعتقدين أنك ذاهبة؟». «ممم... المنزل؟». «هل تعتقدين بصدق أنني سأتركك تمشين بمفردك؟ حيث يمكن أن يكون هناك فتاة؟». «هل لديك طائرة سرية غير مرئية يمكنني أخذها؟». «ها! أنا قادم معك»، يقولها وهو يرتدي سترته.

«لا لن تصطحبني. أختك بحاجة إليك». «معذرة، هل أنت أمي!»، إنه يجادلني. «أنا أأخذ قراراتي، شكرًا جزيلاً لك. دعينا نذهب». «لا يمكنك...» أبدأ وأنا أهرأ يدي للتأكيد. «يمكن أن يعتني يوسف بها حتى أعود. إنه ليس عاجزًا». لم يمنحني فرصة للإجابة قبل أن يخرج من الباب. اللعنة! الآن علي أن أقلق على حياته وما إذا كانت روحه ستثقل كاهلي. يخرج يوسف من غرفته، وهو ينظر إلي بخجل قبل أن يجلس بجوار لمي. «اعتنِ بها، حسنًا؟ أيضًا اعتنِ بنفسك»، أقول. أوما برأسه وتجاهلت الألم في بطني عندما رأيت قميصه المتعرج وإطاره الضيق. على كنان أن يغادر، أأخذ قرارًا، قبل أن يدفن هؤلاء الأطفال شقيقهما أيضًا.

ألقيت نظرة خاطفة على الخارج، مسرورة وخائفة بنفس القدر لرؤية الشمس تشرق علينا؛ من ناحية، توفر الدفء ضد آثار الشتاء، لكنها توفر من ناحية أخرى ظروفًا مثالية للقناصين.

هناك عدد قليل من الرجال يقفون أمام مبنى كنان، ويحملون أكواب الشاي المكسورة، وهم في نقاش عميق، بينما يجوب بعض الأطفال بسرعة، يصرخون

بحماسة. حتى إنني أسمع بعض الضحكات وأشعر بالبراءة التي لا تزال على قيد الحياة وتقاتل، وأدخلها بأمان في قلبي.

تجرش أحذيتنا الحصى ونحن نشق طريقنا إلى منزلي. مررنا بهخبز متهذم لا يزال يعمل. يوجد طابور طويل بالخارج، يقوم الناس بتدفئة أيديهم وشد معاطفهم بإحكام. ينتظرون بصبر، على الرغم من وجود اضطراب في عيونهم، كلهم قلقون من نفاد الخبز واضطرارهم للعودة إلى عائلاتهم خالي الوفاض.

مع كل خطوة نتخذها، أتعامل مع القرار الذي اتخذته الليلة الماضية. كان من السهل صنعه، حيث كان يلفه الظلام ويضيئه ضوء الشموع الضعيف. لقد كان سرًا كنت قادرة على أن أهمس به لنفسي. لكن الآن في ضوء الشمس الساطع الذي يجعل روحي عارية، أشعر وكأنني وصمة عار دائمة.

ألقي نظرة على شكل كنان الطويل. حتى السترة الفضفاضة لا يمكنها إخفاء الحواف الحادة لمرفقيه أو يديه العظمتين. ليس من المفترض أن يبدو هكذا. يجب أن يكون هو وإخوته بصحة جيدة وأمنين وسعداء. يجب أن يعمل على لغته اليابانية ويحاول الدخول إلى ستوديو جيбли. لا يمكنه البقاء هنا.

«هل حقًا تقيم في حمص؟» أهمس. «هل ستموت حقًا هنا؟» توقف عن المشي واستدار لينظر إلي بدهشة. ثم يقول ببطء: «أنا لا أنوي أن أقتل». أهز رأسي. «بالطريقة التي تعيش بها، مع طموحاتك وأفكارك الخطيرة، ستكون هذه هي الطريقة التي تنتهي بها قصتك. هل سيكون والداك على ما يرام مع ذلك؟ إذا تم اعتقالك وترك إخوتك وحدهم

يعانون ويحزنون عليك؟ ماذا عن الوعد الذي قطعته لوالدك؟».

يحدّق بي، حزن عميق يكتنف تعابيره. قلت: «كنت الفتاة الوحيدة في عائلتي، الأخ الأكبر حمزة. كان عالمي. صديقي المفضل. كل شيء بالنسبة لي. كان هو وبابا في مظاهرة، ولم يتمكنّا من الفرار عندما انقضّ عليهما الجيش. بعد أسبوع، ماتت ماما عندما سقطت قنبلة على بنايتنا».

يقول: «سلامة». نبرته ناعمة وخائفة تقريبا مفا سأقوله. لكنني أكملت: «لقد فقدت عائلتي ولا يزال لديك عائلتك. هناك مشهد أراه كل يوم في المستشفى: ناس على استعداد بيع أرواحهم مقابل دقيقة أخرى مع أحبائهم. أنا منهم». أسفل جفوني يحترق، لكنني منعت نفسي من الانهيار. الأقحوان. الأقحوان ذو رائحة حلوة.

«حاولت زيارتهما في السجن. لكن لم يسمح لي برؤيتهما. كنت على وشك أن يتم اعتقالني أيضا، وكانت معجزة أنهم تركوني أسير حرة. حذروني من العودة». يأخذ نفسا مرتجفا وسرعان ما أفرغ الدموع المتساقطة على خدي.

أتذكر كل شيء، رائحة الدم المؤكسد، الصراخ الخافت الذي يتردد في أذني. كان ذلك قبل أسابيع قليلة من حصار حمص القديمة. السجن ليس في حمص القديمة، وتمكّنت من الدخول إلى المعتقل بأطراف ترتجف. كان الجرح في مؤخرة رأسي في مراحل تكوّن الندبة الأولى، وكان خوف قد بدأ في مطاردة ليالي. لم يكن لدى ليلى أدنى فكرة عما كنت أفعله لأنها كانت طريحة الفراش من الحزن، وعينها شاخصتان، والدموع تنهمر على خديها مثل نهريّن.

قال العسكري: «سلامة كساب»، وهو يميل بشدة

إلى الوراء في كرسيه ويتصفح قائمة ملاحظة بالقهوة. كنت أمل أن تكون قهوة. «نعم». أمسكت بحواف الأريكة الجلدية القديمة حيث كانت الحشوة تخرج، وكلها صفراء متجفدة ومتعفنة. غمغم وهو يحدق في القائمة من خلال نظارته الشمسية الفضية. لم أستطع رؤية عينيه، وقد أزعجني ذلك.

قال بسلاسة: «لقد تسبب والدك وشقيقك في إثارة المشاكل»، لكنني شعرت بالخطر الكامن في نبرة صوته. «من فضلك...» همست، وقلبي يدق. «من فضلك، هما كل ما لدي. والدتي ما... والدي يعاني من ارتفاع ضغط الدم. يحتاج دواءه وأخي...» توقفت عن الحديث. لم أستطع إخبارهم عن ليلي. سوف يستخدمونها لمعاقبته.

«هل تعرفين كم مرة أسمع فيها نفس هذه القصة المبكية؟» قال بصوت غاضب. «من فضلك أخرج والدتي، فهي لا تعرف ما كانت تفعل. من فضلك دع ابني يخرج، إنه الوحيد الذي أملكه في هذا العالم. من فضلك دع ابنتي تخرج، فهي لم تدرك كم عظيمة هذا الإهانة. من فضلك دع زوجي يخرج، إنه عجوز وضعيف». قذف بالقائمة على الطاولة، فأجفلت. «لا. لا لن أسمح لهم بالخروج. لقد خالفوا القانون. لقد خرقوا السلام مع هذه الأفكار».

وصلت صرخة مؤلمة إلى أذني. اغمضت عيني قبل أن أفتحهما لأحدق في الرجل الذي كان يقرر مصير أحيائي في قبضته. كرهته. «لم أذهب إلى أي احتجاج قط، ولن أفعل ذلك أبداً. أقسم. لذا من فضلك، بالنسبة لي، دعهما يخرجان. لن يفعلوا أي شيء من هذا القبيل مرة أخرى. أعدك». أخذ صوتي نبرة توشل، وبدأت أكره نفسي أيضاً. للتذلل

لقاتلينا وجلادينا. لقد وعدت الحكومة منذ فترة طويلة بالعواقب إذا تمردنا. كل ما كنا نخشاه طوال خمسين عامًا أصبح حقيقة.

ابتسم الرجل، وكل أسنانه صفراء، وقام من مقعده بثقل. «فتاة صغيرة». وقف أمامي، وضغطت بأظفري على كف يدي، جفلت. كانت الجروح تتبرعم لتتحول إلى ندبات. «من الأفضل أن تغادري قبل أن تنضمي إليهما».

«أنا أسف»، يهمس كنان، ويوقظني صوته من الكابوس الذي كان يتكرر في ذهني. «لا تتأسف من أجلي». ابتلع ربقي بصعوبة. «لا يزال لديك إخوتك. إذا كنت ستبقى، فلا تهدر من حياتك». أكتافه متقلصة. وأنا أفهم لماذا يفعل ما يفعله. يا إلهي. لكن ليس هكذا. ليس بعدما شعرت بدماء لمت تسيل بين أصابعي كالنبع وسمعته يخبرني عن قلبها الشجاع. ليس بعدما عرفت أن يوسف لا يستطيع التحدث بعد الآن بسبب الصدمة. إنهما بحاجة إلى مساعدة ليست في حمص. كلاهما يحتاج إلى السماح لهما بأن يكونا أطفال.

لكن يتضح من النيران المتلألئة في عينيه والعذاب المكبوت في كلماته: إنه يعلم أن مستقبلًا مقفّرًا ينتظره إذا لم يرحل. إنه ليس أحمو. لكن قلبه يفيض بالكثير من الحب لبلده وهو على استعداد للسماح لهذا الحب بإغراقه وأحبائه. الأمر هو أن سماع قصص عن غضب المحيط يختلف عن الوقوع في وسط الأمواج الغاضبة.

«ماذا تسجل بالضبط يا كنان؟» أسأل، ويبدو أنه مندهش من السؤال. «مهم... الاحتجاجات كما أخبرتك. أغاني الثورة». «وماذا عن الموت؟» يتجهّم. «عندما تنفجر الطلقات النارية، أتوقّف

وأركض». أفكر به لثانية قبل أن أومن وأبدأ في المشي بجانبه، فكرة غير متماسكة تومض في ذهني، لكنه يتنحرج. قال بصوت هادئ: «أمي حموية». أتوقف.

«لقد نجت من مذبحة حماة»، يتابع، والتفت إليه. «عندما اقتحم الجيش مدينتها ودمرها لمدة شهر كامل، نجت. كانت تبلغ من العمر سبع سنوات، وشاهدت شقيقها البالغ من العمر تسع سنوات يُصاب برصاصة في رأسه. رأت دماغه يتناثر في كل مكان. كانت تتضور جوعاً مع عائلتها. كانوا يأكلون مرة كل ثلاثة أيام. لقد فقدت عائلتي حتى قبل ولادتي يا سلامة. الظلم هو كل ما عرفته». توقّف لبرهة، وصدره تصاعد مرة واحدة، وعندما ينظر إليّ، هناك تصميم مطلق في عينيه. كدت أرتجف من شدته. «هذا هو سبب احتجاجي. سبب تسجيلي. سبب بقائي. كل تلك السنوات قبل اندلاع الثورة. ألم تفقدي عائلتك بسبب الديكتاتورية أيضًا يا سلامة؟».

هو يعرف الجواب. لم تفلت أي عائلة سورية من قسوة الديكتاتورية. لقد فقدنا كلانا عائلة في مجزرة حماة قبل أن نولد، لكن خسارة كنان عزّزت عزيمته منذ أن كان طفلاً. لقد كبرت معه. شكلته. خلافاً لي. لقد تجاهلت الخسارة حتى أصبحت واقعي. تتشكّل عُقدة في حلقي ويصعب البلع دون أن انفجر في البكاء، لذا بدلاً من ذلك أسير نحو منزلي. وبعد ثانية، يتبعني.

نحن نقترّب من بعضنا البعض، ممّا يجعلني أكثر قلقاً. أريد أن أمس ليلى لأعرف أنها على قيد الحياة وبصحة جيدة. أحتاج إلى التأكد من أن الطفل لم يقرّر إلغاء خططنا ويأتي مبكراً. نبقى صامتين بقية

الطريق ضائعين في همومنا وأفكارنا. عندما ظهر منزلي، تنهدت من الراحة. الحي الذي أعيش فيه هادئ، وأنا وكنان الوحيدان في الشوارع. يبدو كل شيء طبيعياً قدر الإمكان، ولا يزال الباب الأمامي الأزرق الباهت قطعة واحدة. أخرجت مفاتيحي، وأتحسس القفل بيأس.

كنان يستند على الحائط. «سأنتظر في الخارج.» «ماذا! ادخل قبل أن يطلق أحد النار عليك!» أدخلته وأغلقت الباب بسرعة. المنزل هادئ. لا يتسرب أي ضوء من النوافذ المكسوة في غرفة المعيشة. تتراقص الظلال على جدران الردهة وبطريقة ما يبدو الجو بارداً داخل المنزل مقارنة بالخارج. «ابق هنا». أتمتم. يومئ ويتجه نحو الباب الأمامي في حالة ظهور ليلى فجأة من دون حجاب. أنادي بصوت عالٍ: «ليلى، لقد عدت!» لا تجيب. تتلوى معدتي. «ربما تكون نائمة؟» يقترح كنان وهو لا يزال في مواجهة الباب. «ربما».

أتحقق من غرفة المعيشة التي تنام فيها عادة، لكنها فارغة وباردة بشكل مزعج، ولا تتسرب أشعة الشمس من خلال الستائر. السجادة الموجودة أسفل الأريكة غامقة، والدوائر المرسومة تشبه السحب الرمادية التي تحوم قبل العاصفة. المطبخ المطل عليها صامت أيضاً، كما لو أن شخصاً ما يخفّف الألوان. ينمو القلق مثل الكروم، ويلتف حول هيكل جسدي. أكرر: «ليلى»، وأتوجه إلى الردهة، وخذائي الرياضي يرتطم بهدوء على السجادة.

الظلال تغلف خطواتي، وقلبي في حلقي يرفرف مثل طائر صغير. كان باب غرفة نومها مغلقاً بإحكام، وقمت بتمرير أصابعي على طول سطحه قبل أن أقفز فحس غرفتي أولاً. عندما افتح باب غرفتي،

وأتوسل إلى الله أن تكون هناك، كدت أسقط على الأرض من الراحة. ليلي مستلقية على أغطيتي، تحتضن وسادتي إلى صدرها. عيناها مغمضتان، وشفتاها تتحركان في صلاة صامتة.

«ليلى!» صرخت، وانفتحت عيناها بقوة، وخرج صوت مختنق من حلقها. «سلامة!». إنها تلهث، تقفز من السرير. اصطدمنا ببعضنا البعض، ذراعاي ترتجفان وأنا أضمها بالقرب مني، وشعرها في فمي. لكنني لا أهتم. إنها على قيد الحياة وحامل. حامل جدًا، وبطنها يصدمني. تميل إلى الخلف، وتمسك بكتفي، وتهزني. «أين كنت؟» تتساءل.

«لم يكن من الممكن نقل المريضة من منزلها، لذلك اضطررت للذهاب إلى هناك وإجراء العملية. ثم اندلع قتال بين الجيش السوري الحر والجيش، ولم أتمكن من المغادرة». قلت ونفسي منقطع. عيناها محمضتان، وخذاها مبقعان، لكنها تأخذ نفسًا عميقًا. «تمام». «لقد أعادني شقيق المريضة إلى المنزل. إنه، ممم، إنه هنا»، قلت في محاولة لاكون غير مكترثة. تنظر من فوق كتفي. «هنا؟ في منزلنا؟» أومئ. تبدأ في الإدراك ببطء وتتجلى الصدمة الفاضحة في كل كلمة. «أوه يا سلامة. هل قضيت الليل في منزل شاب؟» أدفع كتفها بشكل هزلي وهي تضحك. «توقفي عن ذلك» أتمتم. «لقد مرضت تقريبًا من القلق. لماذا لم تردّي عندما اتصلت؟». تنظر إلي بشكل واضح. «أنت تعلمين أنني لا أجيء على أرقام مجهولة!».

أضع يدي على وجهي، وأنا أتنهد. «تمام. تمام. الحمد لله أنك بخير. هذا كل ما يهم». «أنا بخير». «يجب أن أخبر كنان أنك بخير. يمكنك أن ترخبي به إذا أردت». أعطتني نظرة غاضبة وأشارت إلى

نفسها. الشعر المتطاير والعيون الدامعة والملابس المتجعدة. «أرحب به بهذا المظهر؟ لا، شكراً لك، أفضل البقاء هنا». أهرأ رأسي مبتسمة.

لا يزال كنان يدير ظهره لي عندما خرجت. أتفحص كتفيه العريضتين والطريقة اللطيفة التي يضع بها يديه في جيوبه وهو يتأرجح ذهاباً وإياباً على كعب حذائه. أتوقف وأسمح لنفسى لمدة دقيقة واحدة أن أتخيل حياتنا المحتملة في هذا الردهة المغبرة؛ أنني أعيش فيلمي الخاص في ستوديو جيبي؛ أنه في هذا الكون، هو وأنا لدينا نكتتنا الداخلية، وإصبعي البنصر ترتدي الخاتم الذهبي الذي أعطاني إياه. تلك الأفكار تجعل خذي يحترقان، لكنني لا أهتم. أنا مدينة بهذا. أنا مدينة لمخيلتي على الأقل. أنادي عليه: «كنان. يمكنك أن تستدير. ليلى لن تخرج». يفعل ذلك ببطء شديد، وما زالت نظراته ملتصقة بالسجادة. «هل هي بخير؟» يسأل، وأخيراً التقى بعيني. أومئ له.

تنطلق نظراته فوق الردهة وهو يستوعب الرثاء. لا يقول شيئاً، وأرى الحزن في تعبيراته. «هل أنت متأكدة من أنها بخير؟» يسأل مرة أخرى. «يمكنني الذهاب لأحضر لك شيئاً. مثل... الخبز أو الحليب إذا كان متاحاً في السوبر ماركت». أهرأ رأسي. «شكراً لك. نحن بخير. إنها في حالة جيدة». يزفر. «حسناً. أعتقد... هذا هو الوداع». أمضغ لساني، وأشعر ببعض الانزعاج من هذه الكلمة. كم أكره ذلك. الوداع!

«صحيح» أقول بدلاً من ذلك. أوما لي قبل أن يفتح الباب وينظر إلى الوداع مرة أخرى. «شكراً لك يا سلامة على كل شيء. أنت لم تنقذي حياة لى فحسب، بل أنقذت حياتي وحياة يوسف أيضاً».

يبتسم، عيناها خضروان مشرقتان ودافقتان. في الوقت الراهن، على ما أعتقد.

ثم ينزلق عبر الباب وفكرة غير متناسكة تتشكل في الجزء الخلفي من ذهني تشق طريقها أخيرًا إلى فمي. «كنان!» ناديته. توقّف على بعد بضعة أقدام. «نعم؟» يسأل، وأقسم أنني أسمع الأمل. أمشي نحوه، وأفرك ذراعي. يمكنني إنقاذه وإخوته. أعلم أنني أستطيع. «سجل في المستشفى» قلت عندما اقتربت بدرجة كافية حتى أتمكن من رؤية النمش على رقبتة. يبدو متفاجئًا. «ماذا؟».

«تعال إلى المستشفى وسجل أحوال المصابين. أنت تقول إنك تريد المساعدة، اليس كذلك؟ أظهر للعالم ما يحدث؟ حسنًا، لا شيء يصرخ بالظلم أكثر من ذلك. عادة ما تكون التظاهرات ليلاً. ولأن الظلام يكون قد حل، فإن الرؤية ليست جيدة. لكن في المستشفى، أنت ستكون أكثر تأثيرًا». ويتحول صوتي إلى همس هادئ.

تلمع عيناها عند سماع كلامي ويحدق بي لدقيقة طويلة قبل أن يقول: «لماذا؟» أكرر سؤاله:

«لماذا؟». «لقد أوضحت أنك تعتقد أن ما أفعله خطير. لماذا تريدني أن أفعل المزيد من ذلك، أقرب إليك؟». أطرق مفاصل أصابعي بحثًا عن طريقة لتصريف القلق المتراكم في دمي. لأنه عندما ترى الناس الذين يموتون. عندما ترى الأطفال المشوهين وتسمعهم يبكون من الخوف والألم، ربما ستعرف حينها كم أنت محظوظ لأنك بخير. أنه يمكنك المغادرة. لم أقل ذلك، بل قمت بالنظر إليه بنظرة باردة. «اعتقادي بأن الأمر خطير لا علاقة له بحقيقة أنني أحب بلدي، ولا أريد أن أرى المزيد من الناس يقتلون». تتحول أدناه إلى اللون

الأحمر ويغطي وجهه بيد واحدة. «أنا... أنا اسف. لم أكن...». أهز رأسي. «لا بأس. أعلم أنك لم تقصد الأمر بهذه الطريقة. اسمع، أنا لا أجبرك. هل ترغب في فعل ذلك؟».

وضع ذراعيه بجانبه، والتقيت مرة أخرى بعينه الخضراوين اللامعتين. يقول: «نعم». أشعر بقشعريرة تسري في ظهري صعودًا وهبوطًا. «أجل... أريد». تنهدت في ارتياح. «جيد. علينا أن نطلب الإذن من الدكتور زياد، لكنني أشك في أنه سيمانع. إنه مستعد لهذه الحرب». يقول كنان: «الثورة يا سلامة». ابتسامته حزينة. «إنها ثورة». ضمنت شفتي. «كن في المستشفى غذا في الساعة التاسعة».

عندما عدت إلى الداخل، رأيت ليلي واقفة أمام الباب مباشرة مبتسمة أكبر ابتسامة رأيتها تبسمها في حياتي. «كنان، هاه؟» تهز حاجبيها وأنا أتمتم. «لقد بدا عليك الارتياح للغاية هناك. كنت على مقربة من فتح الباب والسير إلى هناك بنفسني لأرى ما كان يحدث». اندفع من جوارها، والحرارة تستحوذ على خدي، لكنها كانت سريعة، أمسكت بذراعي وأدارتني في اتجاهها. «لماذا تحمزين خجلًا؟» تسأل. «لست كذلك!» أتلعتم. تُضيق عينيها. «هل تعرفينه؟». «نعم؟».

قالت بنظرة شرسة: «يا إلهي، إذا كنت ستطيلين إجاباتك، فسوف أضربك على رأسك!». «حسنًا! أنا... نحن... هو الذي كان من المفترض أن يأتي مع والدته العام الماضي من أجل الحديث عن الزواج». أقول ذلك على عجل وكأنني أمزق ضمادة. صمت. ثم...

«يا إلهي!». لا توجد وسيلة لمقاطعتها عندما تبدأ ليلى في الحديث بتدفق. كل ما اعتقدت أنها ستقوله وكل شيء لم أفكر فيه بعد ينفجر على الفور. كنان وأنا مقدران لبعضنا. هذا هو المصير. هذا هو الحب الحقيقي. سأكون سعيدة. سأتزوج. سنكون ثنائيًا قويًا. ستكون العممة المحبوبة التي سيعشقها أطفالنا. هذا رائع. سيكبر أطفالنا مغا. سنتجاوز المصاعب. حديثها يتبعني من المطبخ إلى غرفتي حيث أغير ملابسني إلى سترة نظيفة وأعود إلى معطفي الطبي -لأنني متأخرة بالفعل على ورديتي في المستشفى- وأتوجه مرة أخرى إلى الباب الأمامي.

«ليلى، هذا يبدو جميلاً وكل شيء»، قلتها أخيرًا عندما توقفت عن الحديث لتلتقط أنفاسها. «لكن لدينا أشياء أكبر يجب أن نقلق بشأنها». أخذ نفسًا عميقًا، وأعدت نفسي للكلمات التي ستدقني. «لقد قررت أننا سنغادر. سأحدث مع أم وسأجد طريقة لدفع ثمن هذا القارب». تتوقف ليلى فجأة، وفمها مفتوح. «ماذا... ما... الذي غير رأيك؟» تهمس. أخذت بقعة على كمي. «الواقع الذي نعيشه».

تمد ليلى يدها وتمسكني من كتفي وتعانقني بقوة. «أعرف مدى صعوبة هذا القرار بالنسبة لك. ولكنك لن تفعلي أي شيء خاطئ، حسنًا؟» لا أقول شيئًا، فقط أستنشق رائحة الأبقحوان. «قولي ذلك»، تقول بقوة. «قولي إنك لن ترتكبي أي خطأ بمغادرة المكان». أطلقت ضحكة مكتومة. «أنا... لا أرتكب أي خطأ بالمغادرة».

تترك كتفي وتمزق أصابعها على خدي، قائلة: «جيد». قبل أن أخرج، أمسكت بيدي ونظرت إليها. «سلامة»، تقول وهي تبسم. ومع ضوء الشمس

المتدفق من الباب المتصدع وهو يداعب وجهها، تبدو كما كانت في الأيام الخوالي. خدود وردية وعيون زرقاء تتألق بالحياة. «لا يضرك أن تفكري في مستقبلك. ليس علينا أن نتوقف عن الحياة لأننا قد نموت. قد يموت أي شخص في أي لحظة وفي أي مكان في العالم. نحن لسنا استثناء. نحن فقط نرى الموت بشكل أكثر انتظاماً منهم».

أفكر في كنان، وربما الحياة. ماراتون أفلام جبيلي في ليالي السبت. جمع النباتات والزهور في الأصص حتى تمتلئ شقتنا بالحياة دائماً. أستضيف ليلي والطفلة سلامة لتناول العشاء وأستمتع بابتسامة أخي. حمزة وكنان يرتبطان بشيء مثل كرة القدم أو ألعاب الفيديو. ننحنح بصوت عالٍ إلى حدٍّ ما. «حسناً، سأراك الليلة يا ليلي». الابتسامة التي تعطيني إياها تعكس ابتسامة كنان في حزنها.

«لا»، يقول أم، وتجمّعات حمضية تعلو في معدتي.
«لا استثناءات».

نقف في الردهة الرئيسية مرة أخرى ويدي مليّتان بدماء المرأة التي ساعدتها منذ عشرين دقيقة. انفجر الجرح الذي أصيبت به في رأسها، ولم تتماسك العُزُر، وأغمي عليها بسبب فقدان الدم. طوال فترة علاجي للجرح، كنت أجهّز ما سأقوله لأم، لكنه قاطعني بمجرد أن فتحت فمي. يقول بعينين جامدتين: «أنا لا أقوم بأعمال خيرية يا سلامة. كل من يريد خدماتي لديه مشاكل. أنت لست الوحيدة. كان لديّ أب لديه ثلاثة أطفال وزوجة مريضة. لقد قلت له 'لا'، وسأقول 'لا' لك أيضًا».

انقبض فكّاي، وحفرت بأظفري في راحتي. أنا أكرهه والطريقة التي يستفيد بها من رعبنا. أعلم أنني أستطيع استخدام ذهب ليلي للمساومة معه، لكن لساني مثقل بالكبرياء. لقد اتخذت أخيرًا القرار الفظيع بترك مرضاي ورائي واحترام رغبات حمزة، لكن جشع أم أوقفني.

يعضّ ظفّره. «لا شيء يقال؟» لا بذلي من التحرك بعناية. أنا ويلي لا نستطيع أن نعيش على الكبرياء وحده. إذا أهنته، فقد لا يوفر لي قاربًا، حتى لو عرضت عليه كل الذهب الموجود في العالم، فقط ليفيظني.

«سأجد طريقة لأحصل لك على المال»، أقول بصوت مهذب قسري. «لكنني أطلب منك إعادة النظر. أنا ويلي صغيرتان، ولا نتكلم الألمانية. لم نغادر سوريا قط. أنت وأنا أقرباء. نحن سوريون». لم يقل أم شيئًا، لكن هناك وميض مختلف داخل عينيه. يبدو كما لو أنه معجب بي. أخيرًا، همهم: «لو أمكننا

جميعاً أن نعيش على الثبل! ابحتي عن المال وإلا فلن يكون هناك قارب». وبهذه الجملة يبتعد.

عندما تمتزج خيبة الأمل والرعب معاً، يشكّلان حبة مريزة تكون أثارها طويلة الأمد. يبقى طعمها في فمي طوال اليوم، ويقوى عندما أعود إلى المنزل، مرهقة للغاية، وأرى وجه ليلي المتوتر وأنا أخبرها بما قاله ام. إنها لا تسأل لماذا لم أعرض عليه ذهبها، وأنا ممتئة لها لذلك. تضعني في السرير وتمشط شعري للخلف. «لا بأس» همست. «سنكون بخير».

أحذق في السقف وأشعر بفراغ في صدري. وكأن قلبي لم يغد موجوداً هناك، وأنا أعيش على كل ما علق في ضلوعي من شظايا. ما أن سمحت لنفسني بالتفكير في الرحيل، حتى ثمت في عقلي شتلات الأمل، وسيطرت على مخيلتي. ليست حياة محتملة، بل حياة حقيقية مع ليلي وشقة في ألمانيا. إنها ضيقة ولكن جيدة. نتعافى ونملؤها بالضحك ورسومات الطفلة سلامة. وفي يوم من الأيام، وجدت الإرادة لكتابة القصص السحرية التي دفنتها منذ فترة طويلة في ذهني. أنا وهي، نبني منزلاً مما تبقى من عائلتنا.

تبقى ليلي معي حتى يتحول الفسق إلى ليل. «سأكون هنا إذا كنت بحاجة إلى أي شيء، حسناً؟» تقول، وأومئ. عندما تغلق الباب خلفها، يخيم صمت غريب على انصرافها، وتستأنف مخيلتي الغبية من حيث توقفت. هذه المرة فقط، كنان موجود في شقتنا. وكذلك إخوته. نحن سعداء وأمنون ونتغذى جيذاً. ولدقيقة واحدة، لا يبدو ظلام الليل قاتماً إلى هذا الحد. وذلك حتى يضحك شخص ما من الزاوية. أرفض أن أنظر.

«لو أستطيع أن ألخص حياتك في كلمة واحدة يا سلامة...». أسمع هسهسة ولاعته. شهيق عميق. زفير. «ستكون المفارقة». «تبا لك» أنا أنعق.

أشعر بأن خوف يجلس بجانبني، لكنني لا ألتفت إليه على أمل أن يرحل. عظامي مصنوعة من الفولاذ وأنا مشغولة بمحاولة جمع قطع قلبي لتרכيها مرة أخرى من أجل جحيم الغد المحتوم. أنا على دراية تامة بمخبا البانادول المختبأ في الدرج، ويجب أن أحارب نفسي حتى لا آخذ واحدة. أو ثلاثة. حتى ليلى لا تأخذ واحدة منها عندما تعاني من الصداع. نحن نحفظها ليوم ممطر.

أستطيع التنفس من خلال هذا. ويتابع خوف: «يجب أن أقول. أنا فخور جدًا بتقدمك. لكن دعينا نأخذ الأمر إلى مستوى أعلى. ستخبرين أم غذا أنك ستعطينه كل ما لديك من الذهب. بشأ، سوف تعطينه هذا المنزل أيضًا إذا أراد ذلك. لا يعني ذلك أنه سيستفيد منه. لكن ربما». أصمت وأجد نفسي أشتاق إلى الليلة الماضية التي غاب فيها خوف. أتوق للتحدث مع كنان مرة أخرى ورؤية شعلة الحياة تحترق في عينيه.

«لا»، يقول خوف باقتضاب. «هذا الشاب ليس سوى عقبة. بقلبك الناعم، سوف تمنحك أفكاره الوطنية بسهولة عن المغادرة. لقد عملت لفترة طويلة جدًا وصعبة للغاية لأتمكن من تغيير رأيك. أنت...». «راحلة، أعلم ذلك»، قلت فجأة ونظرت إليه أخيرًا. نظراته تومض فوقني باستياء، لكنني لا أهتم. «ابتعدي عن كنان». أقول: «لا تقلق، وعدي لحمزة يأتي أولاً». «من الأفضل أن ثصلي لكي يقبل أم بالذهب».

يبتسم خوف، وأنيابه حادة. «أوه، أنا على ثقة أنك

ستفعلين كل ما في وسعك لإقناعه». يثني أصابعه، وتتراقص السيجارة من إصبع إلى أخرى، وتبدأ الظلال على الجدران والسقف في تغيير شكلها. أفواه فاعرة وعيون جوفاء تحقق بي، وسرعان ما تبعتها صرخات مؤلمة، لذا وضعت يدي على أذني وأغلقت عيني بإحكام. «أنت تعرفين ما سيقوله حمزة، أليس كذلك؟» قطع أفكاري صوت خوف. «كيف يريد منك أن تغادري. كيف كان يتوصل إليك».

«سلامة»، صوت حمزة يهمس في أذني. يبدو كأنه مجروح. «سلامة، لقد وعدتي، أتذكرين؟ سوف تنقذين ليلي، ونفسك. سوف تعوضين عن ترك ماما تموت. لن تتراجعني عن كلمتك، أليس كذلك؟». يحترق الجزء الخلفي من عيني وأتدحرج لأضغط على الوسادة فوق رأسي. «توقّف... أرجوك».

سيطر الصمت على الغرفة، وأعتقد أنه فعل ذلك للحظة. لكن عندما أفتح عيني، يقف حمزة أمام سريري. هناك جرح مفتوح في جبهته، ضاقت عيناه العسليتان من الاستياء، وهناك بقع من الكدمات على خديه. إنه يرتدي الملابس التي رأيته فيها آخر مرة، لكنها ممزقة وموحلة ودامية.

«لا»، أتذمر. هذا ليس هو. هذا خوف. لكن في أعماق قلبي، أعرف أنه هو. حتى لو كان ما أمامي شبحاً، فلا بُد أن حمزة يعاني الآن، إذا لم يكن ميتاً. «سلامة، إذا قبضوا على ليلي، هل تعرفين ماذا سيفعلون بها؟» يهمس، ويخرج من شفتي صوت مؤلم. «إذا قبضوا عليك؟ لن يُسمح لك ولليلي بالموت أبداً. سلامة، عليك أن تغادري. فكّري في بابا. فكّري بي». أشعر بأن دموعي كالحمض على بشرتي، تقطر على وسادتي.

«حمزة، من فضلك، قلت سأفعل». يهز رأسه. «ثم لماذا لم تعطي أم ما يريد؟ سلامة، البقاء هو كل شيء!». أقول: «سأفعل. لقد وعدت بأنني سأفعل». عندما رمشت، اختفى حمزة، وصوت خوف يلوح في الأفق من جديد. «في كل مرة يجعلك كلام كنان تشكين في قرارك تذكرني أخاك». «جذور الدم»، أهمس. «بتلات بيضاء، مركز أصفر. يفرز سائلاً أحمر. فقال بجرعات منخفضة لأمراض الجهاز التنفسي. جذور الدم. جذور الدم. جذور الدم». يتابع خوف: «إذا غير هذا الشاب رأيك يا سلامة، سأفعل ما سيجعلك لا تتذكرين حتى ما هي الزهور».

11

في اليوم التالي، هرع إلي الدكتور زياد بمجرد دخولي. وكانت على وجهه ابتسامة لم أرها منذ فترة طويلة. «سلامة!» يصرخ. «لقد حصلنا على شحنة من الأدوية. بانادول، سيبروفلووكساسين، أزيثروميسين. حتى المورفين!».

ينفتح فمي، ويرتفع قلبي حتى يعبر السحاب. لو كانت الحياة طبيعية، لكان من واجباتي اليومية أن أطلع الدكتور زياد على آخر المستجدات بشأن مخزون الأدوية. سيكون التوزيع والاستشارة والجرد هو مجالي. إعادة التخزين ستكون مهمة في أحسن الأحوال. ليس سبباً للاحتفال. «كيف؟» يقول الدكتور زياد: «لقد تمكن الجيش الحر من تهريبها». مزر يده على شعره، وكانت هناك طاقة أمل تنبعث منه. «لقد وضعنا الصناديق في مخزن الأدوية من أجلك».

أبتسم بإشراقة. «أنا في الطريق». المستشفى أكثر إشراقاً اليوم. وجوه المرضى، رغم أنها لا تزال متعبة ومتألمة، تظهر عليها درجة من السعادة. أو ربما هذا مجرد مخيلتي. قبل أن أنطلق بسرعة، يمد الدكتور زياد ذراعه. «لقد غادرت المستشفى فجأة أمس. هل كل شيء على ما يرام؟ هل تأكلين جيداً؟ تنامين؟ هل تحتاجين لأي شيء؟». أقول: «أنا بخير». وفي هذه اللحظة، محاطة بالمرضى، لا يبدو الأمر وكأنه كذبة. في الوقت الحالي، أنا بخير. كلي بخير.

إذا كان لا يصدقني، فهو لا يظهر ذلك. ولإلهائه، أخبره عن لمى وكيف سارت الجراحة بشكل جيد. يتהלل وجهه ويمتدح تفكيري السريع. يقول مبتسماً: «أحسن».

قفزت إلى المخزن، خطواتي أخف من ذي قبل.

ناسية كل شيء عن الكوابيس التي جرتني إلى الأسفل الليلة الماضية. اليوم هو يوم جيد. وسيكون يومًا جيدًا إن شاء الله. الصناديق الكرتونية مجفدة، وزواياها مضغوطة، لكن عندما أفتحها، أجد الأدوية كلها سليمة. إنها باردة الملمس، وأنا أضُم زجاجة كاملة من شراب الأسيتامينوفين المخصص للأطفال إلى صدري. سنكون قادرين على تهدئة الحمى.

«سمعت أننا حصلنا على مخزون جديد»، قال صوت من المدخل، فالتفتُ لرؤية نور. يضيء وجهها المستدير بالبهجة. كانت نور جزءًا من طاقم الحراسة لمدة ثلاث سنوات قبل أن تتم ترقيتها على الفور إلى ممرضة عندما تم نقل الشهداء الأوائل إلى المستشفى. تعلمتُ من نور لأول مرة كيفية خياطة الجروح، وتصميم الضمادات المؤقتة، وتصريف السوائل من رئتي المرضى. أعصابها من حديد وقلبها أرق من الريش.

ألوح بصندوق فلوكلوكساسيلين. «ما سمعته صحيح!» تزغرد وأنا أضحك. تبدو الفرحة غريبة على أذني، لكنني أرحب بها. يجب أن أتحقق من مريض، ولكنني كنت بحاجة لرؤية هذه المعجزة بنفسي. تضحك. «إذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة، ابحثني عني». «سأفعل». تغادر. وأقوم أنا بتكديس الرفوف الفارغة لبعض الوقت، ثم أنظر إلى الساعة. إنها 10:13 صباحًا.

كنان!

طلبت منه أن يكون هنا في الساعة التاسعة، لكنه لم يحضر بعد. ولتستيت بعض القلق الذي أشعر به، فزرتُ أن أقوم بجولة سريعة حول المستشفى. ربما هو هنا لكنه لا يستطيع العثور علي. أنتقل عشوائيًا

من غرفة إلى أخرى، لكن لا يمكنني العثور عليه في أي مكان، لذلك أعود إلى المخزن. يستعيد القلق مكانه في داخلي وأحاول ألا أفكر في كل أسباب عدم وجوده هنا. لا تزال أخته تتعافى، وربما كانت في حاجة إليه. أدعو لها سريعًا من أجل استعادة صحتها. ربما يمكنني المرور على شقتهم مع شريط بانادول بعد مناوبتي. جزء مني -جزء أحرق ومفعم بالأمل والذي نجا بطريقة ما من كل شيء- سعيد لأنني سأتمكن من رؤية كنان مرة أخرى.

أهز رأسي. هذا ليس الوقت المناسب لأفكاري الأنانية عن الحياة المحتملة والشاب طويل القامة ذي العينين الخضراوين الدافنتين والحيويتين. «صباح الخير»، يقول كنان من خلفي، وأكاد أقفز من جلدي. وقلبي ينبض مثل الرعد. أستدير ببطء، وأعطي نفسي وقتًا لأبدو هادئة ومتماسكة قبل أن يتمكن من قراءة كل الأفكار المكتوبة على وجهي.

لقد ألقته برد الصباح بارتداء سترة فوق سترته القديمة. يتكى على إطار الباب، وذراعه مطويتان على صدره. شعره أشعث، وأطرافه تتجعد حول أذنيه، ووجهه محمر من البرد. كاميرا «كانون» قديمة معلقة إلى جانبه، ملطخة باللون الأبيض عند الحواف ومتشقة قليلًا.

«صباح الخير» أجبت، وطوعت صوتي ليظل هادئًا وليس متحمسًا للغاية. «أنت متأخر. هل كل شيء على ما يرام؟ كيف حال لمي؟». يبتسم والفراشات ترفرف في معدتي. «نعم، شكرًا لك على السؤال. تراجعتم الحمى الحمد لله. يوسف في حالة جيدة أيضًا. لقد ناما في الصباح، ولم أتمكن من المغادرة قبل أن يستيقظا». أعبت بعبء المضادات الحيوية في يدي. «حسنًا، أنا سعيدة لأنكم بخير». «نحن

بخير». يحدق بي لبضع ثوانٍ وأشعر بلمسته في كل مكان.

في حياتنا المحتملة حيث وعدنا لبعضنا البعض، كان ليقف أمامي الآن، ممسكًا بمناقيش حلومي طازجة، والجبن الذائب على الخبز الدافئ يتسرب عبر الغلاف الورقي، بينما يقدم معها كوبين من شاي الزهورات، تملأ أوراق النعناع الهواء بنضارتها. إفطار سريع قبل أن نواصل يومنا. كان ليمزح معي ويخبرني عن الحلم الذي راوده الليلة الماضية. وقبل أن يغادر، لم يكن ليقتل يدي أو خذي لأننا لم نتخط الخطوة الرسمية للخطوبة بعد، لكنه كان سيرسم ابتسامة على شفتيه. أتساءل عما إذا كان يفكر في ذلك.

يتنحني: «إذن، أه، أين الطبيب الذي أحتاج إلى إذهنه؟». أبريش بعيني. «حسنًا». وضعت المضاد الحيوي جانبًا وطلبت منه أن يتبعني. ينضم إلي بخطوات ونمشي عبر الممرات إلى الردهة الرئيسية، حيث يكون الدكتور زياد عادةً في الصباح.

«حسنًا، اسمع» بدأت، وأخذت نفسًا عميقًا، ونظر إلي. «أعلم أنها كانت فكرتي أن تفعل هذا، لكن الأمر لا يأتي من دون مخاطر. نحن نعيش في أوقات خطيرة ولا تعرف كيف يمكن أن يؤثر ذلك عليك». يعبس. «تقصدين الواشون؟». أومئ. «الجميع هنا على حذ علمي - يشاركونك مثلك، لكن هذه يمكن أن تكون مجرد كلمات. لذا، إذا كنت لا تريد أن تفعل هذا، فهذا...».

«أريد ذلك»، يقاطعني. «لقد فكرت في الأمر طويلاً، وبحسم. وقلت لك، لا يهم الجيش إذا كنت تقومين بالتصوير أم لا. إذا كنت تشفين الناس أم لا. سنكون جميعًا متضررين، وسنواجه جميعًا نفس

المصير. وأنت تعرضين نفسك لنفس الخطر الذي أتعرض له».

أرتعد. إنه على حق. باعتباري صيدلانية، سأواجه تمامًا ما واجهه حمزة. من المحتمل أن يكون الدكتور زياد أسوأ منا، لأنه رئيس الجراحين. وينتهي كنان كلامه قائلاً: «لذا، من الأفضل أن نقاتل. لن أسمح لهم بالتحكم في مخاوفي». ضربت كلماته على وتر حساس بالنسبة لي، ونظرت بسرعة بعيداً حتى لا يفهم تعبيرى. لن أسمح لهم بالتحكم في مخاوفي.

نعثر على دكتور زياد واقفاً بجانب رجل ملفوف بالضمادات على ذراعيه ورجليه، وعينه اليسرى مغلقة ومنتفخة. إنه مستلقٍ على السرير، وحيداً، ويحدق أمامه بفارغ الصبر. ننتظر حتى ينتهي الدكتور زياد من فحصه. عندما يلتفت نحونا، يبتسم بحزن.

«ممم، دكتور زياد، ممكن لحظة؟» أسأله، محاولةً ألا أنظر إلى الرجل المصاب. ينقل بصره بيني وبين كنان. «بالتأكيد». يومئ ويقودنا إلى ما هو بمثابة مكتبه وغرفة إضافية للمرضى المعرضين لمخاطر عالية. يوجد سريران للمرضى مستندان على الحائط، مكتب الدكتور زياد مليء بالأوراق المبعثرة. أشعة الضوء تدخل من النافذة ذات اللون الأصفر. «هل هناك شيء يمكنني المساعدة فيه؟» يسأل بعد إغلاق الباب.

أمسكت بأطراف حجابي. «دكتور زياد، هذا كنان. الشاب الذي كانت أخته بحاجة إلى مساعدتي». «كيف حالها؟» دكتور زياد يسأل كنان. «بخير الحمد لله. شكراً لمجهود سلامة. إنها رائعة». يبتسم لي فترتفع درجة حرارتي الداخلية بضع درجات. ويوافقه الطبيب قائلاً: «نحن محظوظون جداً

بوجودها». أتمتم: «هذا لطف كبير منكما أن تقولوا ذلك»، وأشعر بذاتي. ثم بصوت أعلى، أواصل: «دكتور، كنان هنا» -أنظر إليه ويومئ- «إنه يصور الاحتجاجات، وكنت اتساءل عفا إذا كان يمكنه أيضًا تصوير المرضى القادمين، لتوثيق قصصهم حتى يتمكن العالم كله من رؤية ما يحدث». يقول كنان: «وأريد إذنك يا سيدي».

يبدو الدكتور زياد مهتفا ويحك ذقنه وهو يفكر. أصبحت التفاعيد حول عينيه أكثر وضوحًا، وتحفر بشكل أعمق على أطراف عينيه. يقول: «أنا أذن لك. إذا كنت تكتب قصصًا فردية، فستحتاج إلى موافقتهم أولاً. لكن إذا حدث تفجير كبير وأحضروا الضحايا، أظهر كل شيء». يبتسم كنان وهو يصافح الدكتور زياد ويشكره. الدكتور زياد يودعنا قبل أن يغادر لاستكمال جولاته.

«أنا معجب به». يحق كنان بالدكتور زياد بإعجاب. «إنه بطل خارق». لا يوجد كلام يصفه غير ذلك. «يلاً. دعني أصطحبك في جولة بالمستشفى». تومض عينا كنان بقدر متساوٍ من الحزن والسعادة، ويلعب تأثير ذلك على مقاهيمي السخيفة عن الأمل. عن تلك الحياة المحتملة. يستمع باهتمام لكل كلمة أقولها وأنا أشرح الأقسام المختلفة وكيف نقوم بتقسيم المرضى على أساس خطورة حالاتهم. أخبره عن الحالات الأكثر شيوعًا لدينا. أحيانًا تكون صدمة رؤية الجثث الدموية، وخاصة الأطفال الذين أطلق عليهم القناصة الرصاص، كافية لانهياري. لا أخبره عن المرات العديدة التي حدث فيها ذلك. كم مرة اضطررت للخروج من المستشفى وتقنيات.

نمض بجناح الولادة في طريق عودتنا إلى القاعة الرئيسية. «هذا هو المكان الذي نقيم فيه النساء

الحوامل. ولا يمكننا إعطاؤهم أي مسكنات لأنه لن يكون لدينا ما يكفي لإجراء العمليات الجراحية. لقد خسرنا، والبعض لم ينج. والأسوأ هو عندما تموت الأم ويعيش الرضيع. الأطفال هناك». أشير نحو الغرفة الأخرى المجاورة للقاعة.

يتجهّم في تعاطف ويستدير ويرى الأطفال الرضع في الداخل. «هل هم في الحاضنات؟». «نعم. أنا... لا أحب المجيء إلى هنا. إن رؤيتهم صغارا جدًا وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم، هذا كثير جدًا عليّ. تم إخراج البعض من أرحام أمهاتهم ويحتاجون إلى الحاضنات للبقاء على قيد الحياة. والبعض الآخر أكبر بضع أشهر ومريض».

«ماذا يحدث حين تتحسن صحتهم؟» أعبس. «المحظوظون لديهم عائلة. أما الآخرون فيبقون هنا حتى تتمكن دارة الأيتام من استقبالهم...». ارتعد. «لا أريد دفن الأطفال». قلبي يدق بسرعة شديدة. لوتس. أوراق وردية. استقرار ضغط الدم. شفاء التهابات. لوتس. لوتس. لوتس.

عندما لا يقول أي شيء، ألقي نظرة عليه. لا تزال عيناه ملتصقتين بالصناديق المعدنية، تلك التي تُبقي الأطفال على قيد الحياة، ويمر وميض من العاطفة على وجهه. يصر على أسنانه، وينثني الوريد في رقبته.

«تشعرين بالعجز يا سلامة. لكن أنا...». لهجته هادئة لكنها غاضبة. «لا أحد يستحق هذا. هنا يتضور الأطفال جوعًا، بينما في مدن مثل دمشق يتخلص الناس من بقايا طعامهم لأنهم شعبوا».

استطيع أن أشعر به يهتز دون لمسه. لا أفكر كثيرًا في الناس في دمشق، حيث تم سحق بعض الاحتجاجات بسرعة تحت وطأة الحكومة، وعاد

الناس إلى حياتهم «الطبيعية». إذا سقطت دمشق من برائن الديكتاتور، فإن قبضته ستختفي من كل سوريا. دمشق هي العاصمة. كل قرار يتم اتخاذه هناك له آثار تموج في جميع أنحاء البلاد. فهي معقلهم. إن انتصارات أجدادنا عبر التاريخ راسخة في تراثها. لكنها تنتمي إلى الأشخاص الذين يضخون بحياتهم من أجل تحريرها.

يذهلني كيف أن المسافة بين حمص ودمشق لا تتعدى ساعتين ونصف بالسيارة. في إحدى المدن، يتم انتشال الناس من أنقاض المباني المدمرة، وفي الأخرى، يجلس الناس في المقاهي يشربون القهوة ويضحكون. أحاول ألا أفكر في ذلك. لدي عائلة بعيدة هناك. كما حال معظم الناس في حمص. في النهاية، نحن جميعًا مرتبطون إلى حد ما.

قلت بحزن: «ليس هناك فائدة من الغضب بشأن ذلك. لدينا جميعًا مسارات مختلفة للمضي. مهما كان الأمر يستحق، على الأقل نحن نفعل الشيء الصحيح». ينقر بقبضته على جبهته عدة مرات. «تربن الجيش يضرب الناس في الشوارع ويسحبهم ويقتلهم، وتربن إخوتك الصفار وهم يحاولون تدفئة أنفسهم في الليل، وتعتقدين أن الأمر لا يمكن أن يصبح أسوأ من ذلك. لكن هنا يا سلامة، هنا يموت الأمل. حقيقة أنهم لا يعرفون ما يحدث فكيف يمكنهم ذلك؟ إنهم أطفال زضع. إنهم مجرد أطفال». أتذكر أحمد، كيف كان جسده مجوفًا مثل الصدفة. أنفاسه الشاقة والهدوء الشاسع في عينيه وهو يقبل الموت. لقد كان أيضًا مجرد طفل. كنان لم ينته أيضًا. «سلامة، هذا ليس أسوأ ما في الأمر. كيف يمكنك ضمان عدم سقوط القنابل على المستشفى؟ كيف...».

«لا تفعل...» همست. يواجهني ويلتقط الرعب على وجهي. «لا تقل ذلك». يرتجف، ويومئ. هذه المرة، كلانا نفكر في نفس الأفكار الفظيعة؛ أن إيماننا في المستشفى أصبحت معدودة، وأن الجيش السوري الحر في حمص القديمة هو الوحيد الذي يدافع عنا ضد الجيش. نحن محاصرون من جميع الزوايا والسماء. في أي يوم الآن يمكن للجيش أن يسقط قنبلة ويمحو ملجأنا الهش هذا إلى شظايا. أنه لو -لا سمح الله- أنجبت ليلى هنا بلا مستشفى، فإن فرص بقائها على قيد الحياة ستكون معدومة تقريبا. أي إذا لم يحدث لها أي شيء آخر أولاً.

تدور عيناى في كل مكان، باحثة عن خوف، منتظرة أن يهذدني أو يضخم المخاوف عقابا لي على عدم العثور على أم أول شيء هذا الصباح. لكنه ليس هنا. يتبع كنان نظرتي، فيتحول حزنه إلى ارتباك. «ما الذي تبحثين عنه؟». «لا أحد»، أجيب بسرعة كبيرة. «لا أحد؟» يكرّر وأنا أوبّخ نفسي. «لا شيء»، أعدل كلامي، «أعني لا شيء». قبل أن يتمكن من قول أي شيء، أكمل قائلة: «يجب أن أذهب. أنت تعرف أين هم المرضى». يفتح فمه ليتكلم، لكنه يغير رأيه، ثم يطرق برأسه.

أبتعد عن تعبيره المحير، وأمشي بسرعة. لا أعود إلى غرفة التخزين، بل أتوجه نحو الردهة الرئيسية للبحث عن أم. إنه نفس الوضع الذي تركته، المرضى منتشرون في كل مكان، محاطون بما تبقى من عائلاتهم. أولئك الذين ليس لديهم أحد يكسرون قلبي أكثر. قمت بمسح الوجوه الهزيلة لكن لم يتم العثور على أم في أي مكان.

أتنهّد، وأفرك ذراعي، وأفكر في البحث في الغرف الأخرى، لكن عندما تتسرب أصوات مكتومة عبر

أبواب المدخل المغلقة. يقشعُرْ جلدي ويصبح جسدي في حالة تأهب. انفتحت الأبواب وتدفق سيل من الناس، وبللت الدماء ملابسهم وتقطرت على الأرض. ويتم حمل الجثث الضعيفة بين أذرع رجال الإنقاذ، الصراخ والنحيب يترنّان في السقف. أعلم أنهم ضحايا هجوم قناص عندما لا أرى أطرافها ممزقة، بل الدم يتدفق.

وكلهم أطفال.

من بين الحشد، ركض أم حاملاً بين ذراعيه فتاة صغيرة تنزف. وجهه ممزق من الألم والخوف. «ابنتي!» يصرخ على أي شخص قد يسمعه. «ساعدني!». يقف خوف بجانبني الآن ويضغط على جبهتي بإصبع لا أشعر بها. فكرة فظيعة تأتي إلى الحياة. «أنقذوها»، يقول، ويومض وجه ليلي الملطخ بالدموع في ذهني.

12

تتحرك ساقي من تلقاء نفسها، وتتجه نحو ام، الذي لا يزال يصرخ طلبًا للمساعدة. ندرة الطاقم الطبي نقطة لصالحه. يضغط بيد واحدة قميصًا متسخًا على رقبة الفتاة، لكن الدم يتسرب عبر القماش إلى قميص الطفلة الأصفر. يجب أن أتصرف بسرعة قبل أن أفقدها.

«اتبعني»، أصرخ به، وعيناه تركزان علي. ركضنا بين المرضى الصارخين المتناثرين، حتى وجدنا أخيرًا طاولة عمليات قديمة. «ضعها على الطاولة ببطء». أبدو خالية من المشاعر لدرجة أنني لا أعترف على صوتي تقريبًا. بسرعة، قمت بنزع الشاش ووضعته على الجرح الكبير في رقبتها أثناء التحقق من النبض. إنها لا تزال بيننا، لكن النبض ضعيف. لا بد أن الرصاصة أخطأت شريانها بمليمترات. أستطيع أن أفعل ذلك. أستطيع أن أنقذها. لقد فعلت ذلك من قبل.

لكن ذراعي لا تتحركان، والفكرة الفظيعة التي تدور في ذهني تجعلني ساكنة. أنظر حولي لأرى إذا كان كنان قريبًا، أو إذا كان يصور، لكنني لا أراه. إذا لعبت هذا بشكل صحيح، فلن يلاحظ أحد. «ماذا تفعلين؟» أم يتساءل، عمليًا يهسهس، عندما أوصل الضغط على رقبة ابنته. «أنقذها!».

«أعطني قاربًا»، أقول بنفس الصوت الخالي من المشاعر. «ماذا؟». «أعطني قاربًا أو... أو أزيل يدي». لا أستطيع أن أصدق الكلمات التي تخرج من فمي. تتسع عيناه، وارتفع حاجباه لدرجة اختلاطهما بخطف شعره. ترتعش أطرافه من الغضب، ويتقدم نحوي لكنني لا أتوانى. «أنت...» يتلوى وجهه بالغضب ويتحول إلى اللون الأرجواني. «كيف تجرئين؟ هل

تسفين نفسك صيدلانية؟ هل ستتركينها تموت؟»
 أصبح من الصعب سماع صوت نبضات قلبي.
 «أنت تضيق أنفاسها وأنت غاضب. ليس لديها وقت
 طويل». أخادعه. أعرف ذلك، لكنه لا يفعل. احتاج
 إلى المخاطرة بحياتها لفترة أطول لإنقاذ حياة ليلي
 وطفلتها. ابنة أخي. للحفاظ على وعدي. ابنته تهتز
 تحت يدي، على وشك الوصول إلى الحد الأقصى
 لها. تطير عيناها إلى أم ثم إلى الناس من حولنا،
 لكن لا أحد ينظر إلينا حتى نظرة خاطفة، كل واحد
 منهمك في عالمه الخاص.

«حسنًا» يصرخ والدموع تخز عينيه. «حسنًا من
 فضلك أنقذوها». أستطيع أن أشعر بابتسامة خوف
 الراضية على ظهر حجابي. على الفور، أبدأ العمل،
 والحمد لله أن هذه هي الخياطة الألف التي أضف
 بها جرح رقبة، لذلك أستطيع إجراءها بسرعة ودون
 إهدار كمية كبيرة من الدم. يمرر أم يده على شعرها.
 «أنا هنا يا سمر. لا تقلقي. ستكونين بخير».

تمر نور بجانبني وأصرخ عليها أن تحضر لي جهازًا
 مؤقتًا للتبرع بالدم. «أكملي غرزها»، أقول لها
 عندما تعطيني إياها، وتتولى المهمة. أحقن الإبرة
 الدقيقة في وريدي بينما تدخل الأخرى في وريد
 سمر. بشرتي شفافة بما يكفي لتظهر الأوردة دون
 أن تتدلى، وكذلك بشرتها. أشاهد دمي يزحف عبر
 الأنبوب الرفيع وصولاً إلى سمر، وأدعو الله أن
 يكون كافيًا لشفائها. للتعويض عن الشيء القبيح
 الذي فعلته. والشيء القبيح الذي أنا على وشك
 القيام به.

تقول نور وهي تمسح يديها بمعطفها: «لقد أنتهى
 كل شيء. ستعيش إن شاء الله». أقول: «شكرًا لك»،
 لكنها لم تسمعني، فقد ذهبت بالفعل لمساعدة طبيب

آخر. بدأ رأسي يشعر بالدوار، لذا أخرجت الإبرة قبل أن أسقط. لقد تعلمت بالطريقة الصعبة: متى علي التوقف.

التفت للتحديق في أم، الذي كان يراقبني بفضول. كراهيته لي لا تزال موجودة، ولكن هناك شيء آخر: امتنان. رغم أنه يبذل قصارى جهده لإخفائه. أشعر بجفاف في فمي، لكنني أجبر نفسي على الكلام. «سوف تعدّ قاربًا من أجلي أنا وليلى. ولن تصل إلى أربعة آلاف دولار». يطلق ضحكة قاسية. «ما الذي يجعلك تعتقدين أنني سأحافظ على كلمتي؟ لقد أنقذت حياتها بالفعل. إلا إذا كنت تفكرين في شئ حلقها. ولكن مرة أخرى، لن يفاجئني بعد ما فعلته. برأيك ماذا سيقول الدكتور زباد لو علم بالأمر؟».

صدري يؤلمني من الفكرة. أدفع إهانات أم إلى أحلك أركان قلبي. سأكون جبانة إذا كان ذلك يعني أن ليلي ستنجو على قيد الحياة. أشير إلى الفرز الموجودة في رقبة ابنته. شعرها الأسود متعقد، ملتصق بالدم على جبهتها. «أنت بحاجة إلى الأدوية». يطلق ضحكة لا تُصدق. «ولن تعطيني إياها إلا عندما أقوم بتأمين قارب لك».

«سنزودك بما يكفي من المضادات الحيوية لإبعاد العدوى، ولكن لا يوجد سوى كمية من البانادول يمكننا تقديمها لك. الجميع هنا في حاجة إليها. أستطيع أن أعطيك أكثر مما ستأخذه من المستشفى. وصدقني، سمر سوف تحتاجها. وهذا الألم لن يختفي بسهولة». كان علي أن أضحي بعليتي البانادول اللتين كنت أحتفظ بهما لي وليلى. لكن طالما سنصل إلى ألمانيا، فلا يهم. لا شيء يهم. منذ شفتيه، وتعبيره لا يزال قاسيًا. «لا يمكنك الحصول على مقعدين مجانيين فقط. هناك حاجة

إلى المال للرحلة إلى هناك. لقد أخبرتك أنا بحاجة إلى رشوة كل حارس على عشرات الحدود من هنا إلى طرطوس». استغرق دقيقة للتفكير في الأمر. إنه على حق. الطريق متناثر بالحدود ويمكن للجنود المتمركزين هناك إبعاد أي شخص. أرفع ذقني. «سأعطيك قلادة ذهبية مع ألف دولار. وتبلغ قيمة القلادة حوالي ألف دولار. هل هذا كافٍ؟».

كنت مع ماما عندما اشتريناها كجزء من مهر ليلي. يزم شفتيه وهو يفكر فيها. «نعم». على السرير، تتنفس سمر ببطء، وتفحص نبضات قلبها لأجدها تعود إلى طبيعتها. أقول بصوت منخفض: «دمي يجري في عروقها الآن». الغثيان قريب وثقيل على لساني. أحد الآثار الجانبية للتبرع بدمي. «أنا جزء منها. أنت مدين لي». يجلس بثقل على الكرسي البلاستيكي ويمسك بيد سمر الصغيرة بيده الخشنة. «كوني هنا غدا في الساعة التاسعة صباحا ومعك المال والذهب». توقف لثانية ونظر إلي، وهو غير مصدق. «ما كان يجب أن أقلل من شأنك يا سلامة. أنت أكثر شرا مما تبدين عليه».

أضغط بيدي على الثقب الموجود في شق مرفقي. «لا أحد يعرف عن هذا». «أكيد». «ابق هنا. سأذهب لأحضر لك المضادات الحيوية». يضحك بخشونة. «لن أترك ابنتي يا سلامة. ليس عندما تكون حياتها بين يديك». أبتعد بسرعة، وأمسح الدموع التي تجفعت في عيني، وأضع يدي المرتجفتين على صدري.

ماذا فعلت؟

قبل أن أعود لأحضر الأدوية، أغسل يدي. أفرك، حتى إن اللون الأحمر لا يكون ناتجا عن الدم؛ بل من الاحمرار الذي يظهر على بشرتي بسبب الاحتكاك

وتعبير جلدي عن الانزعاج. ثم، وحدي في غرفة التخزين الصغيرة، أمسكت بمعدتي وغرقت في الأرض. ارتعاشاتي لا تتوقف، والدموع التي حفّزها شعور بالذنب بحجم جبل، تطمس رؤيتي. ماذا ستقول ماما؟ حمزة؟ أخي... من سيكون مقيماً في هذا المستشفى؟ لقد استخدمت حياة فتاة صغيرة كضمان. لقد خاطرت بحياتها. يقول خوف خلفي: «لقد فعلت ما كان عليك فعله. وقد نجح الأمر. حمزة سوف يفهم. وحتى لو لم يفعل، فهذه أوقات خطيرة. أنت بحاجة للعيش». «كان من الممكن أن تموت سمر». أقول بشهقة. «كنت سأتحمل جريمة قتل فتاة بريئة على ضميري». ويعترض خوف: «لكنها لم تفت، إنها على قيد الحياة، ولديك قاربك. انهضي الآن وامسحي أنفك وأعطي أم جرعة المضاد الحيوي المخصصة لهذا اليوم. هذا كله من أجل ليلى، أتذكرين؟».

ليلى. هل ستفهم؟ أم أنها ستكون مليئة بالرعب؟ لا أستطيع أن أقول لها أبداً. خوف ينقر بقدمه. «عليك المغادرة. إذا انتشر الخبر، ماذا سيفعل الدكتور زياد برأيك؟ سمعتك ستتلاطم». عندما أعطي أم حبوب المضاد الحيوي، يهز رأسه في وجهي وكأنه لا يزال غير قادر على تصديق ما حدث، ولا أنا أيضاً. أشعر كأنني متفرج يحوم خارج جسدي، أشاهد عضلاتي تتحرك من تلقاء نفسها.

أعود بسرعة إلى مخزني، مروّراً بالدكتور زياد، فيبتسم، فيزداد خجلي. لا ينبغي أن يُسمح لي الدخول هنا. لا ينبغي أن يثقوا بي فيما يخض حياة الناس. وحيدة في ملجأ المخزن المتعفن، أبكي بهدوء بينما أقوم بتجميع بقية الأدوية. «الأقحوان... الأقحوان... حلوه... رائحته حلوة...».

انقطع صوتي، وتقطّرت الدموع على الأرض بجانب
قدمي، بينما بزغ في ذهني إدراك رهيب.
ربما أهرب من سوريا. وبوسع قدمي أن تمش
الشواطئ الأوروبية، وأن أرى أمواج البحر ترتطم
بساقني المرتعشتين، والهواء المالح يغطي شفتي.
سأكون أكثر أمانًا. لكنني لن أتمكن من النجاة.

13

عندما أنتهي من مناوبتي، أجد كنان يقف بجانب الباب الأمامي، يعيث بالكاميرا الخاصة به بنظرة تركيز على وجهه. أتوقف عن السير معجبة به: تعبير لا يبطنه القلق أو الألم أو الخجل، يذكرني بأوقات بعد الظهر في أواخر الربيع. شيء ما في الطريقة التي يقف بها هناك بشكل عرضي مرتدياً سترته الصوفية يخلق ذلك الشعور المؤلم في معدتي بسبب الحياة المحتملة التي سرقت مني. مثلاً.

في تلك الحياة، كنت لأتدرب هنا وكان لينتظرني على درجات المستشفى، وهو يخربش في كراسة الرسم الخاصة به. كان ليدعوني لتناول البوظة في حلويات الحلبي ويخبرني عن المدينة اليابانية الجذابة التي يريد أن تنتقل إليها. كان ليعلمني بعض الحروف اليابانية، ويضحك من نطقي الغريب. لكنه سيكون صبوراً حتى أنطقها بشكل صحيح، وهو يبتسم لي بفخر. يهتم بامتحان الصيدلة التالي. لكننا سرعان ما نتشتت ونخربط في محادثة أخرى. كنت سأخبره عن القصص التي في ذهني والمستوحاة من ستوديو جيبلي. أنني أيضاً أجد القليل من السحر في عالمنا وأقوم بتضخيمها في قصصي. «مرحباً»، أقول، فيقفز، لكنه يبتسم عندما يراني، «هل كل شيء على ما يرام؟ هل تحتاج لأي شيء؟».

«لا، أنا بخير. هل انتهيت من نوبتك؟». «نعم». «جيد». يستقيم، ويجب أن أميل رأسي للخلف قليلاً لأنظر في عينيهِ. يقول: «ساصطحبك إلى المنزل». يا إلهي! «ليس عليك أن تفعل ذلك». يهز رأسه: «لا بأس». «ليس عليك أن تستمر في تقضية واجب ما مقابل إنقاذ لـمي. اصطحابي إلى المنزل يعني

أنك تقضي المزيد من الوقت في الخارج. كهدف». بدأت يدي تتعزق بسبب الطريقة التي يحدق بها بي. يبدو الأمر كما لو أنه قام بطرد الجميع وأنا الوحيدة الباقية هنا. «سلامة». قلبي يخفق بسرعة عندما ينطق اسمي. كل شيء ناعم ودافئ. «أريد فعل هذا». «حسناً، إذا أراد ذلك»، همس لي الجزء الأحمق مني: «دعيه».

«إلا إذا كنت أزعجك»، قال على عجل، وقد أصاب الذعر وجهه. «أنا أسف، لم أدرك حتى...». أهز رأسي بسرعة: «لا أنت لست... صدّقني...». بيتسم بتردد وكل قلق يطير من رأسي. نسير جنباً إلى جنب، وتتردد خطواتنا فوق الحصى، وتتضخم الأصوات في أذني. حفيف الأوراق الميتة، وصرخات الطيور الحزينة فوق الأغصان العارية، والجدال الخافت للناس الواقفين خارج منازلهم. أستطيع سماع كل نفس يأخذه، ونبض قلبي يصمّ الأذان عند طبلة أذني.

ألقي نظرة على يدي وأرى بقعاً حمراء تصبغ بشرتي. أحمر مثل دم سمر. اكتم صرختي لأنني متأكدة من أنني غسلت يدي. قضيت عشر دقائق في القيام بذلك. عندما أنظر مرة أخرى، اختفى اللون الأحمر، لكن الأصوات من حولي لا تزال تصرخ: «قاتلة»، «سلامة». قطع صوت كنان صوت الصرخات، فتوقفت، بينما ألّهت بشدة. استوعب ما حولي وأدرك أنني جالسة على الأرض وكنان يقف أمامي. شعوره يظهر في التجعد بين عينيه. بالنسبة لي، أدرك ما يمر به. «سلامة، هل أنت بخير؟» يجثم بجانبني. «هل تأذيت؟».

أنا لا أثق في صوتي، لذلك أهز رأسي. إنه في مستوى عيني وقريب جدًا لدرجة أنني أستطيع أن

أشبه رائحة الليمون الخافتة الصادرة منه. أو ربما أنا أهلوس ذلك أيضًا. «ماذا حدث إذن؟» أنظر حولي أبحث عن خوف، فأجده على بعد خطوات قليلة من كنان. ابتسامته حادة، راض عن تطورات اليوم. أغمض عيني وأريده أن يبتعد. وجوده هو مرساة على صدري، يفرقني أعماق فأعماق، وهو تذكير بما فعلته... بكل ما فقدته وما كسوف أخسره.

وتصطف بعض المباني المحطمة على الطريق الهادئ. إننا على بعد دقائق قليلة من منزلي، والآن أنا وكنان الوحيدان هنا، راكعين بجانب الحطام. لكن خوف ما زال هنا، ولا أفكر في شيء سوى ما فعلته. ينزف الدم من جسدي، وسرعان ما أقول: «قل لي شيئًا جيدًا». يتراجع كنان قليلًا، ويستقر الارتباك بشكل أعماق. «ماذا...». «كنان، من فضلك» أتوكل إليه وأعيد النظر إليه. «لو سمحت».

ينظر إلى المكان الذي كنت أحقق فيه، لكنه لا يستطيع رؤية خوف. أحقق بكنان وأتأمل ملامحه، وأتمتم من بين أنفاسي: «أقحوان. الأقحوانات ذات الرائحة الحلوة. بتلات بيضاء. قلبها أصفر». خدود كنان جوفاء. إنها علامة على سوء التغذية، لكنني متأكدة من أنه حتى لو كان وزنه صحيًا، فإن عظام الخد تلك ستبدو وكأنها يمكن أن تجرحني إذا لمستها. نظر إلي وأستطيع أن أراه يناضل مع نفسه حتى لا يطرح ملايين الأسئلة التي تتأرجح على لسانه.

أخيرًا، أخذ نفثًا عميقًا وقال: «فيلمي المفضل في ستديو جيبيلي هو قلعة في السماء، لقد جعلني أرى العالم بشكل مختلف. هناك الكثير من السحر فيه يا سلامة. صبي يحلم برؤية جزيرة عائمة. الفتاة التي هي آخر شعبها. كيف يستطيع هذان الطفلان

إنقاذ العالم من الطموحات الشريرة لرجل متعطش للسلطة. إنه عن روبوتات وتجميع سحرية وواحدة من أفضل الأغاني الختامية على الإطلاق».

يضحك بهدوء، ويضع في كلماته. تتباطأ أنفاسي وأستمع إلى ما يقوله. لا أتذكر متى شاهدت قلعة في السماء آخر مرة، لكن لا يزال بإمكانني رؤيته بوضوح في ذهني. يتابع كنان: «هناك هذا المشهد، حيث يقف بازو وشيتا فوق المنطاد، وقد حلّ الليل. حتى الرسوم المتحركة... السماء بلا نهاية. ويتحدثون عن مخاوفهم وكيف أن سلسلة من الأحداث المؤسفة جعلتهما يجتمعان. كنت في العاشرة من عمري فقط عندما شاهدته لأول مرة، لكن هذا المشهد لمسني بشكل لا مثيل له. كانت هذه قصة عن أطفال في نفس عمري، كانوا خائفين، لكنهم ما زالوا يفعلون الشيء الصحيح. لقد جعلني أريد أن أكون شجاعاً أيضاً. جعلني أرغب في سرد قصصي الخاصة. خلق عوالم خاصة. واعتقدت أنه ربما -يوماً ما- سأخوض مغامرتي الخاصة وأقابل شيتا».

لقد كان يحدق بي طوال الوقت، لكنني لا أعتقد أنه يراني. اكتسبت عيناه لمعاناً يشبه الحلم، وأنا منبهرة بالسلام الذي رسمته كلماته على ملامحه. لقد صمت العالم من حولنا، والنسيم هو الصوت الوحيد الذي يتأرجح بيننا. وهكذا، يهدأ ذعري وأتمنى أن نبقى هنا، جالسين على الأرض إلى الأبد، محاطين بالملاذ الذي خلقت كلماته. ولكن بعد ذلك أصبحت نظرتي حادة، وعندما راني أخيراً، أصبحت خدوده وردية مثل القرنفل. إنه أكثر شحوباً مني ولا يجيد إخفاء تعابير وجهه.

يتنحى ويبذل السحر. «هل... هل كان هذا شيئاً

جيداً؟». أومئى وأتمسك بهذه اللحظة، وأضعها في قلبي لأعود إليها عندما يعود الحزن. يبتسم. «حسناً». نقف ونواصل المشي. أنا ممثلة لأنه لم يسأل عفا حدث، لكن ليس من الصواب أن يبقى صامتاً.

«هل حصلت على ما تحتاجه؟» أشير إلى كاميرته. «نعم بالتأكيد. لقد صوّرت ضحايا القناصة، وكانت هناك عائلة واحدة لا تريد طمس وجوههم. إنهم يريدون أن تكون الحقيقة مشتعلة». معدتي تشعر بأنها جوفاء. لقد قام بالفعل بتصوير ضحايا القناصة. ظننت أنني تأكدت من التحقق مما إذا كان يعمل في مكان قريباً مني، ولكن مجدداً، كنت أصارع الأدرينالين وأعصابي الفدّمة، لذلك لم أستطع رؤيته بسهولة. «أوه» أقول غرضاً. «ما نوع اللقطات التي التقطتها؟».

يهرّ رأسه. «كنت أجري مقابلة مع عائلة في غرفة أخرى عندما وصل ضحايا القناصة. وعندما وصلت إلى هناك، لم أستطع التحرك وسط بحر الأجساد المصابة، ولم أرغب في أن أكون في طريق أي شخص. وكان الأقرب إليّ هو الدكتور زياد، فصرت مع مريضه». يتسع صدري بالارتياح، لكن الشعور بالذنب يعكر كل نفس أستنشقه. يقول برهبة: «لكنني رأيتك تنقذين حياة تلك الفتاة. نظرت للأعلى ورأيتك تخططين رقيتها. لقد مزّت الرصاصة مباشرة، أليس كذلك؟». أحاول ألا أتلعثم: «نعم». منزلي يقع في الزاوية التالية، على بُعد عشرة أقدام. قال: «لقد أنقذت حياة والدها من خلال إنقاذ حياتها». لحسن الحظ أنه لم يستوعب العار الذي أحاول محوه من تعبيراتي. لكن هناك شيء ما في لهجته يجعلني أنظر إليه، وعندما أفعل ذلك، يبدو

مرعوبًا تقريبًا. يختفي عندما تلتقي أعيننا ويتسم ابتسامته اللطيفة. «أنت مذهلة». طعم المجاملة مثل السيائيد في فمي، وأبتلع الدموع. يا إلهي، أنا لا أستحق هذا. أنا لا أستحق لطفه أو أحلامه. قال: «لقد وصلنا»، وظهر باب منزلي الأزرق. أخرجت مفاتيحي، ويداي ترتجفان قليلًا.

قال: «هاي، اسمعي»، فنظرت إليه، ثم مسحت وجهي سريعًا. «أتذكر أنك ذكرت أن ليلي حامل في الشهر السابع، أليس كذلك؟». «نعم» أقول ببطء. مزر يده على شعره، وبدا فجأة خجولًا. «أعلم أننا التقينا بالأمس. لكني أوذ أن أومن بعالم بديل، حيث كان من الممكن أن ينجح هذا»، وهو يشير بيننا، «بشكل مذهل. إذا كان هناك أي شيء تحتاجينه أنت أو هي، من فضلك أخبريني». ترفرف رموشي. عندما لا أقول أي شيء، يتابع، وهو أكثر ارتباكًا من أي وقت مضى: «خاصة لأنه، كما تعلمين، قد يكون هناك قناصة أو شيء من هذا القبيل، ولا ينبغي أن تنزل ليلي من أجل البقالة في حالتها هذه. ولا ينبغي لك...». «شكرًا لك» أقاطعه، وهو يطلق تنهيدة مرتاحة. «لكن ليلي لا تغادر المنزل على أية حال». عبس قائلاً: «هل هي بخير؟».

أومن وأنا أعبت بالمفاتيح. «كنت على وشك مواجهة الخطر مع قناص في أكتوبر الماضي. كانت ليلي في طريق عودتها من السوبر ماركت. في الواقع، هناك...». أشرت إلى نهاية الطريق المترب حيث يقف عمود كهربائي ضخم مكسورًا إلى نصفين، وغلافه المعدني يلمع في ضوء النهار. الصدا والدم العفن يكسو الرصيف تحته. «بدأ القناصة في إطلاق النار. لم تكن الوحيدة هناك. توفي ثلاث نساء ورجل في ذلك اليوم. وكانت

ليلي وطفل آخر الناجيين الوحيددين. لقد اختبأت تحت حطام متناثر حتى أصبحت آمنة». أخذت نفسها عميقًا. الرعب الذي شعرت به في ذلك اليوم عندما سمعت أن هناك قناصًا يتبع النظام في حيننا كان لا مثيل له. لقد ركضت إلى المنزل، دون أي اهتمام بسلامتي. كل ما سمعته هو نداء حمزة الذي يتردد في ذهني مثل شريط كاسيت مكسور. صوته يتوسل إلي أن أنقذ زوجته. وصلت لأجد آثار الدماء تسيل في الشوارع بين شظايا الزجاج والأنقاض، وقد تم نقل الشهداء إلى المقابر، ولم يبق إلا صمت يسحق الروح، وكأن جوهر هذه الزاوية في حمص القديمة في حالة صدمة. بالكاد تمكنت ساقاي من دفعي إلى الباب الأمامي قبل أن أفتحه بعنف.

وكانت ليلي هناك، تجلس على الأرض وظهرها إلى الحائط الففطي بورق الجدران الممزق، وهي تبكي بحرقة. كان وجهها ملطخًا بالدموع، وكانت هناك جروح صغيرة في جبهتها وذراعيها. عندما عانقتها، كانت تفوح منها رائحة الركام والدخان والدم، لكن لم يكن الأمر مهمًا. كانت على قيد الحياة.

«أنت على قيد الحياة»، اختنقت من صرخاتي، وضغطت عليها أكثر في حضني. «أنت على قيد الحياة». ومنذ ذلك اليوم، أصرت ليلي على مغادرة سوريا. «يا الله!»، همس كنان. «إنه... لا أستطيع تخيل ما حدث». «نعم»، أجبت وأحكمت قبضتي على المفاتيح حتى بدأت تؤلمني. «يمكنك أن تتخيل يا كنان. تلك المرة كانت ليلي هي الهدف، ولم تمض دون الإصابة بأذى إلا برحمة الله. اليوم، غدا، بعد أسبوعين، يمكن أن تكون لمى أو يوسف. لكن ربما لا يكونون محظوظين إلى هذا الحد». يبدو كنان منكوبًا لكنني لم أضغط عليه كثيرًا. امل

أن يبدأ ضحايا القناص، والعائلة التي تحدث إليها،
والآن قصتي الخاصة، في كسر عزيمة ببطء.
تحتاج مشاعر الخوف المكتشفة حديثًا إلى وقت
لتنمو من الأشكال الغامضة والفوضوية إلى أفكار
قوية وصنع قرار. كل ما يمكنني فعله هو محاولة
توضيح تلك الأفكار له.

«أعتقد...»، أقول بصوت عالٍ وواضح، ويفرد
ظهره. «أعتقد أن مغامرتك لا يجب أن تنتهي هنا».
تلين عيناه وأرى حلقة ذهبية تدور حول قزحية
عينه. للحظة أخرى، حذقنا في بعضنا البعض،
وأدركت أخيرًا أن هذا الشاب، ذا السترة القديمة
والشعر البني الأشعث الذي يظهر مشاعره بصدق،
جميل، الذي يقف في وسط هذه المدينة المدمرة
والممزقة - جميلٌ وحقيقي.

وأتساءل ما الذي يفكر فيه. إذا كان يمكنه إكمال
الجملة التي أخجل من ترديدها. أنه يمكن أن يجد
شيئا الخاصة به. بطريقة ما ابتسامته تخبرني أنه
سيجدها.

«سأراك غدا، تمام؟» سأل بصوت دافئ مثل كوب
شاي الزهورات. لم يغد هناك لون وردي على خديه
الآن، فقط هدوء واسع وكأننا لسنا في وقت ضائع،
ولكن لدينا أبدية ممتدة أمامنا. «نعم، بالتأكيد»
أجبت مبتسمة.

14

«وافق أم، من طيبة قلبه، على ألف دولار وقلادة ذهبية؟» تتكى ليلي على باب غرفتي وذراعاها مطوئتان. «لكلتينا؟ مثل صفقة اشتر واحدة واحصل على الأخرى مجاناً؟». أتجاهلها. «ماذا أقول؟ أخبرته عن قدميك المتورمتين وكيف أنك تتضوّرين جوفاً. أنت ورقة مساومة ممتازة». «هل يعلم أنني حامل؟» تقول وهي لا تزال تحقّق بريبة. «ألا ينبغي أن يكلف ذلك أكثر أو شيء من هذا؟». أجيب: «نعم، إنه يعلم. ولم يقل أي شيء عن أن تكلفة الحمل أكثر. ولن أكون غبية بشأن هذا يا ليلي. سأعطيه خمسمائة دولار غذا والنصف الآخر بالإضافة إلى القلادة الذهبية عندما نكون على متن القارب».

تنفخ في الهواء. ينزلق شعرها من كعكته، وتتساقط الخصلات البنية على كتفيها. نمشها يكار يكون غير مرئي في ضوء الشمس المحتضر في غرفتي. «لا أعرف يا سلامة. أنا قلقة. أعني أننا نعرف قصص اللاجئين على متن القوارب. نحن نعلم أنهم يتعرضون للخداع ويغرقون. تعلمين أن هناك أسماك قرش في البحر الأبيض المتوسط، أليس كذلك؟ هذا يبدو وكأنه فخ». أمضغ لساني. «ليس فحاً». «كيف يمكنك أن تكوني متأكدة لهذه الدرجة؟ أنت أكثر شخص مرتاب أعرفه».

أجلس على سريرى، أرتدي جواربي الدافئة. لقد تسرّب المساء البارد بالفعل من خلال شقوق جدراننا إلى عظامنا. «لقد رأيت دليلاً على الناجين. لديه صور ومقاطع فيديو لهم في أوروبا. إنها ليست عملية احتيال. لو كان الجميع يموتون فلن يأخذ أحد القوارب». هذا ليس صحيحاً وأنا أعلم ذلك،

لكني أفضل أن تصدق ليلى الكذبة. تقول بقوة: «ما زلت لا أحب ذلك». «ولا أنا يا ليلى، لكن علينا الرحيل». أكرر بصوت ضعيف. لأنه إذا لم نفعل ذلك، فإن ما فعلته اليوم كان هباءً. لقد حفظت قسم أبقراط. لقد شوّهت بوصلتي الأخلاقية وقطعت سهمها. يتألق وجه سمر وأحمد في ذهني. لا أستطيع تحفل رؤية طفل مكسور آخر. بدأت الندوب الموجودة على يدي بالوخز وأنا أفركها. هذا كله في ذهني فقط أنا أعلم ذلك. يتجلى الذنب في شكل ألم وهمي.

«أريد أن أغادر»، أضيف بهدوء. بصوت منخفض بما يكفي حتى تستطيع ليلى التظاهر بأنها لا تسمعني. لكنها تفعل. انها تأخذ يدي بين يديها. ملمسها ناعم ويختفي الألم. «لا أستطيع إنقاذهم»، واصلت الهمس وأنا أحرق في أيدينا المتشابكة. في غرفتي، أشعر بالأمان عندما أراجع أفكارني. لا يوجد أحد ليحكم علي. أختي فقط هنا. «لم أستطع إنقاذ طفل صغير. لم أستطع...». ترتجف أنفاسي، وأتنهد. «الجميع يموتون. لا شيء أفعله ينجح. عقلي يؤلمني. لم أتم جيدًا منذ أكثر من عام. أشعر وكأنني أصرخ في هاوية تبتلع كل شيء. وسرعان ما سوف تبتلعني أيضًا».

نظرت إلى الأعلى وتركت ليلى يدي لتصفيف شعري للخلف. تهز رأسها وهي تبتسم بلطف. «لن يبتلعك». أعطيها ابتسامة خفيفة. «أنت تثقين بي أكثر مني. ليلى، أنا أفتقد عدم القيام بأي شيء. الأيام التي كنت أستلقي فيها على السرير وأشاهد الأفلام. أو عندما نتحدث على الهاتف لساعات. هل تتذكرين تلك الأيام؟. تومني. «لقد أصابتنا الدكتاتورية بالشخوخة حتى قبل بدء الثورة. ولكن

الآن أشعر وكأنني في التسعين من عمري تقريباً.
 «أتمنى أن أشعر بالتسعين. أنا أبدو مثل من عاش ألف عام» أسخر. تنظر لي ليلى نظرة حادة: «لا، أنت لست كذلك!» أتجاهل وأعبث بأكامي. «إذن ما هي القلادة التي تريد أن تعطيه إياها؟ أنا أفكر في ذات القوس في المنتصف». ثجفد أنفها. «أنا لا أهتم بالقلادة. اختاري ما تريدين. لا شيء يساوي أكثر منك ومن الطفل يا سلامة». نبرة صوتها تقطر بالحزن. أنا لا أحب ذلك. أريد أن أستعيد بعض السهولة التي نستحقها! هروباً من الكآبة الزاحفة دائماً. لذلك أقول: «لقد اصطحبني كنان إلى المنزل اليوم». تشهق. «ماذا؟ وأنت لم تذكر هذا!» ينجوا! لقد نجحت في تشتيت الحزن.

تمسك وجهي بين يديها وتجبرني على النظر للأعلى. «كنان»، تقول بجدية وهي تحقق في عيني، ويصبح وجهي ساخناً على الفور. «ها!» صرخت. «أنت معجبة به!». أبتعد عن قبضتها. «معذرة؟ لم يسبق لي أن... في حياتي -واو، أنت- كما لو أنك تعلمين... أخرسي!». تقع على سريرى، مبتسمة. «انظري إلى وجهك! إنه طماطم ناضجة». «الامر ليس كذلك» أجبت وأنا أركض إلى المرأة رغم ذلك. أنظر إلى نفسي بعبوس، لكن ليس بطريقة تشير إلى أنني على وشك الموت. «لم أشاهدك متوترة هكذا أبداً». تضحك، وتترك شعرها يتساقط من ربطة الشعر بالكامل وتمرر يدها من خلاله. «حتى في الجامعة مع ذلك الرجل اللطيف من طب الأسنان».

تأوهت وسقطت على السرير بجانبها. تنظر إلي مع وميض في عينيها. «لا، انتظري، أتذكر اسمه. سامي». تنقر بإصبعها على ذقنها. «لقد أحبك»، تقول وهي تضع رأسها على راحة يدها. «ولقد أحبته

تماماً. لكن ليس هكذا يا سلامة. لا، قلبك كان ينتظر كنان، أليس كذلك؟». أضع وسادتي فوق رأسي وهي تضحك. تفني: «احتوي المشاعر». «حتى لو كنت أملكها»، أقول، وصوتي مكتوم في الوسادة، «لن يحدث شيء. يريد البقاء هنا. وأنا أريد أن أغادر». أشعر بليلي وهي تنهض وتنظر إلي من تحت الوسادة. إنها لا تبدو مضطربة على الإطلاق. بدلاً من ذلك، هناك نظرة معرفة على وجهها. «يمكن أن يحدث الكثير من الآن وحتى المغادرة». تدور حول الغرفة. «الكثير من ماذا لو... وربما... ومحتمل».

تتوقف وتضع يدها على قلبها. يلقي الفسق ظلالاً من اللون البرتقالي والوردي عليها وتبدو أثرية في التوهج الناعم. كما لو أن لديها قدمًا واحدة في الحياة الأخرة وقدمًا واحدة هنا. «المشاعر تمنحك الأمل يا سلامة». تقولها وتبتسم. «ألا تعتقدين أنه يمكننا استخدام القليل من ذلك الآن؟». أومئ موافقة. «لذا...»، عيناها الزرقاوان مضيئتان، «هل يعجبك؟». ألعب ببطانة شترتي. «الظروف ليست رومانسية تماماً يا ليلي!». تنقر أنفي. «آه! لماذا تفعلين ذلك؟».

«ماذا قلت؟» تسأل. «قلت: المشاعر تعطيك الأمل. لا حرج في أن تجدي الراحة وسط ما يحدث يا سلامة». أفرك أنفي. «قولي إنني أحببته. خياراتنا محدودة. أين نذهب يا ليلي؟ نزهة حول السوق الفدقرة؟ أو ربما الخروج من حمص القديمة، وتفاذي الرصاص إلى نهر العاصي، والتنزه على ضفته؟ بالإضافة إلى ذلك، ليس لدينا مرافق! والذي وحمزة ليسا هنا». تعض شفتها قبل أن تضحك. «مرافق!» أقول بسخط: «ماذا!». تمسح عينيها وهي لا تزال تضحك. «لا شيء. أنت ساذجة جدًا». تجلس

بجانبي وتضع قدميها تحتها وتقول: «أخبريني المزيد عنه».

أتملأ تحت نظرتها. «إنه... أمين... مع كل شيء: أفكاره، تعبيراته، كما أنه لطيف. إنه لطف نادر يا ليلي. أنا متأكدة من أنه لا يزال يحلم. ربما هو الوحيد في هذه المدينة بأكملها الذي لا يزال يحلم في الليل. وعندما ينظر إلي أشعر... أشعر وكأنني أرى، وهناك... هناك القليل من الأمل». تبتسم وتشبك يدها في يدي. «إنه هناك»، همست. «أريدك أن تتمسكي بذلك. مهما حدث، تتذكرين أن هذا العالم أكبر من العذاب الذي يحتويه. يمكننا أن نحظى بالسعادة يا سلامة. ربما لا يأتي في شكل قطع الكعكة، لكننا سنأخذ الأجزاء وسنعيد بناءها». قلبي المكسور يرتعش. تتابع: «سلامة»، وتشدد قبضتها، «أنت تستحقين أن تكوني سعيدة. أنت تستحقين أن تكوني سعيدة هنا. لأنك إذا لم تجربي ذلك في سوريا، فلن تجربي ذلك في ألمانيا. الوصول إلى أوروبا لن يحل مشاكلك». أتوقف. لم أفكر في هذا من قبل. «عديني أنك ستبحثين عن الفرح». تبتسم بحزن. «الذكريات أحلى بهذه الطريقة».

تكمُن في كلماتها آلية التكيف التي كانت تستخدمها منذ أخذ حمزة. لقد التفت بحب حياتها عندما كانا طفلين، وعاشت معه العمر. إن ذكرياته هي ما يبقّيها ثابتة وإلا انهارت على نفسها من الألم. «أنا... أعدك»، أقول، والكلمات ثقيلة على لساني. عندما تغرب الشمس، أساعد ليلي في الوصول إلى أريكتها، وأحكم البطانية حولها حتى لا يقضمها البرد. خلدت إلى النوم بعد بضع دقائق، وهي تبتسم لي، وتسقط يدي على بطنها المنتفخ. ابنة أخي على الجانب الآخر، وإذا ركّزت بقوة كافية، أستطيع

تخيلها وهي تضغط بكفيها الصغيرتين على المشيمة الموجودة أسفل يدي مباشرة. الآن بما أن ليلي في الثلث الثالث من حملها، فإن نمو دماغ الطفلة سلامة وخلاياها العصبية بكامل طاقته، ولكن لا شك أن كليتيها ستتأثران، لأنها تعاني من سوء التغذية ونقص الوزن مثل ليلي. لن تنجو الطفلة سلامة من شتاء حمص القاسي. ألعن نفسي بصمت لمدة ثلاثة أشهر من الشك فيما إذا كان ينبغي لنا أن نغادر أم لا. كيف يمكن أن أكون بهذه الأنانية؟

لا. كيف وصلنا إلى هذا؟ ليلي تشخر بنعومة، وأنا أحزن بصمت. على الرغم من أنني هنا، فهي بمفردها. كأنه بالأمس: ليلي وحمزة عائدان من شهر العسل، وأعينهما تتوهج كفوانيس رمضان. أسندت ليلي رأسها على كتف حمزة حيث جلسا في شرفة منزلنا. تحوّل وجهه إلى ظل عميق من اللون الوردي، لكنه بدا سعيدًا بنفسه. كنت في غرفة المعيشة أشاهد الأسرار الحميمة التي يتبادلونها بينهما والتي لم يتمكن من سماعها سوى زهور الأقحوان في أوانيها. لمحتني ليلي ولوّخت لي، وشعرها البني يتساقط على كتفيها. قام حمزة بإزاحته إلى الورا على الفور حتى يتمكن من التحديق بها. قامت مبتسمة وخرجت إلى الشرفة: «لقد تحدثتما بعمق كثيرًا». كان نسيم الصباح الدافئ موضع ترحيب بعد أشهر من الشتاء. «لم أكن أريد أن أزعجكما». هزّ رأسيهما في انسجام تام. «تزعجيننا!» ضحكت ليلي وسحبتني إليها. «أختي ليست مزعجة أبدًا». فقلت وأنا أحشر نفسي بينهما: «حذّاني عن البحر الميت إذن». نظر لي حمزة بنظرة غاضبة. انزاح بسرعة حتى طرف الكرسي لكنه استمر في الإمساك بيد ليلي، وتشابكت أصابعهما أمامي.

أعلنت ليلي على الفور: «مالح جدًا وفسّهب للحكة». قال حمزة: «احترقت قليلًا أيضًا». وضحكت ليلي. «نعم، بقي شخص ما لفترة طويلة في الماء». «كنت أطفوا في الماء! دون أي جهد! بالطبع كان علي أن أبقى». همست ليلي في أذني: «كان الجميع يحدقون بنا لأن حمزة كان يتصرف وكأنه لم ير البحر من قبل. كان علي أن أتظاهر بأنني لا أعرفه. كان الأمر محرجًا للغاية». ضحكت، وحمزة أدار عينيه. قالت ليلي بصوت عالٍ: «إذا كنت ستتصرف بهذه الطريقة في معارضي الفنية، فأنت لست مدعوًا!». رفع حمزة يدها إلى شفثيه، وطبع قبلة على مفاصل أصابعها، ونظرت إليه غير مصدقة. كنت جالسة هناك، لكنّ عينيه كانتا على ليلي فقط. قال بهدوء: «سأكون أسوأ بكثير يا حبيبتي. إذا كنت تعتقدين أنني لن أكون فخورًا جدًا وأتباهى بك بصوت عالٍ أمام الجميع، ففكري مرة أخرى». احمرّت ليلي خجلًا، لكنها كانت مبتهجة. «آه يا سلامة»، هزّت رأسها، «ماذا سأفعل معه!».

أتهد وأدخل غرفتي، أدفع تلك الفتاة ذات العيون المرضعة بالنجوم التي لم تنج من ذهني. الحداد عليها لا يساعطني. لن يدعمني ولن يخرجني من سوريا. خوف متكن بالفعل على نافذة غرفتي، يدخن. يدير رأسه بعيدًا عني وأتجاهله، وأركع أمام الخزانة لأفتح الدرج الأخير. يوجد تحت الملابس القديمة في أقصى الزاوية اليمنى ذهب ليلي وبقية الأموال التي لدينا. أخرج خمسمائة دولار واختار قلادة واحدة، وأضعها جانبًا. كان حمزة قد أهداها لها يوم قراءة الفاتحة، إنها حبل سميك ومعقد وأشعر بثقلها فوق يدي. تشكّلت كتلة في حلقي، فأعدت القلادة إلى مكانها قبل أن تسيل الدموع.

«لقد قمت بعمل جيد اليوم»، يتمتم خوف، وينفخ سحابة من الدخان. «لقد سار الأمر بشكل أفضل بكثير مما ظننت. لم يغد لديك أي سبب للبقاء هنا، وتدعي يديك الملطختين بالدماء تشفيان المرضى». أمسك بأذني وأهز رأسي وأركّز على كلام ليلى لي. الأمل. العثور على الحب والسعادة وراء البؤس. خوف يقلب عينيه: «إذا أوصلك هذا القارب، يمكنك أن تؤمني بوجود 'اليونيكورن' إذا أردت، لكن يا سلامة، أمل! لنكن واقعيين». يلف إصبعه، ويستدرجني تجاهه، وأنا أستجيب. «انظري خارج النافذة».

تَمّ طلاء المدينة باللون الأسود تحت سماء رمادية متجمعة. ضوء القمر مُحاضر خلف السحب الفلّدة، كما نحن محاصرون في حمص القديمة، غير قادرين على المرور. المباني أمام نافذتي أشباح، لا تضيء الأنوار في أي منها. إذا أغمضت عيني وسمحت لسمعي بالتنصّت، فيمكنني التقاط الأصوات المكبوتة للأشخاص الذين يحتجّون في الأحياء البعيدة. لم يتوقفوا أبداً، ولا لليلة واحدة، ومع مرور شهر على ذكرى الانتفاضة، فإن معنوياتهم تزداد قوة. يقول خوف وهو يقف بجواري: «الليلة قد لا تموتين من الطائرات، فالسماء مُلبّدة بالغيوم». «الليلك». أخذ نفساً عميقاً. «ليلك، أرجواني. الليلك».

يتابع: «سلامة»، لكنه لا ينظر إليّ، بل يحدّق في نفس الأفق الذي أنظر إليه. «ما هي السعادة التي يمكنك أن تجديها في هذه الأرض القاحلة؟ ها؟ لا يوجد شيء لك هنا. لقد رحلت عائلتك. ولن يجلب لك كنان إلا وجع القلب إذا واصلت تنمية مشاعرك تجاهه. لن يفادر. ليس هناك سعادة يمكن البحث عنها في الحطام، لكن أمانها تحمل الإمكانات»،

نظر إلي أخيرًا، تذكرني عيناه بالبحيرات المتجمدة في الشتاء، «إنها أفضل من البقاء هنا. ليلى على قيد الحياة أفضل من لا شيء. والبعد سيخفف من ندمك على ما فعلته بسمر. هذا المكان ليس سوى تذكير بإخفاقاتك وحتمية موتك». أعبث بأصابعي. «لكن ليلى قالت...». «ليلى؟» يكزّر، ثم ينقر سيجارته، فيسقط الرماد قبل أن يصطدم بزجاج النافذة. «دعيني أريك ليلى».

ثم ينقر بأصابعه فتختفي مدينتي المنكوبة من أمام النافذة، لتحل محلها ذكرى. لقد دهشت للحظة، لأن هذه ليست الذاكرة التي توقعتها. إنها ليست مليئة بالألم، لكنها قريب جدًا من قلبي. حفل زفاف ليلى وحمزة.

يبدو الأمر كما لو أنني أشاهد فيلمًا، لكن هذا لا يمنعني من الضغط بيدي على الزجاج البارد. يُقام الحفل في الخارج في مزرعة أجدادي، بين الحدائق تحت أشجار الليمون. لدينا مكان مغطى بالأضواء الرائعة والموسيقى الصاخبة من مكبرات الصوت. تتوزع الضيفات في كل مكان، يتحدثن فيما بينهن أو يهتفن ليلي وهي ترقص في منتصف قاعة الرقص. وجه ليلى لا يحمل أي معاناة. إنها تتأرجح في فستانها الأبيض الفاتح الفصقم مثل فساتين الأميرات، يرفرف مع كل حركة تقوم بها. ضحكتها، الصادقة والكاملة، تصل إلى أذني وتملؤني بالدفء. الحياة تلونها بشكل رائع. كان شعرها الطويل البني المحمر مجفدًا تجعيدات ناعمة تتدلى على ظهرها، مع الورود البيضاء التي التقطتها لها مشبوكة بين الخصلات.

تقف ماما بجانبها في عباءة أرجوانية متألئة، وتلوح بذراعيها فرخًا، وأنا أضغط بقوة على الزجاج،

أريد أن يختفي. أريد أن أركض إلى ماما وألقي
بنفسي في حضنها. الحاجة إلى العودة بالزمن إلى
الوراء. خوف لم يرني أمي بهذه الطريقة من قبل؛
بصحة جيدة وعلى قيد الحياة. «ماما» اختنق
صوتي. يقول خوف بجانبني: «هذه سعادة ليلى
يا سلامة». وفجأة، سارعت جميع النساء إلى لف
حجابهن حول أنفسهن بينما أعلن منسق الأغاني
المسجلة مسبقًا عن وصول حمزة. كتمت أننا عندما
رأيت أخي الذي يبتسم بخجل وهو يتجه نحو
ليلى. نظرته إليها فقط، وعيناه تتلألأ مثل النجوم
في السماء. وعندما يصل إليها يتعانقون رغم تنورة
فستانها الكاملة، وتتردد ضحكات ليلى المضطربة
على زجاج النافذة.

بابا، الذي كان يرتدي أرقى بدلاته، يشبك أصابعه
بأصابع ماما، فتضعف ركبتاي من الحنين. أريد أن
أحضنهم جميعًا بشدة، وأصرخ. تتجول عيناى في
كل مكان، تشرب من هذه الذكرى مثل رجل عطشان
في الصحراء. طريقة ماما الرشيقة في تحريك يديها
عندما تتحدث، وشعر بابا الرمادي، الذي يواصل
دفعه إلى الخلف، وحمزة يتمايل ذهابًا وإيابًا وليلى
تمسك بذراعه لإبقائه ثابتًا. وقعت عيني أخيرًا على
امرأة مصففة تمامًا من رأسها إلى أخمص قدميها.
يبرز القليل من شعرها البني الداكن من أعلى
حجابها على جبهتها. وجهها جميل، مع تجاعيد
ناعمة حول عينيها. وهي ترتدي عباءة بلون أخضر
غامق تناسب لون عينيها. أخضر بلون البندق. أنا
ألهث. أنا أعرف تلك العيون، لقد رأيت تلك العيون
من قبل، على شاب طويل القامة ذي شعر بني
كستنائي فوضوي.

هل هذه هي الطريقة التي بدأ بها كل شيء؟ في

حفل زفاف؟ كم هي سورية جدًا. تقرينا أبتسم من الفكرة. «سلامة»، يقول خوف، محاولاً لفت نظري إليه، لكنني أرفض أن أترك هذا الوهم الجميل وأواجه نظراته التي لا ترحم. «سلامة، لا يمكنك العيش في الماضي. أنا أذكرك ما هي السعادة الحقيقية. هذا لم يعد موجودًا. هذا ليس شيئًا ستجدينه هنا». «لا»، تمتمت، متمسكة بما قالته لي ليلي. الحياة هنا أكثر من مجرد رعب. «لا». يتنهد ويفرق أصابعه مرة أخرى. يتبذد حفل الزفاف ببطء، جزيئًا بعد جزيء، ويتحول إلى ذكرى رهيبة. ذكرى لا أريد العودة إليها أبدًا طوال حياتي.

أشعر وكأن قلبي قد انثزع من التجويف الصدري وأنا أتأوه من الألم. ليلي، ممددة في مدخل منزلنا في يوليو. فقد فستانها الأصفر الخردلي لونه وانكمش بشكل غير مريح حول جسدها. عيناها الزرقاوان كالمحيط، فارغتان. تتساقط الدموع على خديها بخطين، وترتعش يداها، لكنها لا تفعل شيئًا حيال ذلك. كان هذا هو اليوم الذي أخذ فيه حمزة.

جلست هناك لمدة ثلاثة أيام، لا تأكل، وبالكاد تتنفس، ولم ترد علي أبدًا عندما حاولت التحدث معها. كان شعرها ملتصقًا بشكل ضعيف على جانبي خديها، رقيقًا وهشًا مثل القش. جلست هناك وبكت بصمت حتى تؤرمت عيناها واحمزت، وبحلول نهاية اليوم الثالث، كانت تعاني من جفاف خفيف وصدمة، استدارت جانبًا وتقيأت. أدركنا لاحقًا أنه قد يكون أيضًا بسبب غثيان الحمل.

وأمامي في الردهة ذات الإضاءة الخافتة تجلس ليلي، فتاة مجوفة. دمية مكسورة. أقرب إلى الموت من الحياة. سيطر علي الشعور المقزز المألوف بالعجز، فخدشت زجاج النافذة من الإحباط. «هذا»،

ينقر خوف بإصبعه الطويل على الزجاج، «هذا هو ما لديك في حمص. لقد كانت معجزة أن خرجت ليلي من اكتئابها». أعض ظفري.

لا ينتظر ردي. «أعتقد أن ليلي أدركت أنك آخر أفراد عائلتها، باستثناء الطفلة، فقزرت أن تنهض بنفسها وتكون قوية من أجل عائلتها. فقط حتى تكونوا أمنين. لقد علمت أن الاستسلام للألم سيؤذيك، لذا قامت بكتمانه». «إنها بخير الآن» قلت وأنا أكرّ على أسناني. خوف يقلب عينيه. «ليلى التي تعرفينها الآن ليست بخير يا سلامة. إنها تختبئ من كل معاناتها. سوف تذبل ليلي حين تصل إلى أوروبا. سواء كنتما سعيدئين هناك أم لا، لا يهم. ستبقى على قيد الحياة، وقد أوفيت بوعدك لحمزة».

تزحف كلماته على جلدي، وتذوب في المسام، وأواجهه، وأدرك وجوده ببطء. أعتقد أنني كنت أعلم دائماً أنه هنا لضمان بقائي على قيد الحياة، ولكن الآن يمكنني رؤية ذلك. إنه لا يعدني بالسعادة أو بنهاية تلك المعاناة. ألمانيا ليست الحل لحياة مليئة بالمتعة المضمونة. إنها ليست المنزل. لكنها الأمان. وهذا ما نحتاجه أنا وليلى الآن. يفرقع بأصابعه للمرة الأخيرة. حمص القديمة تحقّق في وجهي بعينيها المؤرقة. الهواء مُمثّل بالنفوس الميتة وثقل خطيئتي.

يهمس خوف: «الرحيل يعني أن تتركي وراءك ما فعلته هنا». قلبي في حلقي. «لبقية حياتك، لن تتمكني أبداً من تحقيق راحة البال بسبب ما فعلته بسمر. سوف يأكلك هذا من الداخل مثل السرطان. لقد بدأ بالفعل. على الأقل في ألمانيا، ستكونين على بعد أميال من الذكرى. في هذه المرحلة يا سلامة، كل ما يمكنك أن تأمل في فيه هو البقاء على قيد

الحياة، ليست السعادة».

15

«هل توقفت عن المذاكرة؟» سألت شهد، ونظرت إلى كتاب المصطلحات الطبية الذي كنت أقرؤه. كان ذلك قبل أسبوع من امتحانات الفصل الدراسي الأول في الجامعة، وقررت أنا وشهد وروان وليلى زيارة مقهى في وسط المدينة بعد انتهاء المحاضرات. وكانت الشوارع تعج بالناس، وكانت الطاولات خارج وداخل المطاعم مزدحمة بالعائلات التي كانت تستمتع بعشاء مبكر من كل طبق سوري يمكن تخيله: كبة مشوية على الفحم، قطع لحم ضأن مشوية إلى درجة الكمال، تبولة، ورق عنب، برتقال طازج مقطوف من الريف. كان هناك عدد قليل من المارة الذين بدوا وكأن حظهم سيئ. ملابس ممزقة ووجوه هزيلة وأيديهم ممدودة تتوسل. لكن معظم الناس مڑوا دون أن يلمحوهم.

كنا نتوق للحلويات وطلبنا جميعًا طبقين من كل نوع. تفت تغطية كل شهر من طاولتنا بالحلوى. طلبت بوظة ورز بحليب. كان لا بُد من تناول البوظة بسرعة لأن الأيس كريم بدأ في الذوبان على الرغم من النسيم البارد. ثم يأتي دور الطبق الثاني، وهو عبارة عن أحلى بودنج الأرز مع ماء زهر البرتقال المرشوش فوقه، بمثابة الخاتمة المثالية ليوم طويل في الجامعة. كانت المدرسة الثانوية تتطلب جهدًا دائمًا، لكنها كانت تعادل تعلم الحروف الأبجدية مقارنة بالسنة الأولى لي في الصيدلة. كان الفارق مذهلاً، لكن كل ما يفصل بينهما هو العطلة الصيفية.

«بجد، توقفي عن المذاكرة!» انضفت روان إليها، وهزّت ملعقتها في وجهي. «استمتعي بالطقس. بالطعام». عبست: «لا أستطيع، لدي امتحان صباح الاثنين، وإذا كنت لا أعرف الفرق بين الزندوعظم

العضد، فأنا راسبة». تمتعت شهد: «سوف أكسر عظامك... الزند والعضد». شبكت ذراعي. «الأسماء العلمية لأجزاء الجسم صعبة! سأرسل!»، «أنت درامية للغاية، ملكة الدراما». ليلى تدور بعينيها. التقطت عصير الليمون المثلج، وخاتمتها الماسي يتلألأ. «أنت تقولين ذلك دائمًا ثم ينتهي بك الأمر بالحصول على أعلى الدرجات». قالت روان: «نعم، توقف الجميع عن تصديقك منذ كنا في الثانية عشرة من عمرنا». ثم قلّدت صوتي: «يا إلهي! الامتحان كان صعبًا جدًا. لم أستطع الإجابة على أي شيء. ليس لدي أي فكرة عما إذا كنت سأنجح أم لا...». ابتسمت: «هذا ليس ما أنا عليه... أنا...». قالت شهد أثناء تناول حلاوة الجبن: «إنه أنت تمامًا. وبعد ذلك تنجحين وتحصلين على شهادات الشرف، بينما نجلس هنا نفكر في قتلك».

أغلقت كتابي الدراسي وأسقطته على الطاولة بقوة، فقفزت الأوعية الزجاجية. لقد أذهلت أيضًا بعض الأشخاص الذين كانوا يجلسون حولنا. على وجه الخصوص، شاب ذو شعر بني كستنائي فوضوي. نظر للأعلى، ثم رمش. احمررت خجلاً بسبب الضجة التي سببها، والتفت أعيننا قبل أن أنظر بعيدًا على عجل. كانت تلك العينين الأكثر اخضرارًا التي رأيتها في حياتي. قلت: «حسنًا. أنا لا أذكر الآن».

قضيت بقية فترة ما بعد الظهر محاولة ألا أنظر إلى الشاب صاحب العينين الخضراوين، الذي كان مشغولاً باللاب توب الخاص به. كان بمفرده، وكان هناك طبق كبير به أربع قطع من الكنافة على الطاولة. لقد قمت بعمل مزدوج، مندهشة من أن شخصًا ما سيكون قادرًا على تناول كل ذلك وعدم

الوقوع في غيبوبة السكر. حاولت أن أفر عقلي بعدم النظر، لكن عيني الخائنة رفضت الاستماع والتقطت صورًا له في المللي ثانية التي لمحتة فيها. يبدو في نفس عمري. ربما سنة أكبر. لطيف. اردت أن أرفع الشعر المتساقط فوق عيني إلى الخلف حتى يتمكن من رؤية شاشة اللاب توب بشكل أفضل.

في النظرة السابعة، رفع رأسه فجأة ونظر إلي مباشرة، وتلاقت أعيننا للمرة الثانية. احترقت وجنتاي، وفي تلك اللحظة، ولد عمر كامل. كانت هناك نظرة رقيقة في عيني، واهتمام غريب بالطريقة التي تنحني بها شفتاه إلى الأعلى، وأنا...

استيقظت مع ارتعاشة قوية. شعري ملتصق على رقبتني بالفرق، وأجفاني ثقيلة من بقايا الدموع. ارتعش عندما أنهض من السرير، هواء الصباح البارد يجمد عظامي. هل كان ذلك حلقًا أم ذكرى؟ أهز رأسي، غير قادرة على العثور على الطاقة اللازمة لمعرفة الحقيقة. ليس لدي الوقت. أرتدي ملابس لي ولا أتناول الخبز الجاف الذي تمزّره لي ليلي، ولكنني أضعه في حقيبتني مع الخمسمائة دولار. وعندما وصلت إلى المستشفى، كان أم يرتدي نفس ملابس الأمس، وكان ظهره منحنيًا وهو يجلس بجانب ابنته النائمة. ولا يزال البهو الرئيسي يعالج الجرحى الذين أصيبوا جراء هجوم القناصة يوم أمس. تفوح رائحة الجروح المتقيحة والدماء الصدئة، لكنني لا أتقيأ. ليس بعد الآن.

«أم»، أقول باختصار، متجئبة النظر إلى سمر. يستدير لي. هناك ظلال تحت عيني وهو بحاجة إلى الحلاقة. يبدو كأنه شاخ عشر سنوات في يومين، وأتجاهل الشعور بالذنب خلف عيني.

«كيف حالها؟» أقول بصوت أجش. يحدق بي بنظرة قاسية. «أفضل. لا تستطيع تحريك رقبتها بعد، لكنها ستعود إلى المنزل اليوم. لا يوجد أسرة كافية هنا». «حسنًا... عليها أن تصمد قليلًا حتى نتمكن من إزالة الغرز». «أنا أعرف. هل حضرت كل شيء؟». أنظر حولي، ولكني لم أجد الدكتور زياد أو كنان، فأخرجت رزمة النقود وأعطيتها إياها بسرعة. تتجعد نظرتة مع التركيز وهو يعد، ثم أصبح قبيحًا. «ماذا تفعلين يا سلامة؟» يقول مع هسهسة، «هذه خمسمائة دولار فقط. وأين الذهب؟ هل تخذعينني؟». أعدل ظهري وأدخل يدي في جيوبي. «لا. سأعطيك الباقي عندما تأخذنا إلى القارب».

يحدق في وجهي للحظة قبل أن يضحك. بعض الرؤوس تتجه نحونا، وأمسك بمعدتي لكبح ذعري. إنهم ينظرون بعيدًا، وكل منهم منهمك في مخاوفه الخاصة بحيث لا يهتمون برجل ضاحك. «استمر في التقليل من شأنك. حسنًا، هناك قارب قادم خلال شهر. إنه طريق قياسي، تم سلكه عدة مرات. عبر البحر الأبيض المتوسط إلى سيراكوز، حيث ستقودك الحافلة إلى ميونيخ. ستبحر بالقرب من طرطوس. سأقودك إلى هناك بنفسي». يبدو الأمر بزمته بسيطًا بما فيه الكفاية، على الرغم من أنه بعيد عن ذلك. وكانت طرطوس المطلة على البحر الأبيض المتوسط تبعد ساعة عن حمص. لكن ذلك كان قبل الحدود الجديدة وقبل احتشاد الجيش على الطريق مثل النمل السام. الآن يستغرق السفر ساعات. كل ما أعرفه عن سيراكوز أنها تقع على ساحل إيطاليا، وأن ميونيخ مدينة في ألمانيا. ليس لدي أي فكرة عن مدى بعدهم عن بعضهما البعض.

«كيف سنصل إلى طرطوس مع كل الحواجز؟»

أسأل، على أمل ألا يكشف صوتي عن الرعب الكامن وراءه. يهز كتفيه. «لا تقلقي بشأن الجيش. وهنا يأتي المال. لم يتم اعتقالني من قبل». الصداق، الناتج عن التوتر الذي لا ينتهي، ينشأ في مركز دماغي، وينتج عنه خفقان خفيف. هذه الرحلة تبدو مستحيلة. ألمانيا وإيطاليا تشعرانني بالمستحيل. حتى الآن، هذه مجرد كلمات قرأتها في الكتب وسمعت عنها في الأخبار. لا أستطيع حتى أن أتخيلهم في ذهني. أتحنح. «لماذا يحتاج القارب إلى أربعة أسابيع؟ أليس هناك واحد عاجلاً؟ ليلي ستكون في شهرها الثامن».

ينقر لسانه. «ستعود في غضون أيام قليلة، ولكن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن تصل إلى الميناء هنا. سيحتاج الرجال إلى التأكد من أن كل شيء يعمل بشكل جيد. علاوة على ذلك، فأنت لست الوحيدة التي ستبحرين عليها. سأعرف المزيد في غضون أسبوع أو نحو ذلك. هذه الأشياء تأخذ وقت».

عاجزة. أشعر بالعجز وأنني مقيدة بأحداث لا أستطيع السيطرة عليها. تلك التي تحدد مصير ليلي. تنفتح أبواب المستشفى، وأنا أقف في حالة تأهب، مستعدة لرؤية جثة أخرى هادمة، لكنه كنان فقط. عيناه تتلألآن وهو يرتدي كنزة مختلفة تحت الجاكيت البني البالي. تتأرجح كاميرته في جانبه. قلبي التقط لحظة رؤيته. أعلم أنني أستطيع أن أحبه بسهولة. في حياة محتملة مع الأوهام التي نسقتها لنفسني، سيكون من السهل جدًا الوقوع في حب ابتسامته غير المتوازنة وأحلامه العاطفية. أذكر في كلام ليلي. أتساءل عما إذا كان الأمر يستحق أن أجد السعادة في حمص قبل أن أغادر.

أو إذا كانت هذه السعادة ستؤدي إلى حسرة القلب وفقدان شخص قد أرغب في مشاركة حياتي معه. تستطيع ليلى أن تبشّر بعالم وردي، لكن خوف وتهكّمه هما الواقع. عندما تقع عين كنان عليّ يبتسم، ويشرق وجهه كله كالشمس في يوم ربيعي، ويتسارع نبض قلبي. «انتظري لحظة»، يقول أم وأنا نصف غائبة. «ماذا عن البنادول الخاص بي؟» يحتج. «ستحصل عليه، فقط دقيقة واحدة»، أقول دون أن أرفع عيني عن كنان بينما أسرع نحوه. تتعفّق ابتسامته عندما أكون أمامه، ولا يهدأ قلبي. «نحن بحاجة إلى التحدث»، أقول بلا مبالاة. أصبح تعبيره جدياً بسبب نبرة قلقي، وتبني إلى زاوية فارغة على الجانب الآخر من الردهة. إنه يحافظ على مسافة محترمة مني، ولكن ليس بعيداً لدرجة أنني لن أتمكن من الهمس. قلت بشكل مباشر: «هناك طريقة لك ولإخوتك لمغادرة سوريا». يرمش بعيني، مندهشاً، وتعتقد حاجباه. «أنا... أنا سأغادر»، أقول. كلمتان تكفيان لتحطيم ما بنيناه من وهم وإه بيننا. «أوه» هو كل ما يقوله.

مقطع واحد بصوت مكسور هو كل ما يتطلبه الأمر ليذبل الأمل في روحي. خوف كان على حق. لا توجد سعادة هنا. يتفحص حذاءه، والقلق مكتوب على تعابير وجهه، لكنني أعلم أنه لا يحكم عليّ. إنه مدرك مدى الرعب. يعيشه كل يوم. أعضّ بطانة خدي. «سيغادر القارب خلال شهر إلى إيطاليا. يمكنني التفاوض على ثلاثة مقاعد لك ولإخوتك. ليس عليك أن تقتل نفسك من أجل هذا السبب».

يبتلع ريقه بصعوبة مرة واحدة. مرتين. ينبض الوريد في رقبتة، وتتطاير مجموعة من المشاعر عبر وجهه. الحزن والأذى والشعور بالذنب والراحة.

وأخيراً قال: «أعلم أن هذا يتطلب الكثير، ولكنني سأشعر بتحسّن كبير إذا أرسلت إخوتي بمفردهما إذا كنت هناك معهما. لن يتعيّن عليك فعل أي شيء، فقط تأكّدي من وصولهما إلى إيطاليا. يمكن لعلمي مقابلتهما هناك».

«كنان، اسمعني...». يهزّ رأسه. «سلامة، من فضلك. من فضلك لا تطلبي مني الرحيل. يجب أن أظهر للعالم ما يحدث». كلامه مؤكّد، لكن وجهه استقر على عاطفة واحدة. الخوف. بدا أن تأثير مذبحة الأمس قد ألحق ضرراً أكبر بعزمه. إنه يلتمس حلاً، بدأ يتحاشى بشكل متعمّد الحقيقة المروعة التي ستكلّفه أكثر من حياته. الصراع يخلق عاصفة في عينيه، وأعتقد أنني يمكنني قراءة الحقيقة المظلمة في مركزها. إنه يريد المغادرة، ولكن الذنب هو ما يعيقه. واجبه تجاه بلاده. أتذكر هلاوسي التي صوّرت حمزة مكسوراً وأتساءل متى ستصبح واقفاً لكنان.

من فوق كتفه رأيت أم يحدّق بي، مهتماً، فعدت إلى كنان. كتفاه منحنيّتان، وأرى نفس البؤس الذي أشعر به ينعكس فيه. ينتمى، ويبدو أنه موجه لنفسه أكثر مني: «سأفي بوعدتي لبابا بهذه الطريقة». أخذ نفساً عميقاً. «لا أعرف من قال لك إن الرحيل هو شيء جبان، لكنه ليس كذلك. إن إنقاذ نفسك من الأشخاص الذين يريدون قتلك ليس أمراً جباناً». يهزّ رأسه. «كل ذلك يعود إلى حقيقة واحدة يا سلامة. هذه الأرض هي بيتي. ليس لدي واحدة أخرى. الرحيل موت بحد ذاته». أكّور يدي على هيئة قبضات. لقد مثّ بالفعل. لقد مثّ في اليوم الذي أخذ فيه بابا وحمزة. لقد مثّ في اليوم الذي قُتلت فيه ماما. أموت كل يوم لا أستطيع فيه إنقاذ مريض،

ومث بالأمس عندما احتجرت حياة فتاة صغيرة كرهينة. ربما في ألمانيا يمكن إحياء جزء مني.

أقول: «يبلغ ثمن القارب ألف دولار للشخص الواحد. حسنًا، عادةً ما يكون المبلغ ألفين، لكن يمكنني المساومة. هل تستطيع تحفل ذلك؟». «نعم»، يجيب على الفور. أوما. أقول بصوت منخفض: «أمامك شهر يا كنان. إذا لم تغيّر رأيك، فسوف أتأكد من وصول إخوتك إلى إيطاليا، لكن أعلم أنني فتاة واحدة والطريق خطير. لا أستطيع ضمان سلامة أي شخص». وبهذا أدركت كعبي، وألقيت نظرة أخيرة على وجهه المصدوم قبل أن أذهب إلى المخزن وأحضر شريط بانادول الخاص بأم من حقيبتني. أقول له: «مقعدان إضافيان». أم يعبس: «ماذا؟». «أحتاج إلى مقعدين إضافيين. ألفي دولار». يطلق ضحكة قصيرة. «لا. لم يكن ذلك جزءًا من الصفقة». «إنه الآن»، أقول بسرعة. «إنهما أطفال. لن يشغلا مساحة كبيرة». يحدق بي بغلاظة، وأعيد شريط البنادول.

أطوي ذراعي. «القلادة الذهبية تستحق المزيد الآن. ربما ثلاثة أشخاص على الأقل. ستحصل أيضًا على ألفي دولار إضافية. ناهيك عن البنادول. أعتقد أنك تستفيد جيدًا مني». يتجفد فمه في سخرية. «حسنًا. لكن أقسم بالله يا سلامة، إذا لم تلتزمي بالجزء الخاص بك من الصفقة، سأجعلك تشاهدين القارب وهو يغادر بينما يسحب الجيش أختك بعيدًا». شدت قبضتي على معطفي الطبي. لا أشك في تهديده للحظة، وأريد أن أخدش وجهه لأنه تجزأ على إدخال ليلي في هذا الأمر. بدلًا من ذلك، أحاول الإجابة بنبرة ثابتة: «أعلم». «جيد. أخبري صديقك أن يحضر نصف المبلغ غدا».

وبعد ساعات فقط، أصابت قبلة مملوءة بالشظايا مبنى سكنيًا، وتم نقل الضحايا إلى المستشفى متناثرين. وسرعان ما أصبحت الأرضيات ملطخة بالدماء وانتشرت الرائحة المعدنية الطازجة في الهواء القديم. أعمل بثبات، وألتقط قطع الحطام المحشورة بين اللحم والعظم. أضع الضمادات وأخفف الألم. أغمض العيون البيضاء بأصابع مرتعشة، وأتمتم بالدعاء على أرواح الشهداء. أعمل حتى تحتج أطرافي بسبب الإرهاق، ومن ثم أعمل بجهد أكبر. أي شيء لأنسى ما فعلته بالأمس. كل شخص أمامي هو سفر، وكل شخص لا أنقذه هو أحمد.

لا أشعر بالوقت يمر. ليس قبل أن تصرخ عضلات الذراعين البطنية وألقي مشرطي بعنف في حوض العمليات الطبية. يرنُّ صوته عاليًا، ويتناثر منه بقع الدم على معطفي الطبي. ذراعي ترتعشان ورقبتي تشعر بالتصلب. عندما أنظر للأعلى، تتشابك عيناى وأتأرجح قليلًا. «قفي!» أسمع أحدهم يصيح، وتمسك يذ ذراعي قبل أن أسقط على الأرض.

أرى اثنين يشبهان كنان يترنحان فوقى. يبرز شعرهم من جميع الجوانب، ويتلألأ العرق على جباههم، ويفطى القلق أعينهم. «سلامة؟» يسألان، صوتاهما بعيدان، ويصنعان صدى. «يا إلهى!».

رمشت بعيني وعاد وجه كنان داخل دائرة التركيز. إنه قريب، قريب جدًا. ينظر للأعلى، باحثًا في الردهة طلبًا للمساعدة، وأدركت فجأة أنه يحاول مساعدتي، وإحدى يديه على ظهري. لقد وجدت قدمي الأرض، وهذا يمنحني الدفعة التي احتاجها لدفع نفسي بعيدًا عنه. لا تزال حرارة أصابعه

المتبقية تضغط على ظهري، وتحرق خلايا جلدي.
«أنا أسف». يرفع يديه محرجاً ووجه أحمر. «كنت
تترنحين وسقطت، وأنا...».

«لا بأس»، أقول، صوتي خشن وحنجرتي خشنة،
من سوء الاستخدام، من شد عضلاته طوال اليوم،
لا أعلم. أنظر حولي وكل ما أراه هو اللون الأحمر
والرمادي، والأشكال متداخلة فوق بعضها البعض،
وغبار اليأس يتشبث بالهواء. رأسي يشعر بالخفة
من قلة الطعام والإرهاق، وأتأرجح مرة أخرى.

«سلامة!» يمد كنان ذراعاً فأمسك بها، معدتي
تتلوى. أصطدم بالدم الذي تبللت به يدي فأستدير
لأغسله. تلتصق ملابسي بي كجليد ثانٍ، وأحتاج إلى
أن يتوقف عقلي عن الصراخ في وجهي. «أحتاج
إلى...» أقول، ثم أتوقف، وأشعر وكأنني على
وشك التقيؤ. أوماً، وسرعان ما قادني بعيداً عبر
المرضى وفتح الأبواب الأمامية. أواجه رياح الشتاء
المتأخرة، التي تجعد الفرق على وجهي.

أسند نفسي على ذراعه، وأمسك به بقوة، وأحاول
التنفس من أنفي والتركيز على أي شيء سوى
صوت العظام المبتورة. الفاوانيا. زهور عطرة.
يمكن استخدام منشط من البتلات كفرخ للعضلات.
الفاوانيا. الفاوانيا. الفاوانيا. لا تزال قدمي غير
قادرتين على حملي وأكاد أتعث، لكن ذراع كنان
تنزلق تحت ذراعي، مساعداً في رفعي حتى يكون
وجهي ملامساً لسترته. القماش ناعم بسبب كثرة
الاستخدام وأستطيع استنشاق رائحته. ليمون.
ليس لدي أي فكرة عن كيفية القيام بذلك، لكن
رائحته تشبه رائحة الليمون الطازج؛ وهو ما
يريحني من الذعر الذي يجتاحني.

لم يسبق لي أن اقتربت من شاب من قبل،

وبالتأكيد ليس شخصاً قد يعجبني حقاً. ليس الشخص الذي، في حياة محتملة، كنت الآن لأكون زوجته. أرفع نظري إليه، يحدق للأمام مباشرة. هناك لحية باهتة بلون بني فاتح تغطي فكّه وخذيه، وأشعر فجأة برغبة في لمسها. الفكرة تصدمني، لكنها تجعلني أكثر ثباتاً. أضغط بيدي المرتعشة على صدري.

أوه، سيكون من السهل جدًا الوقوع في الحب، أفكر في ذلك بحزن. سهل جدًا. ينظر إلي. «هل أنت بخير؟» أنفاسي عالقة في حلقي. أحاول جاهدة أن أجمع أي شيء علمي لتفسير فعل الوقوع في الحب. ما هي المدة التي يبقى فيها في الجسم قبل أن تبدأ الأعراض في الظهور؟ هل هو مزمن أم عابر؟ وهل ظروف الحرب عامل في تسريع العملية؟ هل سيهتم قلبي حتى بأنني سأفترق عنه خلال شهر؟ «سلامة؟» يسأل مرة أخرى عندما لم أقل أي شيء خلال دقيقة. «نعم»، همست.

يدرس ملامحي، وتطلق نقاط الاشتباك العصبي الخاصة بي ناقلًا عصبيًا تلو الآخر. قام بتحليل تعابير وجهي، وظهرت بعض المشاعر في عينيه. التقطتها قبل أن تختفي ووضعتها في قلبي لأعيد تشغيلها لاحقًا عندما أكون بمفردي.

أسندني على درجات بوابات المستشفى المتشقة المطلة على الطريق الرئيسي. هناك بضعة أغصان متناثرة على الرصيف المتصدع. نحن بعيدون عن الأبواب الأمامية، لذا لا نستطيع سماع أصوات من الداخل. يجلس بجانبني، ويترك بضع بوصات بيننا، ويفرك يديه معًا وكأنه يحاول التخلص من البرد. أصابعه طويلة ودقيقة. مثل أصابع فنان. أحدق فيها وأتخيل أن هذه قد تكون الحياة: كنا نجلس هنا،

مندثرين بالأوشحة وبالمعاطف السميكة. كان يضع أصابعه في يدي وأنا أتعجب من مدى كبر حجم يده. كان يقبل مفاصلي وأشعر وكأنني أطفو على سحابة.

«أنا أسف»، قال مرة أخرى وهو يعض على شفته السفلى. «أعلم أنه لا ينبغي لي أن المسك... أنا... لم نعد لبعضنا البعض، و... أنا...» يعبت بشعره، ويبدو أنه يشعر بالذنب، ويسحب يده إلى أسفل وجهه. «لا أريدك أن تعتقدي أنني أستفيد أو أي شيء. سلامة، أنا لست...». «توقف عن الكلام»، أقول له، فيصمت، وخدوده لا تزال حمراء من الندم. «أنا لست منزعة». تصطك أسناني وأسحب أطراف أكمام سترتي فوق يدي المتجفدتين وأحتضن معطفي بقوة. «هل يمكنني أن أعطيك سترتي؟» يسأل وأنا أحنق فيه. يبدو مصدوماً من سؤاله، لكنه مُصمّم. أومن موافقة. يخلعها ويبدو أنحف بدونها. لا، متضوّر جوفاً.

يلقيها على كتفي، وأنا أغرق في حرارة الجسم التي لا تزال متمسكة بدواخلها. ليمون. إنه يخفّف من حدة الندم، ويهدئ صرخات أولئك الذين لم أتمكن من إنقاذهم، ويطمس صورة سمر وهي تنزف على سرير المستشفى. أسحب طيات سترته ليكون أقرب، مع التركيز على تنفّسي حتى يهدأ الغثيان.

يقول: «سلامة»، ويستقرّ نظري عليه. كاميرته في يديه وهو يعبت بالأزرار واللقطات قبل أن ينظر إليّ، ويبدو كما لو أنه يستطيع قراءة أفكارني. لكنني أعلم أن مشاعري تظهر على وجهي ليراها الجميع. «أخبريني شيئاً جيداً». «لماذا؟». أعطاني نصف ابتسامة: «ولم لا؟». يريد أن يشغل تفكيري بشيء آخر غير المستشفى. هذا لن ينتهي بشكل

جيد لقلبي، لكن في هذه اللحظة، لا أهتم. إنه هنا بجانبني، وأريد التظاهر لفترة من الوقت. أريد أن أصدق كلام ليلي.

ألقيت طرف حجابي على كتفي ونظرت إلى السماء، أشاهد الطريقة التي رفضت بها السحب الكثيفة الليلة الماضية أن تتطاير. أنها تبدو وكأنها قشرة جروح تتعافى. هناك طيات رمادية داكنة بين الشجفعات، وتضيء شظايا من أشعة الشمس في وقت متأخر من بعد الظهر الكتلة بينهما.

«أنا...» تنحنحت. تهبّ الريح ضدنا، وتتراقص قطعة من الورق المجفّد على طول الطريق. ولا أحد يمشي على الرصيف. هناك سيارة مهجورة في نهاية الشارع وقد احترقت تمامًا، وقد حوّلت النيران المسار بجانبها إلى اللون الأسود. كان كنان يحذق بي، لكنني لا أستطيع أن أحمل نفسي على النظر إلى نظراته الجاذبة، لذلك وصلت إلى الأسفل والتقطت غصينًا. إنه رطب قليلًا من لمسة الشتاء. أمزّر أصابعي على التتواءات والحواف الخشنة.

أقول: «كنت أحلم باللون الأزرق»، وأشعر بدهشته. يقترب أكثر قليلًا، ولا أعتقد أنه يدرك ذلك. ندوب الغصين تشبه تلك الموجودة على يدي. لم تغد قادرة على الحفاظ على حياة جديدة. «لقد رسمت ليلي ظلًا فريدًا من نوعه، فظننت أنه سينزف في يدي. كانت لوحة لبحر هادئ وسحب رمادية. لم أر مثل هذا اللون من قبل في حياتي. وكلما نظرت إليه أكثر، أردت أن أرى الشيء الحقيقي».

أمضغ لساني، مع التركيز على الغصين. «في ذلك الوقت، شعرت أن سوريا صغيرة جدًا بالنسبة لي. شعرت أن حمص صغيرة جدًا. وأردت أن أرى العالم وأكتب عن اللون الأزرق في كل بلد لأنني متأكدة

من أنهم مميزون ومختلفون بطريقتهم الخاصة. أنه لا يوجد ظل يشبه الآخر. أردت أن أرى لوحة ليلي على أرض الواقع».

ارتجفت وأنا أعيد فتح ثوابيت الأحلام التي أغلقتها منذ فترة طويلة. أضحك ضحكة صغيرة، وأدرك. «الشيء الجيد لا يأتي مجاناً يا كنان. والان أصبح ملوثاً بالحزن. لا يوجد لون أزرق هنا، وعلى الأقل ليس اللون الذي يلهم. فقط الذي يؤدي إلى تحلل جلد الضحايا من قسمة الصقيع وانخفاض حرارة الجسم. كل الألوان باهتة وخافتة، ولا حياة فيها». أقبض على الغصين بإحكام وألثفت إليه. إنه يبتسم. إنه لطيف ويجعل قلبي يؤلمني. ويقول: «لا يزال هذا حلماً جميلاً يا سلامة. حلم يمكن تحقيقه». لا أقصد ذلك، لكني أتذمر. «أين؟ في ألمانيا؟ لست متأكداً من أنني سأرى الألوان هناك كما اعتدت». وحتى ذلك الحين، فإن الأشخاص مثلي لا يستحقون رؤيتهم. لا يهم كم أريد أن أفعل!

يمد كنان كل إصبع، ويثنى معصميه. «قد يكون الأمر صعباً في البداية. قد يكون العالم صاخباً جداً أو صامتاً جداً. قد يكون نيون ساطعاً أو أسود قاتمًا، ولكن ببطء، سيعيد تجميع نفسه مرة أخرى. سيبدو شيئاً طبيعياً. وحينها سترين الألوان يا سلامة».

تفرقت شفتاي واستيقظت الرغبة في قلبي. «هل نستحق رؤيتهم يا كنان؟» همست بعد دقيقة، ومن تعابير وجهه عرفت أنه يفهم أنني لا أتحدث عن الألوان. ندم الناجي هو الجلد الثاني الذي نحن ملعونون بارتدائه إلى الأبد. ينظر بعيداً، وشفته مشدودتان بقوة، لأن هذا ليس سؤالاً يسهل الإجابة عليه. الوقت هو أفضل دواء لتحويل جروحنا النازفة إلى ندبات، وقد تنسى أجسادنا الصدمة، وقد

تتعلم أعيننا رؤية الألوان كما ينبغي، لكن هذا العلاج لا يمتد إلى أرواحنا. لا. الزمن لا يغفر ذنوبنا، ولا يعيد الموتى.

أتململ مع الغصين. «ليس عليك الإجابة على ذلك». ينظر إلي مع شعوره بالذنب. «سلامة...» أهرأ رأسي. «دعنا نجلس هنا لبعض الوقت، حسناً؟ قبل أن تضرب العاصفة القادمة». يفرقع مفاصل أصابعه ويومئ، وتتشابك خصلات شعره الضالة في رموشه. نجلس جنباً إلى جنب، ونضع أيدينا على الرصيف، وأصابعنا على بُعد بوصات من بعضها البعض. ولا أستطيع أن أتذكر آخر مرة كان فيها ذهني هادئاً جداً، مرتاحاً في الكلمات غير المنطوقة التي تملأ الصمت. وفي هذا الصمت أعيد النظرة العابرة في عينيه عندما ضمّني.

الشوق.

16

صرخت ليلي وهي تسرع عبر الممر من المطبخ إلى غرفة المعيشة ثم إلى غرفتي ثم تعود مرة أخرى: «سنحتاج بالتأكيد إلى تغيير الملابس». أنا جالسة على الأريكة وساقاي متشابكتان وأعدُّ أموالنا. ألفان وثلاثون دولارًا. خمسمائة ستذهب إلى أم في نهاية هذا الشهر مع القلادة الذهبية. يدور ذهني في خطة تلو الأخرى حول كيفية البقاء على قيد الحياة في أرض أجنبية مع هذا القليل جدًا. هل سيطلب الرجل الذي يقودنا إلى ميونيخ أيضًا مبلغًا ما؟ قال أم إن المبلغ سيكون شاملًا كل شيء، لكن لا يمكنك أبدًا معرفة ما سيحدث خارج البحر. الجشع مرض، ولن يشفق على الضعفاء واليائسين.

لا يهم. كل ما يهم هو أن نصل إلى هناك. رفعت رأسي لأرى ليلي واقفة أمامي لاهثة الأنفاس، وعيناها تلمعان بالإثارة الجديدة. الآن هناك هدف واضح أمامها. شيء قوي يمكن التمسك به واستثمار كل طاقتها فيه. «سنحزم سترتين وثلاثة سراويل جينز. هل هذا كافٍ؟». أومئ بينما أفكر. «لا شيء ثقيل، مثل البطانيات أو شيء من هذا. سوف يُثقل كاهلنا». تنظر إلي بشكل واضح. «وسيكون شهر مارس عندما نغادر. كما هو المعتاد في الطقس سوف يكون متجمدًا. يُسمح لك بشيء واحد يبقيك دافئة». أتنهد بقوة. «حسنًا. معطف إذن. ونحصل على زي واحد فقط لكل منا لموازنة الوزن!».

تعبس، وترمي لي نظرة حزينة. كانت ليلي أيقونة الموضة. لقد كانت قطعة فنية متحركة يمكن تعليقها في متحف اللوفر، تُشعُّ بالإلهام. وهي الآن مجبرة على التخلي عن الهوية التي صاغتها لنفسها. طمأنتها فلمعت عيناها: «سنشتري المزيد في ألمانيا.

جينز وبلوزات جديدة. كل شيء. وسيكون لدينا أيضًا مولدًا لسلامة الصغيرة. احتفال لها. تضيء ابتسامة مبهجة ومذهلة وجهها، لكنها سرعان ما تختفي وتتحول إلى شعور بالذنب. «لا، لا بأس. ليس علينا أن نفعل... وخاصة بعد حمزة...». أهز رأسي. «هذا ما كان يريد. أنت وأنا نحتفل بابتنته». أمذ يدي وهي تأخذها. «أنت اختي وأنا أحبك». أضغط عليها. «أريد أن تكون سعيداء من أجل سلامة الصغيرة». ابتسامتها لطيفة. «السعادة تبدأ هنا يا سلامة. في هذا المنزل. في حمص القديمة. تذكرين؟».

أتذكر كنان وطريقة جلوسه معي بالأمس حتى هدأت أنفاسي. أتذكر الشوق المتجمد في عينيه. الشوق لي. أشعر فجأة بالحرارة تحت سترتي وأحاول تشتيت انتباهي. «إذن ما الذي نحتاج أيضًا أن نأخذه معنا؟». تحولت شفقا ليلى إلى ابتسامة معرفة، لكنني أصدق بها بتحدٍ، وأتحداهما أن نقول ما يدور في ذهنها. ثم تدعها تخرج وتقول: «جوازات سفرنا وشهادات الثانوية العامة». أومئ. «تلك هي الأساسيات. فكّري يا ليلى، نحن على متن قارب في البحر. نحن نشعر بالبرد لذا لدينا معاطفنا. ماذا بعد؟». تقول: «بانادول»، وأشعر بأن عروقي تتحول إلى ثلج. «إذا شعرنا بالصداع أو أي شيء آخر. لا يزال لديك المخبأ، أليس كذلك؟».

«نعم»، أجيب على الفور، فجبرة نبرتي على أن تكون غير رسمية، وأنا ألعب بأطراف سترتي. بالتأكيد أستطيع توفير علبة واحدة لي ولليلى حتى نصل إلى القارب. نأمل ألا نحتاج أكثر من ذلك، ولن تعرف لماذا اضطررت إلى مقايضة إمداداتنا حتى نصل إلى إيطاليا. ثم يمكنها أن تكرهني كما تريد.

وتنظر إلي بنفس الطريقة التي أنظر بها إلى نفسي
في المرآة.
قاتلة.

معدتي تدور فأقف بسرعة، تذعر ليلى. أركض إلى
الحمام، وأقلامي المغطاة بالجورب تضرب على
الأرضية المغطاة بالسجاد، قبل أن أصل إلى الحوض
وأثقياً. تتشبث يداي بحوافه بإحكام، ويختفي الدم
من الشعيرات الدموية عندما أثقياً المادة الصفراء.
لم أتناول أي شيء منذ يومين باستثناء قطعة
صغيرة من الخبز الجاف. عندما ألقي نظرة على
مرآة الحمام، أقاوم الرغبة في الصراخ. الطعم
الحامض يحرق حلقي. عيناى محتقنتان بالدم،
وشعري ملتصق بجبهتي المتعركة في كتل. الظلال
السوداء تحيط بعيني. أنا أتهور من الشعور
بالذنب.

«سلامة!» يخرق صوت ليلى الهواء الثقيل.
أضع يدي في دلو الماء وأرش وجهي. تكرر ليلى:
«سلامة»، وهي تمسك بكتفي وتدور حولي. لقد
التقت بعيون قلقة، وعلى الفور ارتديت وجهي
الذي يظهر فيه أن كل شيء على ما يرام. قبضتها
قوية على جسدي. «ماذا حدث؟». أهرأ كتفي
بنصف قلب. «أعتقد أنني أكلت شيئاً سيئاً». عيناها
ضيقتان. «أنت لم تأكلي أي شيء عندما عدت من
المستشفى». الطعم الحامض لاذع في فمي. «لقد
أكلت في المستشفى»، تمكنت من القول بصوت
مقنع.

قبل أن تتمكن من قول أي شيء آخر، تجاوزتها
ورجعت إلى غرفة المعيشة، متكومة على الأريكة.
تظهر ليلى بعد ثانية واحدة، ذراعاها مطويتان
وشفتاها ملتويتان. «هل تخفين شيئاً عني؟».

تأوهت وانطويت على نفسي، والتقطت السترة واحتضنتها. لها رائحة خزانة عفنة. «لا ليس الأمر كذلك. ليلى، ليس لدي الطاقة لإخفاء الأشياء عنك». القطيفة، أفكر، أتذكر الزهرة المجففة التي قمت بتسجيلها في سجل القصص الخاص بي مع ملاحظاتي المكتوبة بجانبها. بتلات برتقالية زاهية. تستخدم لشفاء الحروق والجروح. لها خصائص ممتازة مضادة للبكتيريا، ومضادة للفيروسات، ومضادة للالتهابات.

ليلى تتنهد، لكن عندما ألقى نظرة خاطفة عليها، تبدو قلقة. «أنا بخير»، همست، «أعذك». لكنني لست بخير.

سمر لم تكن في المستشفى عندما وصلت في اليوم التالي؛ مما يعني أن أم أخذها إلى المنزل أثناء الليل. يتسع قلبي سعيذاً لأنه لن ينقبض بشكل مؤلم عند رؤية رقبتها المغطاة بالضمادات. وما زال العار في أوعيتي، ويسم دمائي.

يدعوني أحد المرضى، يشكو من ألم في ساقه المبتورة، فأسرع إليه، وأزيل الأفكار المزعجة بسرعة. أعمل كما عملت بالأمس حتى تغشى رؤيتي، وعندما أتوقف عن العمل بلا وقود، أعمل بطاقة الندم. يأتي اليوم موجة من ضحايا قصف طائرة عسكرية أمطرت منطقة سكنية جنوب حمص القديمة. فقط على الجانب الآخر من منزلنا. الآن، ليوم آخر، ليلى آمنة.

يتنوع المرضى بين المدنيين واثنيين من جنود الجيش السوري الحر. بمساعدة نور، أجريت عملية جراحية لمريض كانت ذراعه اليمنى معلقة ببضعة أوتار فقط. وجهه كله ملتو من الألم، ولكن لا يهرب

أنين من شفتيه. وبدلاً من ذلك، من خلال الدموع الصامتة وبركة من الدماء، يغني بهدوء: «ما أحلى الحرية».

عضلات ممزقة ملطخة بالدم تلتف حول العضد المكسور، والأوتار وردية اللون وممذدة مثل شريط مطاطي. تعتريني حالة من الغثيان لكنني أبتلعها. أرفع ذراعه بحذر، وعندما أنظر إلى الدكتور زياد، الذي يجري عملية جراحية لعلاج التمزق في فخذ الجندي، يهز رأسه. فقد المريض الكثير من الدم. وحتى عمليات نقل الدم اليدوية لن تكون كافية، وسوف يستغرق الأمر الكثير من الوقت والجهد الذي يمكن إنفاقه لإنقاذ حياة أخرى. ناهيك عن ارتفاع خطر العدوى. مستشفانا ليس مؤسسا للحفاظ على الأطراف، بل على الحفاظ على الحياة. توقف الجندي فجأة عن الغناء ونظر إلي. «سوف تقطعينها، أليس كذلك؟». أومأت ببطء، وعيني تؤلمني بالدموع. تم تمزيق زيه العسكري، وتحول اللون الأخضر إلى اللون الداكن بسبب الدم. يتسرب إلى غلم الثورة المخيط على صدره، ويلون الخط الأبيض باللون الأحمر. إنه ليس أكبر مني بكثير، وشعره الأشقر المتسخ متلبّد، وعيناه الخضراوان تتلألآن بالدموع. وفي حياة أخرى، لن يعيش مع الموت. سيكون العالم محارته، وسيغامر بالخروج ليجد مكانه فيه، بعينين مرصعتين بالنجوم. كان قد قرأ عن الحروب والثورات في الكتب المدرسية، حيث ظلت محصورة هناك، لم تكن واقعه أبداً. ولكن حتى مع هذا الواقع، فإن وجهه لا يظهر أي هستيريا. افترض أنه مزيج من الصدمة والجرعة الدنيا من التخدير التي قدّمتها له.

«افعلها»، يصرخ. فجأة أصبحت ذراعه حقيقة

جدا في يدي. عادة ما يصرخ المرضى متوسلين إلينا لإنقاذهم. كل ما يعرفونه هو الألم. «ولكن... ولكن كيف ستقاتل؟» أسأل. يبتسم ويحرك ذراعه اليسرى. «لا يزال لدي واحدة أخرى، اليس كذلك؟».

هذه المرة يتحول الألم إلى دموعي التي تنساب على خدي. يسند الجندي رأسه إلى سرير المستشفى، ويرفع عينيه إلى السقف، ويعود إلى الغناء. وترسل ذراعه مع بقية الضحايا من اليوم ليُدفنوا في المقبرة. أفقد إحساسي بالوقت وأنا أحاول التسابق معه والقبض على الأرواح قبل أن تخرج من أجسادها. فقط عندما يتدخل الدكتور زياد جسديًا ويصدر مشرطي، أتوقف. «سلامة»، يقول وعيناه مشتعلتان. «هذا يكفي. اذهبي إلى المنزل». أحرق في يدي اللزجتين بالدم الجاف.

أضواء الردهة الرئيسية خافتة، وأنين أولئك الذين يعانون من الألم منخفض، والأطباء والعائلات على حد سواء ممددون على الجدران والأرضيات، يلتقطون أنفاسهم. أشعة الشمس التي تتسلل عبر النوافذ تعطي الألوان مزيجًا قاسيًا. الأحمر الشرير، والرمادي المقفر. هذه هي الظلال التي تظهر عندما يسيطر الشفق على العالم. لم أبق حتى هذا الوقت المتأخر من قبل. خلال النهار، تكون الألوان متوهجة، وتحثني على العمل بشكل أسرع قبل أن تنزلق من أصابعي إلى لا شيء. الأحمر نابض بالحياة، يحمل الحياة، والرمادي يبشر بسقوط المطر.

يبدو جسم المستشفى من الداخل فجأة وكأنه نعش. «حسنًا»، أختنقت. «تمام». أنظف يدي وأمسك حقيبتني. الدكتور زياد يعطيني إشارة مطمئنة. أتعثر بين المرضى وأجزؤ قدمي حتى أفتح أبواب

المستشفى على مصراعيها. يغسلني الهواء البارد من رأسي إلى أخمص قدمي، فأخذ نفساً عميقاً متوشلة إياه أن يغسل بقايا الصفراء والدم من فمي. الأحقوان. الأحقوان. الأحقوان.

أقف على حافة غروب الشمس، والصبغة البرتقالية العسلية تسيطر على السماء، والأفق فوقني يتحول إلى اللون الأزرق الداكن الغني. قماش للنجوم. تبدو... مخيفة. يتحرك أحدهم وتنخفض عيني لأرى كنان مستلقيا على درجات سلم المستشفى وكاميرته فوق صدره. تمتد ساقاه الطويلتان أمامه ويتوهج تحت سماء الشفق. الطريقة التي تتلألأ بها النجوم في عينيه والارتفاع الصغير لشفتيه تجعله يبدو وكأنه شيء خارج من حكاية. ولدقيقة، في نهاية اليوم، يبدو كما لو كان يحلم بصوت عالٍ.

يا إلهي، إنه جميل. أراقبه لبعض الوقت، وأتذكر كم كان قريباً مني الليلة الماضية عندما اصطحبني إلى المنزل. أشعر بالدفع في كل مكان. تلتف يدي بإحكام في نسيج معطفي الطبي، والإحباط على وشك أن يقسم قلبي إلى نصفين. في الأوقات الهادئة يرفع رأسه ويسخر مني بشأن سنوات مراهقتي الضائعة. نحن صفار جدًا. صفار جدًا لنعاني هكذا. وأنا أعلم أنني أمنع نفسي من الوقوع في حبه. لكن لطفه يسبب الإدمان، ووجدت نفسي أتوق إليه، مستمتعة بالصورة التي رسمها عني. في الكذبة، فتاة متفانية تنقذ الجرحى، بغض النظر عن سلامتها.

في تلك الحياة المحتملة، مع خاتمه المتلألئ في إصبعي، كنا لنخرج لتناول العشاء في ليلة الخميس في مطعم فاخر حيث يمتلئ الشارع بالناس الضاحكين والأزواج الذين يحتفلون بنهاية الشتاء،

ويشربون الشاي الدافئ. ستظل المتاجر مفتوحة حتى وقت متأخر، والأضواء ستبعد الليل، تومض بانتظام إلى انفجارات شمسية صفراء على الجدران الحجرية التي يعود تاريخها إلى قرن من الزمان. سنكون مستغرقين في عالمنا الخاص حيث ستبقى محادثات الآخرين بأصوات هامشية وعقارب الساعة غير واضحة، متحذية قوانين الزمن حتى يأخذني إلى المنزل. وتحت أشجار الليمون المزهرة خارج مبنى شقتي والقمر الهلالي يكون شاهداً، سيمسك خدي ويقبلني.

دون قصد، أطلقت تنهيدةً فاستقر ذقنه إلى أسفل، وعيناه تتلألآن عندما تلتقط صورتني. «سلامة»، يقول، صوته دافئ كيوم صيفي. «كنان». أستمتع باسمه. يترك طعماً حلواً على لساني. يقفز على قدميه، ويمد ذراعيه فوق رأسه. «دعينا نذهب؟» يسأل، وأومئ محاولةً ألا أبدو مشتاقة للغاية. سار بجانبني وألاحظ أنه يرتدي نفس السترة التي وضعها على كتفي. ارتعشت أصابعي، تريد الركض على طول خط الباقة.

«هل...». أبدأ. «كيف...». يقول. ينظر بعيداً، ويحمر خجلاً، وأنا أفعل نفس الشيء. فهل هذا من أعراض الوقوع في الحب؟ أو مجرد إعجاب؟ أنا شديدة الوعي بكل نفس يتنفسه. «أسف. تكلمي أولاً»، يتمتم. أمسكت بحزام حقيبتني وأخذت نفساً عميقاً. إذا كان هذا مرضاً فلا بُد أن يكون له علاج. «أردت أن أسأل إذا قمت بالتصوير اليوم؟».

يومئ. «لقد حصلت على لقطات جيدة. تحدثت مع شخصين من حماة. كان من الجيد سماع قصص عن مسقط رأس ماما. حول ما يحدث هناك أيضاً. أفكر في تجميع كل شيء في فيلم وثائقي ونشره على

موقع يوتيوب. ليس طويلاً، على الرغم من ذلك. فقط مباشرة عما يحدث».

أعطيه ابتسامة صغيرة. «ذلك رائع». فيحك مؤخرة رأسه ثم يقول: «أنا... أه... أيضاً أحضرت المال». بدأنا. لم أتمكن من رؤية أم طوال اليوم، وأعلم أنه لن يفوت فرصة جمع أمواله. لكن ابنته لا تزال في حالة حرجة، حتى لو لم تتمكن من البقاء في المستشفى. «الرجل الذي كنت تتحدثين معه بالأمس، هو الذي يجهز القوارب، أليس كذلك؟» يسأل كنان. أومئ. «لا أعتقد أنه جاء اليوم». «وأنا كذلك. لقد صُورث في المستشفى بأكملها، لكنه لم يكن في أي مكان».

«أنا متأكدة من أنه سيكون هناك غداً». وبعد نبضة قلب أضيف: «هل يعلم لمى ويوسف أنك لن تأتي معهما؟» يسقط ظل على وجهه، فيمسك بالكاميرا. «نعم... هما... ليسا سعيدين. ولمى شجراً، ويوسف ذهب مباشرة إلى السرير ولم ينظر إلي منذ ذلك الحين». أصبحت السماء الآن بلون زهرة السوسن، وبدأنا نمز بأشخاص يسيرون في مجموعات، وكلهم يحملون لافتات مصنوعة يدوياً. والقليل منهم يلف علم الثورة السورية على أعناقهم. احتجاج ليلى. تعزفت إلى امرأة شابة قمت بخياطة جرحها بعد أن حاولت الهروب من الأسلحة في مظاهرة أخرى. تبتسم عندما تراني وتقول: «مرحباً»، قبل أن تسرع خلف الآخرين.

«كنان»، أقول وأشعر أن الهالة المحيطة به تنلوى بالخوف. «لا يزال بإمكانك القدوم معنا». تتبخر الطاقة العصبية منه ويترك الكاميرا. تتأرجح للأسفل وتتصطم بجانبه. يحول بصره بعيداً، كأنه ملتصق بالأمام. هل يخجل من إخباري أنه يريد الرحيل؟

أرى أوجه التشابه بيننا بوضوح. ولكن بما أن ليلي هي نقطة ضعفي، فإن إخوته هما نقاط ضعفه. يهمس: «لا أستطيع. لن أسامح نفسي». «وهل تعتقد أنني سأسامح نفسي؟ هذا ليس خيارًا سهلًا، لكنه ليس خطأ».

توقف عن المشي ويحدد بي لبضع ثوانٍ قبل أن يسحب هاتفه. يفتحه ويضغط على الشاشة ثم يمسكها أمامي. إنه قسم التعليقات في مقطع فيديو على يوتيوب. «انظري إلى التعليقات يا سلامة». أعبس. هناك نحو خمسين، جميعهم يدعون من أجل سلامة سوريا وتحريرها. يتحدث عدد قليل من المستخدمين عن كيفية تغطية القناة لما يحدث بشكل أفضل من أي منفذ إخباري.

«هذا هو الفيديو الخاص بي». يقول كنان: «قناتي. أنا أصنع فرقًا. أقوم بإضافة ترجمة باللغة الإنجليزية وأشرح ما يحدث حتى يتمكن العالم من معرفته. العرب يعرفون لكن بقية العالم لا يعرف. وهم لا يعرفون أنها ثورة. ليس لديهم أدنى فكرة عن أننا نعيش في ظل دكتاتورية منذ خمسين عامًا. تُظهر الأخبار أن الجيش يقتل الناس. وهم لا يعرفون من هو الجيش السوري الحر. من هو جيش النظام. وسوريا مجرد كلمة بالنسبة لهم. لكن بالنسبة لنا، فهي حياتنا. لا أستطيع أن أتركها».

قلبي يدق بشكل مؤلم. ويعيد هاتفه إلى جيبه. «لقد تحدثت مع عمي أمس. بمجرد أن نعرف متى يغادر القارب، سنخبره، وسيأتي إلى سيراكيوز. سوف يأخذ لمى ويوسف». لا أحب هذا. لا يعجبني كيف أنه لا يشمل نفسه. «كنان...»، «لذلك ليست هناك حاجة لهما للذهاب بالسيارة إلى ميونيخ. وسيساعدك عمي أيضًا بالطبع. لقد أخبرته. سوف

يتأكد من سلامتكَ أنت وليلى».

«كنان». يتوقف عن الكلام، يتوقف عن المشي، لكن هناك يأسًا شديدًا في عينيه. كأنه يبلغ الكلمات لأنها تهدد بالانسكاب من شفتيه. إنه ينسحب بالواجب مثلما لو أنه جمرة مشتعلة. أتجاهل طعنة الندم لتورطى في هذا الأمر وأركز على الكيفية التي يمكن أن ينقذه هذا.

أقول: «الرحلة إلى سيراكيوز طويلة. نحن ذاهبون بالقارب. هل تفهم ذلك؟ إنها ليست سفينة فاخرة مع وجبة من خمسة أطباق. لقد رأيت صورًا لها على الإنترنت. رأيناها جميعًا. القوارب قديمة وضعيفة وبعضها... البعض لا ينجح في الوصول حتى. إنها مكتظة. هناك في البحر الأبيض المتوسط، لا توجد قوانين. ستكون عقلية الجميع هي البقاء على قيد الحياة بغض النظر عن يتأذى في هذه العملية. وسوف يتأذى الناس. لى ويوسف مرشحان مثاليان».

تندلى كتفاه كما لو أن العالم والسموات السبع كلها تقع عليه. إنه متعب وأنا لا أعرفه جيدًا بما يكفي للتأكد مما إذا كان تدمري يسبب ضررًا أكثر من نفعه. لذلك قررت أن أخذ صفحة من كتاب لى. أذكره بالسعادة. أو على الأقل بالماضي؛ وبذلك يعلم أن هذا الألم ليس أبدًا.

«أتذكر والدتك»، أقول بصوت لطيف، وينظر إلى بدھشة. يقف أمام مبنى متفحم باللون الأسود بسبب حريق ما. لا بُد لي من رفع ذقني حتى أنظر إلى عينيه. تلك العينان الجميلتان الممتلئتان بالألم. أنا أولب نفسي بصمت. لا أستطيع أن أفكر فيه هكذا. قد يكون متمسكًا بالجمرة المشتعلة، لكنه لا ينوي تركها. لقد ظل متمسكًا بها منذ ولادته. وفي

غضون شهر، سأبحر بعيدًا، وسيكون عالقًا على الشاطئ، ويزداد بُعدًا كل ثانية. سيكون بمثابة حلم يقظة أزوره عندما أكون وحدي في ألمانيا، حزينًا على فقدان حياتي المحتملة، وأشهد بقلق شديد قناته على يوتيوب بحثًا عن أي تحديثات، متسائلة عما إذا كان لا يزال على قيد الحياة، وحزًا.

أمسك بالطرف الفضفاض من حجابي وأعتصره بإحباط. هذا ليس عادلاً. أتابع: «لقد كانت في حفل زفاف أخي وليلى. أتذكر رؤيتها. أنت... أنت أخذت من ملامحها عينيها». تلين تلك العيون، ويقتررب مني خطوة. «أتعلمين، لقد أخبرتني أمي عنك في تلك الليلة». معدتي تدور، ويضحك هو بخفة، وتختفي كل آثار الألم. كيف يمكننا القفز من عاطفة إلى أخرى مثل رقصة منشقة بشكل جيد، لن أعرف أبدًا. «نعم، لقد عادت إلى المنزل لتتحدث عن هذه الفتاة التي تمثل فقاعة من الحياة. التي أصابت ثقتها وفرحها كل من حولها».

الحرارة تغلفني بالكامل. أفقد تلك الفتاة. «لقد كانت فصمة تمامًا على مقابلتنا». يمرر يده على شعره، ويصبح أكثر فوضوية. «قالت أنا وأنت مثل حبتين من البازلاء في غلافهما. كنت أشعر بالفضول، لكن والدتك أرادت منك التركيز على دراستك قبل أن نلتقي. بصراحة، اعتقدت أنك ستكونين أكثر تكبرًا». أتلعثم وهو يبتسم: «معذرة؟». يضحك مرة أخرى، ويبدو الأمر نعيمًا ومليًا بالحياة. ليست مثل ضحكة خوف. «أسف. لقد حكمت عليك من خلال مظهرك. طالبة في كلية الصيدلة، اسم عائلة جيد، أخ طبيب، الابنة الوحيدة، الأصغر في عائلتك. أعني أن كل العوامل أشارت إلى هذا الانطباع. لم أكن أعتقد أن شخصًا مثلي سيفي بمعاييرك».

أرمش بعيني. يفرق مفاصل أصابعه، ويبدو أنه يشعر بالذنب. «لقد كنت مخطئًا، من الواضح». يعطيني ابتسامة خجولة. «أنا أسف». «كيف تعرف أنني أصبحت أقل تكبرًا بعد كل ما حدث لي؟» أسأل، وأحتاج إلى معرفة الإجابة، ولكنني أشعر بالقلق بنفس القدر. يهز رأسه. «لا أعتقد ذلك. لقد كنت دائمًا بهذه الطريقة، أنا متأكد. كنت أشعر بالحرج من ترتيب اللقاء، لذلك واصلت تقديم أعذار سخيفة من هذا القبيل». «للعلم»، أقول، دون أن أصدق أنني سأنطق بهذه الكلمات، «كنت أعتقد أنني لن أفي بمعاييرك».

يميل رأسه إلى الجانب في حيرة. «أنت الابن الأكبر، كل المسؤولية تقع على عاتقك. وبدلاً من أن تسلك الطريق الآمن لدراسة الطب، وهو ما كان بإمكانك اتباعه، أثبتت قلبك ودرست ما تحب. حتى بعد كل ما مررت به، هناك ضوء في عينيك. ما زلت تضحك. لذلك لا أستطيع إلا أن أتخيل كيف كنت من قبل. كنت سأشعر بالخجل من مدى تحررك. كيف ترى العالم بكل ألوانه وظلال جماله. كنت سأشعر بالقلق من عدم قدرتي على مجاراتك». أتوقف عن الحديث لأن الطريقة التي يحدق بها بي تجعل الفراشات ترفرف بأجنحتها في معدتي. «حسنًا»، يقول بعد فترة. «لم يكن لمخاوفنا أي أساس إذن». «أنا... أعتقد ذلك»، أهمس وترتجف أنفاسي.

«إنه... إنه عار يا كنان». «ما هو؟». صوته خافت، وأعلم أنه يعرف ما سأقوله. «أنا لم تُنح لنا الفرصة أبدًا لمعرفة ما إذا كنا مثل بازو وشيتا لبعضنا البعض». عندما لا يقول أي شيء، أقترب منه كثيرًا حتى أتمكن من عذ النمش على رقبتة. أنفاسه تنقطع في حنجرتة ونظراته تسقط على شفتي.

أهمس: «أتمنى لو كان لدينا هذا الوقت... أنا حقًا.
أتمنى...». أتوقف. ينظر إلى شفتي ويقرأ الكلمات
التي أشعر بالخجل من التحدث بها. أتمنى أن تأتي
معي. أتمنى أن نقع في الحب.

17

خوف غير سعيد بحديثي مع كنان، لكنني أرفض التحدث معه، وبدلاً من ذلك مستلقية على سريري وفي مواجهة الحائط، أفكر في عيون كنان وتفاغلنا اليوم. «ألا تشعرين بالقلق لأنك لم تري أم اليوم؟». يمضي ويقف أمامي، فالتفت إلى الجانب الآخر. لقد ظهر هناك أيضًا، وأنا أتأوه بصوت عالٍ. «ماذا لو هرب بأموالك؟».

«يهرب إلى أين؟ الطريقة الوحيدة التي يكسب بها المال هي عن طريق اصطحاب الناس إلى القوارب، ومع أسعار المواد الغذائية، فإن الأموال التي قذمتها له لن تدوم إلى الأبد. سوف أراه غداً. لقد أصيبت ابنته، أتذكر؟ لن يفوت فرصة الحصول على المزيد من الأدوية». خوف يزُم شفتيه، وعيناه تتلألآن مثل رقاقات الثلج في الغرفة المظلمة. «حسنًا»، يقول أخيرًا. «كنان لا يغير رأيك، أليس كذلك؟». أنفخ في الهواء. «لا. سأختار ليلي دائمًا قبل أي شخص». يبتسم راضيًا. «ولكن هل تختارين نفسك أيضًا؟». أعبس.

يشير لي: «أنت لم تأكلي أي شيء طوال اليوم». أضغط على فكي. كم هو مزعج أن تكون برائن عقلي بهذه الطريقة. في وقت سابق قمت بتحضير عشاء من التونة المعلبة المغموسة في زيت الزيتون والملح، فتناولت قُضمة واحدة منها قبل أن تهدد معدتي بطرد كل شيء. لا أشعر بالجوع بعد الآن. ليس بعدما فعلته بسمر. ولم تأكل ليلي أيضًا، وعندما سألتها إن كانت أكلت شيئًا، قالت إنها ليست جائعة. إنها تريد توفير أكبر قدر ممكن من الطعام للرحلة. صوت خوف قاتل مثل أوراق سث الحسن السامة. «إذا لم تكوني حذرة يا سلامة، فقد

تصبحين أداة تدميرك». «لقد غيّر رأبي بالفعل بشأن المغادرة»، تذمّرت، «لماذا إذن تعذبني؟».

شفتاه تتجفدان في ابتسامة بطيئة. «أنت فعلت. ولكن يمكن أن يحدث الكثير من الآن وحتى رحيل القارب. لا أستطيع التحكم في ذلك. أنت لست مثزّنة يا سلامة، لكن أنا أكثر اثزاناً. تذكرني: إذا تمّ اعتقالك، فلن أذهب إلى أي مكان. سأجعلك تربي كل أنواع الأشياء الفظيعة. تعرّض كنان للضرب حتى يقترب من الموت. حمزة، مجرد عباءة فارغة». انحنى إلى الأمام وأنا أقف على الأرض رافضة أن أترك شفتي ترتعش. «المثير للاهتمام يا سلامة أنك أنت من سيطرح كل هذه السيناريوهات. أنا جزء من عقلك، أنت بحاجة إلى كل هذه الهلوسة الرهيبة. أنت في حاجة إليّ». أعبس: «أعلم أن عقلي يحاول حمايتي أنا وليلي. لقد أوضحت ذلك. لكن هذا لا يعني أنني يجب أن أحب ذلك!».

يفرقع بأصابعه وتظهر ليلي ممّدة على الأرض بجوار سريرى. يتسرّب الدم إلى ألواح الأرضية بينما هي ترتعش. يتوقف قلبي في حلقي وأعود بعيني إلى خوف. إنه يدرس ردة فعلي. «ليست هي»، أقول، وصوتي بالكاد مسموع. يقول: «لا تنسي أبداً من هو المسيطر هنا». أغمض عيني وأهمس لنفسى بـ«الأقحوان»، وحين أفتحها تختفي هلوسة ليلي. لكنها لا تزال تعيش في ذهني.

ومن دواعي ارتياحي التام، أن أتى أم إلى المستشفى في اليوم التالي. عيناه باهتتان، ولحيته مشعّنة. يبدو بانساً كما أشعر. توقف عندما راني، ضاقت عيناه وأنا أمّذ يدي التي تحتوي على قرص بانادول. «هنا». أم يمضغ خده ويفتح كفه. «كنان

سيأتي في وقت لاحق. سيكون لديه أموالك». يتنهد. «أريد أن أسألك ما الذي يجب أن نحزمه. ماذا نحتاج للرحلة؟». يقوم بتدليك جبهته. «وثائق مهمة. طعام. المياه الخاصة بك. دواء يساعد في دوار البحر. لا شيء ثقيل جدًا». راسي يدور. «تمام. تمام. هل هذا كل شيء؟». أعبت بنهاية حجابي وأواصل كلامي متسائلة: «كيف حال سمر؟». نظرته مليئة بالكراهية: «بخير». «وجرح رقبتها؟». «قلت إنها بخير». ينفجر. «اسمعي، هذه صفقة تجارية، حسنًا؟ تعطينني المال وأعطيك قاربًا. لا يتعين علينا أن نأخذ كل شيء بشكل شخصي!». حلقي جاف، لذلك أومات.

يتحرك بجاني لكنه يتوقف للحظة. يقول ويبتعد: «لا تفكري في طلب المغفرة». معدتي تؤلمني بسبب تراكم حمض المعدة فأسرع إلى مخزن الأدوية. أستاذ على الحائط بينما أمشي، وأنفاسي غير منتظمة وألم خفيف ينبض خلف عيني. يقول خوف: «أنسيه»، وأبدأ. يقف على بُعد بضعة أقدام مني، ويتفحص علبة حمراء من الأريبيرازول. «أنسي ما قاله يا سلامة. إنه ليس الصورة الأكبر. إنها ألمانيا. حياتك الجديدة مع ليلي وطفلها».

الزعرور. التوت الأحمر الذي يمكن استخدامه لخفض ضغط الدم. له خصائص مضادة للأكسدة ممتازة وتقوي عضلة القلب. الزعرور. الزعرور. الزعرور.

أبقى في المخزن لفترة أطول قليلًا حتى أتمكن من رؤية بتلات الزعرور البيضاء خلف جفني المغلقين. ثم أمشي بالخارج لأواجه أي شيء جديد يدخل من خلال الأبواب. هذه المرة، عندما يصل ضحايا إطلاق نار من قناص في وقت الظهيرة

تقريبًا، أقف بقوة، وأدفع خوفي للأسفل للتعويض عما فعلته. وسط الجثث والصراخ، أرى كنان واقفًا على الجانب وكاميرته تغطي نصف وجهه. ومهما حاولت التغلب على الموت، فهو لا يزال يفوز. أغمض خمسة أزواج من العيون اليوم. ثلاثة أطفال وشابة وشاب. وجوههم ملطخة بالدم، وأفواههم مفتوحة، وتعبير الخيانة محفور على وجوههم إلى الأبد. أقرأ الفاتحة على أرواحهم وأشعر بكنان يقف بجانبني.

«كل شيء على ما يرام؟» يهمهم. أهز رأسي دون أن أرفع عيني عن الجثث. «سلامة»، يقول كنان بلطف. «دعينا نذهب. خذيني إلى أم». لا أتحرك. أصابعه تمس طرف كمي مؤقتًا وأنا أتنفس بحدة. «لقد فعلت كل ما بوسعك. هذا ليس خطأك». ترتجف شفتاي وأبتلع صرخاتي. يقول: «يلا»، وأسمح لنفسي بالابتعاد.

تمتلئ الردهة الرئيسية بالوجوه الجديدة والقديمة. نجد أم واقفًا بجانب الباب الخلفي حيث ينقل الشهداء إلى المقبرة. لم أسمع حتى ما يتحدث عنه أم وكنان، حيث أصبحت أفكاري مظلمة للغاية وملتوية، وألومني لأنني كنت بطينة للغاية، ومثيرة للشفقة للغاية بحيث لا أستطيع إنقاذ الأرواح.

«سلامة». صوت كنان يقطع الهواء وأنا أنظر إليه. يبدو مهمومًا، وأنا أراقب أم بفضول. ألقيت نظرة للأسفل ورأيت أنني كنت أحفر أظافري في راحتي بينما كنت أرتجف في كل مكان. «أنا بخير» أقول بصوت أجوف. يصدر أم صوتًا ساخطًا، وقبل أن يتمكن كنان من قول أي شيء، يقول: «سوف نقدم لك سترات النجاة، ولكن هذا كل شيء. أحمل القليل. كل شيء ما عدا حياتك يمكن استبداله».

أقول فجأة: «يجب أن أذهب»، فيستدير كنان نحوي، «تمام»، يتحرك نحوي، «دعيني أسير...»، أهز رأسي، وأرفع يدي، «لا بأس».

التفت وأسرع مبتعدة وأخرج من المستشفى بينما يرعد قلبي في أذني. أنا غير قادرة على تحفل ذلك بعد الآن. لا أستطيع أن أحمل جثة أخرى. لا أستطيع تحفل هذا الذنب. أنا متعبة ومعدتي تتمزق من الجوع. كفاي حمراوان من أظافري، وندوبي فظيعة. أحتاج أن أتنفس شيئا ليس الدم والصفراء وأحشاء. أحتاج أن أحتضن ليلي وأذكر نفسي بأنها على قيد الحياة. أريد الصراخ. أريد ماما. عندما وصلت إلى منزلي، كنت أشعر بضيق في التنفس وأزيز يدور في أذني.

«ليلي!» أنادي وأغلق الباب خلفي. «سلامة؟» صوتها المتفاجئ يجيب من غرفة المعيشة. تظهر بعد ثانية، وشعرها على كتفيها. فستانها الأصفر الخفيف متدل فوق بطنها المنتفخة، وألقيت بنفسي بين ذراعيها، وعانقتها. «مهلاً، هل كل شيء على ما يرام؟». تحتضني أكثر. «يا إلهي هل حدث شيء ما؟ هل كنان بخير؟». «لا»، أتلثم. «أنا بخير. كل شيء على ما يرام. أنا فقط بحاجة لرؤيتك». تحتضني مرة أخرى، وتبحث في عيني. «الدوائر تحت عينيك أكثر قتامة». تمسك بذراعي. «وجهك أرق». أحدث شيء ما يا سلامة؟». «أنا بخير»، أكرّر بصوت ضعيف. لا تصدقني. «إنها الساعة الرابعة تقريباً. مناوبتك لن تنتهي قبل الخامسة».

انترعت نفسي منها واندفعت نحو الأريكة، حيث كنت على وشك الانهيار. خلعت معطفي الطبي وحجابي، وألقيتهم على ذراع الأريكة. «أنا متعبة. من فضلك، هل يمكنك اللعب بشعري؟». تزفر

وتجلس، وأضع رأسي في حجرها. لمستها لطيفة وهي تفك العقد في خصلات شعري. أشعر بأن الدم يتحرك في الأوعية الموجودة في فروة رأسي وأتهد بارتياح. أغمض عيني وأهمس: «شكراً لك». «أنت تأمرين يا سخيفة».

بقينا صامتتين لبعض الوقت، وأتذكر كم كنت أشعر بالدراما عندما ظهرت بثرة على وجهي. كان رف الكتب الخاص بي مليئاً بخلطات منزلية الصنع قمت بتحضيرها من جميع الأعشاب والزهور التي جمعتها، وتم ترتيبها بدقة بجانب بعضها البعض أبجدياً. برطمانات مربى مليئة بأغصان شجرة الشاي، وبراعم البندق الساحرة، وبتلات الورد المجففة. سأصنع منهم معجوناً. «ضعيه تحت عينيك»، أتذكر أنني قلت ذات مرة لليلى، التي كانت تتطوع دائماً لتكون فأر التجارب الخاص بي. كانت تجلس على سريرى، تشرب القهوة من كوب أزرق ضخم. وضعت على مكثبي وفتحت البرطمان. «مم». لظخت الكريم الوردى على عظام وجنتيها وتحت عينيها. «رائحته طيبة للغاية. ما هذا؟». «الياسمين العربي، والأقحوان، وقليل من زيت اللوز». لقد كتبت في ملصق على البرطمان، «من المفترض أن يجعل بشرتك أكثر نعومة ويمحو الهالات السوداء».

ضحكت ليلى متظاهرة بالإهانة: «هل تقولين إنني لا أعتنى ببشرتي؟». ضحكت: «ليلى، أنت تدينين لي بنصف جمالك». نفضت شعرها إلى الجانب. «لن أعلق على ذلك». الآن بشرتي جافة ومتقشرة، وشفتي متشققتان، والهالات السوداء تحت عيني أصبحت دائمة. سلامة القديمة لن تتعرف إلي. تقول ليلى: «سلامة»، ففتحت عيني نصف مفتوحتين.

«تحدثني معي». أفرز المشاكل وأحاول أن أقرر ما الذي سيصرفني بما فيه الكفاية عن ألمي ولن يكون عبئًا على ليلي. همست قائلة: «أعتقد أنني قد أحب كنان». أصابعها ساكنة وأنا أستعد لصرخات الفرح التي لا مفر منها، لكنها لا تفعل ذلك. نظرت للأعلى لأرى ابتسامة حزينة على شفثيها.

«ماذا تنوين القيام به؟» تسألني. «أبكي؟» أمزح بشكل ضعيف على الرغم من أنني أبذل قصارى جهدي لخنق الدموع في عيني. والآن بعد أن أصبحت الكلمات علنية، فإنها ترفض أن يتم تجاهلها بعد الآن. يبدو أنني سأغادر سوريا متألمة بكل الطرق الممكنة. تقول: «أنا آسفة». «اعتقدت أنك ستصرخين وتقفزين لأعلى ولأسفل». تهز رأسها بخفة. «أعلم أنني كنت متحمسة لليوم الذي تقعين فيه في الحب، لكنني لم أعتقد أبدًا أنه سيكون هكذا». «هل من الممكن أن أكرهه قليلًا لأنه يريد البقاء هنا؟». تطلق ضحكة صغيرة. «نعم، هذا جيد تمامًا».

أتأوه وأنا أفرك رموشي الرطبة. «أعلم أننا سنفترق بعد شهر، لكن يا ليلي، لا أريد أن أتوقف عن مقابلته. أنا أفكر... أي شيء أفضل من لا شيء. أعلم أنني سأتألم كثيرًا في ألمانيا. أعلم أنني سأقضي أياها وليالي في الدعاء ليكون أمنا. أعلم ذلك وما زلت لا أستطيع -لا أريد- أن أتوقف». تحدق ليلي بي لبعض الوقت. «لا بأس أيضًا يا سلامة. أنا أعرف ما تعنيه. أي شيء أفضل من لا شيء. قلت لك حاولي أن تجدي شيئًا من السعادة في حمص. كنان هو لحظة سعيدة». أبتلع حمضًا كثيرًا.

أذهلنا طرُق على بابنا الأمامي وتبادلنا النظرة. أقف، وألف حجابي حول رأسي قبل أن أتوجه ببطء

نحو الباب، من خلال العدسة أرى كنان، وهو يحدّق في الأرض، ويداه في جيبه. «من هذا؟» تسأل ليلى بصوت خافت. «كنان»، أقول. يسقط فمها من الدهشة وتصفق بيديها بصمت، وتبدو متوهّجة. «افتحي الباب»، ردت، مقلّدة حركتي. زفرث بعمق، وأطلب من نفسي أن أبقى هادئة وأفتح الباب، وأتصّع - ما أمله - ابتسامة عادية تبدو غريبة على وجهي. أقول: «كنان»، وهو ينظر إلى الأعلى. «مرحبًا».

تعبيره مشرق لكنه يخفيه بسرعة. «أنت... مممم... أنا أسف لمجيني بهذه الطريقة، ولكن... لقد غادرت المستشفى بسرعة كبيرة وأردت التأكد من أنك بخير». ألعب بحاشية سترتي، وأشعر بالدفء بسبب اهتمامه. «نعم. أنا بخير. لقد كان... أنا بخير، أعذك بذلك». «أنا سعيد لأنك بخير». يهرش مؤخرة رأسه، وتضغط الحركة على سترته. يشجع نفسه أخيرًا على الكلام، ويتأرجح على كعبيه، ويطلق مفاصل أصابعه. «كنت أتساءل إذا كنت ستذهبين معي إلى مكان ما».

أوه.

أوه!

ليلى تشهق من غرفة المعيشة وأحاول أن أتذكر كيف أتنفّس. يصاب كنان بالذعر عندما يراني أحدق به بغباء. «إذًا... لا بأس إذا كنت لا تريدين ذلك». «لا»، أقول بسرعة كبيرة. وأحمرّ خجلًا، أعانق نفسي. «أنا... نعم». يبدو مرتاحًا، وصدره يتسع بالهواء، وتضيء الابتسامة وجهه. وكأنني أحدق في الشمس. «لحظة». أسرع إلى غرفة المعيشة، حيث لا تزال ليلى جاثمة على الأريكة، وفمها مفتوح، وسرعان ما تأخذ يدي بين يديها. «يا إلهي»، صرخت

وهي تهزني. يبدو هذا وكأنه تلميح من حياتنا القديمة يتسرب من خلال الألم. يكاد يجعلني أشعر بالدوار من الحنين إلى الماضي.

الأفكار القلقة تسيطر. «هل هذه فكرة سيئة؟ هل سيؤذي هذا قلبي؟ هل يجب أن أظهار بأنني مرضت فجأة؟». تضحك. «لا يا سخيقة. إنها السعادة. وأنت تستحقين أن تكوني سعيدة». سمر ممددة على سرير المستشفى تومض أمام عيني. تكرر ليلى بحزم: «أنت تستحقين ذلك. اذهبي الآن». أومأث وهي تترك يدي. «لن أتأخر». هي تضحك. «أنا أعرف».

ألقي نظرة على لوحة البحر، مستمدة القوة من الشعور الذي تمنحني إياه، ثم أعود نحو الباب. أمزج انعكاسي في المرأة المعلقة في الممر واتهدد. في حياتي المحتملة، كنت سأرتدي بنطالي الجينز الأزرق الداكن المفضل لدي، وبلوزة ناعمة وردية اللون مع معطف صوف لائق، وحذاء حتى الكاحل. كان حجابي سيكوى وينسكب على كتفي كالشلال. لقد جهزنا أنا وليلى ملابس غير رسمية في حالة حدوث موعد عفوي. لكن في المرأة تحقق فتاة ترتدي بنطال جينز قديما وسترة سوداء ذات حواف مهترنة. إنها حزينة وشبيهة بالهيكل العظمي، وعيناها معتمتان من اليأس والجوع. أنظر بعيدا وأخرج من المنزل مغلقة الباب خلفي. كنان يستند إلى الحائط، وينظر إلى السماء، وعظام فكّه أكثر وضوحا. «هيا نذهب؟» يسأل. «إلى أين؟» يبتعد عن الحائط وعيناه تلمعان بسر. لقد تفرقت الغيوم؛ مما سمح لأشعة الشمس اليوسفية الأخيرة بإلقاء نظرة خاطفة من خلال الثقوب الموجودة في المباني المجوفة في مدينتي المروعة. يقول: «إنها

مفاجأة»، ويسير في الاتجاه المعاكس للمستشفى. أسارع وراءه. «مفاجأة؟». يضحك. «أنت لا تحبين المفاجآت؟». «أنا... لا أعرف». توقف للحظة ورمقني بنظرة مشوشة. «لا تعرفين؟». أهرأ كفي. «كنت أحبهم. الآن، أعتقد أنهم يجعلونني أشعر بالقلق». أوماً بجدية. «هذا عدل. ستكون هذه فكرة جيدة... أمل ذلك»، ثم يضيف: «ولكن... إذا كنت تريد، أستطيع أن أقول لك». قلبي يتوهج. «لا، لا بأس».

نمر بمسجد لا يزال صامداً بعد كل ما حدث. هناك زاوية كبيرة مفقودة بسبب الانفجار، والحصير الأخضر بالداخل متسخ. «فلتسقط الحكومة!» تم رشها على أحد الجدران. برك مياه الأمطار العكرة متناثرة في كل مكان. يمر بجانبنا طفلان، أحذيتهم مهترئة وخدودهما رفيعة. أريد أن أصرخ بهم لارتداء شيئاً أكثر دفئاً لأننا لا نزال في شهر فبراير.

يقف بعض الرجال أمام متجر كبير على الجانب الآخر من الشارع، وهم يخوضون محادثة عميقة، بينما يتجول أشخاص آخرون حاملين البقالة أو في عجلة من أمرهم للوصول إلى مكان ما. أعرف هذه المنطقة، وإذا سلطنا الشارع الفرعي القادم، فإن منزلي -منزلي القديم- سيكون على بعد خمس دقائق سيرا على الأقدام. لقد عدت مرة واحدة فقط، عندما حاولت إنقاذ ما أستطيع من تحت الانقاض.

لكن كنان لا ينعطف يميناً. يمشي للأمام بشكل مستقيم ثم يتجه يساراً إلى زقاق ضيق. الطريق هنا غير مستو، لقد انهارت طوابق أحد المباني فوق بعضها البعض مثل قطع الدومينو المضطربة. «هنا!» يقول أخيراً، وانزلق داخل المبنى. أبوابه الحمراء المغبرة مهشمة من مفصلاتها ومتشققة على الأرض.

أتردد للحظة قبل المتابعة. إنه يتسلق مجموعة من السلالم الخرفية. ساقاه أطول من ساقي، وهو يسبقني بخمس خطوات على الأقل. «يلاً!» ينادي، فوقى بطابق كامل. «إلى السطح!» ألقيت نظرة إلى الأعلى وأقذر أن هناك أكثر من خمسة طوابق متبقية. «أنا أحاول!» أصرخ مرة أخرى.

بعد ما بدا وكأنه عقود من الزمن، وصلت إلى السطح، حيث كان كنان يقف بالفعل في الخارج. على الرغم من البرد، إلا أنني أتصبب عرقاً وأنفاسي مقطوعة. تعثرت خارج المدخل، وأشعر بقلبي ينبض في حلقي. «ما هذا المكان؟» تمكنت من الخروج إلى السطح. كنان يبتسم. لا يبدو أنه منزعج على الإطلاق من صعود ثماني مجموعات من السلالم. «هذا هو منزلي القديم. اعتدت أن آتي إلى السطح بعد المدرسة وأقوم بواجباتي المنزلية».

أنظر حولي. إنه سقف مبنى بسيط وعادي، والأرضية خالية باستثناء ثلاثة أقمار صناعية مكسورة انجرفت إلى الجانب. المنظر حمض القديمة وغروب الشمس. ولا توجد أي مبانٍ أخرى تحجبه، ويمكنني أن أشاهد الشمس وهي تبدأ هبوطها في الأفق. كنان يورجح ساقيه فوق الحافة وأخفق صرخة التحذير. ببطء، صعدت بجانبه وبحذر شديد بالقرب من الحافة ولكن دون أن أؤرجح ساقي. يستدير نحوي، ابتسامته هادئة. «متى آخر مرة رأيت الغروب يا سلامة؟ رأيته بشكل صحيح». أعبس. «لا أتذكر». «مع كل الدمار الذي يحدث هناك، من السهل أن ننسى الجمال الموجود هنا. السماء جميلة جدًا بعد هطول المطر».

أجمل غروب للشمس هو دانقا ذلك الذي يأتي بعد المطر، قلت ذلك لليلي ذات مرة عندما كنا في منزل

عائلتها الصيفي في الريف. كنا عالقين في الداخل طوال اليوم، نشاهد العاصفة تضرب النوافذ، غير قادرين على السباحة في النهر بجوار الحدائق. كانت ليلى تلعب بشعري بينما كنا نشاهد فيلم قلعة في السماء من كمبيوتر بابا المحمول. لقد كان الفيلم المريح المثالي عندما كانت الغيوم رمادية اللون وقطرات المطر تطارد بعضها البعض على النوافذ.

وكنْتُ على حق. السماء الآن عبارة عن موجة من اللون الأرجواني والوردي تتكسر عبر اللون البرتقالي اليوسفي، وتأخذ السحب مسحة خزامية. «سألتني إذا كنت تستطيعين رؤية الألوان مرة أخرى يا سلامة». يقول كنان بهدوء: «إذا كنا نستحق رؤيتهم. أعتقد أننا نستحق. أعتقد أنك تستحقين. هناك القليل منه في الموت. في الألم. لكن هذا ليس الشيء الوحيد في العالم. وهذا ليس كل ما تملكه سوريا. كانت سوريا ذات يوم مركز العالم. تم إجراء الاختراعات والاكتشافات هنا؛ لقد بنوا العالم. تاريخنا في قصر الزهراوي، في مساجدنا، في أرضنا».

يشير إلى الأرض بالأسفل وأنا ألقى نظرة خاطفة على الحافة، وأعصابي مكهربة من الخوف من السقوط. أغمض عيني نصف إغماضة وأرى ولدين صغيرين وثلاث فتيات يضحكون، ويلعبون نوعاً من الألعاب. يقول كنان: «انظري إليهم. انظري كيف حتى العذاب لم يجزدهم من براءتهم». ثم يشير إلى شجرة تقع على جانب الشارع. تلتف جذوعها الثلاثة السميكة حول بعضهم البعض، وتبدو الفروع هشة، وتبرز لمحة من الأوراق الخضراء من خلال مسامها. «شجرة الليمون تلك كانت هنا منذ الأزل. اعتدت أن أتسلقها طوال الوقت عندما كنت أصغر سناً.

أعتقد أن هناك صورة التقطها بابا لي وأنا جالس فوقها، ويوسف معلق إلى جانبي». أصمت وألقي نظرة عليه. لهجته مليئة بالكآبة، وعيناه تلتقطان الضوء الذهبي. يتنهد، ويطرد الذكريات بعيدًا، وينظر إلي، ويتنسم. «ما زال هناك جمال يا سلامة. لا تزال الحياة والقوة في حمص». يومئ برأسه نحو الشمس. «هناك لون».

بيطاء، ألقيت ساقي على الحافة، مع الحفاظ على بضع بوصات بيننا. إنه يمنحني دفعة من الأدرينالين، والتوازن بين شيء صلب وهواء. نسيم لطيف يدغدغ أنفي فأغمض عيني وأستنشق بهعمق. عندما أفتح عيني، أفاجأ بالسحر الذي ينكشف أمامي. بعض النجوم تنلألاً من خلال خصلات السحب. تزيئها مثل الياقوت الأزرق، هدايا ثمينة لأولئك الذين ينظرون إلى الأعلى. ثمانية مستويات فوق سطح الأرض تجلب نوعاً فريداً من السلام. الهدوء الذي يصاحب ليالي الشتاء المتأخرة. يبدو الأمر كما لو أننا نطفو في الكون، منفصلين عن كل ما يثقلنا. إنه فيلم لاستوديو جيبيلي.

«هل ترين الألوان يا سلامة؟» يهمس كنان. غروب الشمس رائع، لكنه يتضاءل بالمقارنة به. إنه غارق في وهج نهاري، مشهد من الظلال المتراقصة على وجهه. الوردي، البرتقالي، الأصفر، الأرجواني، الأحمر. وأخيراً استقر في اللون الأزرق السماوي. يذكرني بلوحة ليلي. لون صارخ لدرجة أنه قد يلطخ أصابعي إذا لمستته. بينما تغرب الشمس، في تلك اللحظات الثمينة القليلة عندما يكون العالم عالماً بين النهار والليل، يتغير شيء ما بيني وبين كنان. «نعم»، أتنفس. «نعم».

18

في مدينة تاريخية مثلاة بالقنابل، استمرت الحياة. أراه في الكروم الأخضر الذي يستيقظ من سباته الشتوي، يتدحرج عبر الانقراض. تتفتح أزهار النرجس، وتتفتح بتلاتها بخجل. أرى ذلك في ليلى، التي تبتسم أكثر الآن خاصة بعد أن ابتسمت. عندما أرى علامات الحياة الخفية هذه في طريقي إلى المستشفى، يتسع قلبي.

ولكن هناك أوقات، حيث يتطلب الأمر مني كل شيء، حتى لا أقع في اليأس. ما زال داخلي محظفاً، وتطاردني فتاة صغيرة هددت بقتلها. ومع ذلك، فقد وقعنا أنا وأم في روتين: أعطيه قرصاً واحداً من بنادول، فيطمئنني بالتحديثات المتعلقة بالقارب. على الرغم من أن التحديثات لا تتغير أبداً، إلا أنني أتشبث بالأمل.

لكن كنان يفقد خيوط الحياة، خيوطاً تلو الأخر، لأنه يقضي وقتاً أطول في المستشفى. ترتجف يدها عندما يحمل كاميرته، وعيناه تمتلئان بالدموع دائماً. لن أنسى أبداً كيف كان شكله عندما رأى طفلاً يبلغ من العمر سبعة أشهر وقد اشتعلت فيه النيران نتيجة انفجار قنبلة.

لقد أظهر لي المزيد من التعليقات التي تلقاها على مقاطع الفيديو الخاصة به على يوتيوب. الجميع في حالة ذهول، يصلون من أجلنا، ويثنون عليه لأنه خاطر بحياته لتوثيق ما يحدث. خلال تلك اللحظات، هناك توهج معين على وجهه. سكينه لا أراها في أحيان أخرى، لأن ما يفعله يستحق هذا العناء. لكنه لا يتواجد إلا في هذه اللحظات الوجيزة ويختفي تماماً عندما يسيطر الموت على المستشفى مرة أخرى.

يؤلمني معرفة أنني تسببت في هذا الانهيار في روحه القتالية، وأدرك ذلك عندما تذكرت كلماته لي قبل ثلاثة أسابيع فوق سطح منزله القديم. أيامنا معا أصبحت معدودة، ولا أستطيع منع نفسي من معرفته والاقتراب منه. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أصبح مصدر سعادتي وراحتي. وأتساءل عفا إذا كنت سأتمكن من إخباره عن خوف، أتساءل ماذا سيفعل.

عندما خرجت من المستشفى بعد مناوبة اليوم، كانت سماء المساء عبارة عن لوحة قماشية زرقاء داكنة وكان كنان ينظر إليها. «مرحباً»، أقول، وهو يبتسم لي.

خارج المستشفى وبعيداً عن الحقائق المروعة التي يوثقها يومياً، يتمكن كنان عادةً من استعادة قواه. على الرغم من أنني أرى الشقوق التي يحاول تغطيتها. وأثناء نزهاتنا، إما أن نبقي صامتين، ونفك الصدمة التي نسجت عقدة أخرى في أدمغتنا، أو، إذا كان يوماً سيئاً حقاً ونحتاج إلى إلهاء، فإننا نناقش أشياء أخرى. لقد أخبرني عن برنامج الرسم الخاص به وكيف أنه يحتفظ برواية مصورة نصف مكتملة على جهاز اللاب توب ويتمنى أن يتمكن من إنهاؤها. أخبرته عن سجلات القصص والبرطمانات المليئة بالزهور، والطريقة التي نظر بها إليّ بإعجاب جعلتني أتألم من تلك الحياة المحتملة. تملّث لو كان بإمكانني أن أريها له شخصياً في غرفتي، حيث يمكنه ضغط جسدي، وشفته فوق شفتي.

خطرت ببالي فكرة أثناء عودتنا إلى المنزل، وقبل أن أتمكن من إعادة التفكير فيها، قلت بصراحة: «تخيل لو قمت أنا وأنت بتأليف كتاب معا». توقّف، وهو يحذق بي باهتمام شديد، وكدت أشعر بلمسته

على بشرتي. «أنت تكتبين؟» يسأل أخيرًا. أومن، وأعبث بأكمامي قائلة: «أعني أنني أريد ذلك. لدي فكرتان لكتاب أطفال. كنت أفكر في أنك سترسم، وأنا سأكتب». ينظر إلي بتعجب: «أخبريني إحدى قصصك». ألقى نظرة بعيدًا وأجيبه: «لدي... لم أخبر أحدًا عنهم أبدًا». يومئذ، ثم يبتسم بهدوء. «حسنًا. دعينا نتخيل واحدة جديدة». قلبي يقفز، ممثلة لأنه لا يحاول جعلني أتحدث عنهم. «أفكر في عدة أفكار».

يبتسم ونحن نسير: «تابعي». أقول: «أفكر في محيط، لكن بدلًا من الماء هناك أشجار عملاقة تلامس الفيوم». تتسع ابتسامته. «أستطيع أن أرسم ذلك بالتأكيد. الأوراق زرقاء بدلًا من الخضراء؟ جذوعها وردية اللون؟». خجلي ينحسر ببطء، وأكمل: «كلما ارتفعت إلى أعلى، أصبحت الأوراق أكبر. أوه! الأسماك تطير عبر تيارات الهواء بدلًا من الماء!». «نعم!» يقول بحماس، «قصة عن فتاة تتوق لرؤية المحيطات المليئة بالمياه!» أضيف، تقريبًا بحماس: «إنهم أسطورة في عالمها ولكن لديهم شيء تحتاجه».

ونستمر على هذا المنوال، أفكار فوضوية تتوالى واحدة تلو الأخرى، غير مدركين أننا قد وصلنا إلى منزلي منذ فترة طويلة. نقف أمام الباب نتحدث لمدة عشرين دقيقة إضافية قبل أن يحطم هدير طائرة حلمنا. نعود إلى الواقع بأيدي مرتجفة وأعين متوترة تنظر إلى الأعلى. وعندما أنظر إليه أرى ذلك الألم. لن نتمكن أنا وهو من تأليف كتاب معًا أبدًا. وأتساءل عفا إذا كان هذا الألم في قلبي سيختفي يومًا ما. أم سيزداد قوة.

في اليوم التالي، حصل أم أخيرًا على معلومات جديدة بخصوص القارب. «سيكون هنا في خلال عشرة أيام. الخامس والعشرون من مارس. نلتقي عند مسجد خالد في العاشرة صباحًا، هل تعرفين مكانه؟». بالطبع أعرفه، كان بابا وحمزة يصليان صلاة الجمعة هناك. إنه على بعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام من منزل ليلي. «جيد. أحضري المال وإلا لن يكون هناك أي قارب». أطحن أسناني: «أعرف». لكن قبل أن أتمكن من السؤال عن سمر، يهز رأسه ويتعبد. أشعر بالغثيان، وأختبئ في مخزن الأدوية حتى يحتاجني الدكتور زياد.

يهيم ذهني في القارب، ويزداد داخلي شعور الترقب، وتشعر أصابعي بوخز الوعد بالسلامة. وعد بتمكن ليلى أخيرًا من الاستلقاء في غرفة نوم لا تذكّرها بزوجها المسجون. حيث تخطو الطفلة سلامة خطواتها الأولى في منزل مليء بالزهور ورائحة الفطائر الطازجة. تتطاير أحلام اليقظة مع طريقة سريعة على باب المخزن. كنان يبتسم: «هاي».

أجيبه بابتسامة: «هاي». يقول: «دكتور زياد يبحث عنك». أقفز على قدمي وأذهب إليه، فأجد الدكتور زياد في مكتبه واقفًا. «سلامة». وجهه أبيض، وتعبيره ملتوٍ بآلم صامت. أستعذ فورًا لأي شيء. «ماذا؟». الدكتور زياد ينظر إلى كنان. «هل يمكنك أن تمنحنا لحظة؟». ينظر كنان إليّ قبل أن يومئ ببطء ويفلق الباب خلفه. يضع الدكتور زياد يديه على المكتب. «لن أحاول تلطيف الأمر يا سلامة، لأن هذا ليس عدلاً لك، ومن حقك أن تعرفي». يأخذ نفسًا عميقًا وأنا أبدأ بالارتعاش. «كان أحد جنود الجيش السوري الحر هنا ومعه معلومات تتعلق

بالمعتقلين في مرافق الاحتجاز التابعة للجيش. أولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة. أخوك موجود في القائمة». فقدت توازني تمامًا. الدكتور زياد يدلك جبينه وعيناه تتلألأ بالدموع. «إنه حي، لكن والدك مات». انفصل عن جسدي، وفمي ينطق بصوت لا أعرفه: «أين هو؟» عيون الدكتور زياد لا تلتقي بعيني. «سجن صيدنايا».

الأرض تتداعى، وأتميل قبل أن أمسك بمقبض الباب. يعتبر سجن صيدنايا من أكثر مراكز الاحتجاز وحشية في سوريا. يقع بالقرب من دمشق، على بُعد ساعتين بالسيارة من حمص. المكان أسوأ من حكم الإعدام. ويتم تكديس سجنائه فوق بعضهم البعض في زنانات أصغر من أن يتنفسوا فيها.

يهمس: «أنا أسف يا سلامة. أسف جدًا. من فضلك اعطني...». «أحتاج إلى المغادرة»، أقاطعه، وأفتح الباب وأسرع للخارج. تسارعت وتيرة قلبي حتى خرجت وانهزت على درجات سلم المستشفى. أنفاسي تتصاعد. «سلامة!» يناديني صوت، وأنظر إلى الوراء لأرى كنان واقفًا أعلى السلم. «يا إلهي، أنت ترتعشين».

خلع سترته ووضعه على كتفي قبل أن يجلس بجانبني. أغمض عيني، وأستنشق رائحة الليمون، وأدعو أن يكون ذلك كافيًا لإعادة الظلام إلى مكانه. تمر دقائق أو ساعات، لا أعلم، لكنه يبقى بجانبني على الدرجات المكسورة، ينتظر. لا يسأل ولكني بحاجة إلى تكوين الكلمات. أحتاج أن أقول لشخص ما. الكلمات يجب أن تنسكب قبل أن تفرقني. «أخي»، أبدأ بصوت أجش. «حمزة. عندما تم القبض عليه مع بابا... ليلى وأنا... ظننا أنهما كذلك ماتا. أردنا أن نصدق ذلك. لكن حمزة لا يزال على قيد

الحياة». أسمع شهيق كنان الحاد.

حمزة على قيد الحياة في هذه اللحظة وهو يتعرض للتعذيب وأنا خارج المعتقل وأخطط للهروب من سوريا. يدي ترتعش وأمسك براسي محاولة أن أهدأ. «ياسمين»، أنتم، «الشاي المصنوع من أوراقها يخفف آلام الجسم ويساعد في علاج القلق. الياسمين. الياسمين. ياسمين». أعلم في أعماق قلبي أنه لا يزال يتعين علينا الرحيل وإلا سنواجه أنا ولبلى مصيرًا مثل مصير حمزة. وأنا أعلم ذلك. أنا أعرف. ومع ذلك... رفعت ذقني. لبلى. هذا سُرٌّ كبير جدًا بالنسبة لي لأحتفظ به في قلبي. لا أستطيع أن أضعه فوق برج أكاذيبي. يظهر خوف على الطريق المؤدي إلى سلم المستشفى ويراقبني بتعبير غير عاطفي. هناك نظرة محسوبة في عينيه وهو يقيس ردة فعلي.

«أريد العودة إلى المنزل»، اختنقت ووقفت ممسكة بستر كنان قبل أن تسقط. لا أريد إعادتها بعد، أحتاج إلى الشعور بالأمان التي تمنحني إياه لفترة أطول قليلًا. يهمس كنان: «أنا أسف جدًا». عندما أنظر إليه، لا تزال عيناه المتألمتان تنظران إلي، وتستيقظ فكرة في ذهني. يمكن استخدام حزني لإقناعه. خوف بيتسم. «ألا ترى الحقيقة يا كنان؟» أسمع صوتي من الارتعاش. «تعذيب. موت. هذا يحدث. سيحدث لك ذلك إذا لم تغادر».

«سلامة...» يبدأ في التحدث ويقف. «لا!» أصرخ وأضم يدي في شكل قبضات بدلًا من هزّه. «لماذا لا تفكر في ذلك؟ لن يشفى إخوانك أبدًا. سوف تموت من أجل قضية لا يهتم بها أحد خارج سوريا. تعليقات اليوتيوب هذه رائعة، لكن لا أحد يساعدنا. سوف تتعفن في السجن وتعرض للتعذيب لبقية

حياتك دون أن ينقذك أحد. هل فعلاً ستترك إخوانك للذئاب؟ هل تدرك حتى ما يحدث للاجنين في أوروبا؟، يتنحنج بقسوة. «لقد... سمعت...». الدموع تشوش رؤيتي، بينما تنفّسه مرتجف.

«كنان، أعتقد أنك لست أناثياً؟» صوتي ينكسر هذه المرة. «ولكنك كذلك. تخيل أن لى ويوسف وصلا إلى سيراكيوز ويحدث شيء ما وأنا بعيدة عنهما. لم يجدا عفاً أبداً. لا أستطيع ضمان سلامتهما. أنا لا أعرف حتى ما افعله. يمكن اختطافهما وبيعهما بسهولة. تخيل أن يحدث ذلك وأنت هنا، عالق في مركز احتجاز، وحياتك تُسرق منك قطعة قطعة». أظافري تחדش أكمامي. «هل هذا ما تريد؟». «لا... بالطبع لا!» يقول بصوت عالٍ، ويغمض عينيه ويفرك ذراعه في عينيه الدامعتين. أكمل كلامي: «القارب سيفادر في الخامس والعشرين من مارس»، قلت، وأنا أدعو الله أن بذور الشك تشق طريقها إلى ذهنه. أنها ستنمو كشجيرات الجرجير. «فكّر في حياة الأشخاص الذين تخاطر بهم هنا».

الإشارات العصبية في دماغي تتعطل، ولا أستطيع التركيز على أي شيء سوى العودة إلى لى. أريد أن أكون بعيداً عن الناس وأصرخ وأبكي وأحزن. أقول: «سأعود إلى المنزل». يومئ. «حقيبتك معي». قبل أن أتمكن من قول أي شيء، ينزل على السلم أمامي، وأشعر بالتيه في دهاليز معاناتي. اعتمد على ذاكرة العضلات لتأخذني إلى المنزل بينما تنهمر الدموع على خدي. تسري الهزات صعوداً وهبوطاً في جسمي، وتشقق عظامي. حرب تشتعل بداخلي ويبدو أنني ضحيتها الوحيدة. يقول: «وصلنا»، وكدت أصطدم بظهره. «شكراً لك»، أقول بهدوء،

وأعيد له سترته، وجزء مني يفكر في التساؤل عما إذا كان بإمكانني الاحتفاظ به ليوم واحد. صدمتي من تلك الفكرة خففت بعض الحزن الذي أشعر به. يأخذ السترة ويسلمني حقيبتني.

يلاحظ آثار الدموع على وجهي، وهو إدراك واضح في عينيه. يقول بحنان: «سلامة»، وترفرف رموشي. الطريقة التي ينطق بها اسمي، ونطق كل حرف متحرك وحرف ساكن، تجعلني أشعر الآن وكأن الزهور تنمو في عروقي. «نعم؟» أقول، مطابقة لهجته. يعض شفته: «أرجوك، اعتني بنفسك». ألف ذراعي حول وسطي. «أنا بخير». يبتسم بحزن: «بخير؟». تنحدر نظرتي من عظام وجنتي الحادة إلى معصمي النحيلتين. ربما بدأت أرى الألوان، مؤمنة بكلام ليلي وكنان، لكن ليس لذلك سلطان على شعوري بالذنب. يبدو الأمر كما لو أنني أتسقم ببطء. العثور على السعادة هو مجرد علاج الأعراض وليس سبب المرض الجذري الذي يزداد قوة في كل دقيقة. معدتي لا تستطيع الاحتفاظ بالطعام لفترة كافية، وأقضي الليالي إما أتقلب بلا حول ولا قوة أمام الكوابيس أو أعاني من الأرق. والنتيجة هي جسد هش يحمل عقلاً هشاً، ينتظر همس الكارثة لينهار.

يقترّب كنان خطوة أخرى، ويعبر أي جسر بيننا، ومع سير قوانين الفيزياء، يزداد الضغط. هالة من شمس الظهيرة تستقر على شعره الكستنائي. إنه مشبع بالذهب، وأشعر بأنفاسي تنقطع. يهمس قائلاً: «هناك ما يكفي من الأشخاص الذين يؤذونك. لا تكوني واحدة منهم». يرفع يده، وتمسح أصابعه كفي. أنفاسه بطيئة، أقرب لي من أي وقت مضى، نظرت إليه، يقطر الشوق من نظراته وأنا على حافة

الهاوية.

«أراك غدا؟» يسأل، صوته بمزيج من الأمل والقلق. «نعم»، أقول لاهثة، وفي الثانية التالية يدير ظهره لي ويمشي. لا يزال قلبي ينبض بشكل خطير عندما أغلق الباب الأمامي وأسند ظهري فوقه. وفي ثوانٍ قليلة من الهدوء قبل أن تكتشف ليلى وجودي، تتحوّل الصدمة إلى واقع. أبكي دموعاً كبيرة ثقيلة. أبكي كأن الدموع تتراكم خلف عيني منذ أشهر. في انتظار أن تدفعها قطرة أخرى إضافية. الإحباط يشقّ قلبي. اندفع صوت خطوات عبر الرواق، وظهرت ليلى أمامي. «سلامة!» صرخت، «ماذا حدث؟»، لا أستطيع الكلام، أغطي وجهي بيدي، وأضغّ ركبتي إلى صدري. تجلس بجانبني، وتسحبني على الفور إلى دفنها. تقترب مني وتحتضن رأسي إلى صدرها. «أخبريني بما حدث».

من خلال انتحاب الدموع، ألث من كل كلمة. لا أستطيع أن أنظر إليها. تتراخى ذراعيها من حولي ويتصلب جسمها. لفترة طويلة لم تقل أي شيء. أصوات مكتومة تأتي من الخارج عبر الباب. لا أجرو على النظر إليها، فقد شعرت بالحرقان داخل صدري. «هل يجب أن نبقى؟» أقول بين الفواق. «سلامة». صوتها هادئ، مهزوم. «انظري إليّ». على مضض، أسحب عيني إليها وأراها، بلون المحيط الأزرق، تسيل الدموع على خديها. قالت بصوت غريب: «نغادر». «لكن...». «لو سمحت، علينا أن نغادر. كان ليود ذلك». صوتها مكسور بسبب الألم الذي تحاول كبّحه.

أضرب رأسي بالباب. نعم، كان سيوّد. لقد وعدته. وتقول: «إذا متنا هنا، فسوف يدمره ذلك أكثر. سلامة، كنا نأمل أن يكون قد مات. لكنها كانت

مجرد أمنية. جزء منا يشك دائماً أنه لا يزال على قيد الحياة». أتنحج. تهرأ رأسها. «لا أستطيع... لا أستطيع التفكير في ذلك الآن يا سلامة. إذا فعلت...» صوتها يتقطع، «لا أعتقد أنني أستطيع إقناع نفسي بأنني بخير». تمسك بيدي. «لنتحدث عن شيء آخر». هناك يأس في وجهها. تبحث بسرعة عن شيء يصرف انتباهها قبل أن تستسلم للحزن. «أخبريني عن ألمانيا»، أنفَس. «أخبريني ماذا سنفعل في ميونيخ».

ثُغْمَضَ عينيها لفترة وجيزة وتتنفس بعمق، وتشد قبضتها: «كنت أفكر أنه ينبغي أن يكون لدينا مطعم خاص بنا هناك». المفاجأة تجفد دموعي: «ماذا؟» أومات، واكتسبنا القوة من الحلم. «طعامنا لذيذ، وقد قرأت ذات مرة على الفيسبوك عن مطعم سوري في ألمانيا حقق نجاحاً هناك. يمكننا كسب المال لجامعتك، وبيت، والأشياء التي يحتاجها الطفل. إنها أيضاً وسيلة لنشر المعلومات حول ما يحدث هنا». أنا مندهشة، وماخوذة من تفاؤلها الذي لا نهاية له. «ونجد السعادة؟» أبتسم بضعف. لا تردُّ الابتسامة، بل تقبل مفاصلي. «ونجد السعادة».

عيناها محتقتان بالدماء، لكنها تحذق في وجهي مباشرة ولا أريد أن تنتهي هذه اللحظة. «لكنك تعلمين أنني سأقوم بإعداد الكنافة، اليس كذلك؟» ضحكة قصيرة تخرج من شفتيها. «بالطبع. ليس جاذبيتك فحسب هي سبب حصولك على موافقة الجدات السوريات». الابتسامات تأتي أسهل الآن. «تعلمين أنني أعتقد أن هذا هو سبب أن كنان...» توقفت. تعفد حاجبا ليلي. «ماذا؟» أقول ببطء: «أنا... أتذكر أن ماما طلبت مني مراراً وتكراراً صنعها عندما يأتون لزيارتنا»، وطففت حولي مقتطفات

من حياتي القديمة بعيدة عن متناولي. «لقد كانت تسألني إذا كان لدي جميع المكونات. كانت شديدة الإصرار». أطلقت ضحكة كاذبة، «لم أصنعها حتى... رانع! يستغرق الأمر حربًا وعامًا كاملاً حتى أعرف ذلك... أعتقد أن كنان يحب الكنافة حقًا!» تضغط على يدي. «لقد فأتته حقًا». الفكرة تجعلني حزينة. نعم، لقد فأتته.

تذهب ليلى إلى النوم مبكرًا، تريد أن تبقى بمفردها، فأحاطوها بالبطانية بإحكام، تدير وجهها بعيدًا عني وتنهار بداخل نفسها، أراقبها لمدة دقيقة قبل أن أذهب إلى غرفتي. أجد خوف يقف في وسطها. منذ أن أراني كنان غروب الشمس، أصبح التعامل مع خوف أسهل. تبدو الرؤى التي يعرضها لي أقل شمولًا الآن، ونحن نقضي معظم الوقت في التحدث، والعمل على أسوأ السيناريوهات. لقد ساعدت المحادثات في التغلب على شعوري بالذنب، وأعطت قلبي الدافع الذي يحتاجه للمغادرة.

«لا تقلق»، قلت بتعب، وأنا أسقط على سريرى وأهز شعري، «ما زلت سأغادر». ينقر بأصابعه على مرفقه، ويبدو متعاطفًا تقريبًا. «جيد. قد لا تتمكنين من استرداد أموالك. ناهيك عن أنه إذا كنت...». أقاطعه: «اعثقلت»، وأسقط فوق غطاء السرير. «غذبت بالماء. ضعقت بالكهرباء. اغتصبث. انتزع طفل ليلى من رحمها وتركوها لتموت. نعم، أعرف الفظائع. لقد تجاوزناها». يراقبني بصمت. «من العار أن يحدث ذلك للشاب الذي تحبينه». التفت أصابعي حول الأغشية الرقيقة مثل الورق، ثم استدرت إلى الجانب، واستسلمت أخيرًا للخوف الذي انتشر في جسدي. هل سأتمكن من تقدير كل الألوان في ألمانيا بدونه؟ هل سأريد ذلك؟ بكل ما تبقى من

قلبي، أحب كنان والأمل الذي أعطاني إياه، ولست
مستعدة للتخلي عنه.

أضم وسادتي إلى صدري، وأركز أفكاري على
ابتسامته البسيطة وعيناه اللطيفتين. على كلامه.
عليه.

لأنني إذا لم أفعل ذلك، إذا فكرت في حمزة، فلن
أتمكن من التنفس. لن أتمكن من العيش.

19

عندما رأيت كنان في اليوم التالي، كدت أن أسقط كيس حبوب الهالوبيريدول الذي أحمله. يقف بجانب سرير مريض ما. طفل صغير في السادسة من عمره، جانب واحد من رأسه مغطى بضمادات كثيفة، ويفطي عينه اليمنى. ينحني كنان ويتحدث بحيوية، وقد انبهر وجه الصبي الصغير. وكأنه نسي ما حدث له. تتحرك يدا كنان مثل المايسترو، وينسج القصص بين أصابعه.

أضع الكيس في الخزانة، واقترب من كنان، وألمس بلا وعي بإصبعي البنصر. أنهه نفسي. ربما أكون مغرمة به، لكن هل هذا حقيقي، أم مجرد شوقي للهروب من هذا الرعب؟ لو كان مجرد صبي وكنت مجرد فتاة، أعيش حياة عادية، وقد التقينا في أي مكان آخر، فهل كنا سنظل نحب بعضنا البعض؟

علاوة على ذلك، حتى لو كان هذا حقيقياً، فلا شيء من ذلك يهم طالما أنه مصفم على أن يصبح حملاً قربانياً. الألم لا يقارن بمعرفة ما يمر به حمزة.

قررت هذا الصباح أنني غاضبة من كنان. لديه قلبي وهو يكسره. مع قلبي لمى ويوسف. إذا لم يفعل الشهر الماضي شيئاً أكثر من خدش درعه، فكم من الوقت يحتاجه حتى ينهار تماماً؟ ماذا سيكون سبب هزيمته؟

يقول كنان: «وبعد ذلك أنقذ القراصنة الصبي والفتاة». لا يزال الطفل الصغير لا يستطيع أن يرفع عينيه عنه. «لقد أبحروا في جميع البحار السبعة وقتلوا الوحوش مفاً».

«ثم ماذا؟» يسأل الصبي.

اقترب كنان قليلاً، وصوته خافت، وخطوط خطوة أخرى إلى الأمام. «حسناً، أرادت الفتاة الاحتفاظ بالأنفاس الذي أعطته إياها والدتها. وأراد الصبي أن يجد جده. كان لدى القراصنة الإجابات على هذين الأمرين، وهكذا...». توقّف واستدار، ورأى نظرة الرهبة على وجهي. «سلامة. صباح الخير».

«ص... صباح الخير».

إذا كان لا يزال يفكر في الطريقة التي صرخت به بالأمس، فهو لا يظهر ذلك. «كيف حالك؟».

ألعب بأطراف حجابي. «الحمد لله». ينظر إليّ بهدوء. «هل هناك أي شيء تحتاجينه؟» أنت. أحتاجك أن تغادر معي. «لا»، أجيب بدلاً من ذلك.

يبتسم ويقف ويخرج شيئاً من جيبه. يمدّ يده. إنها قطعة من الورق مطوية بدقة. «افتحيه».

أفعل وألثت بهدوء. لقد رسم غابة المحيط. أشجار ضخمة تحيط بفتاة صغيرة، أوراقها ترفرف في مهبّ الريح. بجانبها سمكة صغيرة بها خطوط على طول جسدها.

يشير كنان إلى أن «هذه سمكة الملاك الناري. فكّرت أن لديها صديقاً بلون النيران. يمكن أن ينير لها الطريق عندما يحل الظلام».

يتسارع نبضي، وأضم الورقة إلى صدري. «شكراً لك».

يخدش مؤخرة رقبته، وخداه ورديان. «أردت أن أبهجك بعد ما حدث، كما تعلمين».

«ساعتراً بهذا إلى الأبد». ابتسم ابتسامة شجاعة.

يبتسم لي كذلك ثم يشير إلى الصبي الصغير. «هل ترغبين في سماع القصة معه؟».

أضحك. «نعم».

أقف بجانب الصبي الصغير المتحمس، أضع الرسم في جيبتي وأراقب الطريقة التي يتحمس بها كنان. إنه يأمر الكلمات، ويحقق كل واحد منا بالدهشة، وسرعان ما تصبح محاطين بالناس، كلهم يقتربون منا، ويريدون أن ينسوا الأهم ويهربوا إلى عالم آخر. يقف كنان، ويرتفع صوته وهو يستحضر السفن التي تطير والليمون السحري الذي ينعشك من حافة الموت. إنه أسر، وهو راوي بالفطرة.

لكن مع كل كلمة، كان الثقل يقع على قلبي، فأتراجع ببطء وسط الحشد حتى لا أرى سوى شعره الأشعث وأكتافه العريضة. من المؤلم رؤيته، وهو رجل ميت يمشي، في حين يمكنه أن يؤثر على العالم.

التفت، ولكن قبل أن أخرج من الردهة، ناداني كنان. يتحدث الأشخاص الذين يقفون خلفه فيما بينهم، ويعودون إلى أسرّتهم وعائلاتهم، وأعينهم تشرق أكثر قليلاً. شخصان يصفقان لكنان وهما واقفان في ظهره، فيبتسم لهما. يقترب مني، مقطباً حاجبيه، وأنا راسخة في مكاني، وكل خلية تريده بالقرب مني.

«هل كل شيء على ما يرام؟» يسأل.

هناك وجع كليل يتردد خلف عيني، ويهدد بذرف الدموع.

«ما رأيك يا كنان؟» أهمس. كل شيء مكتوب بحرية على وجهي ليقراه.

يغمض عينيه للحظات، ويلتقط أفكاره. «سلامة»، يبدأ. لهجته منخفضة، ويكاد يختنق. «أنا... عليك أن تدركي أن هذا أمر صعب».

أشعر وكأنني أقف على أرض تهتز. «هل تعتقد أنه من السهل بالنسبة لي أن أعادرك؟ ماما مدفونة هنا!

والذي أيضًا. أخي...» توقفت، وغطيت وجهي بيدي،
 وأجبرت نفسي على أخذ نفس عميق.
 أرجوك يا الله أن يموت. دعه يجد هذا السلام.
 لا يزال كنان يحدق بي بآلم عندما أنظر إليه مرة
 أخرى.

«لقد تم تجريدنا من خياراتنا، لذلك نتمسك بما
 يضمن بقاءنا». أرفع بعيدًا كل مشاعري. صوتي
 يخرج محسوبًا وباردًا. «العالم ليس حلًا أو لطيفًا.
 الذين في الخارج ينتظرون أن يأكلونا ويطحنوا
 عظامنا بأسنانهم. هذا ما سيفعلونه بإخوتك، لذلك
 نحن نفعل كل شيء للتأكد من أننا وأحباءنا على
 قيد الحياة. مهما كلفنا الأمر».

يندلع الخوف خلف قزحية عينيه، لكن كل ما
 سيقوله بعد ذلك يختفي عندما ينظر خلفي، وتتسع
 عيناه من الرعب.

التفت لأرى يوسف يحمل لى بين ذراعيه
 الشبهتين بالهيكل العظمي، وأتساءل كيف تمكن من
 قطع هذه المسافة من منزلهم. يركض كنان نحوهما،
 وقد أصابني رعبه. عيون لى نصف مغلقة، وشفثاها
 الجافتان مفتوحتان. يأخذها كنان من يوسف،
 ويضع رأسها على كتفه، وينظر إلي بعنف.

«أحضرها إلى هنا». أشرت إلى سرير أصفر فارغ،
 فأجلسها بلطف، وهو يتمم بكلمات الحب بينما
 يمشط شعرها للخلف قبل أن يأخذ يديها في يديه
 ويضغطهما على شفتيه، ويدعو. ويوسف يقف
 بجانبه، وجهه أبيض من الرعب، وترتجف شفثه
 السفلى.

«ماذا حدث؟» يسأل كنان يوسف، فيهز رأسه
 ويشير بيديه.

اتحقيق من الجرح في بطنها، لكنه شفي في الغالب، والجلد وردي، دون أي علامة على وجود صديد أو عدوى.

«لمى، يا حبيبتي...». أضغط سماعة الطبيب على قلبها. إنه يدق في قفصها الصدري. «كيف تشعرين؟ أين الألم؟».

تتحرك، والجفون ترفرف. «أشعر... إنني مريضة. ورأسي يؤلمني».

أضع يدي على جبهتها. إنها باردة. بشرتها ملتهبة. تشقق الشفتين. صداع. كل شيء يأتي مغا. «تعاني من الجفاف».

ينظر كنان إلي بصدمة، والدموع الصامتة تنساب على خديه. «ماذا؟».

أقول: «أعطني يدها»، فيفعل. قمت بقرص أظافرها لبضع ثوان حتى يتحوّل لونها إلى اللون الأبيض وتتحرك لمى بشكل غير مريح. عندما أخفف الضغط، يستغرق الأمر بعض الوقت حتى يستعيد لونه الوردي. «نعم، جفاف».

أسرعت إلى المتجر الطبي، وأحضرت أحد أكياس الحقن الوريدي، وأسرعت عائدة لأعلقه في وريدها. إنها حتى لا تحتج عندما أدفع طرف الإبرة إلى جلدها.

«كنان، اذهب واحضر لها كوبًا من الماء»، أخبرته، فينظر إلي مشوشًا. «سوف تكون بخير إن شاء الله. لكنها بحاجة للشرب».

أوما برأسه وعاد بالماء بعد قليل ليساعدها. أخذ رشقات صغيرة. سمعت نور بما حدث وأحضرت ليوسف كرسيًا ليجلس عليه. تربّت على ظهره بينما ينظر إليها. لا ينهي لأحد أن يعيش مثل

هذا القلق إذا ماتت أختهما بسبب نقص الماء.

«سوف يحلّ الجهاز الوريدي محلّ ما فقدته». أعزّ شفتي. «الحمد لله لم يكن الأمر أسوأ».

فكّ كنان مشدود، وكتفاه ترتجفان بصمت. ينهض ويمشي نحو الأبواب الأمامية. أرمش، متفاجئة، قبل أن أتبعه. ينزل مسرعًا على الدرج ويمرّر يديه في شعره.

«كنان»، أقول بتردد.

يستدير، ويبدو وكأنه يعاني من ألم جسدي. يبدو صوته مكسورًا. هُزم. «بالأمس، بعد أن ذكرت ما يحدث للاجئين في أوروبا، غدث إلى بلدي وأجريت المزيد من الأبحاث حول هذا الموضوع». يتوقف، وينفخ الهواء بقوة. «يتعرّض الناس للخداع والسرقة، ويتركون بمفردهم في مكان مجهول. الفتيات... يتمّ الاتجار بهنّ أو الزواج بالإكراه. ويجبر الأولاد على عمالة الأطفال».

يهبط على الأرض وكأنّ رجله لم تعودا قادرتين على حمله، فأسرع إليه.

«كنان!». ركعت بجانبه.

ويخرج صوت مختنق من حنجرته. «أنت على حق. لقد وعدت بابا بأنني سأعتني بهما. بأن أحملهما في عيني. لا أستطيع أن أضمن أنهما سيجدان عمي عندما يصلان إلى إيطاليا. لا أستطيع حتى أن أضمن أن لمي ستنجو من الجفاف. ولكن... لديّ أيضًا واجب تجاه بلدي». يمرّر يديه في التراب، فيلظخهما اللون البني المحمر الباهت، ويلظخ أظافره والشقوق الموجودة في جلده. «سلامة، عليك على الأقل أن تعترفي بأن هذا ليس صحيحًا». «بالطبع ليس كذلك!» أنا أصرخ. «هذا ليس عادلاً

وليس صحيحًا. لكن لا يمكنك التخلي عن لى ويوسف».

«الجميع يغادرون واحدًا تلو الآخر»، يهمس ويفرك عينيه، ويخط سوريا على جبهته، ويلطخ نفسه بأرض أجدادنا. «قريبًا لن يكون هناك من يدافع عن سوريا».

«غير صحيح. أنت، أكثر من أي شخص آخر، تستطيع تغيير العالم. هل لديك أي فكرة عما يمكن أن يفعله خيالك؟ ألم تر كيف نظر الناس إليك هناك؟». يلمع بريق من خلال عينيه الخضراء الداكنة. «المعركة لم تنته بعد، وهي ليست هنا فقط. لقد أصبح تاريخ سوريا بأكمله باهتًا في ذاكرة الناس. إنهم لا يعرفون كم هي جوهرة. وهم لا يعرفون مدى حب هذا البلد. أنت مدين لهم بذلك. أنت مدين لنا بذلك»، أقول بشراسة.

يمرر يده على وجهه، ثم يتنحنح. «وماذا عن الذنب؟».

«حبك لسوريا سوف يدفعك. الذنب هو مجرد أثر جانبي». أبتسم بحزن. «بدون هذا الحب، ستفقد قصصك معناها».

يرمش ببعض الدموع قبل أن يمسحها بكفه. يهمس قائلاً: «لا أستطيع أن أصدق أنني سأفعل هذا».

قلبي يلين، ينكسر. «كنان. سوريا ليست فقط ما نقف عليه. إنها لى وهي تكبر، وتصل إلى سر المراهقة مع شقيقينها الكبيرين معها. إنه يوسف يحصل على أعلى الدرجات ويخبر الجميع عن أشجار الليمون في حمص. إنه أنت، الذي يتأكد من أننا لن ننسى أبدًا سبب القتال. إنه أنت و...» توقفت، وأتماسك قبل أن أقول شيئًا غبيًا. شيء عن حياة

محتملة.

وأخيراً استقرت ابتسامة صغيرة على شفثيه،
وأشعر أنني أحمرُ خجلاً.

«أنت على حق»، بهمس. اتهد بارتياح.

نُبقَى راكعين على ترابنا، والركام يحفر في ركبنا،
والطين يلطخ بناطيل الجينز. وفي تلك اللحظة،
محاطان بالحقائق القاسية التي يتعين علينا أن
نتعاش معها، بطريقة ما، لم يغد المستقبل يبدو
قاتفاً بعد الآن. الألوان نابضة بالحياة.

أقول: «سأجد أم غداً. لقد غادر مبكراً».

يعضُ شفثه. «ماذا لو فات الأوان؟ ماذا لو تم
سُغِلت جميع المقاعد؟».

أهز رأسي. «المال يشتري كل شيء يا كنان. وإذا
لم يحدث ذلك، فسوف أقوم بتهريبك على متن
القارب إذا كان هذا آخر شيء أفعله».

يحدق بي، وأتساءل عما إذا كنت قد قلت الكثير.
إذا كانت مشاعري تجاهه مكشوفة على وجهي بهذه
الحرية، فلن أحتاج إلى قول الكلمات.

وفي عينيه يتغير شيء. لا يهذب تعبيره. لقد سمح
لي بإلقاء نظرة على كل فكرة كانت لديه عني منذ
اليوم الذي التقينا فيه. إنهم في الثنية بين حاجبيه،
في رفع شفثيه اللطيف، في الشوق في عينيه.

أتنحنح. «يجب أن تعود إلى لمي».

اعتقدت أن ذلك سيكون كافياً لتبديد السحر بيننا،
لكن كنان ابتسم وهو يقترب أكثر، وأحبس أنفاسي
ورائحة الليمون تغلّف أنفي. «هل من المقبول إذا لم
أوصلك إلى المنزل اليوم؟».

أومئ.

«ولكن هل يمكنني ذلك غداً؟».

«نعم»، اتنفس.

راضيًا عن إجابتني، يقف ويتجه نحو المستشفى،
لكن قبل أن يختفي في الداخل، أسأل دون تفكير:
«كيف تكون رائحتك كالليمون طوال الوقت؟».

يتوقف مؤقتًا ويستدير ببطء، مندهشًا. «إنها
كولونيا بابا».

20

إنها فكرة ليلى أن تستخدم الليمون لمحاربة دوار البحر عندما نكون على متن القارب.

«بالطبع»، أقول. «لماذا لم أفكر في ذلك؟».

تضحك وهي تنظر إلى مجموعات الملابس الثلاث التي تختار من بينهم. «هذا لأنني لست الشخص الذي يختبر تبشم الحب. ويبدو أنه الآن أكثر من أي وقت مضى، مع انضمام كنان إلينا».

أتجاهلها وأراجع القائمة، مدركة ضخامة جيبتي حيث توجد رسمة كنان. معطف ثقيل. جواز السفر والشهادة المدرسية. في بداية الانتفاضة، بدأت أحمل جواز سفري في كل مكان تحسبنا لحدوث أي شيء أو اضطرابنا للفرار في اللحظة الأخيرة.

وأحسب الضروريات الأخرى. ثماني علب تونة وثلاث علب فاصوليا. شريط واحد من بنادول. زوج من الضمادات. أربع زجاجات ماء.

«ليس عليك أن تقولي أي شيء لكى أعرف». تتخبط ليلى على الأريكة بعد أن اختارت أخيرًا فستان أزرق داكن وجوارب صوفية سميقة. «لم تكوني قادرة أبدًا على إخفاء الأسرار عني. امتيازات معرفتك طوال حياتي».

شدت أصابعي على الدولارات الملفوفة بإحكام بينما يومض جسد سمر الهزيل الملطخ بالدماء أمام عيني. وأوصي نفسي بعدم التقيؤ، مع أنني لم أتناول أكثر من خمس ملاعق من حساء العدس. «هل هناك أي شيء آخر لا نتذكره؟» أسأل، وأركز على حقيقة أن كنان سيكون معي على هذا القارب. تطلق تنهيدة وتومئ برأسها نحو الـ USB الموجود بجانبني على الأرض.

التقطه.

«به صور عائلتنا، سيكون معنا حمزة هناك. ووالدانا أيضًا».

غضة تستقر في حلقى. «متى فعلت هذا؟»
تهز رأسها. «حمزة من فعل. الأسبوع الأول من الثورة».

أضع يدي على فمى وأنظر بعيدًا، والدموع تحرق عيني.

ماذا يفعلون بك يا حمزة؟

تهمس ليلى: «كان يعلم أن هذا سيحدث. أو على الأقل كان يشك».

«لقد كان دائمًا الشخص الذكي»، همست بدورى.
ألقي نظرة على ليلى. الدموع تزيّن عينيها مثل الياقوت.

تمدّ يديها وأنا أخذهما.

وتقول: «الحمد لله. مهما حدث لنا، له، سأتمسك بإيماننا».

أومى، وحنجرتى مليئة بالأسرار والندم.

في صباح اليوم التالي، بمجرد دخولي إلى المستشفى، توجهت مباشرة نحو أم. إنه متمركز في الردهة الرئيسية، وينظر من النافذة.

«أم»، أقول، وتوجهت نظراته نحوي. «سلامة».
أخرجت قرص بانادول وأسقطته في يده. «أحتاج إلى مكان لشخص آخر».

يحنق بي غير مصدق. «والأسبوع المقبل سيكون هناك واحد آخر. وآخر وآخر».

«لا» أقول في تصميم. «واحد فقط».

يلوّح بالكمبيوتر اللوحي أمامي. «ليس لديك سوى الكثير من النفوذ يا سلامة. ألبنادول لن يكون كافياً للحصول على خصم».

«لقد حصلت بالفعل على الذهب الخاص بي!». يهز كتفيه هزة بسيطة وينقر بعقب السيجارة على الأرض قبل أن يطحنها تحت كعب حذائه. «ليس كافياً. ما هو الأهم؟ الذهب أم حياة الإنسان؟». أريد أن أسخر منه، وأضربه على وجهه بسبب التفاق الذي يغطي لسانه. بدلاً من ذلك، تمتعت: «خاتم».

يفكر في الأمر. «حسناً».

صوت الاصطدام البعيد يجعلنا نقفز، لكن اللحظة تمر، وخارج النافذة تنطلق بعض الطيور إلى السماء المليئة بالغيوم.

أم يعبت بسيجارة. وعندما ينظر إلي مرة أخرى، يبدو وكأنه يراني للمرة الأولى.

«ماذا؟» أقول بشكل دفاعي وأنا أطوي ذراعي.

«هل كنت كذلك دائماً؟» وأشار إلي - «جوفاء؟».

بشكل واعٍ، أعدل حجابي، وأسحبه عبر كتفي الآخر. أنا متأكدة من أنه سيسعده أن يعرف أن الذنب لما فعلته قد حوّلني إلى جلد وعظم. لكن قبل أن أتمكن من الإجابة، نادى الدكتور زياد على اسمي، فالتفت لأراه يلوّح لي، ونظرة محمومة في عينيه.

أسرعت إليه، وقلبي ينبض بعنف في حلقي. «يا دكتور ما الأمر؟» أسأل، وهو ينظر حوله بسرعة، قبل أن يقودني إلى زاوية الردهة.

«هل سمعت ما حدث بالأمس في كرم الزيتون؟» صوته خافت، حنق من الألم.

يجف فمي وأهز رأسي.

«الجيش... إنهم يتجمعون...». توقف، والألم يلمع في عينيه، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يتابع. «نساء وأطفال مذبحون من الحلق. لم يبق أحد على قيد الحياة. ولا طلقة نارية واحدة. الأطفال... لقد كانوا...». فقد رباطة جأشه مرة أخرى، وتلمع عيناه، وتحترق عيناها بالدموع.

«لقد تعرضوا للضرب بأدوات حادة، وتعرضت فتاة لنشويه شديد. وسمعت الأحياء المجاورة لهم الصراخ. لقد أكد لي الجيش السوري الحر ذلك للتو».

معدتي تتأرجح وتمكنت من الهمس: «ماذا... نحن الثالون، أليس كذلك؟».

يمرر يده عبر شعره ويعدل ظهره، وتتلاشى كل آثار الرعب من تعابير وجهه. إنه طبيبنا الرئيسي، ومنه نستمد قوتنا. إذا انهار، سنسقط جميعاً. «تمكن الجيش السوري الحر من الحصول على معلومات حيوية حول هجوم مخطط له في مكان قريب هذا الصباح، وقاموا بتحذير جميع المستشفيات. إنه أسوأ من أي شيء كان لدينا».

«أسوأ من الصواريخ؟» أسأل، غير قادرة على تخيل ماذا أيضاً يمكنهم استخدامه.

أوما، ولاحظت أن الأوعية الدموية في عينيه أصبحت أكثر وضوحاً. أكثر احمراراً.

«مثل ماذا؟».

يأخذ نفساً عميقاً يضع في مكان ما في رئتيه. «الهجمات التي تنتهك اتفاقية جنيف».

اعبس. «إذن كل ما فعلوه حتى الآن قانوني؟».

«لا. بالطبع لا!» صاح وهو يفرق عينيه وترتجش يداها. «لكن هذا من المحرمات». العرق يلمع على

جبهته.

«عن ماذا تتحدث؟» صوتي يخرج مخنوقاً.
يقول: «قد لا يحدث ذلك»، لكنني أستطيع سماع
الكذب في لهجته.

«يا دكتور، هذا هو النظام الذي نتحدث عنه. إذا
أرادوا، يمكنهم إسقاط قنبلة نووية علينا». أضحك
بلا روح دعابة وأضع يدي على جبهتي.
الجاردينيا. التخفيف من الاكتئاب والقلق والتوتر.
جاردينيا. الجاردينيا. الجاردينيا.

عيناه تطيران من الأبواب نحوي وتعود مرة أخرى.
«سلامة، أنا أعتبرك ابنتي. لذا من فضلك لا تهربي
من المستشفى إذا حدث هذا. لا أحد منا مستعدٌّ
للتعامل مع هذا الأمر، لكننا سنكون بخير».

«إذا ماذا يحدث؟» أكاد أصرخ. «ماذا قال لك
الجيش السوري الحر؟».

لكن ليس عليه أن يخبرني. صرخة تمزق الهواء،
فأستدير مصدومة. لم أسمع صرخة كهذه في
حياتي. تفتح الأبواب أمام حشد من الضحايا
يتدفقون، لكنني لا أرى أي إصابات.

«ماذا يحدث؟» أنا أصرخ، وأحاول أن أفهم.
عشرات المصابين على النقلات أو على الأرض
يتشنجون وكان أحدهم صعقهم بالكهرباء.

المراهقون مع رؤوسهم ممتدة إلى الخلف،
وأذرعهم وأرجلهم تهتز بشكل لا يمكن السيطرة
عليه.

أطفال صغار مع رغبة في أفواههم، ينظرون إلى
الأعلى، ويحاولون فهم ما يحدث لهم.

قدمي متجذرة في الأرض. لا أعرف ماذا يحدث. لا
أفهم.



«هجوم كيميائي»، أسمع الدكتور زياد يقول. «لقد استخدموا السارين أخيرًا».

ييدي تطير إلى فمي في رعب. كان ذهني يتسارع في قائمة الأدوية، قائمة بأي شيء لمكافحة السارين، لكنني لم أتوصل إلى نتيجة. لا أحد مستعد على الإطلاق لهجوم كيميائي.

«كيف... كيف أتعامل مع هذا بحق الجحيم؟» أسأل، مع المسامير في حلقي.

يصرخ «أتروبين» حتى يتمكن بقية الموظفين من سماعه وهم يتحركون نحو الضحايا. «ديازيبام للششجات».

ينظر إلى الورا ويرانى متجذرة في المكان. «سلامة!» يقول بحدة. «علينا أن نتحرك الآن! سوف يموتون في غضون دقائق، هل تفهمين؟ كمية صغيرة جدًا من غاز السارين تكفي لقتل رجل بالغ. هؤلاء أطفال. تحزكي!».

ينشط عقلي ويتوقف كل الخوف إلا ما يدفع قدمي إلى الجري ويدي إلى العمل. علقت نور حفنة من محاقن الأتروبين على ذراعي، لكنني أتوقف. ليس لدينا أي شيء لحماية أنفسنا من غازات الأعصاب المتغلغة في أجسام المرضى، لذلك يجب استخدام القفازات.

أقوم بتقييم من يجب أن يتم الاعتناء به أولاً. كلما تنفسوا أكثر، قل الوقت المتاح لهم. أقترّب من صبي ملقى على الأرض، يرتجف بعنف، وأدفع أمه المنتحبة إلى الجانب. ليس لدي الوقت لشرح أي شيء لأنني أدخل الإبرة في الوريد، وأدعو طوال الوقت. لا أتحقق حتى لمعرفة ما إذا كان يستجيب. الوقت ثرف لا نستطيع تحمله الآن. بمجرد أن أتوجه لمرضى آخر، تأخذ نور مكاني وتجري الإنعاش

القلبي الرئوي.

فتاة أخرى، الدموع تنهمر على وجهها والرغبة في فمها تحقق بي دون أن تنظر، وأخشى أن أكون قد فقدتها. الحقن في الوريد تعمل بسرعة، وأظل أردد في ذهني. نبضها ضعيف وعيناها مشدودتان. أنفاسي عالقة في حلقي. أحاول ألا أنظر إلى عينيها بينما أمسك بمرفقها وأغرز إبرة الحقنة في الوريد المرفقي. أنتقل إلى الضحية التالية. كلمات أحمد الصغير الأخيرة ترر في أذني طوال الوقت، وأشعر بشبهه يراقبني. أتحرك ببطء شديد لا يساعد على إنقاذ أي شخص. عيناها تحترقان مثل العملات المعدنية الساخنة في مؤخرة رأسي، وقد نفذ صبره من يدي الراكدة التي لا تحقق الترياق بالسرعة الكافية.

سأخبر الله بكل شيء.

لا أستطيع حساب عدد الأشخاص الذين لا أستطيع إنقاذهم. عيونهم سوداء، مثل ليلة بلا نجوم، وتعبير متجمد من الخوف والارتباك محفور على وجوههم إلى الأبد. أدركت أنني أرتجف عندما تمسك يدي بلا حول ولا قوة بأكتاف امرأة شابة ضعيفة، في محاولة لإعادة الحياة إليها.

«لا»، أقول من خلال الأسنان المضغوطة. «من فضلك لا تموتي!». أنفاسها لا تضرب قناع التنفس الخاص بها، وهي تحقق بي بلا حياة. رائحة الفبيض تحرق أنفي.

الكلور.

لم يستخدموا السارين فقط.

اللعة... اللعة... اللعة...

الأجساد التالية التي تلمسها يدي مهتة. لا أحد على

قيد الحياة. لقد تأخرت جدًا. لقد كانوا هناك، ولم أتمكن من الوصول إليهم في الوقت المناسب. أنهض ببطء وساقاي ترتجفان، وأنظر إلى الكارثة في كل مكان.

تحيط بي أجساد فوق أجساد، واقف في المنتصف، أشاهدهم وهم يحكمون علي. يدي باردة وحمراء من الغاز الذي يغطي الضحايا. تتكرر نفس القصة بشخصيات مختلفة، لكن النهاية هي نفسها دائمًا. ومع ذلك، على الرغم من معرفة ذلك، فإن الألم عظيم. أعظم مما أستطيع أن أتحملة.

كل شيء ينفتح أمامي بحركة بطيئة.

أشاهد أطفالًا صغارًا يمسكون بجوانب أقنعتهم، وهم يصرخون من الألم. أرى عائلات بأكملها مستلقية بجانب بعضها البعض، ممسكين بأيديهم، على أمل أن يظلوا متشابكين عندما يصعدون إلى السماء. أمشي ببطء، وأركز عيني على باب الخروج. أحتاج إلى هواء. أحتاج إلى تنفس شيء غير الكلور «سلامة!». نور تمسك بذراعي قبل أن أفتح الباب الأمامي. «ماذا تفعلين؟».

«إلى الخارج»، أقول بصوت خشن. امتض جلدي غاز السارين الناتج عن علاج المرضى وبدأ في إغلاق حلقي. يا إلهي... إنه يحترق!

«ليس بدون هذا... لن تخرجي». تدفع قناعًا جراحيًا في يدي. «لن يفعل الكثير، لكنه سيساعد».

لن يفعل أي شيء. ولكن كيف لنا أن نعرف؟ لم نكن مستعدين لهجوم كيميائي. هل الأطباء العاديون مستعدون لذلك؟

انهزت على درجات سلم المستشفى، أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي. لقد مرّت ساعات بالفعل

دون أن لاحظ، والان حل وقت الظهيرة. الموت يسرق منا الثواني. يتسلل الأكسجين ببطء إلى رنتي، وأبدأ أخيرًا في تذكر عائلتي.

«ليلي!». نهضت، ونظرت في اتجاه منزلنا. إنها أمنة. أنا أعلم أنها كذلك. لم يكن أي من الضحايا من الحي الذي نعيش فيه، والذي يقع على بعد خمس عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام من المستشفى. ولم يصل السارين إلى المستشفى؛ مما يعني أنه لم يصل إلى منزلي أيضًا.

فكرتي التالية تتعلق بكنان وإخوته. معدتي تتلوى على نفسها من الرعب. ليس لدي أي فكرة عما إذا كان قد جاء اليوم. اللهم لا تجعل حينه يتأثر. أخلع القناع وأعبث به وأتجول محاولة استحضار أفكار عقلانية.

لو تأثروا، لكانوا قد تم إحضارهم إلى هنا. لكن.. وماذا لو ماتوا بمجرد استنشاق الغاز؟ يا إلهي. يا إلهي! تنفست بعمق وقررت أن أغادر الآن وأطمئن على ليلي ثم أتوجه فورًا إلى منزل كنان للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

«سلامة!» يصرخ صوت من خلفي، فالتفت لأرى كنان واقفًا أمام أبواب المستشفى، وهو يحمل قطعة قماش مؤقتة على وجهه. على قيد الحياة. إنه يطلق نفسًا عميقًا أشعر به داخل روحي.

ضعفت ركبتاي بسبب الراحة وانهزت على السلم. «سلامة!» يصرخ مرة أخرى، مسرعًا نحوي. «هل أنت بخير؟ يا إلهي، من فضلك أخبريني أنك كذلك.» يجثم بجانبني، ويزيل القماش من فوق فمه، وأملا عيني به. عيناه الخضراوان اللامعتان، ووجهه الجميل الصادق.

«أنا بخير»، همست. «أنت؟ لمي؟ يوسف؟».

أوما بسرعة، ويداها تحومان بجانب رأسي، ويصَلب نفسه قبل أن يعيدهما. ومع ذلك، أستطيع أن أشعر بدفئهما، والدم يتدفق في عروقه.

«الهجوم لم يكن... لم يكن قريبًا من مكاننا، ولكن كان علي أن أتّي إلى هنا للتأكد من أنك على قيد الحياة»، كما لو أن الطاقة قد استنزفت منه فجأة، فهو ينهار بجانبّي. تفوح منه رائحة الدخان وبقايا الغاز والليمون. ساقاي ترتجفان من التعب، وذراعاي تؤلماني، وكل ما أريده هو الاستلقاء هنا على هذه السلاالم المتكسرة والنوم إلى الأبد.

تتسرّب أصوات الجرحى الخافتة من شقوق جدران المستشفى وأغضض عيني غير قادرة على حبس الأهم في قلبي دون أن أنطوي على نفسي وأبكي حتى الموت. لماذا؟ لماذا لا أحد يساعدنا؟ لماذا نترك للموت؟ كيف يمكن للعالم أن يكون بهذه القسوة؟

أحتضن ركبتي، وأضع رأسي بين ذراعي. «أنا مرهقة»، همست.

يجيب كنان: «وأنا أيضًا».

أهز رأسي. «لا. لقد استنفدت من كل هذا. أنا مرهقة، نحن نختنق ولا أحد يبالي على الإطلاق. لقد استنفدت أننا لسنا حتى فكرة لاحقة. أنا منهكة لأننا لا نستطيع حتى الحصول على حقوق الإنسان الأساسية. أنا منهكة يا كنان».

أشعر بعينيه علي، لكن عندما أرفع رأسي، أجد في أفق السماء المطل من خلال المباني المهدمة بدلًا من ذلك، باللون الأزرق والرمادي.

«أنا غاضبة أيضًا»، أواصل.

وأدرك أن الغضب كان موجودًا دائمًا، وينمو ببطء وثبات. بدأ الأمر منذ فترة طويلة عندما وُلدت تحت سيطرة دكتاتورية استمرت في ممارسة الضغط حتى كُسرت عظامي. اشتعلت النيران وتحولت إلى لهب صغير عندما أمسكنا أنا وماما بأيدي بعضنا ودعونا بينما ارتدت أصوات المتظاهرين من جدران مطبخنا. اندمج الغضب مع عظامي، ولعق لهيبه عضلة القلب، تاركًا وراءه خلايا متحللة، عندما أخذ بابا وحمزة. لقد بُني وبُني وبُني مع كل جسد كان أمامي. والآن، إنه نار مشتعلة تسري في جهازني العصبي.

أقول: «غدا ذكرى الثورة»، يلتفت كنان إلي. «أريد أن أذهب».

سقطت تلك الكلمات الثلاث من شفتي، وأنا أنتظر أن يمزقني الشعور المألوف بالرعب، ويفسد رغبتني. لكن هذا لا يحدث. لا، هذا يكفي.

يظهر خوف في زاوية عيني، لكنني أرفض أن أنظر في اتجاهه، مع العلم أنني لن أجد هناك سندًا. هذا خيار، وهو ليس حاكمًا. بدلًا من ذلك، ألقيت نظرة على كنان، الذي كانت عيناه مثقلتين بالعاطفة.

«هل أنت متأكدة؟» يسأل، وأنا أبتسم تقريبًا.

أومن. هذا القرار ينقّي ذهني. أريد أن ينضم صوتي إلى شعبي. أريد أن أطلق أحزائي بعيدًا. أريد أن أنعي شهدائنا. قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أشعر فيها وكأنني جزء من سوريا قبل أن يأخذني القارب بعيدًا. لا أريد هذا الخوف بعد الآن.

يقف كنان وينظر بعيدًا، ثم يقول بلهجة خشنة نوعًا ما: «لقد سقيتموها ثورة».

ألقي نظرة على حذائي الرياضي. «حسنًا... هذا ما هي عليه».

يتململ بأحكام سترته قبل أن يلتفت نحو.
 «دعيني أأخذك إلى المنزل».
 أنظر إليه. «إخوتك؟».

«ثقي بي». يقول: «لن أعرض إذا لم أكن متأكدًا من
 أنهم بخير».
 «إن شاء الله».

«دعني أحضر حقيبتني إذن». نهضت وتوجهت
 نحو الأبواب، لكن يدي قبضت على المقبض بقوة،
 فجمدت عضلاتي. الغضب موجود، لكنه لم يمح
 الثقل الذي تركه الموتى على كتفي.

«سأحضرها. إنها في المخزن، أليس كذلك؟» يقول
 كنان بهدوء. أومئ. عندما يفتح الباب ليدخل، سعال
 المصابين وصرخاتهم الخفيفة تجعل حنجرتي
 تنقبض قبل أن يغلق الباب ويغيبهم مرة أخرى.

كانت مسيرتنا نحو المنزل مليئة بالصمت،
 وسمحت لنفسي بالتحديق فيه، ملاحظة الطريقة
 التي تراجعت بها كتفاه. أشعر بعاصفة تشتعل في
 ذهنه أيضًا. ما رآه اليوم شئت عزمه على المغادرة.
 لكن عليه أن يعلم أنه لا توجد إجابة صحيحة في
 هذه المعادلة. الرحيل هو أهون الشزين. العالم
 الخارجي ليس آمنًا لإخوته ليغامرا به بمفردهما،
 وسيتدمر كنان إذا حدث أي شيء لهما. لكني بحاجة
 إلى أن أعرف... بحاجة إلى سماع الكلمات مرة
 أخرى.

عندما وصلنا إلى الباب الأمامي لمنزلي، أسند رأسه
 إلى الجدار المثقوب بالرصاص.

«أنت ستأتي معنا، أليس كذلك؟» أنا أهمس وهو
 ينظر إلي.

«نعم» يقول بهدوء.

يدفع نفسه بعيدًا، ويمرر يده من خلال شعره. هناك نظرة زجاجية في عينيه، وهو يركل حصة طائشة. ترتد بعيدًا، وتتصدم ببعض الحطام بشكل مثير للشفقة. «أنا فقط...» بدأ بالنفخ بقوة. «سلامة، أشعر بالعجز الشديد. سأتركهم ورائي. وبعد ما حدث اليوم؟» الألم يحرق عينيه. «سوريا تحتاجني وأنا أتخلى عنها».

أهز رأسه. «لا... أنت لا تتخلى عنها. ماذا يفعل شعبنا هنا... الاحتجاجات؟ هذا جميل ومطلوب بشدة، ولكن من الذي تغير رأيه هنا؟ يمكنك أن تفعل الكثير من الخارج. يمكنك الوصول فعليًا إلى الأشخاص الذين يتركون تعليقاتهم على مقاطع الفيديو الخاصة بك. بفضل موهبتك في نسج القصص، نحتاج إلى صوتك لتنشر الموجود هنا. هذه هي الطريقة التي تقاتل بها».

يحدق بي، وأحمر خدود وردي باهت ينثر على خديه. «وسوف نعود»، قلت بصوت يرتجف.

«إن شاء الله، سوف نعود إلى المنزل. سنقوم بزراعة أشجار ليمون جديدة. سنعيد بناء مدننا، وسنكون أحرارًا».

التفت لأنظر إلى غروب الشمس المحتضر ثم إلى اللون الأزرق الشفقي الذي يلتهم الضوء. يقترب الليل سريعًا، لكنني أعلم أنه ليس أبدًا. غطاء الظلام هذا لن يدوم إلى الأبد. شرهم ليس إلى الأبد. ليس ما دام إيماننا وتاريخ سوريا يجري في عروقنا. «سلامة»، همس كنان.

الطريقة التي ينظر بها إلي تجعل الهواء يختفي من الحويصلات الهوائية. إنها نظرة قرأت عنها فقط في الكتب وشاهدتها في الأفلام. لم أظن أنني سأواجه أي تجربة مماثلة في الحياة الواقعية،

وبالتأكيد ليس في هذه الظروف.

يقترّب أكثر، وتلامس أصابعه حافة معطف المختبر الخاص بي، ويظل كل شيء ساكناً. أوراق الشجر الميتة تتراقص بجانب أقدامنا، النسيم البارد، الطيور المفردة. كل شيء، حتى ذهني.

يهاجر قلبي من موضعه في التجويف الصدري حتى المريء، وأنا أصدق في أصابعه الطويلة التي تمسك بأعلى جيبتي.

«أنت على حق»، همس قائلاً: «سوف نعود»، وتجزأت على النظر إلى الأعلى. أنا في حالة سكر من الطريقة التي يصدق بها بي. قريب جداً، لطيف جداً، جميل جداً.

ظهرت في داخلي حاجة جديدة للمس خديه، لتقريبه منه وتحسس لحيته تحت يدي. لكي أنسى كل هذا الألم.

سقطت عيناه الزمرديتان على شفتي لبضع ثوان، ثم نظر بعيداً.

همس قائلاً: «سلام»، ثم رحل.

تعود الحياة إلى العالم، حفيف الأوراق، وبقيت أتوق للمزيد.

«إذن أنت ذاهبة؟» تسأل ليلى بهدوء، وأسند رأسي على كتفها، وذراعي متشابكة بين ذراعيها. لم نتحرك من هذا المكان على الأريكة منذ عودتي إلى المنزل، وأطرافنا لا تزال مرتجفة قليلاً من رعب اليوم.

«هل تعتقدين أنني لا ينبغي؟».

تهزّ رأسها. «مطلقاً. هذا هو طريقك في الحياة يا سلامة. علاوة على ذلك، أنت أخت حمزة، أنا لست

مندهشة. لكن ما الذي جعلك تقزرين الذهاب؟».

أضغط على ذراعها، وأعض شفتي. «لقد كنت خائفة لفترة طويلة. بالطبع أنا أكره النظام، لكن جزءاً مني... جزءاً جباناً... اعتقد أنه ربما إذا لم أذهب إلى الاحتجاجات وانتصر النظام -لا سمح الله- قبل أن نصعد على متن القارب، فلن أتعرض للتعذيب... لأنهم سيسمحون لبابا وحمزة بالخروج. لكن الآن... بابا مات، وحمزة...». أتوقف. «جزء مني أراد أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه. العودة إلى العيش في خوف. وأنا أكره تلك الأفكار». أرفع رأسي لأرى التعاطف في عيني ليلي. «أشعر وكأنني منافقة».

«سلامة، من الطبيعي أن يشعر الإنسان بالخوف. وأنت لست منافقة».

«أمل ذلك»، همست. «أود أن أشق الوريد من أجل سوريا. إذا كان دمي يمكن أن ينقذها. إذا كان موتي سيحقق لشعبنا العدالة، فلن... ليس هناك شك في ذلك».

«أنا أعرف».

أغمض عيني. «هذا هو أقرب ما سأشعر به، إنها طريقتي في طلب الصفح عن الرحيل». تضع ليلي خدها فوق رأسي. «أنا أعرف».

وبعد لحظات من الصمت قلت: «لا أعرف ماذا سيحدث غداً. ولكن إذا لم... لو... أرجوك، اعثري على أم. اركبي هذا القارب. عيشي لي ولحمزة. وربّي الطفلة سلامة». ألكي للخلف وأمسك بكلتا يديها بقوة. «عديني».

تأخذ نفساً عميقاً، وتصلب نفسها. «فقط إذا وعدت أنك ستفعلين كل شيء حتى لا تموتي. ستعودين

إني إن شاء الله». أصبح صوتها ناعفا... ناعفا جدا.
«سلامة، من فضلك. لا تكوني شهيدة. كافحي من
أجل البقاء على قيد الحياة».

كلماتها تسقط مثل الحجارة الصغيرة في قاع
البحيرة، ويحترق الجزء الخلفي من عيني. «أعذك».
ارتخت يداها في قبضتي. «وأنا أيضا أعذك».

خوف ينتظرني عند النافذة عندما أغلق باب غرفة
نومي.

ويقول: «هذا خطأ». يبدو غاضبا مني. «أنت قريبة
جدا من المغادرة. لماذا تعرضين نفسك للخطر؟».

أتنهد وأجلس على سريرتي. «أعلم أنك تريد مني
أن أبقى بعيدة عن المشاكل. لكن لا يوجد مكان آمن
في سوريا. من الممكن أن أتعرض للقصف الآن».

يقف أمامي، ذراعا مطويتان. «أنت حمقاء إذا
كنت تعتقدين أنهم لن يركّزوا كل ما لديهم على
الاحتياجات غذا».

أوافق. «أنت على حق. ولن تمنحني السلام طوال
الوقت. لذلك دعنا نعقد صفقة».

يعدل ظهره. إنه لا ينضح بهالة مرعبة، بل الاهتمام
فقط.

أرفع ذقني. «أرني السيناريو الأسوأ». يضحك.
«أستأين مرة أخرى؟».

«أرني أسوأ نتيجة ممكنة. لقد أظهرت لي الماضي.
أرني المستقبل. أرني ألم ليلي. إذا كنت قادرة على
التعامل مع الأمر، فسوف تتركني وحدي طوال
الليل. لن تهذدني».

يميل رأسه إلى الجانب، وعيناه لامعتان. «أظهر لك
اعتقالك. تعذيب كنان. قتل إخوته. كل ما يمنعك من

الذهاب غدا؟».

العرق البارد ينفجر على جبهتي. «نعم».

يدرسني لمدة دقيقة، ثم يرفع أصابعه. «لا تلوميني إذا تركك هذا فحظمة. ربما هي هلاوس الآن يا سلامة». ينحني ليقرّب وجهه مني. «لكنها احتمالات حقيقية للغاية».

ترتعش يدي وأطويها في قبضة. «أفعل ذلك»، أقول، صوتي يرتجف.
يتنسم ويفرقع أصابعه.

مز اليوم التالي بسرعة كبيرة، وحنجرتي تحترق بطعم أحماض معدتي. لم أنم قط، وأشعر أن رأسي ثقيل بعد ما فعله خوف بالأمس. أفرك عيني، وأحجب الصرخات المعبدة التي لا تزال تترأ في ذهني. تؤلمني عضلات عيني من كثرة البكاء بالأمس، لكنني أقف بثبات.

«هل حزمت كل شيء؟» يسألني أم عندما أعطيه قرص بانادول. «لا شيء ثقيل للغاية. إنه قارب لاجئين، وليس سفينة سياحية».

«أنا أعلم»، أضغط شفتي. أنظر إلى مرضاي المتناثرين في كل مكان، أرى عيونهم الحمراء، وأسمع سعالهم الذي يضرب الضلوع. «كيف سنعبّر الحدود العسكرية؟».

ينظر جانبًا، ويتأكد من أننا بعيدون عن نطاق السمع. «أنا أعرف الحراس المتمركزين هناك. البعض يريد كسب المال. ليس هناك مشكلة في السماح لك بالمرور مقابل السعر المناسب».

الاشمئزاز يترك طعنا أسوأ من أحماض المعدة على لساني.

يهز أم كتفيه. «إنه بيزنس يا سلامة».

أنفخ. «سفها كما تريد، ولكن لا تكذب علي».

أثناء استراحتي، أعود إلى المخزن، وأقرأ الملصقات الموجودة على الأدوية لمساعدتي على الهدوء.

«مرحبًا»، سمعت كنان يقول من المدخل.

ينبض قلبي بسرعة وأزيل صورته وهو مضروب والدم يتدفق من محجر عينيه. «مرحبًا».

«هل يمكنني الانضمام إليك؟» يلعب بحافة سترته.

وجهه مجهد، وشعره متناثر، ويبدو أنه لم ينم أيضًا.
لا بُدَّ أن ثقل قراره بالمغادرة أثر عليه.

«بالأكيد»، أقول، وألوح بيدي إلى المساحة الفارغة أمامي. «كيف حال لَمْي؟».

يجلس ويثكن بظهره على إحدى الخزانات. «إنها أفضل بكثير. الحمد لله. نبض قلبها طبيعي، لقد سمعته بنفسه. نحن نتأكد من أنها تشرب الكثير من الماء. يوسف يتنفس بسهولة الآن بعد تحسنها». يمدُّ أصابعه ويقول بعد نبضة قلب: «عَمَّا سيحدث الليلة. عليك أن تعديني بشيء».

«ماذا؟».

«سوف نكون مفا. ولكن إذا حدث أي شيء لي، عليك أن تنقذي نفسك. إذا رأيتني أسحب بعيدًا، فستهربين. هل فهمت؟».

لا، أنا لا أحب هذا. «كنان...».

تعبيره حاد. «سلامة، ستعديني بهذا». عندما لا أقول أي شيء، يكرر بحزم أكبر. «سلامة!».

«حسنًا»، همست، وأنا أكره حتى التفكير في الأمر. «سوف... سأؤكد من أن إخوتك سيجدون عفاك إذا...». أصمت. لا أستطيع حتى أن أقول ذلك. «وإذا حدث لي أي شيء، أرجوك اعتن بليلى...».

«اعذك بذلك» يفرقع مفاصل أصابعه. «لقد أخبرت يوسف أين تعيش ليلي، هي حالة أن كلينا...»

وكلماته لا تكتمل كذلك.

«حسنًا».

عيناه تدرسانني، وأنا أقاوم الرغبة في تغطية وجهي.

بدلاً من ذلك، تنحنحت وأخذت علبة الدواء. «ما هذا؟» يسأل.

أجبتنه: «الدواء المفضل لدي»، وأنا سعيدة بالتركيز على شيء آخر غير الطريقة التي يحذق بها بي. «إبينفرين. الدواء السحري للقلب. إنه ينقذ الكثير من الأرواح».

«كيف يتم تناوله؟» يسأل بصوت منخفض، وأشعر أنني قد أحتاج إلى بعض منه لنفسي.

«مباشرة إلى القلب. ولكن لا يهم حقًا. إنه يتم حقنه في الوريد ويعمل على الفور».

أوما، لكنه لم يتوقف عن التحديق، وبدأت أتساءل عما إذا كان هناك شيء ما على وجهي. «ممم، هل...».

«كيف تتألق عيناك دائمًا بهذا السطوع؟» يقاطعني. «ماذا؟» أضحك.

«عندما التقيت بك لأول مرة، اعتقدت أنها كانت خدعة من الضوء. لكن هذا ليس هو الحال. فإضاءة غرفة التخزين هذه سيئة للغاية، ولا تزال عيناك تبدو مثل العسل المذاب».

أنفاسي تتوقف. يتحول وجهه إلى اللون الأحمر، ويتوقف عن التحديق بي، وينظر نحو الباب.

«أنا أسف»، يتلعثم. «لم أقصد أن أكون أسبق الأحداث هكذا».

«لا بأس»، همست وأنا أعبت بعلة إبينفرين. أنا؟ عيون جميلة؟ لم أسمع ذلك منذ فترة.

الأصوات تنجرف عبر الباب المفتوح. «قتلوه. الرجل ذا الورد».

«غياث مطر؟» تقول امرأة عجوز مصدومة.

«نعم. كل ما فعله هو تقديم الزهور للعسكر. وزوجته حامل بابنهما. إنه هنا على الفيسبوك. لقد تعرض للتعذيب حتى الموت».

تنزلق علبة إبنفريين من أصابعي وتسقط على الأرض محدثًا ضربة قوية. يغمض كنان عينيه وتتألم ملامحه من الحزن. وعندما فتحهما أخيرًا، وقف وتوقف عند الباب. «سنتقابل عند مخبز الأمير، حسناً؟».

أومئ بينما يمشي مبتعدًا. يعود قلبي إلى النبض الطبيعي، لكن الحزن ينفجر بالبكاء. أميل رأسي إلى الخلف وأخذ نفسيًا عميقًا.

«هل تفكرين في التراجع؟» يسأل خوف وهو يظهر أمامي.

«لا»، همست، وصوتي يرتجف. ليس من الأحوال هذه المرة. «أنا أكرههم».

يجيب خوف بلطف: «أعرف. ويجب أن أقول، إنها طريقة تفكير رائعة»، يتوقف. «ما أظهرته لك الليلة الماضية يا سلامة... كل هذه السيناريوهات يمكن أن تتحقق».

من المؤلم أن أبلغ، لكن رغبتني في أن أكون أقوى من الأحوال التي أواجهها تفوق بكثير أي شيء آخر. ويساعدني في استقرار قلبي. «لا أستطيع القول إنني سأشعر بسعادة غامرة إذا ذهبت اليوم. لذلك، هل أنت على استعداد تام لمواجهة تلك العواقب؟».

أومئ ببطء. «هذا هو ثمن مستقبل مليء بالحرية يا خوف. إنه الثمن الذي يدفعه حمزة كل يوم. لكنني سورية. هذه أرضي، وكما هي الحال مع أشجار الليمون التي تنمو هنا منذ قرون، فإن الدماء المراق لن يوقفنا. لديّ ثقتي في الله. سوف يحميني. لقد تمّ إرغامي على الانغماس في القمع، لكنني لن أتعايش مع واقعه الفز مرة أخرى. بغض النظر عما يحدث».

23

تقف الشعيرات الصغيرة الموجودة في مؤخرة رأسي تحسبنا بينما أشقُ طريقي بين الناس الذين يندفعون نحو مكان احتجاج اليوم. ساحة الحرية.

يحوم القمر في الأعلى، ليظهر لنا طريقنا بلمسته اللطيفة. وباستخدام مصابيح مزودة ببطاريات بدوية ضعيفة والكشافات اليدوية، أصبح بإمكانني رؤية كل شيء. يمزُ بي شباب مسرعين، بعضهم يحمل لافتات كبيرة مطلية باللون الأحمر.

أجزاء المحادثة التي تصل إلى أذني مليئة بالأمل والتصميم. الناس ممثلنون بالفخر بأنهم ما زالوا أقوياء بعد مرور عام. أتساءل كم عدد الوفيات، وكم من الصدمات، حتى تتحطم معنوياتهم حقًا. إيمانهم قوي. في كل من الله والثورة. والآن، بعد أن ذاقوا الحرية الحقيقية، لا يمكنهم العودة إلى الأيام المظلمة.

من المفترض أن تكون الساحة تحت سيطرة الجيش السوري الحر، لذا سنكون أمنين لجزء من الليل، لكن جيش النظام يأتي دالفاً. أسحب غطاء رأسي الملحق بملابسي فوق رأسي بإحكام حتى لا يتمكن أحد من رؤية وجهي. على الرغم من أن الظلام يجعل من الصعب تمييز ملامح أي شخص، فمن الأفضل أن تكون أمتًا. في النهاية لا يهم حقًا، لا يوجد أبرياء في نظر الجيش. سيقتلوننا جميعًا، متظاهرين أم لا. بالنسبة لهم، تعتبر فكرة الحرية معدية، ويجب عليهم التخلص منها قبل أن تنتشر.

أحاول ألا أفكر في ليلى وفي وداعنا. لم أكن أعتقد أنها سوف تتركني. لكن مهما حدث الليلة، فلن

أندم عليه.

يقف خوف بجانبى شامخاً، وكأنه نذير الموت.
قلت: «تذكر اتفاقنا»، فأدار عينيه.

«لن أتحدث معك في وجود الشاب هنا. لكنه ليس غافلاً كما تظن. إنه يشك بالفعل في شيء ما».
وصلنا أخيراً إلى الساحة وأسمع بداية الاحتجاج.
الأصوات مبحوحة، قادمة من أعماق النفوس
المكدومة، كل منها يجد موطن قدمه قبل أن
يختلط ببعضه البعض، قوياً ومتحدًا. يعلم كل
شخص جيدًا أن كل كلمة قد تكون الأخيرة.

«نحن لا نعرف ذلك. حتى لو أنه يشك في شيء،
فهذا مجرد شك»، أجبت وأنا أشق طريقى بحذر بين
المتظاهرين حتى أجد المكان الذي طلب منى كنان
أن أقابله فيه. إنه منعزل، وقريب من الحدث، ولكنه
بعيد بما يكفي إذا أردنا الهرب. أتكنى على الحائط
حيث دمّرت قذيفة جزءاً كبيراً من الخرسانة. شظايا
الزجاج تحطمت تحت حذائي الرياضي.

«حسنًا. فقط تأكد من أن غطاء رأسك يغطي
وجهك». خوف ينظر حوله. «دعينا نكون أمنين، ولا
ننسحب».

أرفع رقبتى وأشاهد الناس يتجمعون وكأنهم روح
واحدة، وحياة واحدة تمر عبر الجميع. أرى أطفالاً
على أعتاب سنوات المراهقة، وقد تجردت الخوف من
تعبير وجوههم. لا يوجد مجال لذلك هنا. صبية،
نشؤوا في ظلال رعب آبائهم، وقرروا أن يجعلوا
هذا البلد ملكاً لهم. كبار السن الذين سنموا من
الدكتاتورية التي تطوهم، ينتظرون حياتهم كلها
شرارة واحدة لإشعال النار التي تحرق هذا الطغيان.
الخوف يموت هنا.

يمر بجانبني شاب في مثل عمري أو أصغر. تومض المصابيح الكاشفة فوق صدره العاري. تبرز أضلاعه حيث يلتقي الجلد بالعظم. الحرية مكتوبة على صدره بالفحم.

«مرحبًا!» أناديه متفاجئة. يتجه نحوي.

«ألسـت خائـفًا؟» أسأل بصوت عالٍ.

ينظر إلي للحظة قبل أن يبتسم. «دائما. لكن ليس لدي ما أخسره».

يستدير ويفوض وسط الحشد، متجها إلى مركز الاحتجاج. يعمل هذا المكان على مستوى مختلف عن المستشفى حيث يلتصق الموت بالأرضيات المبلطة. هنا، تشرق الحياة بقوة لدرجة أنها تزيل الشك. أشعر بالسلام.

تبتهج رثائي بنفحة من الهواء. يرتفع الضغط عن صدري، وأشعر بخفة. يدور رأسي، وأشعر بحكة في لساني عندما أبدأ في التردد وراءهم والغناء معهم. خوف يتسكع بجانبني دون أن ينطق بكلمة واحدة، يراقب الجماهير باهتمام.

أحد الرجال وسط نبض الحشد ينقر على ميكروفونه. يرتفع صوته ويبدأ الناس في الهتاف بشكل هستيري. تكاد كلماته تفرق وسط الهتاف، لكنني أستطيع أن أفهم جوهرها، إنه يروي ما حدث في العام الماضي. من غير الواقعي الاعتقاد بأن هذا قد استمر لمدة 365 يومًا. الوقت يتحرك بشكل مختلف هنا. الحزن يفعل ذلك. كل يوم، يمر كأنه عام، وكل يوم يمر نأمل أن يكون الغد أفضل.

الاحظ أن العديد من الأشخاص يخرجون هواتفهم ويصورون. ويخرج بعضهم قطعًا من الورق تحمل التاريخ والمكان من تحت ستراتهم، ومكتوب عليهم بضع جمل: «اذهب إلى الجحيم يا الأسد»، و«نحن

قادمون إليك»، و«لا نخاف إلا الله»، و«الأسد قاتل».

لافتة منهم تلفت انتباهي. بأحرف مثالية مرصعة باللون الأحمر، مكتوب قصيدة قديمة.

«كل ليمونة تلد طفلاً، والليمونة لن تموت أبداً».

وما زال الليمون ينمو ويزهر ويغذي الثورة. أتذكر عصير الليمون الذي كانت ماما تحضره لي خلال فصل الصيف. أكاد أتذوق نكهته الباردة والحلوة والحامضة، ويسيل لعابي من الفكرة. يشواق قلبي إلى ذلك الليمون المقطوف حديثاً ونظرة ماما المحبة وهي تعطيني عصير الليمون. أهز رأسي رافضاً ذلك الشوق بعيداً.

ليس هنا.

الآن أعصابي تتوتر وكأنني حققت نفسي بالأدريين. لا تتوقف يداي عن الارتعاش، لذلك أفركهما معاً. أشعر بالارتياح من لوح الخرسانة الصلب الذي يسندني، لكن عندما أنظر إلى الأسفل، أرى آثاراً من اللون الأحمر محفورة في اللون الرمادي. أشهق بحدة وأجبر نفسي على التطلع إلى الأمام. علم الثورة يرفرف عالياً فوق رؤوسنا، ويجعلني أحلم بيوم نرفعه في مدارسنا، ونردد النشيد الوطني بكل فخر. عندما سيمثلنا في جميع أنحاء العالم. في الوقت الحالي، هذا العلم هو درعنا ضد برد الشتاء، والقنابل المتساقطة من السماء، والرصاص الذي يمزق أجسادنا. في الموت، هو كفناً، ملفوفة به جثتنا عندما نعود إلى الأرض التي أقسمنا على حمايتها.

الأصوات الفردية واحدة وأعلى من الحياة. «ما أحلى الحرية» تحلق في الهواء، تلتقطها الكاميرات بجودة منخفضة لتنقلها إلى العالم أجمع. لقد سمعت

هذه الأغنية مرات أكثر مما أستطيع عدّها. إنها في كل مكان. إنها أبجدية ثورتنا. سيتم تعليمها لأطفالنا بمجرد أن يتعلموا التحدث. أصوات المرضى المرهقة تهز جدران مستشفانا. إنه مرهم جراحهم. لقد كان لدي الكثير على طاولة العمليات وهم يدندون بها دون وعي لأنفسهم. لقد ترشخت في خلايا أدمغتهم، ولا يمكن لأي شيء محوها.

أغني بهدوء، صوتي يتناقض مع الأصوات العميقة المدوية في السماء فوقنا. دعاء في أغنية.

«سلامة».

صوته يفسلني مثل ضوء الشمس. التفث، محاولة قمع الابتسامة. ملابسه مطابقة لملابسي. جينز قديم وسترة سوداء. كان شعره مرثبًا إلى الخلف ومتشققًا بقطرات مبللة كما لو أنه غمس رأسه في وعاء من الماء.

«مرحبًا». أومات بلا مبالاة، متذكّرة الطريقة التي نظرت بها عيناه لي في المخزن، وكيف أن الكلمات التي قالها انطوت بين أضلعي، لتخفف من وطأة قلبي المكسور. القلب الذي يحبه.

«كيف حالك؟» نظرتَه تطير بخجل مني إلى الأرض. ربما يفكر في تلك اللحظة أيضًا.

«بخير»، همست.

«كيف حال ليلي؟».

اهتمامه يجعل قلبي الذابل يزهر. «خائفة علي، لكنها بخير». أتوقف مؤقتًا، وأبحث عن موضوع من شأنه أن يجلب قطرة من السيروتونين. «كم كان فرح لمي ويوسف عندما أخبرتهما أنك قادم؟».

هو يبتسم. «أسعد مما كانوا عليه منذ وقت طويل. انفجرت لمي في البكاء ويوسف حاول أن يثنيني

عن القდوم».

«لا يزال يوسف لا... أعني أنه...». لا أعرف كيف أقول الكلمات دون أن أسبب حرجًا. «لا» يقول بحزن. «ما زال لا يتحدث».

في بعض النواحي، يُذكرني يوسف بنفسه. أتساءل عما إذا كانت هناك أعاصير في ذهنه لا يعرف كيف يعبر عنها. الخوف عبء لا أعرف كيف أتقاسمه مع أحد. أريد بشدة الوحدة تجعل حنجرتي مغلقة والدموع تنهمر في عيني. إنه ضغط يتراكم ويتراكم حتى يتشقق في جلدي وعظامي.

أؤكد لكنان: «سنجد ما يساعده في ألمانيا». يهرش الجزء الخلفي من رأسه. «نحن؟».

أذناي تشتعلان وأخذت نفسًا عميقًا. لماذا نلتف حول هذا؟ أعرف بالضبط ما أشعر به تجاهه، وتعبيراته لا تكذب. أعلم أنه يشعر بنفس الشيء. «لن نفصل هناك، أليس كذلك؟».

يستدير نحوي بالكامل وتنزلق يده في جيبه. يبدو متفانلاً. «سلامة، لا أريد أبدًا أن...» يبدأ بهدوء.

وفجأة، دوى هتاف بين الحشد وقفزنا، وأحمز خجلًا بشدة. يبدأ الرجل الذي يحمل الميكروفون أغنية جديدة بصوته العميق الحزين. لاحظت أن كنان لم يحضر كاميرته.

نقف في صمت، ونشاهد المشاعر تتأجج في الحشد. وبين الأناشيد ندعو لأرواح الشهداء وللذين يعانون في المعتقلات. أمسح دموعه فزت من عيني. كم يعاني حمزة من الوحدة.

وبعد فترة يسأل كنان: «هل تدين الألوان؟».

تتحول شفتي إلى ابتسامة حزينة. «نعم». ألقي نظرة على الأشجار التي تصطف على جانب واحد

من الشارع. تتشكل الأوراق على الجذوع، وتلتف في دوائر إلى الأعلى. «هناك حياة في أصغر وأبسط الأشياء. أرى لماذا يحدث هذا. لم تكن الحرية أبدًا ثمنًا سهلًا، لقد تمّ الدفع بـ...».

«بالدم. أكثر مما كنا نظن أنه قد يحدث» أنهى كلامه بمرارة.

«نعم»، أردد.

«لكنك كنت تعلم ذلك طوال الوقت». يحدّق في الأمام. «هل تعتقد أن الأمر يستحق كل ذلك؟». يغنون جزءًا آخر من الأغنية.

أتذكر الجندي الأشقر في الجيش السوري الحر الذي كان في سلام رغم بتر ذراعه اليمنى. وقال: «لا يزال لدي واحدة أخرى، أليس كذلك؟» «لا أعرف. أريد أن يكون يستحق كل هذا العناء. أريد أن أعرف أن العشب الذي ينمو فوق قبور الشهداء سيعطي الحياة لجيل يمكن أن يكون كما يريد. لكننا لا نعرف متى سيحدث ذلك. قد يكون ذلك غداً أو بعد عقود من الآن».

«لهذا السبب لدينا إيماننا يا سلامة. ومن واجبنا أن نقاتل ونعيش ونمهد الطريق».

أنا معجبة بالطريقة التي يقولها بثقة.

«ما هي أغنيتك المفضلة؟» يسأل فجأة.

لقد فاجأني. «ممم... كم هي حلوة الحرية».

«وأنا أيضًا».

«هذا ما كان بابا يغنيه طوال الوقت قبل أن يأخذه. كان يعبر بطريقة مختلفة كل مرة يغنيها، ولم يكن مؤلفًا أن صوته كان مثل الكناري».

«كان إبراهيم قاشوش ذكيًا جدًا في ابتكاره».

«جميع أغانيه رائعة».

إبراهيم قاشوش كان أحد جذور ثورتنا. رجل بسيط من حماة، كتب معظم الأغاني الشعبية التي تمنحنا القوة للمواصلة.

صوت كنان هادئ. «رحم الله روحه».

قلبي ينعى فقدانه وكأنني تلقيت الخبر للتو. قبض عليه الجيش. لقد قطعوا حنجرة صوته من زوره بعنف لدرجة أن رأسه بالكامل كاد أن يقطع. ثم ألقي به في نهر العاصي لكي نكتشفه.

«أمين،» همست.

«نريد الحرية! نريد الحرية! نريد الحرية!».

يبدأ الجمهور في ترديد كل كلمة بالقوة التي غرسوها منذ خمسين عامًا. ينضم إليهم كنان، وهو يغني بصوت ثابت وقوي، ويرفع هاتف الأيفون عاليًا لالتقاط كل ثانية. اقترب منه، منبهة بصوته الجميل.

بطرف عيني أرى خوف عاقدًا ذراعيه. يلاحظني أحرق ويغمز. أعبس.

قلت لكنان: «سيستمر هذا لفترة أطول مما كنت أعتقد». أوقف تسجيله مؤقتًا وانحنى ليستمعني. «متى من المفترض أن نهرب للنجاة بحياتنا؟ كم من الوقت حتى يأتوا؟».

«نحن تحت حماية الجيش السوري الحر. إذا جاء الجيش، فسيكون الجيش السوري الحر هو خط الدفاع الأول، وثقي بي، سنعرف ما إذا كان ذلك سيحدث».

أؤمن، لكن أذني تجهد في التقاط ترددات طائرات الموت. لا أستطيع أن أكذب على نفسي وانتظار بالثقة بأنني سأتمكن من رؤية شروق الشمس غدا.

أرفع يدي إلى خلقي، وأشعر بالطريقة التي تنقبض بها العضلات عندما أبلع. هذا الفعل يجعلني أشعر أنني على قيد الحياة وأكثر وعيًا بما يحيط بي. كان بإمكانني سماع أجنحة الفراشة إذا أردت ذلك.

«هل أنت بخير؟» يتردد صدى صوت كنان في كل مكان. أطمئنه. والحمد لله أنه لا يضغط على هذه المسألة.

«هذا ملهم»، أقول قبل أن يتاح له الوقت لفضح كذبتني البيضاء. «بصراحة لم أتوقع أن أشعر بالتشجيع إلى هذا الحد».

«نعم، في كل مرة أنشر فيها مقطع فيديو لاحتجاج على يوتيوب وأقرأ جميع التعليقات، أشعر وكأنني جزء من تغيير كبير. أنا لست سياسيًا كبيرًا أو ناشطًا معروفًا أو أي شيء من هذا القبيل. إذا مث، أشك في أن أي شخص في العالم سيعرف. سأكون مجرد رقم، لكنني أشعر وكأنني أغير أفكار الناس. وأجعلهم يرون الحقيقة. حتى لو كان ذلك من وجهة نظر واحدة. هل هذا منطقي؟». ينظر إلي بخجل. «نعم، هو كذلك». أبتسم. «في كل مرة أقوم بخياطة جرح شخص وأخفف آلامه -حتى لو كان مؤقتًا- أشعر وكأنني فعلت شيئًا ما. إن هؤلاء الأشخاص ليسوا أرقامًا. لديهم حياة وأحباء، وربما ساعدتهم في الاتجاه الصحيح. إذا كان هناك شيء واحد يخاف منه الناس، فهو أن يكونوا منسيين. إنه خوف غير عقلاني، ألا تعتقد ذلك؟».

يهرش مؤخرة رأسه ويبتسم نصف ابتسامة يمكن أن تلهم الكتب، فتتقلب معدتي. عندما تنزلق عيناه إلى يدي المجروحتين، لا أعطيتهما بأكمامي. لم أفكر بهما منذ أسابيع. في السابق، كنت أكره كيف أنها كانت بمثابة تذكير لما فقدته، لكنها الآن شهادة على

قوتي.

أتنفس بعمق، مستمتعة بحقيقة أن الهواء ليس ملطخًا بالدم. هبّ علينا نسيم نقي، وألقيت نظرة على العالم الذي يراه كنان. أرى ذلك وأحبه. حقًا. لكنه مثل حب المحيط. إنه أمر لا يمكن التنبؤ به، حيث تتحول المياه الزرقاء المتلألئة من الرائعة إلى المروعة في ثانية واحدة.

«أعتقد...» أبدأ، لكن ليس لدي الفرصة لإنهاء جملتي. أشعر بالتحذير قبل أن تسجل أدناي الضجيج. الموت له نبرة فريدة.

«نحن بحاجة إلى...» حاولت مرة أخرى، لكنني لا أستطيع حتى إنهاء كلماتي.

24

أولاً: تسقط قبلة على بُعد شارعين من المكان الذي نقف فيه، والأرض تهتز وتتكسر.

ثانياً: يتوقف الغناء، كما لو أن شخصاً ما أغلق جهاز التلفزيون، ويحدث الذعر.

ثالثاً: تمر الذكريات أمام عيني، حيث يرفض جسدي أن يصدق أنني أعيش أحداث العام الماضي مرة أخرى. على الرغم من أنني كنت أتوقع ذلك، فإن جسدي لا يساعطني.

أهز رأسي بسرعة. لا أستطيع أن أوقف ما أشعر به أو سأموت.

التردد هو حكم الإعدام الخاص بي.

«علينا أن نخرج من هنا الآن!» أسمع كنان يصرخ، لكن العديد من الأشكال تندفع أمام عيني، وتبدأ في التشويش. تمسك يذ بذراعي وتسحبني في الاتجاه المعاكس للمكان الذي سقطت فيه القبلة. أتعثّر خلف كنان، وأدعو الله ألا يتركني. تتدفق الأجساد من أمامنا، محاولةً التفريق بيننا بسبب إلحاحها، لكن قبضته لا تضعف. أبذل قصارى جهدي حتى لا تتعثّر قدمي لأن الإلحاح يتحول إلى يأس.

«سلامة!» يرتفع صوت كنان فوق ضجيج الفوضى. لا يستطيع أن يدير رأسه في اتجاهي وإلا سننتعثر معاً.

«اركض!» أنا أصرخ قبل أن يتوقف.

«يجب أن أخرج من هنا»، يستمر أحد الرجال في الصراخ، وهو يتحرك ضد التيار. «يجب أن أذهب، من فضلك. سقطت القبلة على منزلي!».

أواصل المضي قُدماً على الرغم من الهستيريا التي تخنقني. وتسقط قبلة أخرى، فتضيء السماء.

أقرب هذه المرة.

الصراخ يمزق الليل، وتلتوى ركبتي.

«سلامة!» تشد يد كنان حول معصمي، ويتوقف وسط التدافع لمساعدتي. الناس يلتفون حولنا الآن، وهم يركضون. يمسكني كنان من كتفي ويرفعني. عيناه تزيدني تصميًا.

«سلامة»، يقول كنان بهدوء مخيف. «لا داعي للذعر، ولا تتركي يدي».

أومئ له. انزلت يده في يدي، وقمنا بالركض مع الجمهور مرة أخرى. أسمع أصوات إطلاق نار وسقوط قنبلة أخرى. يجب أن يكون هناك اشتباك شامل مع الجيش السوري الحر الآن. ينعطف كنان إلى اليمين، ليفصلنا عن الجمع، ويتجه نحو الأزقة. الصراخ لا يتوقف، ولا يأتي فقط من الاحتجاجات. لقد انهارت المباني على الأطفال النائمين، والأمهات يبكين بشدة طالبين من يسحب أطفالهن الرضع إلى الخارج. الشعور بالذنب يمزق أحشائي لعدم العودة وتقديم المساعدة، لكنني أعلم أنني سأكون ميتة إذا فعلت ذلك.

أعرف أين نحن. لا تزال ليلى بعيدة بعض الشيء عن هنا، ولكن هناك مكان آخر يمكننا اللجوء إليه.

«انتظرا!» أصرخ، فيتوقف كنان للحظة. أندفع أمامه، وأخذ بيده الأخرى، وركضنا ثانية. «أنا أعرف إلى أين اذهب».

«أين؟» يصرخ بصوت أعلى من الضجيج. «بيتي القديم».

«نحن بحاجة إلى الركض بشكل أسرع. ربما يكون الجيش الحر قد خسر أرضه هنا».

«القناصة». حفرة تحفر في معدتي. «أو الجيش».

ألقي نظرة إلى الوراء. «عليك أن تتخلص من هاتفك».

لا سمح الله إذا تم القبض علينا ووجدوا مقاطع الفيديو على هاتفه، سيقومون بجلده.

يده تنثني في يدي. صدى خطواتنا يتردد على الرصيف المكسور. «لا أستطيع أن أفعل ذلك».

«لكن...».

«لا تقلقي. إذا تم القبض علينا، فلن أسمح لهم بإيذائك».

أضغط شفتي لأمنع نفسي من الرد. إنه يقول ذلك فقط ليجعل نفسه يشعر بالتحسن. ليس هناك أبرياء في عيون الشر. لحسن الحظ، لم نواجه أحداً في الشوارع، لكنني أشعر بالقنابل تقترب. أسحبه بشكل أسرع وتحتج رئتاي. كل شهيق يشبه النار. أعض شفتي لأثبت نفسي وأضغط بقوة أكبر.

بدأ الناس يخرجون من المباني وأعينهم واسعة من الخوف. الطرق لا تصلح للسير عليها، ولكن لا يوجد مكان يذهب إليه الناس. أسمع بكاء الأطفال والناس يدعون من أجل الرحمة. رجل يحمل رضيعاً بين ذراعيه بينما تندفع زوجته معه للخارج. لقد أفترقوا عثاً، ولا أنظر إلى الوراء لأرى ماذا يفعلون. أدعو الله أن يكون لديهم الحس الصحيح للفرار.

«يا الله، من فضلك، انقذنا!» أهمس.

تسقط قذيفة في مكان أقرب. يرسل انفجارها شظايا زجاجية تخدش ملابسنا وجلدنا بينما نجري. إنهم يلسعون بما يكفي ليجعلونا نتنفس بصوت خشن، لكننا تعاملنا مع ألم أسوأ من ذلك.

لقد فجرت القنبلة الحي الذي كنت أذهب إليه لتناول الكنافة. تفتت مرة أخرى، وأنا أسعل من

بين الركام، فيرفعني كنان، ويداه قويتان وثابتتان. أنا أسحبه مرة أخرى ونركض. أحاول ألا أفكر في الأشخاص الذين كانوا يتنفسون قبل خمس عشرة دقيقة فقط. كيف يمكن لخمس عشرة دقيقة أن تحدث فرقًا كبيرًا في العالم. أحجب أصوات طفل يبكي وأعلم أنها من نسج فخيلتي.

نحن أخيرًا بعيدون بما يكفي لإبطاء سرعتنا والتقاط أنفاسنا. لقد تركت يد كنان على مضض ويسير بجانبني. أنفاسنا قاسية، وأضلاعنا تحت وطأة الصرير بينما يحاول دمنا المصاب بفقر الدم إمدادنا بالأكسجين. أنا أرتجف وأتعرق وأحاول التركيز على تثبيت أنفاسي.

كنان لا يقول شيئًا، ولا أجد عزاء في الكلام أيضًا. نسمع القنابل من بعيد، وكل منها يطعن ثقبًا جديدًا في قلبي. لا أريد أن أرى التعبير على وجهه. لا أريد أن أعرف إذا كان هذا حزنًا أم غضبًا أم يأسًا. مهما كان الأمر، فإنه سوف يخيفني أو يكسرنني، وأنا لا أريد ذلك أيضًا. ظهره منحن، وفي كل مرة تصل إلينا صرخة، يتقلص أكثر.

سرنا عبر الحي القديم الذي كنت أسكن فيه، حيث كان المبنى السكني الذي كنت أعيش فيه قائمًا منذ زمن بعيد. المتاجر المحلية المقدسة بجانب بعضها البعض أصبحت باهتة، ويكاد يكون من المستحيل قراءة اللافتات. لا يوجد أحد هنا يحاول إنقاذ أعمال عائلته. لا وجود لروح تتجول في الشوارع، وهذا يجلب القشعريرة إلى جسدي. هذا المكان مسكون بأشباح أولئك الذين عاشوا هنا، ويصرخون من أجل العدالة التي لم تتحقق.

تعرضت المحلات التجارية للنهب، وتناثرت المعدات، وتحطمت النوافذ. لقد انتهت الصيدلية

التي تذبذب فيها.

يقع مبني القديم في الزاوية اليمنى التالية،
ويخفق قلبي كلما اقتربنا.
لم أكن هنا منذ يوليو.

خطواتي محفورة في كل أنحاء هذا المكان. تمر
أمامي نفسي وأنا طفلة في العاشرة من عمري وهي
تضحك، وتخرج من حافلة المدرسة مع أصدقائها،
وتركض إلى المنزل، وحقيبة الظهر تتمايل مع كل
خطوة.

تتغير أنا البالغة من العمر خمسة عشر عامًا،
وعيناها ملتصقتان بالكتاب الذي تقرأه، متأخرة عن
دروسها. سلامة البالغة من العمر سبعة عشر عامًا
تسير جنبًا إلى جنب مع ليلى وشهد وروان. سعيدة
بفورة تسوق اليوم، حيث تحمل كل منهن الشاورما
الليذة من المطعم الذي يبعد بضعة أقدام. كل هذه
الحياة تندفع أمامي. أستطيع أن أرى الضوء ينعكس
من وجهي المغمم بالأمل والصحة. أستطيع أن أرى
خطواتي الواثقة وعيوني الواضحة. تدب الحياة
في الشارع كله، تفتح الزهور على جوانب الرصيف،
والتجار يتفنون ببضائعهم، وبتلات السوسن
تتراقص في الريح، وتحمل رائحة ياسمين الشام.
«سلامة!» صوت يقطع أحلام اليقظة مثل الماء
البارد.

أرمش بينما يحل الظلام محل هلوستي وأستنشق
بحدة.

«سلامة»، يقول كنان مرة أخرى، والتفت إليه. «كل
شيء بخير؟»

إنه قلق. السخام يغطي ملابسه. هناك ندوب تغطي
ذراعيه وجروح على وجهه. يبدو متوترًا، وينظر

حوله ليري ما كنت أنظر إليه.

«نعم»، أقول، وينقطع صوتي. أتحنح، وأحاول مرة أخرى. «أنا بخير. إنه أمر شاق أن أكون هنا. العودة إلى المنزل».

يتردد قبل أن يتنسم بتعاطف. «لا أستطيع أن أتخيل مدى صعوبة الأمر».

بالطبع يستطيع أن يتخيل، لكن نكرانه للذات يطفى على أي شيء آخر.

«دعنا نذهب». أمشي بجانبه.

أشعر بخوف يسير بجانبني ويتمتم: «هذا المكان مشبع بصدمتك. هل تزين لماذا عليك الرحيل يا سلامة؟».

أومات سريغا، وأخفيت دموعي بعناية وأنا أحاول ألا أفكر أنه على بُعد خطوات قليلة من هنا مكان جثة ماما المشوهة.

25

أرى أطلال بنايتي أمامي وأتعجب من المفارقة.
اللاجوء إلى المكان الذي قتل ماما. أحاول ألا أتعثر
بالحطام والصخور المتناثرة بلا مبالاة على الأرض.
لا يسعني إلا أن أدوس على الأثاث المكسور
وذكريات الأشخاص الذين عاشوا معي هنا. لا يوجد
مكان آمن للمشى.

«هنا». أشير إلى قمة تلة صغيرة من الخرسانة
والطوب. يصعد كنان إلى الداخل وأتبعه، وأشعر
بحواف الحجارة الحادة تحفر في حذائي الرياضي.
أتعب جسمي للوصول إليه، محاولة ألا أجرح نفسي
بالزجاج الملقى في كل مكان. في الأسفل والمخفي
عن الأنظار هو مكان اختبائنا. خزانة ضخمة
تحجبها. إنها مثل عين العاصفة، مركز النجاة من
الكارثة. وكان المبنى بأكمله، بذكريات الأجيال التي
عاشت فيه، قرّر أن يجعل لنا هذه الليلة بيتًا.
نقفز ونهبط بشدة.

القمر يشرق، نعمة، حتى نعرف أين نجلس دون أن
يطعننا شيء في الجوانب. كنان يمسح الأرض قليلاً
بحذائه ويجلس متكئاً على جدار مكسور وأنفاسه
متقطعة. أستطيع ركل نفسي. لقد كنت مشغولة جداً
بمشاكلي الخاصة لدرجة أنني لم أتوقف عن التفكير
فيما قد يفعله. يتصبّب العرق من جبهته، ويسند
رأسه على الحجر وعيناه مغمضتان.

«مرحبًا»، أبدأ الحديث. «كل شيء على ما يرام؟»
يمسح بيده على وجهه ويبتسم ابتسامة لا تبدو
مشرقة كالمعتاد.

«نعم»، يتمتم. «لا تقلقي بشأن هذا. فقط التقط
أنفاسي».

أنتقل إليه. «هل يمكنني الحصول على هاتفك؟».
يؤمن ويسلمه لي، فأفتح نوره وأشرقه على وجهه.

«ماذا؟» يسأل.

«أتأكد من أنك بخير».

يؤمن ويحذق مباشرة في الضوء. تنقبض حدقتا عينيه؛ مما يؤكد لي أنه لم يحدث موت خلوي في دماغه.

أقول بعد بضع ثوانٍ: «كل شيء يبدو جيدًا».
تنزلق نظرتي من عينيه إلى شفثيه وتعود مرة أخرى بنفس السرعة. يفعل الشيء نفسه، على الرغم من أنه يتأخر أكثر مني بكثير، وقلبي يرتعد في أذني.
سلامة، لا أريد أن...

وأتساءل كيف ستنتهي جملته.

يتحرك قليلاً، ويرفع يده، وهي على بُعد سنتيمترات من خدي قبل أن تسقط بجانبه.
«آسف»، يهمس. «لم أقصد أن...».

«لا بأس» همست وأعطيته الهاتف. أنتقل للجلوس على جانبه الآخر.

يسند كنان رأسه على الحجر مرة أخرى. أفرك رقبتني وأنظر إلى السماء. لو لم نكن في مثل هذا الوضع المزري لكان هذا المكان جميلاً. يمتد السواد أمامنا، والقمر يلقي بريقه الفضي، معتمداً ضوء النجوم القريبة. إنها نفس السماء التي يراها الآخرون في بلدانهم. لكن بينما نشاهدها هنا، مختبئين، ولا نعرف ما إذا كان أنفاسنا التالية هي الأخيرة، ينام آخرون بأمان في أسرّتهم، ويطلبون من القمر ليلة سعيدة هادئة.

خوف يخرج من الظل.

يبتسم. «هنا فقط للمشاهدة». يقلد المفتاح الذي يقفل شفتيه ويتكئ على الحائط. «رغم أن الصمت ممل».

أخذ نفساً عميقاً وأتوجه نحو كنان. أقول: «أريد أن أصدق أن الأمر يستحق ذلك. الثورة أعني. لكن أنا خائفة».

«أعتقد أنها تستحق»، كنان يبتسم بهدوء. «لقد انهارت الإمبراطوريات عبر التاريخ. ينهضون، ويبينون، ويسقطون. لا شيء يدوم إلى الأبد. ولا حتى الأمانا».

«الآن هذا هو الجانب المشرق»، همست.

ينظر بعيداً فأرى الخجل في ملامحه. «هل ما زلت تحفل مقاطع الفيديو على يوتيوب؟».

«نعم». يفتح هاتفه، الضوء القاسي ينير نصف وجهه.

«أعتقد»، بدأت أتحرك بحذر. «الآن بعد أن قررت المغادرة، هل ستتصرف بطريقة أكثر أماناً وربما لن تسجل الاحتجاجات بعد الآن؟»

خوف يتجهم. «في صلب الموضوع، أليس كذلك يا سلامة؟» يضع كنان هاتفه جانباً وينظر إليّ. «ماذا؟». «أعني...».

«سلامة، لقد اتخذت قرار المغادرة بالفعل. ألا يمكنني على الأقل الحصول على شيء يجعلني أشعر أقل بالذنب حتى ذلك الحين؟».

«ليس إذا كان ذلك سيزيد من فرص اعتقالك».

«لماذا لا يمكنك دعمي في هذا الشيء الوحيد؟» يسأل، غاضباً.

«لأن الأمر لا يتعلق بك فقط. أنت تجزئ إخوتك إلى هذا. أنت أناني».

«لا أعتقد أن هذا من شأنك». صوته يصبح أكثر برودة في الثانية.

«حسنًا، إنها دولة حرة الآن، أليس كذلك يا كنان؟ أستطيع أن أقول ما يعجبني بحق الجحيم!» انفجر. يتذمر وعيناه تومضان من الانزعاج. «لماذا تهتفين؟ هذه حياتي وعائلتي وعملي يا سلامة. لماذا لا تشيدين بحقيقة أنني أحاول إحداث فرق، حتى لو كان صغيرًا؟».

أحرق فيه، والصدمة تتدفق على عمودي الفقري مثل الماء المتلج.

«حياتك»، أكرر بهدوء. أريد أن أخنقه. «حياتك؟» أقف ويدي ترتجفان. أضربهما على صدري، فتتحول الصدمة إلى إحباط ناري. لقد اكتفيت من هذا. كل من أحبهم إما ماتوا، أو تعرضوا للتعذيب، أو في طريقهم إلى أحد هذه المواقف.

«سلامة»، يبدأ بحذر. أريد أن أضحك. «حياتك... ك». أسحب يدي إلى أسفل وجهي، وأمشي في دائرة، وأترك الكلمات تتراكم في حلقي قبل أن أتجه نحوه. «كيف تجرؤ؟» همست وأنا أرتجف الآن من الغضب. «هل ستجلس بجديّة هناك وتنتظر بأن إذا شيء حدث لك فلن يؤثر علي؟».

شفتاه تنفرجان. «الجيش لن يتبع أفعالي و...». لقد أطلقت ضحكة قصيرة. «هل تعتقد أن هذا ما يهمني؟».

يبدو محيرًا، وخائفًا حتى.

«لا يمكنك فعل هذا». تتدفق الكلمات مني كالسد المكسور، يتعثر كل منها بالآخر. «لا يمكنك تصوير الاحتجاجات بعد الآن لأنني أقسم بالله يا كنان، إذا تم القبض عليك، إذا مث، فلن أسامحك أبدًا!».

وعيناه ممتلئتان بالدموع. «لا تقولي ذلك».

أسقط على ركبتي أمامه. أتنفس شهقات، واليأس يعيق رثتي. «لن أسامحك يا كنان، لا يمكنك أن تدخل حياتي وتريني الألوان وتخبرني عن أحلامك وتخاطر بكل شيء عندما يتبقى لنا ستة أيام من المغادرة!».

«لأنه قد يتم القبض علي؟» صوته ينقطع. «لأنك جعلتني أقع في حبك!» أجيب، وقلبي ينبض بشدة. تحترق عيناى بالدموع التي تنهمر على خدودي الساخنة. وفيضه أيضًا مثل نهريْن يقطران من ذقنه، ويغطيهما بذراعه، وترتعش شفته السفلى.

أرفض أن أنظر بعيدًا، لأحصل على أي إجابة منه ليست ما أحتاج إلى سماعه.

همست: «لا يمكنك أن تفعل هذا بي. قلبي لن يتحمل».

يخفض ذراعه وعيناه مشرقتان. «أحبك أيضًا». يخرج صوته ناعمًا وهادئًا، لكنه كل ما أسمعه. حتى لو كان هناك إعصار يضرب حمص، فسيكون هو كل ما أسمعه. تسترخي كل عضلة وخلية عصبية مشدودة بداخلي، وأغوص في الأرض، وأشعر بأن شفرات العشب الصغيرة تدفعني.

«إذن افعل هذا من أجلي»، أرجوه. «لو سمحت. افعل ذلك من أجلي».

أريد أن أصل إليه، أن احتضنه، لكنني لن أفعل. لا يوجد خاتم في إصبعي، ولم نصبح لبعضنا بعد.

وهو لا يحاول لمسي أيضًا، على الرغم من أنه من الواضح من تعبيره أنه لا يريد شيئًا أكثر من ذلك. لكنه يميل إلى الأمام حتى لا يكون هناك مكان لسقوط زهرة بيننا.

يتنفس «سلامة»، فيخفق قلبي، ويلتقط نفسه، ويتعثر مرة أخرى. تحت ضوء القمر الفضي، يبدو ساحراً، معزراً بلطفه وروحه الجميلة. إنه لا يستحق القسوة التي يقدّمها هذا العالم. «لن أصوّرا».

أضع يدي على فمي وأمسح الدموع المخففة.

«شكراً لك».

يبتسم. «لا تبكي». «أنت تبكي أيضاً».

أفلتت منه ضحكة وتمكّنت من الابتسام، وتمذدت عضلات وجهي بقوة. لكن اللحظة تمر سريعاً عندما أنظر إلى خوف لا تأكد من وفائه بوعده. يبدو مستمتفاً.

«حسناً، لقد نجح الأمر»، ضحك.

تقع نظرة كنان على أصابعي المضطربة. «سلامة، هل لي أن أسألك شيئاً؟».

أجفل قليلاً، قلقاً. «بالتأكيد».

«لقد لاحظت مدى توثرِكَ في بعض الأحيان»، يبدأ ببطء. «عيناك تدوران في كل مكان، كما لو كنت تنظرين إلى شخص ما. وكان هناك أيضاً... آه، ما حدث سابقاً. هل... أنت على ما يرام؟».

هذا هو. كان سيحدث في نهاية المطاف. عضضت لساني وخوف يضحك هذه المرة.

«هل ستخبرينه يا سلامة؟» هو يقول. «أم أنك خائفة من أنه لن يحبك بعد الآن؟».

ارتجف، ويستقر ثقل ثقيل على أضلاعي، فيقفرها. معدتي جوفاء وأعصابها مشدودة. كيف أخبره عن خوف؟ أريد أن أفعل. بدأت تلك الرغبة عندما اراني غروب الشمس لأول مرة. مثل الهمس في مؤخرة رأسي.

أحرق في الندوب الموجودة على يدي، واتباع

الجروح الفضية. «سلامة؟» يقول كنان. القلق ملفوف على كل كلمة يقولها.

انظر إليه وأحاول أن أحافظ على تنفسي ثابتًا. أنا لا أخجل مني ومن الصراعات التي أواجهها. خوف هو جزء لا يتجزأ من حياتي، وقد ساهم في تشكيل الكثير مما أصبحت عليه خلال الأشهر الماضية. لن أنكر أن الأمر سيكون بمثابة لكمة في حدسي إذا ابتعد كنان عني بعد أن أخبره بذلك. لكن إذا أردنا أن نحصل على نسختنا من الحياة الحقيقية معًا، فلا أريد أن أبدأها بكذبة.

«أنا، ممم...»، أبدأ، ثم اتنحنح. «لا. أنا لست على ما يرام».

«ماذا تقولين؟» لهجته خائفة علي.

جلست في مكاني وأمد يدي إلى نبات صغير ينمو بين الخرسانة المتشققة، وأديره بين أصابعي. أقول الكلمات بسرعة، كما لو كنت أمزق ضمادة طبية، وأكشف سري. «منذ يوليو الماضي، كنت أعاني... رؤى. هلوسة، على ما أعتقد».

أتوقف وأحذق في أوراق النبات الصغيرة، لكن الصوت الوحيد الذي أسمعه هو تصفيق خوف البطيء. يبدو منبهزًا وفي عينيه بريق فخر.

ألقيت نظرة خاطفة على كنان من أسفل رموش عيني وأدركت المفاجأة في تعبيراته.

«رؤى؟» يسأل، ويلقي نظرة على بُعد بضعة أقدام من المكان الذي يقف فيه خوف. «تقصدين أنك ترين الأشياء التي...». يتعثر.

«ليست حقيقية»، أكملت كلامه. «في الغالب أرى شخصًا واحدًا». خوف يعدل ظهره وينفض الغبار عن بدلته. «يا إلهي، هل ستعزفينه إلي؟».

أتجاهل خوف وأكمل. «خوف. دخل حياتي منذ وفاة ماما. لقد سقطت بشدة على رأسي في ذلك اليوم، ولا أعلم، ربما أثرت إصابة في الرأس مقترنة باضطراب ما بعد الصدمة على العلاقة بين الفض الأمامي لدماغى والقشرة الحسية، لكنني لن أكون متأكدة حتى أتمكن من إجراء فحص».

يبدو كنان مذهولاً. «خوف؟».

أومات، وألقيت النبات بعيداً، وأجبرت لهجتي أن تكون هادئة. «إنه يظهر لي الذكريات. يظهر أسفي». أتجاهل درجة الصدمة التي أشعر بها بعد كل صدمة. ليس من الضروري أن يعرف كل التفاصيل. أخذ نفساً عميقاً. «لقد تعلمت أن أعيش معه». أزفر. «الآن أنت تعرف».

أضغ ركبتي إلى صدري، وأدفن رأسي بين ذراعي لأخفي دموع عيني، وقلبي يرتعش مما سيقوله. لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً لقبول خوف، وليس لدي أي فكرة عما إذا كان كنان سينتمكن من التصالح مع الأمر. إذا كان سيراني شخصاً تطارده أخطاؤه.

لم يقل كنان أي شيء لبعض الوقت، وسمحت له بذلك. إنه بحاجة إلى التفكير في الكلمات التي قلتها للشئ، وفهم ما تعنيه بالنسبة له. لي. لنا.

أخيراً تحدث كنان بلطف: «سلامة، انظري إلي». على مضض، نظرت من خلال ثنيات أكمامي.

«لن أذهب إلى أي مكان». يبتسم. «أنت شيتا».

الفرح يستعيد قلبي وأشعر بالحماسة، لكنني أقول ذلك على أي حال: «أنت بازو».

ينظر كنان بعيداً، وقد سقط الظل على خديه، ويضبط بيده على جبهته. ثم يلتفت نحوي. يبدو متوتراً، لكنه تؤثر من نوع مختلف. «سلامة، أريد

أن أفعل هذا بشكل صحيح. حتى لو لم يكن لدينا عائلاتنا تهتم بنا، وتوافق مواعيدنا وما إلى ذلك. حتى لو كان خوف موجودًا، ولا أريد الانتظار حتى نصل إلى ميونيخ للقيام بذلك. لا أريد أن أفعل ذلك على متن قارب. أريد أن نفعل ذلك هنا. في بيتنا». ترتفع درجة حرارتي الداخلية. «نفعل ماذا؟» أنا أتلعثم.

يبتلع بقوة ويدخل يده في جيبه. وعندما يفتح كفه يتلألأ عليها خاتم. «أريد أن أتزوجك. إذا كنت ستوافقين».

«ماذا؟» خوف ينفجر.

«ماذا؟» أصرخ، الهواء يختفي من رئتي. يحارب بابتسامة. «هل هذا جيد أم سيئ؟».

فمي يسقط مفتوحًا. «أنا... لم أكن أعتقد أنك ستفعل ذلك هنا!».

«تتقدم للزواج بي في ذكرى الثورة؟» وميض عينيه. «لقد كنت أخطط لهذا لمدة أسبوع».

«أنت مستحيل»، أنفأس، وأضع يدي على خدي.

ضم كنان شفتيه وقال: «ظننت أنك ستقول شيئًا كهذا. سلامة، أنا وانت نعيش حياتنا ثانية بثانية. قد نعيش لنركب هذا القارب إلى سيراكيوز. قد نستقر في ميونيخ. قد نتعلم اللغة الألمانية، ونطلي شقتنا بألوان نابضة بالحياة لم نشاهدها في حمص منذ فترة طويلة، ونبني حياة. حياة مذهلة. لقد أصبحت صيدلانية، وكل المستشفيات تتسابق لتوظيفك، وأنا أرسم قصصنا. سيكون لدينا مغامراتنا الخاصة». ينظر بعيدًا بخجل، ويتعثر في كلماته. «سنكتب كتابًا. مغا. لكن... نحن أيضًا قد لا نعيش هذه الأيام الستة. من الممكن أن ندفن هنا، أي شيء يمكن أن

يحدث، ولا أريد الانتظار بعد الآن. لا أحد يعرف المستقبل. لكنني أعرف ما أشعر به. وأعرف كيف تشعرين. فلنجد سعادتنا هنا في حمص. دعينا نتزوج في بلدنا. دعينا نبني منزلًا هنا قبل أن نبني منزلًا في مكان آخر».

توضح كلماته عالقا مفا لو كان ممكنا أو ربما كان ممكنا. أريد هذا العالم بشدة لدرجة أنني أشعر بنيرانه تشتعل في داخلي.

يرفع الخاتم ويسأل بعينين متردتين وخطود محمّرتين: «سلامة، هل تقبلين الزواج بي؟».

أحذق به. مع كل موقف آخر في حياتي، أقوم بتشريح جميع النتائج حتى النخاع قبل اتخاذ القرار. ولكن مع هذا؟ القرار سهل مثل التنفس. أشعر تمامًا ما هو الإحساس بالسلام.

ولكن حتى التنفس قد يكون مؤلماً في بعض الأحيان، وإذا قلت نعم، فإن كنان وإخوته سيكونون جزءاً من قلبي إلى الأبد.

وسوف يصبح كل شيء حقيقياً.

أحذق في الخاتم وأجد أنني لا أهتم بأي شكوك تكمن في مستقبلنا. كل ما أعرفه هو أنني أحبه، وأنه حتى في الظلام المحيط بنا، كان مصدر سعادتي. وفي وسط كل الموت، جعلني أريد أن أعيش.

الجواب ينزل بسهولة من شفتي.

«نعم»، همست، وأنا أمسح دموعي، وأشعر أن قلبي يتوهج. «نعم».

26

أيقظتني أشعة الشمس على وجهي، واستغرق الأمر مني ثانية لأدرك أنني لست في المنزل. طائر يطير فوق، وصورة ظلّية تسري عبر السماء الزرقاء الشاحبة. نظري يتبعه.

صحيح. أنا بالمنزل.

بجانبي، كنان يتحرك في نومه، وألقي نظرة عليه. صدره يرتفع وينخفض بثبات؛ مما يريحني. يتجهّم، وأمل أن يكون ذلك لأن الأرض قاسية على ظهره وليس بسبب الكوابيس. أصبح شعره أطول مما كان عليه عندما التقيته، كما أن قفاه أصبح أكثر وضوحاً. أتساءل كيف سيكون الإحساس عندما أمر بأصابي بين خصلات شعره.

تشتعل أعصابي عندما أتذكر الليلة الماضية. أخرج الخاتم من جيبتي وأرفعه عاليًا، وأعجب به في الضوء. لم أكن أرغب في ارتدائه في الظلام حيث لا أستطيع أن أرى كيف يلمع على إصبعي. إنه من الذهب الوردي، مريض في المنتصف بخط من الذهب الأبيض، مُصمّم بشكل مثالي ليشبه قطع الماس الصغيرة. إنه جميل وبسيط وكنت سأختاره لو كنت في المتجر.

قال كنان: «لقد كان خاتم ماما»، فقفزت.

يجلس كذلك. عيناه مشرقة ويزهر أحمر الخدود الصباحي على خديه.

فجأة شعرت أن الخاتم ثقيل في راحة يدي. همست قائلة: «إنه جميل جدًا. أنا... لا أعرف ماذا أقول».

بيتسم بحزن. «ليس عليك أن تقولي أي شيء». أهرأس. «أنا أسفة جدًا بشأن والديك. أنا... كنت

أو ذل لو أعرف والدتك».

يعبث بأصابعه. «لم تفهم أبدًا سبب قراري بأن أصبح رسامًا للرسوم المتحركة بدلًا من دراسة الطب، لكنها دغمتني على أي حال. وحتى ذلك الحين، كانت تعرفني جيدًا. فقط من رؤيتك في حفل زفاف أخيك، عرفت أننا سنكون مثاليين لبعضنا البعض». لمعت عيناه للحظة، ثم هز رأسه. «كانت ستحب أن تحسلي على خاتمها».

«يشرفني أن أرتديه». أحاول أن أضعه على إصبعي، على أمل أن يكون مقاسي. لكن هذا لا يحدث. أصابعي مجرّد جلد وعظام، وهو يتدلى منه بشكل غير محكم.

«كبير جدًا؟».

«نعم». تنهدت ثم تذكرت قلادتي. أسحبها من تحت ياقتي. «لديّ هذه. لقد أعطاني إياها والداي عندما تخرّجت».

نظر لها بامعان. «تناسب تمامًا مع الخاتم».

أقوم بتمرير القلادة من خلال الخاتم وهي تتلأل بشكل جميل. «ما رأيك؟».

«جميل». لكنه لا ينظر إلى القلادة. أحمرّ خجلًا، وأرجعها تحت سترتي.

يهرش الجزء الخلفي من رقبتة. «امامنا أسبوع، وأعلم أنني قلت إنني أرغب في الزواج في سوريا، لكنني لم أسأل إذا كنت...».

«أريد...» قاطعته. «أريد أن يكون هذا هو أحد أفعالي الأخيرة في سوريا. شيء جيد».

أشعر به يشغ.

«ما هو القول؟ (سارعوا بالخيرات؟)». ابتسم.

أشعر براسي خفيًا بعض الشيء بسبب الإثارة لقرار

لم أفكر فيه مرتين، ولكنني ائكأت على مشاعري تجاهه. «دعنا نتزوج اليوم».

يضحك ويوقف. «لماذا لا تخبرين ليلى أولاً؟».

أشهو، وأقف على قدمي. «يا إلهي. يجب أن تكون قلقة للغاية!».

يومي موافقاً. «دعينا نذهب».

لا أستطيع سماع أي شيء سوى تنفّسنا، والذي أمل أن يعني أنه لا يوجد شيء خطير خارج أنقاض منزلي. تحركت لتسلق الأنقاض ومذ كنان يده وساعدني.

يقول: «تسمحين لي؟».

أوافقه. كنان يرفع نفسه فوق الحطام. وبينما كان ينظر من جانب إلى آخر، تحرّك ببطء بعيداً عن نظري. ثم سمعته يسقط على قدميه على الجانب الآخر وهو يتألم من الألم. تمرّ دقائق معدودة دون صوت سوى صوت العصافير.

«حسناً، الوضع آمن»، ينادي كنان، وبعد ثوانٍ قليلة قفزت بجانبه.

في النهار، يظهر المزيد من كارثة الليلة الماضية: من الدخان الخافت المتصاعد إلى السماء إلى صمت المقبرة الذي سيطر على المكان. نحن نتجهّم ونحن نسير للأمام، والواقع يחדش درع نعيمنا.

أنظر إلى منزلي القديم، وأشعر بقلبي يضيق. اتساءل عفاً إذا كنت سأعود أم أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأراه فيها.

عندما وصلنا إلى منزل ليلى، أصرّ كنان على أنه سيكون بخير عندما يعود إلى منزله بمفرده.

«يجب أن أطمئن على إخوتي. لمى لا تزال تتعافى». أنا امضع لساني.

يضحك: «سأكون بخير يا سلامة». «أنت ستتزوجيني اليوم، أنا أكثر من بخير». أخفضت رأسي لأخفي وجهي الأحمر. «نعم، فقط... سأخبر ليلي بالأخبار، وبعد ذلك يمكننا العمل على ذلك».

يغمز. «سوف أراك في المستشفى؟».

أومئ، ثم ترفرف فكرة في ذهني. «لماذا لا تحضر يوسف ولمي؟ أعني، إذا كانت لمي تشعر بالقدرة على ذلك. كما أنه قد يصرف انتباه يوسف عن... حسنًا، كل شيء. أنا متأكد من أنهم يريدون أن يكونوا هناك».

ابتسامة كنان دافئة جدًا وأشعر بها حتى أطرافي. «حسنًا»، يقول بهدوء. «سوف أسألهم».

أفتح الباب وأغلقه خلفي لأجد ليلي جالسة في الردهة، ساقاها ممدودتان أمامها، وبطنها لا يزال منتفخًا. يتدلى رأسها إلى الجانب، وجفونها مغلقة.

أقرفص بجانبها. «ليلي»، همست، بدأت تفيق.

«ماذا...» قالت بترنح، ورمشت بسرعة قبل أن تركز نظرها علي. «سلامة! أوه الحمد لله!».

عانقها بسرعة وأنا أستنشق رائحة الأقحوان. «ماذا حدث البارحة؟» تسأل.

«سأخبرك، لكن لا يمكنك مقاطعتي حتى النهاية». أصبح تعبيرها فضوليًا، ولاحظت أنها تبدو منهكة بعض الشيء. «حسنًا».

أخبرها بكل شيء. يحسب لها أنها لم تنطق بصوت واحد ولكن بمجرد أن أنهيت، تمسك بذراعي وتطلق صيحة يا إلهي! أريها الخاتم وهي تصرخ.

«متى؟» تسأل لاهثة. لا يسعني إلا أن أبتسم. «الآن».

تنهار في نوبة أخرى يا إلهي! وتستطيع إيقافها مؤقتًا لتقول: «لقد أخبرتك أن شخصًا ما سوف يختطفك بعيدًا عني!».

أضحك. «ستكونين دائمًا أولويتي».

تقهقه، على الرغم من أنها لا تبدو مليئة بالحياة كما تفعل عادة. «جيد. إذن أعطيك مباركتي. من سيزوجك؟».

أتململ مع حجابي. «كنت أفكر في دكتور زياد. في المستشفى. وبهذه الطريقة سيكون هناك شهود».

تتنهد. «ممتاز».

أخذ نفسًا عميقًا. «كنت أتساءل عما إذا كان بإمكان كنان وإخوته الانتقال للعيش معنا. أنا... لا أريده أن يكون بعيدًا عني».

يلى تشع. «بالطبع! من الأفضل أن تبقى معنا حتى نغادر».

أتنفس، وثقل ينزلق من فوق كفي. «حسنًا إذن، أنت تعلمين أنني أريدك أن تكوني هناك. هل تستطيعين المجيء؟».

تضحك بخفة وتمسح فوق بطنها. «أتمنى! لكن الطفلة سلامة صعبة. أشعر بالتعب بعض الشيء».

أضغط بكفي على جبهتها. إنها ليست دافئة جدًا. تقول: «أنا بخير. فقط مرهقة».

«حسنًا، بالطبع أنت متعبة. لقد كنت تنامين في الردهة!» أوبخها، وأساعدها على الأريكة.

استقرت بشكل مريح تحت الأغذية قبل أن تلاحظ نظرة خيبة الأمل على وجهي.

«سلامة، أريد حقًا أن آتي». تضغط على يدي. «كنت سأحبو إذا استطعت، ولكن لا أستطيع حتى أن أفعل ذلك الآن».

الذنب يغسلني. لا أستطيع أن أكون أنانية. «أنا أعرف. كل ما في الأمر أنني لم أكن أعتقد أنني سأتزوج بدونك في حفل الزفاف. هذا غريب». تعبس.

«يمكنني أن أطلب من كنان تأجيل ذلك حتى نصل إلى ألمانيا. أو غذا. أنا بخير مع ذلك».

تهز رأسها. «لا. اليوم. ستتزوجين اليوم. أنت لا تعرفين أبدا...». توقفت. «لا تؤجلي سعادتك بسببي. بالإضافة إلى ذلك، نحن بالتأكيد سنقيم حفلاً... وحفل زفاف آخر في ألمانيا. وبالطبع سأكون مركز الاهتمام حينها، حتى لو كنت أنت العروس».

أضحك، وحزني يتصاعد من الصورة الجميلة التي يخلقها في ذهني. إن الاقتراب إلى هذا الحد من الرحيل يسمح للأحلام المكبوتة أن تستيقظ وتنمو مثل اللبلاب بين الشقوق. أنا ولىلى نختار فساتيننا وأخرى مطابقة لسلامة الصغيرة، التي ستكون لها عينا والدتها وشعر والدها. إن حملها بين ذراعي سيجعلني أشعر بالقرب من حمزة. يدها السمينة تمسك بإبهامي بقوة، وأنفها الصغير يتنفس هواء غير ملوث بالدخان والموت.

سيكون الوقت الذي قضته في سوريا بمثابة حلم حلمت به في الرحم. قصة موجودة فقط في القصص التي نرويها لها أنا ووالدتها. حتى تتمكن في يوم من الأيام من العودة إلى بلدها وزراعة أشجار الليمون.

أقوم بتدليك اكتاف لىلى قليلاً. إنها قاسية وعظمية تحت يدي، وهي بمثابة دلو من الماء المثلج على أحلامي.

«شكراً لك»، تمتمت، وعيناها نصف مغمضتين. «أذهبي الآن». وعندما لا تحرك، تكرر: «أذهبي».

سأنتظرك هنا».

تأخذ يدي بين يديها، وتحقق في وجهي عبر رموشها. «أنا سعيدة جدًا من أجلك. فخورة جدًا. سيكون والدك وحمزة فخورين بك أيضًا. انظري كيف تغيرت».

أعطيتها حضنا أخيرًا قبل أن أخذ معطف المختبر الخاص بي. اليوم، هذا هو فستان زفافني، لكن في ألمانيا، سأرتدي فستانًا حقيقيًا. مع ليلي. سالمة ومعافاة.

27

عندما يصل كنان إلى المستشفى، يكون إخوته إلى جانبه. اتسعت عيون لمى من الدهشة، بينما كان تعبير يوسف فضولًا وخاليًا من الحزن؛ مما أعطاني لمحة عن مدى صغر سنه حقًا.

«مرحبًا»، قال كنان وقد أشرقت عيناه عندما راني.

«مرحبًا» ابتسمت وأشعر بالدوار.

«مرحبًا»، تقول لمى، ثم أبعد نظري عن كنان لأنظر إلى الفتاة الصغيرة التي تشبّت به.

تبدو أقوى، والحياة تنحت ملامحها. «كيف حالك يا لمى؟» أسأل.

أجابت: «بخير»، ثم نظرت إلى كنان الذي أومأ لها مشجعًا. «شكرًا لإنقاذ حياتي».

أوه يا قلبي. قلبي.

أمدّ يدي وهي تأخذها بهدوء قبل أن أسحبها إلى عناق. «شكرًا لكونك قوية».

وجهها وردي من الخجل، وتتركني لتخفي وجهها في جنب كنان. يكبت ضحكته، ولكن هناك نجوم عالقة في قزحيّتي عينيّه، ولا أستطيع أن أصدّق السلام المطلق الذي أشعر به هنا، في المستشفى تحديدًا من بين جميع الأماكن.

ألقيت نظرة خاطفة على يوسف، الذي كان يحدّق في الأرض، ويبدو أنه مصمم على تجاهلي.

«أهلاً يا يوسف»، أقول وأنا ألوح بيدي. نظر إلي لفترة وجيزة قبل أن ينظر بعيدًا، ويداه في جيوبه ويعبس قليلًا.

أنظر إلى كنان، خائفة من أن أكون قد فعلت شيئًا خاطئًا، لكنه هزّ رأسه.

«إنه غيور بعض الشيء». يتنهد. «يعتقد أن الأمور على وشك التغيير وأنتك تسرقيني منه». ثم يقول بصوت أعلى: «لكنني أخبرته أن الأمور تتغير نحو الأفضل، لدينا الآن ثلاثة أشخاص إضافيون كعائلة لنا».

بهز يوسف كتفيه، ولا يزال غير قادر على التواصل بالعين، تنهد كنان مرة أخرى. «سيفهم».

«لا بأس، هو وأنا سوف نصبح أفضل الأصدقاء قريبًا بما فيه الكفاية».

أسمع الدكتور زياد يتحدث مع مريض على الجانب الأيمن من الردهة.

«دعينا نتزوج...» يبتسم كنان.

أخجل. «ليس لدي أي خطط لهذا اليوم، لذلك هيا بنا».

ذهبنا إلى الدكتور زياد، الذي كان على وشك الانتهاء من علاج المريض. شعره مقصف، وكتفاه محدبتان من الإرهاق، ولكن عندما يستدير ويلاحظني، يبتسم.

«سلامة!» يقول. «صباح الخير».

أجبت: «صباح الخير يا دكتور»، وألقيت نظرة على كنان الذي يبدو خجولًا بقدر ما يشعر به.

الدكتور زياد ينظر بيننا. «هل كل شيء بخير؟».

تعزفت راحتا يدي، والعصبية تسري في معدتي.

«نعم. أنا... دكتور زياد، أريد أن أطلب منك خدمة».

يستقيم. «بالطبع. أي شيء».

«أنا... أعني... ما حدث...»، تلعثم، وتدخل كنان.

يقول بصوت واضح: «طلبت من سلامة الزواج، وكنا نتساءل إن كنت أنت من سيتولى المهمة»، لكن وجهه أحمر، وكذلك أدناه.

دكتور زياد ينظر بيننا قبل أن يضحك فرحاً.

الصوت يلفت رؤوس الكثيرين في طريقنا، وأنا مشتتة خجلاً. «أنا... أنا...» يتلعثم، وقد تفاجأ بسعادة.

لم أر الدكتور زياد بهذه الطريقة من قبل. يفرك عينيه ويضحك مرة أخرى. «هذه أخبار رائعة! سلامة، متى كنتما...؟».

أعبت بأطراف حجابي. «إنها قصة طويلة، ولكن...»، نظرت إلى كنان، «إنه القدر»، كنان يبتسم.

«هل تريدان أن تفعلنا هذا هنا؟ الآن؟» يسأل الدكتور زياد. ابتسامته واسعة مثل الهلال.

أومئ موافقةً. «لحظائنا القادمة ليست موعودة. وكنت دائماً بمثابة الأب بالنسبة لي».

يختفي إرهاقه ويبدو أصغر بعشر سنوات. «سيكون شرفاً لي أن أتولى المهمة».

لا أستطيع منع الابتسامة التي ترفع شفتي إلى الأعلى. أشعر وكأنني في حلم. تبدأ براعم الأمل تتفتح ببطء في قلبي، وتنتفتح بتلاتها لتلتقي بالشمس. أتمنى لو كانت ليلى هنا، ممسكة بيدي. لكنني أشعر بالارتياح لأن لمي ويوسف قادران على الحضور، ومشاهدة شيء آخر غير الصدمة في هذه المستشفى.

يبدأ حشد من الناس بالتشكل من حولنا، والوجوه الشاحبة تشعر بالفضول إزاء ما يحدث. يقدم المرضى التهاني، ويحني كنان رأسه. عادةً لا أحب هذا الغزو للخصوصية، لكن رؤية أي شيء آخر غير الألم والمعاناة على وجوه الناس أمر يستحق العناء. رأيت أم يتلصص على حافة الحشد، ونظراته تقيّمتنا.

أنظر بعيداً.

نقف أمام الدكتور زياد الذي تمالك نفسه أخيراً. يبدأ بخطاب صغير عن العثور على السعادة من خلال المصاعب، ويهدأ الجميع. بعد ذلك نقرأ جميعاً الفاتحة مغاً ويقراً كنان نذور الزواج بعد الدكتور زياد. أعطي موافقتي بصوت خافت. والآن نحن متزوجان.

تزوجت وأنا أرتدي معطف المختبر الخاص بي، وشترة أكبر من اللازم بثلاثة مقاسات، مع وجود غبار على حجابي وعلامات أوساخ على بنطالي الجينز. ليس لدينا كعكة، أو فستان زفاف مناسب، أو حتى ملابس نظيفة. لكن لا يهم. يبدو الأمر وكأن كل شيء يحدث في لقطات. أحاول حفظ كل كلمة تقال، وكل فعل وكل نظرة، لكنني أجد صعوبة في مواكبة ذلك. يبدو كنان في حالة ذهول، وكأنه يسير في حلم يقظة. نحن ننظر بخجل إلى بعضنا البعض. لا شيء سوف يفسد هذه اللحظة بالنسبة لي. أريد أن أستمع، وأن أحب، وأن أكون سعيدة.

الجميع يصفق والبعض يهتف. وجه لى يشبه القمر في ليلة كاملة، وهي تقفز على قدميها، بينما يبتسم يوسف ابتسامة صغيرة وكأنه لا يستطيع تمالك نفسه.

تضغط نور نفسها بين الحشود لتصل إلي، وتمسك بيدي وتقبل خدي، وعيناها تتلألآن.

شيئاً فشيئاً، يتبذد الجمهور، وينادي الدكتور زياد جميع الموظفين لبدء العمل، لكن الطاقة التي تغذي المستشفى مختلفة الآن. إن الأمل الذي زرعته بعناية لم يغد في قلبي فقط.

«مكتبي فارغ»، يقول الدكتور زياد لي ولكن

بصوت منخفض. «أنا متأكد من أن لديكما أشياء للحديث عنها على انفراد».

«شكرًا لك يا دكتور»، تلعثمت من الخجل.

«أنت تستحقين كل سعادة الدنيا يا سلامة». يتسم لي بحرارة، ويذكّرني ببابا. «مبروك عليكما، وملا الله حياتكما بالفرح والبركة».

يصافح كنان قبل أن يسرع إلى مهامه. تقول نور: «سوف أعتني بالأطفال لفترة قصيرة». تبسم إلى لمى ويوسف، وترد لمى الابتسامة.

يسقط يوسف على أحد الكراسي البلاستيكية، لكنه يبدو أقل توترًا مما كان عليه عندما دخل.

ولحسن الحظ، الجميع مشغولون جدًا عن ملاحظة دخولنا إلى مكتب الدكتور زياد. يغلق كنان الباب بهدوء؛ مما يزعج ذرات الغبار.

أشعر بالدفء داخل سترتي. هل يجب أن أقول شيئًا؟ أين يذهب ذراعاي؟ أرجحهم بشكل غريب لبضع ثوان، ثم أتوقف.

«سلامة؟» يقول وأنا أستدير ببطء. اقترب بضع خطوات نحوي، وهجأة أصبح أقرب من أي وقت مضى.

نظرت إليه متوترة، وتفاجأت عندما رأيت أن تعبيراته لا تحمل أي تأثير. أستطيع أن أرى حبات البندق في عينيه، وإذا ركزت أستطيع عذها. شعره أشعث من الليلة الماضية ومن عدد المرات التي هاجمته فيها أصابعه طوال الصباح. أرى ندبة باهتة تقسم حاجبه الأيسر إلى نصفين، وأتساءل كيف لم ألاحظها من قبل.

يبدو الأمر وكأنني أراه للمرة الأولى. لم يقل شيئًا، فقط ابتسم لي بحرارة، وقبل أن أتمكن من التحدث،

انحنى إلى الأمام، ووضع ذراعيه تحت ذراعي،
وسحبني بالقرب. أتنفس بصعوبة، وبعد لحظات
قليلة من التردد، وضعت يدي حول كتفيه. يدفن
رأسه في زاوية حجابي، ويضفني بقوة. أعصابي
ترتعش، مليون فكرة تتسابق إلي، وتزاحم ذهني.

وفجأة يعم علينا السكون، ويتبذد كل فكر
وشعور عصبي. أشعر بالسلام. أستطيع أن أتنفس،
وأستنشق رائحته. رائحته تشبه رائحة سوريا
في الأيام الخوالي. قليل من الليمون المقطوف
من الحدائق، ممزوج بالتربة والطين. رائحته مثل
المنزل. يتمتم بشيء لا أسمع، كلماته عالقة في
قماش حجابي.

«ماذا؟» أهمس.

«لا شيء»، يقول بصوت أعلى، ولكن هناك خشونة
في الأمر، وكأنه يحاول حبس دموعه. ثم، بعد
لحظات قليلة، يقول: «أنا أسف لأنني لم أتمكن من
توفير حفل زفاف مناسب لك».

انتزعت نفسي من حضنه ونظرت إليه بفضول.
«هل تعتقد أنني مستاءة؟».

قال بخجل وهو يضع يده خلف رقبتة: «لا أعرف،
أعلم أن حظنا سيئ الآن، ولا أستطيع توفير ما
يكفي لكلينا. لكنني أقسم أنني سأفعل. لدي عائلتي
بعض المال المذخر، ولدينا أرض هنا أيضًا. لا
أستطيع استخدام أي من ذلك الآن، رغم ذلك.
اللعنة، كان يجب علي أن أعطيك شيئًا. ربما فستانًا؟
كان يجب أن يكون لديك على الأقل فستان زفاف.
أنا...».

أقاطعه عندما أقف على أطراف أصابعي وأضم
خديه بين كفي. يحدق في وجهي.

«أريد الزواج. ليس حفل زفاف». ابتسم. «وإلى

جانب ذلك، هذه طريقة أكثر رومانسية».

«حقًا؟» يسأل بشكل غير مؤكد.

«أوه، بالتأكيد! عرس وسط الثورة. أليست هذه مقدمة جيدة للقصة؟».

يبتسم مرة أخرى. «إنها تبدو وكأنها مؤامرة رائعة».

«بالضبط. أنا صيدلانية ذات خبرة يا كنان. يمكنني الاعتناء بكلينا بينما أنت الأب الذي يمكث في البيت ليرسم»، قلت بابتسامة مرحة.

«هاهاها».

أنزل على كعبي، وأخذ يديّ معي قبل أن يبدأ في الثعرق.

«كنت أتساءل...»، قلت وأنا ألعب بحاشية معطف المختبر الخاص بي. «إذا كنت ترغب في الانتقال للعيش معي ومع ليلي».

هناك ثانية حيث نحس أنفاسنا.

«لديك تلك الفجوة الضخمة في شرفتك، ولا أستطيع أن أتخيل أنها دافئة جدًا»، أوضحت.

يبتسم ويمسك يدي ويفرك عليهما دوائر ناعمة.

«ما هو السبب الحقيقي؟».

أخجل. «هذا واحد من العديد».

«حسنًا إذن». لا يزال يبتسم. «سأخذ إخوتي إلى المنزل، وسنحزم أمتعتنا ونلتقي بك في نهاية مناوبتك».

«تمام».

باستدعاء كل ذرة من الشجاعة بداخلي، رفعت رأسي وقبّلث خذه. يتجعد، يلتقط أنفاسه. يتلعثم في الوداع ويتجه نحو الباب قبل أن ينظر إلي.

«أراك لاحقًا».

«أراك لاحقًا».

خوف ينتظرني في المخزن، وأقفز عندما أراه.
«ألم تتوقعيني في هذا اليوم البهيج؟» شفتاه ملتويتان من الاستياء.

أغلق الباب متنهدة. «ولماذا أنت منزعج الآن؟ كون كنان زوجي يمنحني المزيد من الحافز للمفارقة معه».

يومئ. «هذا صحيح، لكنه لا يأتي دون مخاطر».
«ماذا تقصد؟».

يقترب أكثر. «إذا -لا سمح الله بالطبع- قُتل كنان أو إخوته، أو الأسوأ من ذلك، تم اعتقالهم؛ هل ما زلت ستفادرين؟».

الرعب ينزلق في معدتي.
«قد يحدث الكثير في خمسة أيام»، يتابع خوف بكل سهولة. «من ستختارين؟ ليلي أم كنان؟» عيناه تتلألآن. «أم نفسك؟».

أتنحج. «سأترك أخي، أليس كذلك؟».

ينقر على ذقنه. «صحيح، لكن هل يمكن لمأساة أخرى أن تجعلك تخالفين وعذك؟ هل تريدان أن تموتي هنا بدلاً من المخاطرة بالحياة؟».
«لا»، أجيب.

يخطو نحوي. أنفاسه باردة، ولكن هناك قلق في عينيه. «أمل -من أجلك- ألا تفعل ذلك. سيكون من العار دفنك هنا».

كلمات خوف تثقل كاهلي طوال اليوم. قلبي في صراع، يحاول التمسك بخصلات من السعادة. الأمل شبح يتجول في جسدي.

يهنئني شخص غابر بينما أواصل جولاتي. تنطلق نوادر الفرح لفترة وجيزة، لكنها تشبه محاولة التمسك بالضباب. تعانقني نور بقوة مرة أخرى، وأحاول استيعاب سعادتها.

«كنت أعلم أنه معجب بك!» صاحت نور وهي تمشي بجانبني. «فعلًا؟».

«نعم. ينظر إليك دائمًا أثناء عملك. ليس بطريقة غريبة.. لا أعرف»، تقول بتأنٍ. «كما لو أنك الشخص الوحيد الموجود».

أحمر خجلًا. «أوه. لم أكن أعتقد أن أحدًا رأى ذلك».

«لقد كان بمثابة إلهاء لطيف عن جميع المرضى الذين يأتون باستمرار. أعني أنها معجزة أنه لا يزال لدينا فطنتنا».

«كما تعلمين، في الغرب وأماكن أخرى حيث يعيش الناس حياة طبيعية، يمكن للطاقم الطبي الحصول على معالجة نفسية لما يرونه أثناء التعامل مع مرضاهم».

«يا لها من كلمة غريبة! كيف تنطقينها؟ معالجة نففف-سية؟» تسأل بسخرية.

أبتسم بصدق. «الحمد لله روح الدعابة لدينا حاضرة وبصحة جيدة. سيستغرق الأمر أكثر من ذلك لكسرنا». تغمز قبل أن تسرع نحو طفل يبكي.

أشاهدها وهي تنطلق، وكلماتها تضرب على وتر حساس. عندما أنظر إلى قلبي، أتوقع أن أجده في

حالة من الفوضى بسبب كلمات خوف وأفعال جيئش النظام، لكنني لا أجد ذلك. ربما كان هذا هو الحال في البداية، لكن الآن هناك شمعة مضاءة في الظلام، تنير طريقي. وتعدني بالحياة.

«مبروك يا سلامة»، يقول أم من خلفي، فقفزت. إنه يرتدي سترة بنية بالية، وهناك ظل لحية خفيفة على وجهه.

أقول: «شكرًا لك»، لكن طعمها مثل نشارة الخشب في فمي.

«هل يعلم العريس السعيد عن بوصلتك الأخلاقية المكسورة؟» ابتسامته لطيفة.

ما زلت قادرة على التحدث معه. «هل تهذبن؟». يرفع يديه. «لا سمح الله! لدينا اتفاق. لكنني أعتقد أنه من حقي إخافتك بعد أن دمّرت حياتي تقريبًا». يمدّ يده، وأبحث عن قرص البانادول الموجود في جيبتي، ثم أسقطه في كفه. ولكن قبل أن يرحل، وجدت الشجاعة لأقول: «كيف حال سمر؟».

توقّف، وظهره متصلّب، ودار نحوي. تحوّلت عيناه إلى اللون البني الداكن من الاستياء.

«أعتقد أنني أخبرتك أن هذا مجرد عمل...».

«لا يهمني»، أقاطعه. يفور الحمض في معدتي، لكنني أتمكن من الكلام. «ربما فعلت شيئًا فظيلاً، لكن لا يزال لدي ضمير».

ينبض الوريد في جبهته، ثم يجيب ببطء: «إنها بخير. تتم إزالة الغرز. لا عدوى».

أطلقت تنهيدة مرتاحة من أعماق أمعاني، وقد تضاءلت قوة الحمض.

يقول أم: «لديها ندبة. وبهذه الطريقة سنتذكرك دائمًا، وضميرك...».

يبتعد، وتستأنف معدتي هضم نفسها قبل أن أهرع إلى المرحاض.

كان وإخوته يقفون أمام سلالم المستشفى عندما خرجت في نهاية نوبة عملي. يحمل يوسف حقيبة ظهر سبايدرمان مهترئة وهو يفرك الحصى بحذائه، بينما يمسك كنان يد لى، وحقيبة ظهرها الوردية من باربي مهترئة عند الحواف. حقيبة كنان سوداء. يتسع قلبي عندما أراهم، وأسرع في نزول السلم. «مرحبًا»، أقول، فيبتسم لي كنان. «مرّ وقت طويل دون رؤيتكم».

خطوت إلى جانبه لتمشيط شعر لى البني الفاتح. «أفتقدك».

يشرق وجهها وتؤرجح اليد التي تمسك بيد كنان. التفث إلى يوسف، الذي لا يزال يحذق في الأرض. «واشتقت لك أيضًا يا يوسف».

يرفض أن ينظر إليّ، فتصطدم حصة أخرى بالسلم. أنظر إلى كنان في حيرة. لقد كان يوسف في مزاج جيد بعد الحفل الصغير، لقد ظننت أنه سيشعر به طوال اليوم.

يهز كنان رأسه بحزن ويقول بصوت منخفض: «هو فقط متضايق من خروجنا من شقتنا. هناك الكثير من التغيير الذي يحدث اليوم».

«أوه».

يمد كنان يده الحرة ويعبث بشعر أخيه. يضرب يوسف على يده، لكن لا يمكن أن يخطئ البهجة المخفية في عينيه، فهو سعيد لأن شقيقه الأكبر يعطيه الاهتمام.

«انت بخير؟» يسأل، ويوسف يهز كتفيه.

يتنهد كنان، ويستدير نحوي، ويحمل لى. «لا أستطيع أن أخبرك كم أقدر هذا. لقد أصبح حيننا من أصعب المناطق التي يصعب الدفاع عنها بعد الهجوم الكيميائي. لا أعتقد أنه كان بإمكاننا البقاء لفترة أطول».

أضع يدي على فمي، في حالة صدمة. تحلق عيناى إلى السماء البرتقالية الشاحبة وأبحث عن الطائرات. «دعونا نذهب».

ثرثرة لى تملأ الصمت ونحن في طريق عودتنا، يبدو أنها تغلبت على خجلها. أمشي إلى جانبها وهي تنظر إلي. على الرغم من كونها أعمق من عين كنان، إلا أن عينيها تتمتعان بنفس حدة عينيه. «كم عمرك؟» تسأل فجأة.

ابتسامة لطيفة تنحدر على شفتي. «ثمانية عشرة».

عبست وهي تحاول حساب فرق السن بينها وبينى. أخيرًا قالت: «كنان في التاسعة عشرة من عمره».

«أعلم ذلك».

تقول بنبرة عالمة بالأمور: «ولقد تزوجته». «نعم».

«لماذا؟ إنه دائمًا على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به. أحيانًا أضطر إلى الصراخ ثلاث مرات قبل أن يسمعني».

قالتها بنبرة جادة، فأنفجرت ضحكتي، واهتزت اكتاف كنان بضحكته المكبوتة. يندفع يوسف إلى الأمام ويمسك بطرف سترة كنان.

«لماذا تضحكين؟» لى تتساءل.

أمد يدي وأفرك خذها. «أسفة. أنت لطيفة جدًا».

يتجعد أنفها وهي تناقش مع نفسها ما إذا

كان ينبغي عليها تحليل هذا الأمر أكثر أو قبول المجاملة، حتى تقرّر قبولها.

أنظر إلى يوسف وابتسم. «أنا أحب حقيبتك، سبايدرمان رائع حقًا. هل هو بطلك الخارق المفضل؟».

للمرة الأولى منذ أن التقيته، أشرقت عينا يوسف وأوما مرة واحدة قبل أن يضغط شفثيه مغًا ويمسك بالأشرطة. إنه يكسر قلبي. من الواضح أنه أجبر على النمو فجأة لدرجة أنه متمسك بأي شيء يشبه البراءة التي فقدوها. في العادة، عندما يبلغ الثالثة عشرة سيكون قد تخلص من حقيبة ظهر سبايدرمان ليلعب بألعاب الفيديو ويقابل أصدقاءه لحضور مباراة كرة قدم في أحد الأزقة. نموّه العاطفي مثل نبات نسي الناس سقيه، لذلك فهو يحاول التقاط أي رطوبة يستطيع الحصول عليها.

حشد يخرج من الحي الذي أعيش فيه. شبان ونساء ومراهقون، كلهم يحملون لافتات وشعارات مختلفة للاحتجاج، وعينا كنان تلاحقهم. انقبض فكّه ولمست مرفقه على الفور، محاولة بيأس أن أرجعه إلي. العودة إلى الوعد الذي قطعه.

تختفي النظرة النارية عندما ينظر إلي، ويمكنني التنفس مرة أخرى. أضغط بيدي على الخاتم. تقع عيناه على حركتي ونظرته تتبع ندوبي.

منزلي يلوح في الأفق من بعيد، فأخرجت مفاتيحي. فجأة عادت أعصابي إلى الحياة عندما فتحت الباب وأدركت أنني وكنان سنعيش تحت نفس السقف.

مغًا.

أين سينام؟ ستسمح لي ليلي باستخدام غرفة نومها للمي ويوسف. ربما ستبقى معي في غرفتي،

ويستطيع كنان أن يأخذ الأريكة.

سيكون على بُعد خطوات مني. مجرد مدخل واحد. «ليلى»، أنادي عندما دخلت، وأنا أهدهد رفرفة الفراشة من معدتي. «أنا في المنزل وكنان وإخوته هنا!».

يجيبني الصمت ويقف الشعر في مؤخرة رقبتني. إنها بخير. أنا مجرد شخص يعاني من الوسواس والقلق ويتعامل مع كل فترة صمت على أنها خطر. «تعال»، أقول لكنان. «ربما لا تزال ليلى نائمة».

دخلوا وأغلق كنان الباب خلفهم. كل شيء يبدو حقيقياً للغاية. يملأ طول كنان الردهة الضيقة وينظر يوسف من خلف أخيه بفضول. يضع كنان لمى على قدميها ويطلب منهما خلع أحذيتهم بينما أذهب للبحث عن ليلى.

عندما دخلت إلى غرفة المعيشة، رأيتها تجلس على الأريكة ونظرة بعيدة على وجهها. إنها تحديق في لوحاتها البحرية وكأنها تحاول الفصل بين كل ضربة فرشاة. يتدلى شعرها على شكل أمواج فوق كتفيها، وتستقر إحدى يديها على بطنها.

«ليلى!» أقول بصوت عالٍ، وهي تقفز. «سلامة! لقد أخفتني!».

«كنت أناديك حالاً. كل شيء على ما يرام؟». تبسم، ولكن يبدو الأمر مؤلماً. «أنا بخير».

أقترب خطوة. «هل أنت متأكدة؟ لماذا تنظرين إلي هكذا؟».

وهي تدش شعرها خلف أذنها. «الحنين إلى الأيام الجميلة. هل تتذكرين عندما رسمت هذه اللوحة؟» أومات برأسها إلى لوحة البحر. «بالطبع».

تبتسم بخفة. «هل تذكرين كم كرهت الأمر عندما انتهيت؟».

«الألوان كلها خاطئة!» صرخت، وخطوط زرقاء داكنة على جبهتها وخديها. كانت ترسم لمدة سبع ساعات متواصلة، ولم تتحرك من مقعدها لتشرب أو تأكل. تم تلطيخ منزرها المطبوع بأزهار الأقحوان بمجموعة متنوعة من الألوان الزرقاء والرمادية. لقد نادتنى في حالة من الذعر، وبالكاد تمكنت من الحصول على كلمتين عبر الهاتف. «الظلال! قرف. إنها سيئة!».

ضحكت وأنا أنظر حولي في غرفة المعيشة. كان الظلاء قد وقع فوق اللاتكس الموضوع لحماية الأرضيات. تم تكديس باقي الأثاث بجوار الحائط لإفساح المجال لإبداع ليلي. وقفت في وسط الإعصار، وهي تمسك اللوحة باكية، وشعرها مربوط في كعكة فوضوية.

«هل تمزحين معي؟» صرخت وأنا أتقدم نحوها، حريصة على عدم ركل مجموعة طلاء الاكريليك المفتوحة. «انظري إلي!».

«أنا أنظر إليك بالفعل!» بكت. «لقد استغرقت سبع ساعات من عمري يا سلامة!».

أمسكت باللوحة منها ووضعتها فوق رف المدفأة. لقد جعلتها تقف في المنتصف، في مواجهتها. «لم تضيعي عمرك. أغلقي عينيك». أغلقتهما.

«فكرتي في عاصفة تقرر ما إذا كانت ستثور في البحر. في مكان ضائع. لا سفينة في الأفق. لا يوجد إنسان. تخيلي الألوان التي لن يراها أي إنسان على الإطلاق. سوف تعلو العاصفة وتمزق الأمواج ولن يكون هناك أحد ليشهدها. أو ربما لن يحدث ذلك.

ربما تنكسر الغيوم وتشرق الشمس».

أخذت نفسها عميقًا. «الآن افتحي عينيك».

ابتسمت. «لقد التقطت شيئًا لم يره أحد من قبل. خيالك هو من فعل ذلك».

التفتت نحوي، مبهتة. «شكرًا لك».

«هل تتذكرين ذلك؟» تسأل ليلى مرة أخرى من على الأريكة، فتتشكل كتلة غريبة في خلفي.
«نعم».

«لقد جعلتها واحدة من لوحاتي المفضلة». هناك شيء ما في صوتها لا أستطيع فك شفرته. شيء حزين.

«إذن لماذا تبدو حزينة جدًا؟».

تهز رأسها. «أنا لست حزينة. أريدك أن تعرفي كم أنت مذهلة. كيف تمسين أرواح الناس».

«سلامة؟» يقول كنان من خلفي، فأقفز على الفور أمام ليلى وأخفيها عنه. حواجه مجعدة وعيناه ملتصقتان بوجهي.

«كنان!» أوبّخه. «ماذا تفعل؟ ليلى لا ترتدي حجابها!».

«ليلى؟» يردد.

«نعم!» أنا ألوح له لينظر بعيدًا. «ليلى، ارتدي وشاحًا أو شيئًا من هذا القبيل».

أجابت بحزن: «ليس لدي أي شيء». «جدي شيئًا» أقول، غاضبة.

يتعمق ارتباك كنان، ثم تفرق شفاته. «سلامة».

ألقيت نظرة خاطفة على كتفي لأتحقق مما إذا كانت ليلى قد عثرت على شال أو مفرش طاولة. إنها تنقب في الوسائد، عابسة.

«سلامة». يخرج صوت كنان أكثر حزمًا، وأنا أنظر إليه.

«ماذا؟» أزمجر. «لماذا لا تزال هنا؟».

يتردّد. «لقد جئت لأنني سمعتك تتحدثين ولم يكن أحد يجيب. اعتقدت أن شيئًا ما قد حدث». الآن أنا في حيرة من أمري. «ماذا؟ أنا أتحدث مع ليلي».

يخطو نحوني بلطف كما لو كان يقترب من غزال جريح. «لا، أنت لا تتحدثين مع أحد».

ذراعي تسقطان بشدة على جانبي. «معذرة؟». يمد كنان يده إلى يدي ويفلّهما بيديه الدافئتين. «سلامة، لا أحد هنا. ليس هناك ليلي. لا أستطيع رؤيتها».

29

أضحك.

تعبير كنان مزيج من الحزن والذعر.

أقول: «بالطبع لا يمكنك رؤيتها. أنا أقف أمامك أيها السخيف».

يمرر يده من خلال شعره. «الوقوف أمامي لا يخفي الأريكة حقاً».

التفت لأرى ليلي جالسة على الأريكة المذكورة، ويداها تعانقان بطنها الحامل. شعرها بني محمر وعيناها زرقاوان محيطيتان، ويمكنني رؤيتها. أستطيع أن أشمها وأمسها.

«ليلي؟» أقول بصوت مذعور. تبتسم بحزن. «أنا أسفة يا سلامة».

خوف جديد يجرّ قلبي عبر هاوية سوداء، فأتعثر، وأنهار على ركبتي أمامها.

«كنان»، أقول بصوت أجوف. «أتوسل إليك. من فضلك قل لي إنك تراها. من فضلك أخبرني أنك ترى وجهها والفيستان الأزرق الذي ترتديه».

كنان يتحرك ورائي. يقول بهدوء: «لا أراها. إنها مجرد أريكة».

ليلي تمسّد خدي. «أنا حقيقية في قلبك».

ويهرب مني صوت مختنق. «لا. لا أنت حقيقية».

تعضّ على شفتها، والدموع تندفق. «هل تتذكرين حادثة إطلاق النار في أكتوبر؟».

أنا فارغة تماماً. شجرة محترقة.

مع استمرارها، كل كلمة تقولها تسحب خيطاً، وآخر وآخر حتى يتكشف الأمر بالكامل. «ذهبت إلى البقالة في نهاية الطريق. كان هناك قنّاص. لم

أنج. كنت أنزف، ولكنني كنت اتنفس، فحملوني إلى المنزل أثناء لحظاتي الأخيرة. لقد فارقت الحياة خارج الباب الأمامي».

ارتعشت يدي، وتناثر الألم في نظامي الهيكلي، وأطلقت صرخة مخنوقة.

لقد كنت في المستشفى عندما حدث ذلك. ماتت ليلى دون أن أكون هناك لأمسك بيدها. تتطاير شظايا من ذكرياتي، وتتسرب من خلال تلك التي اختلطتها لنفسني. لقد غدت إلى المنزل ولكن كل شيء كان انتهى. وكانت عائدة من السوبر ماركت عندما احترقت رصاصة قناص عسكري رأسها. والآخر في رحمها. أثر الدم في الخارج على الرصيف المتصدع هو دمها. كان كثيفًا، وغير راغب في الذوبان في التربة. تمامًا مثل ذلك، ثم أخذها بعيدًا عني. وتم أخذ ابنة أخي بعيدًا. وكنت وحدي تمامًا.

وتم التعجيل بدفن ليلى، في نفس اليوم. ساعدني بعض جيراني في غسلها ولقها بثوب أبيض، وذفت بجوار والديها.

لكنني نسيت كل ذلك.

استيقظت في اليوم التالي لأجدها جالسة على سريرى مع ابتسامتها الفاتنة وأنا... نسيت.

لا، لقد غيرت الواقع.

يدا ليلى على خدي وأنا ارتعش. استطيع أن أشعر بيديها. «لم يكن خطأك، هل تفهميني؟ أنت لم تخلفي وعدك لحمزة».

تنهداتي جافة، تتدفق بشكل مؤلم في صدري، ولا أستطيع تكوين كلمات متماسكة. أعيش وحدي منذ أكتوبر. لمدة خمسة أشهر ظل عقلي ينسج قصة

خيالية لإبقاء معاناتي مخفية.

أراقب وجهها، محاولة حفظه في الذاكرة. كنت بحاجة لها في حياتي. كنت بحاجة لتلك الراحة والأمان بعد أن فقدت عالمي كله. كانت لحظات السعادة الصغيرة التي عشتها معها بمثابة شريان الحياة. أعلم أنني مدينة بالكثير، لذلك قمت بتشكيل حياتي المحتملة بكل عزم. لقد سمحت لي بالشفاء شيئاً فشيئاً. إنها حقيقية بالنسبة لي مثل أي شيء آخر.

مسحت إبهامها على وجنتي وهي تبتسم، وعيونها زرقاء أكثر إشراقاً من النجمة. «أنت تعلمين أنني في الجنة. أنت تعلمين أنني آمنة وسعيدة. وكذلك الطفلة سلامة». إنها تضغط بيدها على صدري. «لديك إيمانك هنا. ستعيشين لي ولوالديك ولحمزة. ستفنين بوعدك له يا نقاد نفسك».

«لا تذهبي»، أتوشل. «لو سمحت».

تأخذ يدي في يديها وتقبل مفاصلي. «لديك عائلة الآن يا سلامة. أنت لست وحدك».

يد ثقيلة وصلبة تقع على كتفي. مختلفة تماماً عن لمسة ليلي التي تبدو أشبه بسحابة تهمس على يدي. أغمض عيني الملطختين بالدموع وأستدير وأرى نظرة كنان الحزينة.

يهمس: «سلامة. لا بأس. أنت بخير».

أنظر حولي. غرفة المعيشة فملة، والألوان غامضة. السجادة العربية بجانب الأريكة عليها طبقة سميكة من القبار. هالة باردة معلقة في الهواء. فهو يعطي المكان شعوراً بالهجر. هذا يذكرني بما كان عليه الحال عندما اصطحبني كنان إلى المنزل بعد العملية الجراحية التي أجريتها للـمى. هذا لا يشبه البيت الذي وضعت فيه ليلي وحمزة أجزاء من

روحهما. هذه ليست الطريقة التي كنت أراه بها خلال الأشهر الماضية. كان ذلك المكان أنعم وأكثر إشراقًا بلمسة ليلي.

وأدركت أنني لم أقل شيئًا لبعض الوقت. لقد أجبرتني الصدمة على التراجع إلى حيث توجد ليلي. في ذهني.

يجذبني كنان إليه، وأتركه يلف ذراعيه حول كتفي، وظهري إلى صدره. يصبح جداري الصلب الذي أتكى عليه، وترتخي عضلاتي.

تقول ليلي بهدوء: «سلامة»، ويصبح العالم أكثر إشراقًا من جديد.

تقف أمامي، تحتضن خدي، لكن لمستها بالكاد موجودة. لا أستطيع أن أشعر بها الآن.

«هذا ليس خطأك»، تقول. أتففس بصعوبة.

«حمزة لا يريدك أن تلومي نفسك أبدًا. أنا لا ألومك. لا أحد يفعل». تعبيرها حاسم.

أومئ لها.

بعد أن اقتنعت بإجابتها، أخذت نفسًا عميقًا، وعندما رمشت، اختفت.

تراخت قبضة كنان، لكنني أمسكت بيديه على الفور قبل أن أندفع نحو حضنه، أحتضنه بقوة. أدفن وجهي في سترته، وأستنشق رائحة الليمون التي تنبعث منه.

«أنت حقيقي، اليس كذلك؟» أهمس أخيرًا. «من فضلك كن حقيقيًا». يرفع رأسي والنجوم لا تزال في عينيه. يقول بحزم: «أنا حقيقي». يأخذ يدي ويضغطها على صدره. تضغط نبضات قلبه على أضلاعه وتقفز الاهتزازات إلى جلدي. أغمض عيني لبضع ثوان، مستمتعة بهذا الشعور. لا أعتقد أنني

استطيع السماح له بالرحيل أبداً.

أومات له وضممت شفتي مقاً لأمنع نفسي من
البكاء عندما أرى لمى ويوسف يختلسان النظر من
خلف الجدار.

لاحظهما كنان أيضاً وتغير وجهه، يشير إليهما
بالتقدم قبل أن يجتو على ركبتيه ليعانقهما. طوال
الوقت لم يفلت يدي؛ مقاً يجعل العناق غير مريح،
لكنه مُصقم على عدم ترك يدي.

«أين ليلي؟» تسأل لمى وهي تنظر حولها بفضول
يتحوّل إلى خوف عندما ترى عيني الدامعتين.

كنان يتجهّم وهو ينظر إلي. أوما مرة واحدة. يقول
كنان بلطف: «ليلي في الجنة».

لمى تعبس. «لكنك قلت إننا سنعيش مع سلامة
وليلي».

ينظر كنان بعيداً، ولا يعرف كيف يجد الكلمات
الدقيقة التي تشرح لها الأمر. لكن عيون يوسف
اثسغت فجأة عندما أدرك ذلك، وتوجّهت نظراته
إلي. تومض العواطف على وجهه.

في المساحة الهادئة بيننا، يراني. ليس كالفتاة
ذات الأعصاب الفولاذية التي أنقذت أخته. أو الفتاة
التي وقعت في حب أخيه وأخذته بعيداً. يرى نفسه
فني كما رأيت نفسي فيه.

يجد كنان الكلمات بعناية ولمى تستمع، أمّا أنا فلا.
أنظر إلى النافذة حيث ترفرف الستائر مع نسيم
خفيف ويمر عبرها شعاع واحد من ضوء الشمس
يسقط على البساط العربي.

30

استلقيت على الأريكة، في مكان ليلي، معظم
الأمسية. سألتني كنان إذا كنت أريد الخصوصية،
لكنني لا أريد ذلك. ليس الآن. لقد كنت وحدي طوال
الأشهر الخمسة الماضية، والتفكير في ذلك يجعل
الشعر الموجود في مؤخرة رقبتني يقف من الرعب.
وحيدة. لقد تحدثت إلى الهواء الرقيق. ضحكت مع
الهواء الرقيق. بكيت مع الهواء الرقيق. الآن أملاً
عيني وأذني بأشخاص حقيقيين يتنفسون.

تناول لى ويوسف عشاء بسيطاً من التونة
المعلبة، وكدت ألوم نفسي على سذاجتي. لم تأكل
ليلي معي قط، كنت أفترض دائماً أنها تأكل عندما
أكون في المستشفى. كان ينبغي أن يكون ذلك
واضحاً لي. كل لمساتها وتصرفاتها كانت أصداء
لتلك الموجودة في أقوى ذكرياتي عنها. كل شيء
عنها كان ذكرياتي تتضخم حتى أصبحت صلبة.

قلبي مرتاح، أعلم أنها في الجنة. يؤسفني أنني لم
أكن هناك في لحظاتها الأخيرة.

أتذكر آخر يوم قضيته معها. مع ليلي الحقيقية.

كنا نجلس على السجادة العربية في غرفة
المعيشة أمام الأريكة مباشرة، وكانت تضحك
بسخافة عندما علقت سيارتنا في الرمال في
الضواحي.

ضحكت وهي تمسك بطنها: «ظننت أن حمزة
سيقتلك لأنك خزبت سيارته». كانت في الشهر
الثالث من حملها وكان بطنها صغيراً.

ابتسمت. «لقد بالغت في تقدير عمق الرمال».

أردنا أنا وليلي أن نكون عفوتين ونقود خارج
المدينة نحو منزل جدي الصيفي. ظننت أنني

سأسلك طريقًا مختصرة، لكن انتهى بنا الأمر عالقين في خندق مع اقتراب المساء بسرعة. ومضت عيناها. «لقد أحببت ذلك اليوم. بالتأكيد كان علينا أن نتحفل صراخ حمزة علينا لمدة نصف ساعة قبل أن يسحب السيارة، لكن هل تتذكرين كيف كانت النجوم؟».

لقد كانوا معلقين في السماء المظلمة كالليمون، ناضجة للتناول، وقرية جدًا. «أتذكر».

«أمل أن تتمكن من رؤيتها هكذا مرة أخرى». ربت ليلي على بطنها فوق البطانية التي طويتها حولها. «إن لم يكن في سوريا، ففي مكان آخر».

أرادت المغادرة، لكنها كانت خائفة جدًا من تكوين الكلمات. أفرك جبهتي بإرهاق وأغوص في الوسادة التي لا تزال تحمل رائحة الأقحوان بطريقة ما. حجابي يتدلى بشكل غير محكم من رأسي، ويلتف حول رقبتني. أنا خجولة جدًا لخلعه حتى الآن. لكنني أسحب قلادتي وأدير خاتم زواجي لأعلى ولأسفل السلسلة.

«مرحبًا»، يقول كنان بصوت منخفض. إنه يقف عند باب غرفة المعيشة.

«مرحبًا».

«لمى ويوسف نائمان على سريرك». يبدو مرتبكًا، وهذا بدوره يجعلني مرتبكة أيضًا. لقد كان داخل غرفتي، ولا أستطيع أن أتذكر طوال حياتي ما إذا كنت قد تركتها في حالة من الفوضى أم لا. أتمنى أن تكون منظمة.

ركع أمامي وأنا أمسك البطانيات بشكل غريزي. يهمس: «أنا أسف جدًا بشأن ليلي».

تشكل كتلة في حلقي فأمد يدي. أمسك يده على

الفور، وأضعها على خدي، مستمتعة بلمسها الصلب. أصابعه قاسية، دليل على الحياة الصعبة، لكنها دافئة مع الدم الذي يجري في عروقه. «أنا بخير، ربما هي الصدمة، ولكن... أعتقد أنه القبول. إنها بخير، وهذا كل ما أردته لها».

يمسح على خدي، ويبتسم بخفة، وأذوب في لمسته. لكن الفكرة صدمتني.

«لماذا سأغادر الآن؟» أهمس، وهو يتوقف. «كان سببي كله هو احترام رغبات حمزة. والآن... لقد فقدت ماما ويلي. ولم أف بوعدي».

يمرر كنان أصابعه في يدي، ويضع يدي على شفتيه، ويقبلهما. «سلامة، لا يمكنك البقاء».

عيناه مليتان بالرعب.

«تعلمين أنك اختلقت خوف، ولكنك كنت تعتقدين أن ليلى لا زالت على قيد الحياة». يتمتم. «أنا قلق عليك. البقاء هنا، في المكان الذي ماتت فيه، سيجعل الأمور أسوأ. لن تتمكني من مساعدة أي شخص إذا لم تساعدني نفسك أولاً».

أغمض عيني لتواني معدودات، أتذكر هلاوسي بجانب حطام منزلي. عندما أعاد عقلي بناء حيي إلى الحياة.

يتابع كنان: «لن أغادر سوريا بدونك. لقد قلت ذلك بنفسك، المعركة ليست هنا فقط. هناك حاجة إليك في الخارج بقدر ما هناك حاجة إلي. ولا أستطيع الجلوس ومشاهدتك تنالمين هكذا ولا أعرف كيف أساعدك».

لهجته متوسلة، وتعبيره يانس. عكس موقفني عندما طلبت منه التوقف عن التصوير. لا أستطيع أن أفعل هذا معه. البقاء لن يفيد أحدا منا. وهذا

يعني أنني سأستمر في الإخلال بوعدى لحمزة. ما زلت على قيد الحياة، ويريدني أن أبقى على هذا النحو.

«حسنًا، همست.

يرتخي وجهه بالارتياح. ولكن هناك نظرة في عينيه تجعلني أعتقد أن لديه الكثير ليقوله. انتظرت، لكنه بدلًا من ذلك أخرج شيئًا من جيبه وأعطاني قطعة مطوية من الورق. «لقد رسمت لك شيئًا آخر».

قلبي يحلّق، لكني لا أفتحه. شعور غير مريح يخزّ أعصابي ويقلب معدتي. كان كنان أكثر من متفهم لأمر خوف، ولم يتزعزع أبدًا. ولكني حذرت من خوف. ليلي قصة أخرى.

«كنان، فيم تفكر؟» أسأل بهدوء. راحتاي متعزّقتان.

ينظر إليّ فتسقط تفاحة آدم. «ما مررت به مع ليلي، أفهمه. لقد تمثيت كل يوم أن أتمكن من رؤية والدي مرة أخرى. وقد رأيت ما فعله اضطراب ما بعد الصدمة بي وهلمى، وخاصة بيوسف. يمكنني التعامل مع ما أعرفه، وقد علمت نفسي كيفية المساعدة. جراح لمى، صدمة يوسف، كوابيسي. لكن يا سلامة أنا خائف مما لا أعرفه». يطلق نفسًا هشًا. «لا أعرف كيفية إصلاح هذا. لا أعرف ماذا أقول أو أفعل لمساعدتك. لقد وصلت إلى الحد الأقصى لما يمكنني القيام به».

أمشط شعره للخلف وترفرف رموشه. إنه صغير جدًا ومشتت جدًا بين ثلاثة أشخاص ودولة بأكملها. «وجودك هنا يكفي». ابتسم. «أعذك. لقد ساعدتني في اتخاذ القرار».

يبتسم مرة أخرى. مبدئيًا في البداية، ثم تصبح

ابتسامة حقيقية. «عندما نصل إلى ألمانيا، سنجد المساعدة».

يعتقد مرة أخرى أن ذلك يمكن أن يحدث. وهو قد يحدث. لذلك أومأت. أقول: «دعني أرى ما رسمته»، ثم افتحه لأرى رسماً تخطيطياً لـ... أنا. لقد رسمني على شكل شينا مع بلوزتها الصفراء وسروالها الوردي. حجابي وردي شاحب وأنا جالسة فوق جناح طائرة. وبجانبي...

«يا إلهي، هل هذا أنت؟» أنا أصرخ. يبتسم بخجل. «نعم. مثل بازو».

يأخذ قطعة أخرى من الورق. «هذا رسم آخر لقصتنا. قمت بتصميم المنزل الذي سيعيش فيه بطل الرواية. كنت أفكر أن المجتمع سيبنيه على الأشجار. مثل قرية بأكملها معلقة في الهواء».

«زراعة المحاصيل والزهور على أغصان الشجرة. لذا فإن الشجرة ستوفر العناصر الغذائية الخاصة بها للنباتات النامية!».

يشغ. «هذه فكرة رائعة». نقضي بقية المساء في بناء قصتنا ببطء، وإضافة العناصر.

يغفو كنان أمامي، رأسه يتأرجح، حتى أنهض من الأريكة حتى يتمكن من التمدد بشكل صحيح. يحتج قليلاً، لكن النوم في النهاية يثقل جفنيه. ألف البطانية حوله، وأشعر بالحنين إلى ذلك عندما كنت أفعله مع ليلي عندما كانت على قيد الحياة - وفي هلوساتي - يجعل الدموع تخر عيني.

يبدو هادئاً في نومه، وقد تلاشت خطوط القلق حول عينيه. رموشه طويلة جداً، لدرجة أنها تصل

لعظام وجنتيه.

أحذق فيه لبضع دقائق أخرى، وقلبي يتسع حباً له.
«سنكون بخير»، أنا أهمس، وتركت الليل يجسد
رغبتني. نحن نستحق ذلك على الأقل. حياة لا
نفحص فيها أسطح المنازل، ولا تشعر بالارتياح لعدم
انهيار السقف علينا أثناء الليل.

أنا وهو نستحق قصة حب لا تنتهي بمأساة.

مع سريرى والأريكة المشغولين، المكان الوحيد
المتبقي هو غرفة ليلي وحمزة. أتوقف أمام الباب،
وأضع أصابعي على المقبض. آخذ نفساً عميقاً
وأفتحه بنقرة واحدة.

موجة من الهواء البارد تستقبلني. لا تزال الغرفة
تحمل لمحات من رائحة الأقحوان الخاصة بليلى
وكولونيا حمزة. أو ربما هي هلوسة.

لا أشعل الأضواء، بل أترك قرنياتي وعدساتي
تتكيف مع الظلام. أمشي بإصبعي على الأثاث
المنسي. طبقة سميكة من الغبار تغطي غطاء
السريـر، والكومودينو، والدولاب، والمنضدة. لم تطأ
قدمي إلى الداخل منذ خمسة أشهر. لقد أصبحت
الغرفة حطاماً، تنتمي إلى الذكريات، ولا تريد أن
تُعاد إحيائها أبداً. أو ربما يكون من المستحيل
إحيائها. تماماً مثل ليلي. مثل حمزة.

أجلس على سريرهما، وأشعر براحة غريبة. وكأن
أصدقاءهما موجودة هنا. أغمض عيني للحظة وأعلم
أنه عندما أفتحهما سيكون واقفاً أمامي.

وقد كان.

النقاط الحمراء على أكتاف خوف تشبه نبات
الخشخاش في ظلالها وشكلها، وعيناه رفاقنا ثلج
زرقاوان تتلألأان في الظلام. يميل إلي بابتسامة غير

متوازنة.

«كنت تعلم»، أ همس. دون أي صدمات داخلي. لقد خلقت ندبة رأسي وكل ما تمثله من حزن، واضطراب ما بعد الصدمة، طبقات في عقلي الباطن لم أعتقد أنها ممكنة أبداً.

بهز كتفيه. «كان من الممتع للغاية رؤية إلى أي درجة ستضطحبك أوهامك».

لا أقول أي شيء. أنظر إلى النافذة على الجانب. الستائر ليست مشدودة بإحكام؛ مما يسمح لقليل من ضوء القمر بالتسلل من خلالها. قريباً بما فيه الكفاية سنكون آمنين. ولن أضطر إلى النظر من النوافذ والتظاهر بأن العالم ليس مشتتلاً.

يخطو خوف نحوي، وأعيد نظري إليه.

«بماذا تؤمنين يا سلامة؟» يسأل بهدوء. ظل يرفرف على وجهه، وابتسامة سرية تتراقص على شفتيه.

فمي يجف. «ماذا تقصد؟».

يخرج سيجارة. يومض الأنبوب الأبيض، ويصبح شبه شفاف قبل أن يعود إلى العتمة. «أنت تؤمنين بإيمانك. تؤمنين بنفسك. بكنان. بليلي عندما كانت على قيد الحياة. أنت تعتقدين أن هذه الثورة ستنتجح عندما يضحى الناس بقلوبهم».

«نعم».

يسحب نفساً من سيجارته. «هل أمنت بليلي أثناء الهلوسة؟».

أومئ.

«هل تؤمنين بي؟» تتسع ابتسامته.

أجعد حاجبي. «أنت واقف أمامي مباشرة. بالطبع أفعل».

ينقر على السيجارة، فيتساقط الرماد، لكنه يختفي في منتصف الطريق. نظرت بهيدة. ينظر إلي، لكنه يبدو وكأنه يرى أبعد مني. «أنا هنا نعم. لكنني لن أكون كذلك دائمًا».

أستقيم في جلستي. أعلم أنه لن يكون دائمًا في حياتي. لكن سماعه يقول ذلك يحزنني ويفرحني في الوقت نفسه. «كيف؟» أسأل. يرمي السيجارة بعيدًا ويتحرك نحو النافذة. «الخوف والرعب يتصاعدان في سوريا. لقد تم تعزيزهما فيك، ولهذا السبب تراني. من الأمن أن نفترض أنك لن تواجهي نفس هذه الفظائع في ألمانيا. فلماذا أتبعك هناك؟». أقف وأجمع نفسي معًا. «أنت تعني... عندما أصعد على ذلك القارب، عندما أغادر...».

«أغادر...»، أنهى كلامه من أجلي. يستدير ونحْدق في بعضنا البعض لبضع دقائق.

في هذه اللحظة، يبدو صلبًا جدًا، كما لو أنه قُطع من الليل وتحول إلى لحم وعظام.

«أين توذ الذهاب؟» أجد نفسي أطرح أسخف الأسئلة، لكن خوف لا يضحك. وجهه مهيب، وعيناه قديمتان.

يسد الفجوة بيننا، وأرفع ذقني لأنظر إليه.

يجيب: «في كل مكان»، ثم يختفي عندما أرمش.

31

ياخذني كنان إلى المستشفى في صباح اليوم التالي. لمى ويوسف يظلان في المنزل. تأكدت من أن لمى لديها زجاجة ماء بجانبها لتبقى رطبة. يبقى كنان بجانبني ويتحدث مع المرضى ويساعد الأطباء عند الحاجة. ما زلنا نتعافى من الهجوم الكيميائي وفقدنا بعض المرضى في منتصف الليل، لكن وجود كنان بالقرب مني يجعلني أتنفس بسهولة.

يشطح ذهني تلقائيًا لبعض الوقت بينما أعيد تشغيل المحادثة التي أجريتها مع خوف الليلة الماضية. في أقل من أسبوع سأتحذر منه. وفي غضون أسبوعين سأكون في أوروبا، في مدينة جديدة، محاطة بأشخاص لا يتحدثون لغتي. سأشعر بأن حمص تبعد عني سنوات ضوئية. لكنني سأشعر بكل جرح يحدث هنا، بكل قنبلة تسقط، بكل حياة فقدت. سأشعر بمعاناة حمزة، فلا أعلم أبدًا إن كان قد مات أم لا. وسيستمر هذا في إذابتي حتى أصبح عظامًا. وعندما يصل إلى العظم، سيحفر في النسيج العظمي الداخلي ويصل إلى النخاع.

ومع ذلك، فإن القتال هنا مستمر.

وانتشرت الاحتجاجات على نطاق واسع في العديد من المدن السورية: حماة، دوما، القوطة، دير الزور. كل محتج منهم غاضب من القصف المتصاعد الذي نواجهه في حمص. كفرنبل لديها أجمل وأكثر اللافئات الاحتجاجية إبداعًا. أتساءل عن حال العالم الخارجي، وكيف ينامون في الليل وهم يعلمون أننا نذبح أثناء نومنا. كيف يسمحون لهذا أن يحدث؟

انزلقت يد كنان في يدي عندما عدنا إلى المنزل، فأفرغت ذهني من كل شيء باستثناءه. أسرق النظرات إليه خلسة. لم ير شعري بعد رغم أننا

متزوجان. لم يطلب مني ذلك، ولم نتحدث أبدًا عن درجة المودة الجسدية التي نشعر بالراحة في إظهارها لبعضنا البعض هنا. قد تكون قصة حبنا غير تقليدية نظرًا للظروف، ولكن لماذا لا نستطيع استغلال لحظات السعادة الصغيرة؟ أريد أن أبني بيتًا وأجد الفرحة في حمص قبل أن تغادر. ذكرياتي الأخيرة لا يجب أن تكون مليئة بالألم والخسارة.

كنا جميعًا نجلس، نتناول عشاء بسيطًا معًا في المطبخ ونراجع قائمة ما سنحضره، عندما نظر إلي كنان وكأنه تذكر للتو شيئًا ما.

«سلامة، كنت ستدفعين لأم' ثمن مقعد ليلي في القارب، أليس كذلك؟».

تصطدم ملعقتي بالتونة التي كنت أدفعها حول طريقي طوال الدقائق الخمس الماضية. «صحيح. ليس علي أن أفعل ذلك بعد الآن».

هذه خمسمائة دولار تُضاف إلى مدخراتي. أشك في أن أم سيرغب في الحصول عليهم بدلًا من الخاتم الذهبي الأكثر قيمة الذي وعده به مقابل مقعد كنان. أحذق بحزن إلى الطاولة، وأتمنى أن أعانق ليلي الآن.

كنان يتنحنح. «ما الذي ينقصنا أيضًا؟».

أنا ممتئة لهذا الإلهاء. «شيء لمحاربة دوار البحر. واقتريحت ليلي أن نستخدم الليمون».

يقول كنان بلطف: «تبدو هذه فكرة عظيمة. سأمر على البقالة غدا وأرى ما إذا كان هناك أي شيء. لا يزال الطقس باردًا جدًا، لذا سيستمر الليمون حتى تغادر».

بعد تناول العشاء، نصلي جميعنا العشاء معًا. لمي ويوسف يسهران قليلًا قبل النوم، وأنا أذهب إلى

الحمام لأغسل وجهي.

أحاول في المرأة أن أجد الفتاة التي يراها كنان،
تلك ذات العيون الجميلة، لكن كل ما أراه هو خدي
الغائرين وذقني المدبب. اعتدت أن أكون جميلة.
كانت بشرتي ذات اللون الزيتوني، المتوهجة
بالحياة، ناعمة. شعري البني، الأعرق من لحاء شجرة
برية، كان يناسب عيني، وكان ذلك شيئاً كنت
فخورة به إلى حد ما. أشد حجابي. ينساب على
رقبتي ويتفكك شعري من كعكته. لقد تلاشى الظل
البني. يبدو باهتاً عندما يسقط على كتفي. في تلك
الحياة المحتملة، كنت سأغمر إلى نفسي، معجبة
 بالطريقة التي يتباين بها كحل العيون الأزرق مع
عيني البنيتين بلون الشوكولاتة، وكيف تظهر عظام
الترقوة الحادة من خلال فستاني المكشوف عن
الكتفين. كنان سيحمر خجلاً عندما يراني، غير قادر
على النظر بعيداً.

حسناً، على الأقل هذه هي سترتي المفضلة، أفكر
بكآبة. بلون ماروني ناعم. أتهد بعرق، وأضبط وضع
قلادتي حتى يستقر الخاتم الذهبي بشكل مشرق
فوق النسيج القطني وأجبر نفسي على الخروج،
تاركة حجابي خلفي.

تتسرب الأضواء الوامضة من غرفة المعيشة إلى
الردهة، وتتراقص الظلال على الأرض. لا بد أن كنان
أشعل الشموع، وأنا أنظر من خلف الجدار، وأشعر
فجأة بالخجل.

يجلس كنان على الأريكة، ويسند أحد مرفقيه
على ذراعها، ويحرق في لوحة البحر. يضيء ضوء
الشموع وجهه بطريقة سحرية ويفسله بالذهب.
فجأة أصبحت سترتي ساخنة جداً.

يشعر بي واقفاً هناك ويتجه بصره نحوي، ويتكسر

وجهه بابتسامة.

«ماذا تفعلين؟» يقول، تلميح من الإثارة في صوته. الليل وضوء الشموع الخافت يخفيني عن عينيه. «هل تحذقين بي؟».

«ربما». أتمسك بحواف الجدار.

يكثُر. «يجب أن أخبرك، أنا رجل متزوج الآن. زوجتي لن تحب أن تغازلني فتيات عشوانيات». تنتشر الحرارة على وجهي حتى جذور شعري. زوجة.

«ولكن إذا كنت تصزين على القيام بذلك، فما رأيك أن تفعلي ذلك عن قُرب؟» يربّت على المقعد بجانبه. أتحنح، ووضعت شعري خلف أذني، وخرجت ببطء.

تتلاشى ابتسامته، ويحل محلها شهيق حاد، ويفتح فمه.

أنفاسنا الهادئة تملأ الصمت. أجد صعوبة في النظر إليه، لذا أحرق في السجادة، متتبعًا التفافاتها. وتمضي دقيقة كاملة قبل أن يقول: «سلامة».

صوته لاهت، ويثير الرعشات على طول عمودي الفقري. أحتضن نفسي، وهو يقف، ويعبر نحوي حتى يصبح على بُعد شبر. يسيطر عطره الليموني على المساحة الصغيرة بيننا ويرفع ذقني للتحديق في عيني. قلبي أكثر حرارة من الشمس، وأفرعها النارية تنتشر على طول جهازني الوعائي.

«جميلة»، يتمتم. هناك تقديس ورهبة في لهجته. في لمستته، في عينيه، «جميلة جدًا».

أطلق ضحكة عصبية. «ليس عليك أن تمزح معي». يبدو مرتبكًا. «أنا لا أمزح». يصل إلى أعلى ليمرر أصابعه من خلال تجعيدات شعري، وترفرف

رموشي. «أتمنى أن تري نفسك بالطريقة التي أراك بها».

يحمل خصلة من شعري. «شعرك جميل». أصابعه تتسلل إلى خذي. «وجهك جميل».

يضغط بيده على صدري، فوق خاتم زواجي. «قلبك جميل».

ترتجف ركبتي وأتعثر حتى يصطدم عمودي الفقري بالحائط. يتحرك معي، ويمسك خصري.

يهمس قائلاً: «لكن يمكنني أن أكون محدّداً إذا أردت». «أنا لا أمانع»، أتلعثم.

يتلأل الحماس في عينيه الخضراء الزمردية ويطبع قبلة على جبهتي. «تعجبني جبهتك».

هذا يجعلني أضحك ويخفف من توترتي.

«تعجبني ضحكك». يبتسم. «لا، الصبح أني أحب ضحكك».

مع تنهيدة ناعمة، وضعت يدي على كتفيه، وسحبته أقرب. مسروراً يقبل أنفي. «أحب أنفك».

ثم خدودي. «أحب خذك». ثم فوق النبض في حلقي. «أحب رقبتك».

ترتعرش شفتاي عندما يحوم فوقهما، وأعدّ التواني حتى تلمسهما، لكنه يظل ثابتاً.

«ماذا تحب أيضاً؟» أهمس أخيراً وعيني نصف مغلقة.

كان يبتسم. «شفثاك».

ويقبلني. إنها قبلة ناعمة حذرة تغري مشهداً من الألوان بالدوران داخل جفني. احتضن وجهه وتخز شعيراته كفي، لكنني بالكاد أشعر بذلك مع التأثير

الفسكر الذي تركته قبلته عليّ. أعيش في هذه المظلة حيث يتوقف الزمن ويفسل كل همومي.

كلهم ما عدا واحد.

ينتزعني الندم من اللحظة فأضع يدي على صدره. يتوقف كنان، ويترك الأمر على الفور، والقلق يخيم على عينيه. يرفع يديه. «أنا أسف. لقد أخذت الأمر بعيدًا جدًا».

أهز رأسي، ونبضات قلبي مدوية. «لم تفعل». أرتجف من أنفاسي المرتعشة، محاولة تنظيم نشاطي الرنوي. لا أستطيع أن أحتفظ بسر سمر بداخلي ولو لثانية واحدة. وسيستمر في الزحف في كل لحظة سعيدة.

«يجب أن أخبرك بشيء» قلت وتحزكت للجلوس على الأريكة.

يجلس بجانبني، يطرق مفاصله بعصبية. «لقد قلت إنني قوية. وإن لدي قلبًا جميلًا».

ركزت على يدي اللتين ضغطتا على جلده منذ ثوانٍ. «لكنني لست كذلك. فعلت... شيئًا ما. لقد كان قرارًا متسرعًا، وأنا نادمة عليه كثيرًا».

يقترّب كنان. «ماذا؟».

أخذ نفسي عميقًا آخر وأخبره بكل شيء. بدعا من عدم قدرتي على تحمّل تكاليف القارب وحتى تعريض حياة سمر للخطر من أجله. لم أترك أي تفاصيل. وفي النهاية، كانت عيناى مفلقتين، والدموع الساخنة تخرق حوافها.

أهمس: «إذا كان بإمكانى التراجع عما فعلت، سأفعل ذلك».

وجدت يد كنان يدي، فضغط عليها بقوة؛ مما دفعني إلى النظر إليه. هناك ألم في عينيه، ولكن هناك أيضًا تفهم.

«هل هذا هو السبب في أنك فقدت الكثير من

الوزن؟ وفي كل المرات التي تقنيات فيها؟» يسأل.
تتشكل كتلة في حلقي. بالطبع لاحظ ذلك. «نعم»،
أقول لاهثة.

يسحبني إليه، فأسقط على صدره. «لقد سددت
ديونك»، يهمس وهو يلف ذراعه حولي ويقبل
جبهتي. «سمر على قيد الحياة، لقد تأكدت من ذلك،
وهذا كل ما يهم». «لكن...».

يهز رأسه بشدة. «نحن بشر يا سلامة. لقد خشرنا
في الزاوية، وأجبرنا على اتخاذ قرارات لا نتخذها
عادة. كنت تفكرين في ليلى عندما فعلت ذلك. أنا
لا أقول إنه كان صحيحا، ولكنك عانيت بما فيه
الكفاية من جزاء ذلك. لقد أنقذت حياتها وأنقذت
الكثير والكثير بعدها».

أبتلع تنهيدة وأدفن وجهي في القماش البالي
لسترته، وأستنشق رائحته بعمق.
يرفع رأسي إلى أعلى، ويعيد شعري إلى الخلف،
ولمساته توقظ الفراشات في معدتي. يبدو مهيبا. «لا
بأس».

أضغط جبهتي على صدره وتهرب مني تنهيدة
مريحة. «أنا أحبك»، أغمغم.

32

«سأتحدث مع عمي اليوم لأرى متى سيأتي إلى سيراكيوز»، قال كنان وأنا أهرع معطف المختبر الخاص بي. «سوف أتحقق من البقالة في نهاية الشارع، وإذا لم يكن لديهم أي ليمون، سأذهب إلى البقالة بجانب المستشفى».

«حسنًا. كن حذرًا». أكبج التثاؤب. لقد غفونا على الأريكة في الساعات الأولى من الصباح عندما لم تغد أجسادنا الفستزفة قادرة على مقاومة النوم بعد الآن. لكنني تمكنت من تناول شطيرة التونة الصغيرة التي أعدها لي كنان وقت الإفطار. وهذا وحده أعطاني دفعة من الطاقة.

يقبل خدي. «سوف أراك بعد مناوبتك».

عندما وصلت إلى المستشفى، طلب مني الدكتور زياد التحقق من بعض المرضى الذين تضررت أنظمتهم التنفسية بشدة من السارين. ومز عدد قليل آخر أثناء الليل، معظمهم من الأطفال، وكانت وجوههم لا تزال متجمدة في تعابير متحجرة. أبتلع وجبة الإفطار مهذدة بالجوع مرة أخرى من معدتي. أقوم بتوزيع المياه وإعطاء المضادات الحيوية والأدوية المسكنة حتى الظهر.

عندما تعثرت أخيرًا في الردهة الرئيسية، وجدت د. زياد وحيدًا، وهذا غريب بالنسبة لي.

«يا دكتور هل كل شيء على ما يرام؟» أسأله. لم أخبره أنني سأرحل، ولا أعرف كيف أعبر عن ذلك بالكلمات، والذنب يمزق روحي.

ملامحه عابسة. «قد أضعف الهجوم الكيميائي دفاعات الجيش السوري الحر بشكل كبير. ويجدون صعوبة في الصمود أمام دبابات الجيش».

يختفي الهواء من رئتي. «ماذا يعني ذلك؟».

«هذا يعني أننا بحاجة للصلاة. الجيش السوري الحر يبذل كل ما في وسعه، لكن ليس لدينا أحد سوى الله الآن».

أغمض عيني، وشفطتني تنضرعان بالدعاء. الدكتور زياد يبتسم بحزن. «إذا متنا يا سلامة، على الأقل نموت ونحن نفعل الصواب. نموت شهداء».

وسأرى ليلي والطفلة سلامة وماما وبابا مرة أخرى. وأمل أن يكون حمزة هناك كذلك.

أهمس: «الموت لا يخيفني يا دكتور. ما يخيفني أن نعتقل ونحن على قيد الحياة».

يرتجف، ويومئ برأسه. «إن شاء الله لا يصل الأمر إلى ذلك».

ينادي عليه مريض فيبتعد، ويتركني غارقة في أفكاري. من الواضح أن الدكتور زياد يعتقد أنه ليس لدينا سوى أيام، إن لم تكن لحظات، من الأمان الهش قبل أن تنهار الجدران.

لا بد لي من العثور على أم. أفتش جميع غرف المرضى قبل أن أجده عند الباب الخلفي وهو يمضغ عود أسنان.

«أم» أقول، يستقيم. «ماذا؟».

تنفست الصعداء. «هل سمعت ما يقوله الناس؟».

لا بد أنه سمع كلامهم. أعضاء من الجيش السوري الحر يعيشون بيننا. أعطائي نصف هزة. «لقد سمعت ما يكفي».

«ماذا لو حرق الجيش قبل الخامس والعشرين؟» أسأل بصوت منخفض خوفاً من أن أفتح الباب لهم بنفسني.

يتنهَّد. «سلامة، أنا الشخص الذي يوفر القارب. أنا لست رجلاً عسكرياً أو شخصاً له نفوذ. سأخسر الكثير من المال إذا حدث ذلك، لكن بعض الأشياء خارجة عن إرادتي. هذا واحد منهم».

«ألا يمكننا المغادرة مبكراً؟» أسأل. «مثل اليوم؟». يهزُّ رأسه. «أعرف الحراس المتمركزين على الحدود. أعرف توقيتاتهم ونوباتهم. أولئك الذين يسمحون لنا بالمرور سيكونون هناك في الخامس والعشرين. نحن نخاطر بحياتنا كلها إذا راهنا على حراس لا أعرفهم. هناك من سيأخذك أنت وأموالك. ولا يوجد قانون يحاسبهم». ومضات من الرعب الذي أظهره خوف لي في اليوم السابق للاحتجاج تظهر أمام عيني وأكنم شهقة مذعورة.

تقدِّم أم نحوي، ويدهشني أن أرى وجهه مليئاً بالشفقة. «سلامة، لقد فعلت كل شيء. والباقي على الله. القدر. إذا كان من المفترض أن تكوني في ميونيخ، فسوف تكونين كذلك، حتى لو قام الجيش بأكمله بتمزيق هذا المكان. وإذا لم يكن كذلك، فلن تفعل ذلك حتى طائرة خاصة تهبط في وسط ميدان الحرية لتأخذك بعيداً».

لقد فوجئت. هذه كلمات أو من بها في أعماقي، كما يفعل كل مسلم. القدر له خيوطه، لكننا نحن من نلفها معاً بأفعالنا. إيماني بما هو مفترض لا يجعلني لاعباً سلبيًا. لا، أنا أقاتل وأقاتل وأقاتل من أجل حياتي. حاربت ليلي من أجلها. كنان يقاتل من أجله. ومهما حدث، فإننا نتقبل النتيجة، ونعلم أننا فعلنا كل شيء. لم أسمع هذه الكلمات منذ فترة، ويهز شيئاً ما بداخلي عندما أسمعها من أم من بين جميع الناس.

«شكراً لك»، أهمس. فكرت في إخباره أنه سيكون

هناك أربعة أشخاص فقط على هذا القارب، لكن بطريقة ما لا يمكن للكلمات أن تتجاوز ضباب الحزن.

يذكرني قائلًا: «مسجد خالد، العاشرة صباحًا. إنها ثلاثة أيام فقط».

أومأت، وشعرت بأن عزمي يقوى. كلمات أم تدعمني لبقية اليوم حتى تضعف ركبتاي من الإرهاق.

عندما تصبح السماء برتقالية زاهية، أجلس على درجات المستشفى المكسورة، أترك لأفكاري أن تجد بعضها البعض. هناك صفاء في هذا الصمت. ولحسن الحظ، لم يقع ضحايا من القنابل أو الهجمات العسكرية اليوم. يثير ذلك اضطرابي لبضع ثوانٍ، حيث لم نعيش توفُّعًا أبدًا عن الهجمات من قبل. تهمس لي فكرة فظيعة مفادها أن الجيش ربما يخطط لشيء ما، لكنني أبعدتها عندما أرى كنان يخرج من المستشفى.

يضيء عندما يراني، ولا أستطيع إيقاف الابتسامة على وجهي. يجلس بجانبي، ويمد ساقيه الطويلتين أمامه، وأسند رأسي على كتفه.

«يوم طويل؟» يسأل. «نعم».

يشبك أصابعه في أصابعي ويرفع يدي إلى شفتيه. أنفاسه دافئة فوقها، ويقبل ندياتي.

«شكرًا لعملك الشاق. شكرًا لك على إنقاذ الأرواح»، يهمس، وعيني تذرغان بالدموع. لقد شكرني الناس من قبل، ولكن كان ذلك دائمًا عندما كان الرعب مرتفعًا، ولم تكن لدي القدرة أبدًا على استيعاب كلماتهم. لم يقل لي أحد ذلك قط خلال لحظات

الهدوء. لا أحد يعرف الفظائع التي أمرُ بها، والمعركة التي أخوضها كل يوم، رأني حقًا وقال تلك الكلمات. روعي تتسع بحبه.

يلاحظ الدموع وينزعج. «ماذا حدث؟ هل قلت شيئًا خاطئًا؟».

أهز رأسي، وأفرك عيني. «لا. أنا بخير». لا يزال يبدو قلقًا، لذا أضع ذراعي حول كتفيه وأعانقه. «أنا حقًا بخير. لكنك جعلتني أفكر في شيء ما».

«ماذا؟» يجيب وصوته مكتوم في كتفي. «أعتقد أنني أريد البقاء في المستشفى خلال الأيام الثلاثة الباقية. لأساعد أكبر عدد ممكن من الناس قبل أن أغادر».

يميل إلى الخلف. «هل تعنين البقاء هنا في الليل؟».

أومئ. «ليس عليك البقاء معي. لمي ويوسف سوف يحتاجان إليك».

يطرق أصابعه. «أنت تعلمين أن الجيش يقترب. إذا تمكّنوا من الوصول إلى الجزء الخاص بنا من المدينة، فسوف يأتون إلى هنا على الفور، و...»، يتلعثم ويصمت.

أبتسم وأمس خده وأتذكر ما قاله لي الدكتور زياد هذا الصباح. «كنان، سوف يذهبون أيضًا إلى كل منزل، ويكسرون الباب، ويسرقون، ويدمرون، ويغتصبون، ويقتلون، أو سوف يعتقلوننا. أنت تعرف هذا. لذا، إذا كان من الممكن أن نموت، أريد أن أموت في المستشفى وأقوم بشيء للمساعدة. لا اختبئ في منزلي».

أعرف أن ليلى ستكون فخورة بي. أتمنى أن

أخبرها.

ينظر كنان بعيدًا وترفرف رموشه. أعلم أنه يحبس الدموع من ضيق شفثيه.

«حسنًا»، قال أخيرًا وأخذ يدي بين يديه. «لكننا لن ننفصل. سأحضر لى ويوسف هنا وسنبقى معًا حتى وصول القارب».

أنا أقع في حبه أكثر. كنت خجولة جدًا من أن أطلب منه البقاء معي. لم أكن أريده أن يختار بيني وبين إخوته. وإخوته جزء منه. إنها مسؤوليته، وأنا وافد جديد إلى عالمه، وأحاول العثور على مساحة تناسبني. لكنه وفر لي مساحة أكثر من كافية.

«نبقى معًا»، أوافق.

طبع قبة سريعة على جهتي قبل أن يقفز على قدميه. «سأعود خلال ساعة».

أنا أمسك بيده وأضغط عليها. «كن حذرًا».

يبتسم. أفتقد يده بمجرد أن تفارق يدي، وأراقبه حتى يعبر البوابة ويستدير ليلوح لي قبل أن يختفي خلف الحطام.

أتنفس الصعداء. أنظر إلى السماء وأرسل له دعاء سريعًا. تهمت: «ليلي»، وأنا أشاهد النجوم الأولى تبدأ في الوميض. «ماما. بابا. أتمنى أن يكون حمزة معكم. أتخيل أنكم تجلسون بجانب بعضكم البعض وتضحكون وتأكلون وتشربون. أنا أحبكم وأفتقدكم كثيرًا. لكني... لا أريد أن انضم إليكم بعد. أريدكم أن تقابلوا كنان لاحقًا. عندما تكبر أنا وهو ونقضي العمر معًا. لا يزال لدي المزيد في داخلي. لا يزال بإمكانني الاستمرار. أعلم أنني أستطيع. لأنني أعلم أن هذا ما تريدون مني فعله».

أخذ نفسي عميقًا وأشعر بالسكينة تستقر في قلبي.

كوني على بُعد شعرة من الموت يملؤني بالهدوء
الذي لم أكن أعلم أنه ممكن. لقد قمت بدوري.
سأواصل النضال من أجل ما أستحقه، ومهما حدث،
فأنا موافقة عليه.

يداعب النسيم براعم أوراق الأشجار، وأشعر
بخوف يجلس بجانبني.
هو لا يقول شيئاً، ولا أنا أيضاً.
بعد بضع دقائق، نهضت ورجعت إلى المستشفى.

33

احتج لى ويوسف على اضطرارهما إلى الانتقال مرة أخرى، حتى وعدهما كنان بكل الحلول التي يريدانها عندما نصل إلى ألمانيا. والآن يستقزان في إحدى الغرف التي تم تخصيصها للأطفال الذين ينتمون لأهاليهم إلى الشفاء في المستشفى.

الأطفال هناك نائمون بالفعل، بعضهم يصرخ من حين لآخر، وآخرون يركلون أرجلهم بلا هوادة. يجد كنان مساحة في الزاوية للى ويوسف. تففو لى بمجرد أن يضعها كنان على البطانية. يرقد يوسف بجانبها وعيناه كبيرتان مثل عين البومة.

ينظر إلى وأنا أبتسم. فينظر بعيدًا، وحتى في الضوء الخافت الذي يتسلل عبر الباب المفتوح أستطيع أن أرى احمرار وجهه.

يتأكد كنان من تغطيتهما ودفنهما قبل أن يغلق الباب خلفه.

«ألا تشعر بالنعاس؟» أسأله وأنا ألقى نظرة خاطفة على ساعة الردهة.

الساعة تقترب من العاشرة مساءً.

يهرأ رأسه. «لا أستطيع النوم بينما زوجتي تعمل». يردد تلك الكلمة مرة أخرى. زوجة.

لقد لاحظ تعابير وجهي المرتبكة وابتساماتي. يكرر «زوجتي».

أتوقف، أعطي وجهي بيدي، غير قادرة على النظر إليه دون أن تشتعل فيه النيران. يمسك معصمي، ويسحبهما بعيدًا.

يهمس قائلاً: «انظري إلي».

«إذا فعلت ذلك، قد يتوقف قلبي»، أجبت وأنا

أحدق في الأرض، ثم أنظر من فوق كتفه ومن حولنا. «لا يمكننا أن نفعل هذا هنا. يمكن لأي شخص أن يمر بجوارنا».

يستجيب بأخذ يدي والسير بنا عبر الردهة. أشعر وكأنني من المفترض أن أشعر بما كنت سأشعر به في حياتنا المحتملة. مراهقة تتسلل مع الصبي الذي تحبه، وقلبه يتسارع. نصل إلى مخزن الأدوية ويغلق الباب خلفنا، ويسندني إليه.

لا يلمسني، ولا يرفع ذقني، لكنه يبعد عني قليلاً. «هل تنظرين إلي الآن؟» يسأل. صوته منخفض وقوي، يرقص على بشرتي. أنظر إليه وألتقط الحماس في عينيه. نظرة خاطفة على شخصيته عندما لا تجبره الثورة على بناء درع وإخفاء أجزاء من نفسه. هذا الإدراك يجعلني أضحك، ويرفع حاجبيه. «لم يكن هذا هو الرد الذي كنت أتوقعه». «أنت تغازلني، أليس كذلك؟» أضحك ضحكة مكتومة.

يهرأ رأسه وهو يضحك. «هل أدركت هذا الآن؟». أعطيه نظرة فضولية.

يقول: «سلامة، أنا أتغزل بك منذ أن التقينا. أعتقد أنه كان خفيًا بعض الشيء».

«حسناً، ماذا لديك أيضاً في جعبتك؟» أسأل، وأنا أشعر بالجرأة في خصوصية هذه الغرفة. هذا المكان الصغير موجود خارج الواقع. كما نفعل في كل أوقاتنا معاً.

تلعب ابتسامة سرية على شفتيه، ويخفض رأسه. أغمض عيني بشكل غريزي، في انتظار أن تلمس شفاه شفتي، لكنه لا يقبلني. وبدلاً من ذلك، وضع جبهته على الباب بجوار أذني مباشرة وجسده

ملامس لجسدي.

بطريقة ما يبدو هذا أكثر حميمية.

كان الجو حارًا للغاية تحت سترتي، ضغطت نفسي بقوة إلى الباب حتى أتأكد من أنني على وشك التوحد معه.

يهمس، وأكاد أتهدد: «لقد فكرت كثيرًا في الوقت المسروق منا». صوته قريب جدًا. «إذا لم تكن الأمور كما هي، لكنا متزوجين منذ فترة طويلة. كنت سأخذك إلى جميع أنحاء سوريا في رحلة برية. سنقوم بزيارة كل مدينة وقربة. نشاهد التاريخ الذي يعيش في بلادنا. كنت سأقبلك على شواطئ اللاذقية، وأقطف لك الزهور في دير الزور، وأخذك إلى منزل عائلتي في حماة، ونتنزه تحت أنقاض تدمر. كان الناس سينظرون إلينا ويفكرون أنهم لم يروا شخصين واقعين في الحب هكذا في أي وقت مضى».

لا أستطيع التحرك. لا أستطيع التنفس. أمل ألا يتوقف أبدًا عن الحديث.

قال وهو يضع جبهته على كتفي: «أردت أشياء كثيرة». تقطر الكأبة من لهجته. «ولكن مقابلتك، وحبك... لقد جعلتني أدرك كيف يمكن إنقاذ الحياة. أنا نستحق أن نحظى بالسعادة في هذه الليلة الطويلة».

أخيرًا، انحنى للخلف وحنق بي بحنان لدرجة أنني قد أبدأ في البكاء.

يهمس قائلاً: «شكرًا لك لكونك نوري».

وهذه المرة، لا أنتظر منه أن يقبلني.

أشبك ذراعي حول رقبتة، وأسحبه إلي. القبلية حلوة، وتملؤني بالأمل في مستقبل حيث سأستيقظ

بين ذراعيه، ولا توجد كوابيس تسحبنا إلى الأسفل.
نحن فقط في منزل حولناه إلى بيت به حديقة
مزهرة ودفاتر رسم نصف مملوءة.

يرفع ذقني إلى الأعلى، ويحرق بعمق في عيني،
ويقول: «سنكون بخير».

أهمس: «إن شاء الله».

نمرُ بالدكتور زياد عندما ندخل إلى الردهة
ممسكين بأيدي بعضنا البعض. لم يقل أي شيء،
فقط ابتسم لنا وهرع للاطمئنان على المريض.
أعتقد أن رؤيتي أعتمد على شخص ما للحصول
على الدعم هو ما يجعله يشعر بالارتياح.

في تلك الليلة، أصبح كنان مساعداً لي في
المستشفى. إنه سريع التعلم، وبعد أن أوضحت له
كيفية تغيير الضمادات دون إهدار الشاش؛ أصبح
قادراً على القيام بذلك بنفسه.

نلقي نظرة خاطفة على بعضنا البعض، ونبتسم
بحماسة قبل أن نعود إلى عملنا، وهذا هو الشعور
الأغرب.

عندما يتباطأ الإيقاع في المستشفى، نجلس أنا
وكنان على الأرض مقابل أحد الجدران، وقد تغلب
علينا الإرهاق أخيراً. تم شغل كل الأبهة، فأوماً
لي بأن أضع رأسي على حجره، وأنا أشعر بالتعب
الشديد بحيث لا أشعر بالارتباك. أقع في حالة من
الانفصال عن الواقع، لست نائمة تماماً ولا مستيقظة.
في مكان ما بينهما، يبدو الأمر كما لو أن عقلي
وجسدي غير قادرين على الراحة الكاملة.

في الساعات الأولى من الصباح، يهزنا جميعاً
صوت اصطدام قوي ليس بعيد. مثل سقوط
الشظايا. مثل بندقية دبابة تخترق المبنى. أقفز على
قدمي، وقلبي في حلقي، واستيقظ كنان وهو يلهث.

«ماذا يحدث؟» يسأل بعنف. «لا أعرف».

تحطم آخر. هذه المرة أقرب، والمرضى الذين يستطيعون التحرك يتدافعون ويهربون إلى الجدران ويتعمقون في أروقة المستشفى. أطفال يبكون، وأصوات مذعورة تتردد في السقف.

«كنان، انهض»، أقول بصوت أجوف. الإلحاح يتضخم في قلبي. «الآن! علينا أن نجلب لى ويوسف».

أيا كان ما يحدث في الخارج، سيأتي إلى هنا، وعندما يحدث سيترك المستشفى في حالة خراب.

34

أمسك كنان بيدي، ولكن قبل أن نتمكن من اتخاذ خطوة، انفتحت أبواب المستشفى ودخل خمسة جنود. تفوح من زيهم العسكري الأخضر رائحة القتل، وبنادقهم معلقة على صدورهم العارية من علم الجيش السوري الحر. يقوم واحد منهم بإخراج مسدس ويطلق النار على المريض بطريقة الإعدام، فتاة صغيرة ذات رقعة عين وربطتي شعر غير متطابقتين.

توقفت في مكاني وأمسكت بذراع كنان. نحذق بينما تنهار الفتاة الصغيرة، وقد ابتلعت بركة من الدم جسدها الصغير، وصبغت شعرها الأسود القصير.

امرأة تصرخ، وصوتها يمزق أحشائي. تسقط على ركبتيها بجانب الفتاة وتعانقها بقوة، بينما تتوشل إليها أن تظل على قيد الحياة.
«تؤبوريني!». إنها تنتحب.

طلقة أخرى، ويسقط جسد الفتاة على الأرض بصوت ارتطام منخفض بينما تنضم إليها والدتها.

«هل يريد أي شخص آخر أن يقول شيئاً؟» يصرخ الجندي. يتم كتم النحيب المذعور على الفور، ويملاً الأنين المكتوم الفضاء. بالكاد أستطيع التركيز على خفقان قلبي وإجبار نفسي على التفكير. أين بقية مجموعته؟ لن يرسل الجيش النظامي أبداً خمسة جنود فقط إلى أراض تحت سيطرة الجيش السوري الحر. هل هم خلفهم مباشرة؟

ينتشر الجنود ويتبخترون بين المرضى، ويضربون بعضهم على وجوههم من حين لآخر، أو يغرسون أعقاب بنادقهم في جروحهم.

«هل هذا يؤلم؟» يسخرون. ادعو الله أن يصل الجيش السوري الحر إلى هنا قبل أن ينضم إليهم بقية الجنود.

تشدد ذراع كنان تحت يدي وأعلم أنه يفكر في لمى ويوسف. إنهم في أسفل القاعة ومن المؤكد أنهم استيقظوا مع الأطفال الآخرين.

إنه يقترب مني ببطء. «اخلعي معطف المختبر الخاص بك»، همس بهدوء لدرجة أنني بالكاد أتمكن من النقاط الكلمات.

الرعب يجفد دمي. كوني فتاة وصيدلانية يجعلني هدفًا من نوع خاص. سأثهم بمساعدة المتمردين وعلاجهم. سأعرض للتعذيب بنفس الأدوات التي أستخدمها لإنقاذ الناس. سأعرض للاغتصاب.

يتحرك كنان عمداً حتى أقف خلفه، وظهره يغطيني. أمسك بأكمامي وأسحبها للأسفل قليلاً.

لكن بينما أفعل ذلك، لمحت عيني فتاة صغيرة في السابعة من عمرها تقريباً تتكى على الحائط بينما يتقدم أحد الجنود نحوها. ذراعها موضوعة في حقالة، ومجموعة من الضمادات القديمة ملفوفة حول رأسها، وعيناها منتفختان من الخوف. في وجهها أرى أحمد. أرى سمر. أرى كيف سيحدث هذا مع لمى ويوسف. أرى فتاة كانت آخر قطعة صغيرة من براءتها على وشك أن تتمزق إلى أشلاء.

وبدون تفكير أتحرك.

أمسك بحوض مهمل وألقيه على ظهر الجندي. يصيبه على الفور ويسقط على الأرض. يخيم الصمت على الردهة، ولا يكسره إلا نخر ألم الجندي. ذراعي ترتجف عندما يستدير الجندي ببطء.

أفضل لي من الفتاة الصغيرة.

تدور نظراته فوقى وتنتشر الرعدة فى جميع أنحاء جسدى.

«هل رميت ذلك للتو؟» ينبج.

عند سماع صوته، يضع كنان يده على يدي على الفور ويسحبني إلى الخلف، لكن الجندي أسرع. أمسك بذراعي الأخرى، وانتزعني من قبضة كنان، والتفت لألقي نظرة على الصدمة والرعب في عيني كنان عندما ارتطمت فجأة بالحائط.

يضغط ساعد الجندي على حلقي ويثبتني بقوة في مكاني، حتى لا أخنق.

«هل تعتقدين أنك شجاعة حقًا، هاه؟» يقول وهو ييصق الكلمات.

من طرف عيني أرى كنان مقيّدًا بين جنديين. يتلوى وجهه بالغضب، وتندفق اللعنات من فمه. يضرب أحدهم وجه كنان بعقب بندقيته، فيتفجر الدم من خده. أحاول الوصول إليه، لكن الجندي يدفعني نحو الحائط. من الصعب بما فيه الكفاية أنني لا أستطيع الثّنفّس قليلًا.

«أنتَ تعملين هنا؟ هل تعالجين هؤلاء المتمردين؟ كل هؤلاء الخونة؟» يسخر.

«ابتعد عني» أزمجر، دون أن أعرف من أين تأتي الشجاعة. لكنني لا أخاف الموت. لقد أظهر لي خوف أسوأ التّناج. وما يقف أمامي ليس إنسانًا، بل حيوان في جلد إنسان.

يضحك الجندي ويتركني. قبل أن أفهم تمامًا ما يحدث، أشعر بالم حاد في جانب رأسي وضدّمت بالحائط مرة أخرى. أتأوّه، وأغمض عيني، محاولة أن أتمكن من التغلب على الضربات التي تصيب عقلي. استغرق الأمر مني بضع ثوانٍ لأدرك أنه

ضربني بالجزء المعدني من بندقيته. أمسح ذراعي على شفتي فأجدهما ملطختين بالدم. كان التنفس مؤلعا، والهواء يدخل ويخرج بأزيز. يؤلمني أكثر أن أنظر إلى كنان وأرى الخوف الخالص في عينيه.

«لا تخبريني ماذا أفعل»، سمعت الجندي ينفجر. «سأقتلك!» كنان ينفخ والدماء تقطر على الأرض.

يستدير الجندي نحوه، ويرفع بندقيته نحو صدغ كنان، وأنا أصرخ.

«لا!».

يتوقف، والمسدس لا يزال مضغوذا على جبين كنان. وجه كنان لا يظهر أي خوف. ليس على نفسه. لكن علي أنا فقط. الجندي ينظر إلي. «لا؟».

أحرق فيه بعينين مليئتين بالكراهية، تقطران بالدموع.

«ثم ماذا عن هذا؟» تلمع نظراته. «أن أترك صديقك يعيش حتى يتمكن من مشاهدة هذا، أليس كذلك؟».

الغضب يخلق حلقي.

«ليس لدينا وقت لهذا»، يقول صديقه بصوت منخفض، وهو يسحب كنان إلى الخلف وهو يكافح. يسب كنان فيضربه الجندي على وجهه. «قد يكون المتمردون قريبين. الجيش لن يصل إلى هنا نحن بحاجة ألا نضيع الوقت حتى...».

«لدينا وقت»، يقاطعه الجندي ويمسك بي. ذهني ينفجر بمجرد أن يلمسني، وأتف نحوه، وأركله.

ويشاهد المرضى الذين يقفون خلفنا هذا المشهد المروع بأعين مرعوبة، ولا يجروا أحد منهم على التحرك. نقول أي شيء. وأنا لا ألومهم.

يدفع ماسورة البندقية تحت ذقني. نفوح منها رائحة الدم والدخان. أسعل.

«اذهب إلى الجحيم» أزمجر رافضة أن أمنحه الرضا برؤيتي أرتعش.

يبتسم، ويدخل فم البندقية إلى عمق أكبر، حتى كادت أن تثقب جلدي.

قبل أن أتمكن من رمش، سقطت البندقية على الأرض، وأمسك بذراعي في قبضة الموت. إنه أكبر حجفاً، ويتغذى بشكل جيد، بينما أنا أعيش على الأبخرة. يدفعني على سرير فارغ وأصرخ وأخذش وجهه. يمسك معصمي بيد واحدة، ويشل حركتي، واثكأ نصفه على أعلى جسدي، في مواجهتي. تفوح منه رائحة السجائر والعرق.

«دعها تذهب!» يصرخ كنان رغم توجيه البندقية نحو رأسه. يأتي جندي ثانٍ من خلفه ويضرب بندقيته على ظهر كنان.

أبصق في وجه الجندي. لعابي لونه أحمر وهو يسيل على خده، ولا يؤدي إلا إلى ضحكه، يمسحه بينما يده الأخرى تشد حول معصمي.

يقول: «اضربه مرة أخرى»، فيتقدم كنان للامام بقوة ضربة أخرى، وهو يلهث من رنتيه المتألمتين.

«لا تستسلمي يا سلامة». صوت خوف يقطع ذهني. لا أستطيع رؤيته، لكن لهجته حادة، مما دفعني إلى جرعة من الأدرينالين لإزالة الذعر الضبابي. «إياك!»

«لقد مر وقت طويل منذ أن خاض شخص ما معركة. أنا أحب ذلك»، سخر الجندي. يسرح بيده الحرة على طول جسدي. يفسد الاشمنزاز دمي، فأرفع ركبتي بيننا، لكنه يتوقع ذلك، ويضغط بركبته على فخذي حتى تتفجر النجوم في عيني من الألم. يتشقق فخذي من الألم وأنا متأكدة أن الجلد مصاب بكدمات.

أسمع رنينًا معدنيًا على طول الحزام، وسحبًا ينسحب للأسفل، ويبدأ الواقع في الظهور. التفث في مكاني، وأصرخ حتى تجفد حلقي. يتجاهلني، وعيناه ممثلتان بالبهجة الخبيثة وفمه مغلق، ويدخل يده تحت سترتي، ويلمس بشرتي العارية. ابتلعت صرخة، وكرد فعل على غريزتي، ضربت رأسي برأسه. لا مجال للصدمة... أن تشل أطرافني عندما يشتعل الغضب في داخلي. الغضب يغذيني. الأمان على بُعد يومين. لقد فقدت ماما وبابا وحمزة وليلى وبببي سلامة. لقد تعلمت رؤية الألوان ووجدت نسختي الخاصة من السعادة. أنا مدينة لنفسي.

إما أن أموت أو أذهب إلى ألمانيا، لكن هذا الحيوان لن يمسنني.

يتعثر للخلف، يعوي من الألم ويمسك جبهته بينما أنا أسقط على السرير، ورأسي يسبح. هل هذا يكفي؟ أفكار ضبابية تتساقط مثل العسل، سمكة ومشوشة. يرعد دمي على جمجمتي، ويضرب العظام. كل ذرة من الطاقة تتخلى عني. لا أستطيع التفكير أو التحرك، وأخشى أن يطلق النار على كنان إذا حاولت أي شيء. صرخات كنان وصياح الجنود تخف ببطء وتغيب رؤيتي.

ولكن بمجرد أن استقر الوضع، رأيت الجندي يغلي، وقد اختفت كل التلميحات عن روح الدعابة لديه. كدمة غاضبة تتضخم على جبهته. أضحك تقريبًا. أخرج سكينًا من جرابه وهزني من كتفي قبل أن يضغط على حافته الحادة تحت النبض في رقبتني. «يجب أن تتم إهانتك مثل العاهرة»، زمجر وسحبها على طول حلقي.

الوقت يتباطأ. ينهار شيئًا فشيئًا عند الخيوط

الحمراء، ومع كل خيط أتذكر كرم الزيتون. كيف قبل أيام فقط، تم ذبح الأطفال بهذه الطريقة بالضبط. كيف يجب أن يكونوا قد توشلوا وصرخوا من أجل حياتهم. أطفال بريئون.

أفكر في بابا وحمزة وكيف أنهما يفضلان الموت ألف مرة على رؤيتي وأنا أعذب بهذه الطريقة.

أفكر في ماما ويديها الناعمتين وهما تمسحان شعري للخلف، وتناديني بعينيها وقلبها.

أفكر في ليلي وضحكتها الأكبر من الحياة، وعينيها المحيطيتين.

وأعتقد أن هذا هو الأمر. هذه هي الطريقة التي أموت بها. أخيرًا سأشم رائحة الإقحوانات.

لكن يديه ارتختا وسقطت مرة أخرى على السرير. كل شيء يصبح أسود.

أستيقظ وأنا أشعر بهزة، شيء ثقيل على حلقي، وأحاول بيأس إزالته.

«توقفي!» يقول صوت منزعج، ويمسك أحدهم بذراعي. «احذري يا سلامة!».

أحدق في المشهد حولي، ويتبلور محيطي أمامي. ظهر وجه كنان القلق.

«أنت بخير يا عزيزتي»، يتمتم «أنت بخير».

أتنفس بطريقة لاهثة. هناك نسيج خشن حول حنجرتي. إنه شاش. تنقبض معدتي عندما أتذكر

مدى السهولة التي قطع بها نصل الجندي جلدي. يشقني. أهز رأسي رغبة في اختفاء الصورة.

يدي تطير إلى رأسي العاري، والصدمة تسري في داخلي.

«حجابي»، ألهث وأنا أرتجف.

يتردد كنان قبل أن يأخذ يدي بلطف. «دكتور زياد ضفد جرحك. كانت بحاجة إلى غرز صغيرة. أنت في مكتبه ولا يوجد سوانا، لا تقلقي. لن يدخل أحد». يزفر بصوت عالٍ. «الحمد لله أنك بخير».

أنفاسي مستقرة. أدير رأسي ببطء وأنا أتفحص الغرفة، التي كانت فارغة إلا مني ومن كنان. مكتب الدكتور زياد، الذي لا يزال مليئًا بالأوراق الصفراء وبعض الحقن، مدفوع إلى الحائط، والسرير الذي أستلقي عليه في المنتصف. الباب مغلق وكذلك الستائر. الوقت ليل.

يجلس كنان على الكرسي البلاستيكي بجانبني، وقد بدا على ملامحه الارتياح والإرهاق. محجر عينه اليسرى قرمزي عميق. وهناك جرح في شفته السفلية تفت خياطته، وتتناثر بقع من الكدمات الناشئة بلا مبالاة على وجهه. عيناه زجاجيتان من بقايا الأدرينالين، وهو يرتدي سترة خضراء خالية من أي دماء.

«ماذا حدث؟» أهمس، خائفة من التحدث بصوت أعلى. لا أستطيع التوقف عن التحديق في وجهه. لقد أذوه. «هل... أنت مجروح».

يتحول في مقعده. «دكتور زياد فحصني. أعاني من ارتجاج بسيط، هذا كل شيء».

صوته عادي. إنه يحاول تخفيف ما يقوله. «بسيط؟» أكرر بصوت عالٍ. «لقد ضربوا ظهرك. صدرك. هل أنت بخير؟».

لا يجيب، بل يأخذ نفسًا عميقًا. لاحظ أن يديه ترتجفان. «هل أنت عطشان؟» يسأل.

أسعل، وأدرك فجأة مدى عطشي. أومن.

يقف ويحضر بحذر شديد زجاجة ماء من على مكتب دكتور زياد، ثم يساعدني على الشرب.

«لقد كنت نائمة طوال اليوم تقريبًا». يحمل الزجاجة. «بعد ذلك الجندي... كانت الدماء في كل مكان. اعتقدت... اعتقدت أنك رحلت. لكن الدكتور زياد اقتحم في تلك اللحظة ومعه نحو عشرة جنود من الجيش السوري الحر. لقد تسلل من الباب الخلفي واثصل بهم. ثلاثة استسلموا، لكن الذي أذاك والآخر لم يستسلما. ولكنهم كانوا يفوقونهم عددًا». نبرة باردة وراضية تسيطر على صوته. «لقد ماتا».

يصل إلي ويضغط على أصابعي. «دكتور زياد هرع إليك واستطاع أن يوقف النزيف. لقد استيقظت وقتها. هل تتذكرين؟»، لا أجيب، لذلك يستمر. «دكتور زياد أعطاك منومًا. لم يكن جرحك عميقًا. لم يقطع الشريان، الحمد لله، لكنك كنت بحاجة إلى الدم. لقد تمكن أحد جنود سوريا الحرة من التبرع لك».

أرتعد. لقد كنت على بُعد شعرة من أن أكون بثثة أقدام تحت الأرض. «لماذا كانوا هنا؟».

«لقد تمكنوا من إيجاد طريق عبر نقطة ضعيفة على الحدود مع الجيش السوري الحر. انطلقوا في عملية قتل سهلة في المستشفى قبل انضمام بقية الجنود إليهم».

«إذن المعركة تقترب؟» أسأل.

أوماً بحزن. «الجيش السوري الحر لديه آمال كبيرة. إيمانهم قوي ولديهم أسلحتهم، ولكن... أنا قلق».

«أنا أيضًا». ثم الهث. «لمى؟ يوسف؟».

يضع يده على كتفي، يهذني. «إنهما بخير. ولم

يتمكن الجنود من الوصول إلى غرفتهما، إنهما نائمان الآن و...»، توقف، وصوته متقطع، والدموع تتساقط على خديه.

«ماذا؟» أقول مذعورة، ويقفز عقلي إلى أسوأ الاستنتاجات.

يجلس على حافة سريرى ويضع ذراعيه خلف ظهري قبل أن يسحبني إلى صدره.

«لقد فقدتك تقريبًا». تخرج الكلمات مخنوقة وتتهذات جافة تهز كتفيه. «يا إلهي، لقد شعرت بالعجز الشديد. عندما جرحك، أنا... لا أستطيع دفنك يا سلامة. لا أستطيع».

أحكم قبضته فوقى، وأغوص بداخله، وعيني ممتلئة بالدموع. «لقد نجونا».

يطبع قبلة على خدي، وجبهتي، وقبلة ناعمة على شفتي.

ويهمس في دعاء: «أدفيني قبل أن أدفنك. لو سمحت».

أضم وجهه بين يدي، وأمسح قطرات الدموع. «أنا...».

«أنا أحبك»، يقول قبل أن أتمكن من ذلك. أبتسم. لا يستغرق الأمر سوى بضع كلمات منه ليفك تشابك الأشواك التي تضغط قلبي. كنان ساحر بهذه الطريقة. سأكون بخير. سنكون بخير. أحتاج إلى تصديق ذلك. أحتاج أن أنظر إلى الألوان بدلًا من أن أغمض عيني عن الجمال والأمل.

حتى عندما يكون من الصعب القيام بذلك.

«أخبرني بشيء جيد»، أهمس وأتحرك لأفسح مكانًا له. يستلقي ببطء على جانبه وأنا أواجهه وأرجلنا متشابكة.

يمرر أصابعه من خلال أصابعي ويقبّل مفاصلي.
 «أردت أن أرسمك حتى قبل أن أقابلك».
 «ماذا تقصد؟».

«يعيش عمي في برلين. أتذكر رؤية صور لها على جوجل قبل بضع سنوات. الهندسة المعمارية تحبس الأنفاس. لديهم هذا النصب التذكاري المسقى بوابة براندنبورج. لقد حلمت دائماً بأخذ زوجتي إلى هناك. أ جعلها تجلس في المنتصف بينما أرسمها. كما لو أن المكان كله بني من أجلها فقط».

وفي عين العاصفة هذه، تنبض كلماته بالحياة في ذهني. أرانا نتجول في برلين، يدا بيد، بينما يوازن أدواته الفنية على كتفه. كنت أقوم بقطف القرنفل من بائع الزهور المحلي وأقوم بتشكيله على شكل تاج. في أيام معينة، عندما تشرق الشمس من خلال السحب، وتنتشر أشعتها فوق الحقول، تذكرنا بحمص. بالوطن.

تتمت: «كنت سأحب ذلك».

ترك كنان يدي ليلف خصلة من شعري حول إصبعه.
 «أشعر وكأنني أعرفك طوال حياتي يا سلامة».

أبتسم. «الجميع يعرف الجميع في حمص. من المحتمل أننا التقينا من قبل».

«كأطفال؟ قضيت معظم وقتي في الملعب، ألعب كرة القدم وأحدث الفوضى في حفرة الرمل».

«أوه، إذن لم نلتق. كما ترى، كنت إقما أمارس أعمال البستنة في شرفتنا أو ألعب بآربي مع ليلي».

ارتسمت ابتسامة على وجهه. «قد يبدو الأمر مبالغاً فيه، لكنني متأكد من أن أرواحنا التقت قبل أن تجد طريقها إلى أجسادنا. أعتقد أن هذا هو المكان الذي نعرف فيه بعضنا البعض».

الحرارة تندفع إلى وجهي. وما يقوله هو جزء من إيماننا. النفوس الموجودة خارج الأجساد الفانية. ومع ذلك فإن سماعه يقوله يجعل أذني ووجهي يحترقان.

يضحك. «قل لي شيئًا جيدًا إذن».

أمسك بكفّه، مقدّرةً كيف يصرفني عن الشعور بالارتباك. «لقد ألهمني ستوديو جيбли بالكتابة»، أبدأ، وهو ينظر إليّ برهبة. «بعد مشاهدة فيلم سبيريتد أواي عندما كنت في العاشرة من عمري، أصبح عقلي مفرط النشاط. ذات يوم فكرت، لماذا لا أكتب قصصي؟».

«هل فعلت؟».

أهز رأسي. «ليست قصصًا كاملة أبدًا، لا بدأت المدرسة. لكنني لم أنسها أبدًا. خاصة عندما وقعت في حب علم النبات».

إنه يقترب أكثر. «أحكي لي واحدة منهم! لا بأس إذا كنت لا تريد ذلك».

لا بُد أن دمي قد تعافى إلى حد ما لأنه يندفع إلى وجهي.

قلبي يدق. «إنها قصص سخيفة».

يبدو مستاءً. «سخيفة! كيف تجربين على وصف قصص زوجتي بالسخيفة؟».

أمنع ضحكة. أعلم أن لحظة السعادة هذه سوف تمر مثل الرمل في الساعة الرملية، لكنني أريد أن أجعل كل ثانية ذات قيمة. أريد أن أبقى الألم بعيدًا لفترة أطول قليلًا.

«حسنًا».

35

تُفرد الطيور عندما أستيظظ فجأة، ملتصقة بصدر كنان، وذراعه ملفوفة حول كتفي لحمايتي. تنزلق الرهبة على جلدي، بشكل غير مرخب به وغير مدعؤ، ويتسارع نبض قلبي.

كابوس؟

أجلس وأفصل نفسي عن كنان، وأدعو الله ألا يتقلب. يتمتم بشيء غير مفهوم أثناء نومه.

لا أستطيع أن أتذكر إذا كانت أحلامي مضطربة، لكن قلقي لم يختفي. إذا كان هناك أي شيء، فهو يتصاعد. يحترق الجرح الموجود في رقبتني قليلاً عندما ألوي رأسي. أقف أبحث عن معطف المختبر الخاص بي، فأجده ملفوفاً على كرسي الدكتور زياد. بللت زاوية منه، ثم فركت البقعة التي لمسها الجندي في بطني. أضغط بقوة أكبر، محاولة التخلص من الخلايا، حتى تحترق وتحتج بشرتي.

«صباح الخير»، يتمتم أحدهم من زاوية الغرفة. تتكيف عيناى مع الضوء المبكر النادر الذي يتسرب عبر الستائر، وأرى صورة ظل خوف.

«صباح الخير»، أهمس، وتركت معطف المختبر الخاص بي يسقط على الأرض.

يخرج من الظل، وبدلته الداكنة تنمايل مثل البحر في ليلة بلا قمر.

وهذا ما يفسر الرهبة.

خوف يبدو حذراً. «هل هذا هو؟»... «ماذا تقصد؟». يلتف حول مكتب الدكتور زياد ويتقدم نحوى فجأة. صوته عاجل، مختلف تماماً عن لهجته المعتادة. «إذا تمكن خمسة جنود من الجيش من اختراق دفاعات الجيش السوري الحر، فماذا يعني

ذلك؟».

الخوف شيء قاسٍ. الطريقة التي تشوّه بها الأفكار، وتحولها من تلال صغيرة إلى جبال.

يتابع خوف: «استمعي إلي بعناية شديدة». إذا لم أكن أعرفه أفضل، كنت سأقول إنه يبدو قلقًا. «هذا يعني أن هذا المستشفى لم يغد آمنًا بعد الآن. سيكون المستشفى هو المكان الأول الذي يهاجمونه. إما بالجنود المشاة أو بالقنابل. أنت تعلمين أن المستشفيات مستهدفة دائمًا، وقد نفذ الوقت من مستشفاكم».

تنقبض الأوردة والشعيرات الدموية في يدي. «هذا يعني أنك بحاجة إلى المغادرة الآن، وإلا...». توقف مؤقتًا وهو يتساءل عن ردة فعلي، لكنني لم أتحرك. قلبي يتسارع وأنا أحاول أن أفهم سبب تصرفه بهذه الطريقة. هناك شيء ما فيه، وفي لهجته والطريقة التي ينظر بها إلي، يبدو مختلفًا. يبدو الأمر كما لو أنني أتحدث إلى شخص لم أٌستخرج روحه من روحي. تأوّه، وفكّه يرتعش. «أنت لا تتعلمين أبدًا. حسنًا». ويفرقع أصابعه.

يتغير مكتب الدكتور زياد ويتحول إلى مقبرة. أمامي أربعة حجارة متشققة تتوج أربعة قبور بُنيت على عجل؛ لي وكنان ولمي ويوسف. الخلفية هي المستشفى الخاص بي، مسوّى بالأرض.

يتغير المشهد بشكل حاد قبل أن أتمكن من فهمه. أنا أقف على الشاطئ، وسماء رمادية تصطف في الأفق، أشاهد قاربًا مملوءًا باللاجئين وهو يبحر بعيدًا. تحظمت الأمواج فوق الرمال، فتبلل حذائي الرياضي، وهواء البحر المالح يحرق أنفي. ورائي صوت سقوط الصواريخ يرعد طيلة أذني، وتتوهج

السماء باللون الأحمر البرتقالي اللامع، وتبتلع
الكأبة. تشتعل النيران في الأشجار وترتفع صرخات
المصابين مع الدخان.

مستقبلي على البحر، يختفي.

«انتظرا» أصرخ في القارب، مندفعة للأمام عبر
مياه الشتاء الباردة، البرودة تجعلني أشهق.

تسقط قبلة، وتطمس قوتها كل شيء في طريقها؛
مقا يخلق تيارًا ساخنًا من الرياح يدفعني إلى الماء،
غارقة في البحر الأبيض المتوسط. ألقيت نظرة
مرتجفة على كتفي لأرى الخطوط العريضة لصاروخ
آخر يسقط.

إنه على بعد ثوانٍ. أفتح فمي لأصرخ مرة أخرى
و... تعثرت وظهري يصطدم بحائط مكتب الدكتور
زباد، وانزلت على الأرض وأنا أبكي بهدوء في
كمي. أعض على القماش بينما صدري يرتفع. خوف
يجثم أمامي.

يهمس قائلاً: «سيسيطر الموت على هذا
المستشفى. هل تتذكرين ما قاله الجندي؟ فكّري يا
سلامة! فكّري!». الجيش قد يصل إلى هنا. نحتاج
إلى كسب الوقت حتى... أعلم أن قلبي على وشك
الانفجار. ينفجر وجه خوف بابتسامة مرتاحة
ويومئ برأسه. هناك كلمات مخفية في عينيه
يرفض أن يقولها لكنه يتوقع مني أن أعرف.

عندما أرمش، يرحل. أقف على قدمي وأمسك
بحجابي.

أقول بصوت أجش: «كنان، استيقظ». لا يزال
بإمكاني تذوق حموضة الدخان في حلقي.

يجلس، عيناه حادتان. «ماذا... ماذا حدث؟». «لا
شيء». أسحب معطف المختبر الخاص بي بقوة

فوقي. «نحن نحتاج للخروج من المستشفى».
يفرك عينيه. «ماذا؟».

أرفع حقيبتي. «لا وقت للتفسير. أحضز لى
ويوسف وقابلنى فى الخارج. نحن بحاجة إلى
المفادرة الآن».

أفتح الباب وأرى الأطباء والمرضى يبدوون
يومهم. أسرع للبحث عن الدكتور زياد. لحسن
الحظ أن كنان لا يجادلنى ويتبعنى.

قلبي ينبض بشكل مؤلم، ومع كل ثانية تمر أنا
متأكدة من أننا أقرب إلى موتنا. وبعد البحث بشكل
محموم فى بضع غرف وفى الردهة، وجدته فى
غرفة التخزين.

«دكتور!» أنا ألهم. «نحن بحاجة لإخلاء
المستشفى». يبدأ. «سلامة! هل أنت بخير؟ كيف
حالك...».

اقتربت منه وانتزعت علبتين من البنادول
والأموكسيسيلين من الرفوف، ثم أدخلتهما فى
جيبى. «دكتور! احضل على أي أدوية يمكنك حملها
ودعنا نغادرا!».

يتعمق ارتبأكه.

يأسى يجعل من الصعب علي أن أقوم بربط
أفكارى فى جملة متماسكة. «يجب علينا... ومن
المحتمل أن يكون هناك... جميع المستشفيات
الأخرى...».

يرفع يديه فى محاولة لتهدئتي. «سلامة، اهدئي».
أتنهد بعمق، وأحبس الهواء فى رئتي، وأقول
بصوت هادئ مجبر: «إذا كان الجيش قادراً على
دخول المستشفى، فهذا يعني أنهم على عتبة بابنا
بالفعل. قال أحد الجنود بالأمس شيئاً عن شراء

الوقت حتى يفعل الجيش... لا أعرف ماذا. قد تكون قنبلة. قد يكون شيئاً آخر. ولكن علينا الرحيل». لا أستطيع أن أشرح ذلك. هناك شيء على وشك الحدوث. خوف صحيح.

أين تودين الذهاب؟ في كل مكان. وجه الدكتور زياد مصدوم لكنه لا يتحرك. ليس لدينا الوقت.

ويقول: «لم أتمكن من الاتصال بالجيش السوري الحر خلال الساعات الثلاث الماضية». معدتي تقع. «يجب أن نذهب».

أوما برأسه، وأمسك بصندوق من الورق المقوى وجرف الأدوية بداخله. «سلامة، اطلبي من الجميع الإخلاء الآن».

لن أضيع ثانية أخرى وأركض عبر الممرات إلى الردهة.

«الجميع!» أصرخ، ففتحته كل الوجوه نحوي، ويومض الثعزف في بعضها. «اتركوا المستشفى الآن! ليست آمنة!».

لبضع ثواني ثمينة، نظروا إلى بعضهم البعض بعدم الارتياح.

الإحباط يتراكم بداخلي؛ ذلك لأنني مرهقة. إنهم أكثر ترددًا في الاستماع. ليس من السهل على بعضهم أن يتحركوا، لأنهم فقدوا أطرافهم، والبعض الآخر مرتبطون بالحقن الوريدي. والعديد منهم أطفال وشيوخ.

«الجيش سوف يقصف المستشفى! علينا أن نغادرا».

صرخ كنان وتوقف خلفي، ممسكًا بيدي لمي ويوسف. إنه مرعوب.

«قنبلة؟» يقول لاهثًا. مع الإضاءة، أستطيع أن أرى أخيرًا أن عينه اليسرى منتفخة، بالكاد مفتوحة، والكدمة أصبحت أكثر قتامة في وضوح النهار.

«أين الدكتور زياد؟» مريض واحد ينثر من سريره.

«سوف يعرف...».

«دكتور زياد يقول علينا أن نغادرا» أجيبه. لن أبقى منتظرة أن يستمعوا، لذلك أمسكت بذراع كنان وبدأت في سحبه خلفي. لمى ويوسف يتابعان في صدمة من خلفه.

يؤذي الإجراء إلى إحداث تأثير في بقية الغرفة. الأمهات أول من يستجيب؛ يمسكن بأطفالهن ويفتحن الأبواب ثم يركضن.

الفوضى تتكشف. الحشود تتدافع ضد بعضها البعض. الأطباء يساعدون طريحي الفراش على الوقوف على أقدامهم. تشتد قبضتي على كنان. أنا أرفض أن أترك قبضتي تتأرجح.

بمجرد أن وصلنا إلى الباب، سمعت صوت الدكتور زياد يدوي بين الجماهير. «ارحلوا الآن!».

أثارت لهجته اندفاعًا عاجلاً آخر، ووقعت خطوات على طول الأرضيات. ركضنا جميعًا على الدرج وخرجنا من بوابات المستشفى. تنطلق عيناى إلى السماء وأبحث في اللون الأزرق عن طائرات ونحن نعبث الشارع. هاجمني الهاربون، وكادت قوتهم المذعورة أن تجعل قبضتي على سترة كنان تنزلق. وخز الدبابيس والإبر في ذراعي، لكنني لا أهتم. من زاوية عيني، أرى أم يشق طريقه، وأشعر بموجة من الارتياح. بعد أن تجاوزنا المبنى الأول، قمت بسحب كنان إلى الجانب، وتحركت عكس التيار للاحتباء خلف جدار متهدم، ثم أفلته.

أنفاسنا ثقيلة ونحن نحقق في بعضنا البعض.

أشرقت الشمس اليوم، والأشعة ساخنة على حجابي. لمى ويوسف مرتبكان وخائفان، وأعينهما ملتصقة بكنان. ويمنحهم ابتسامة مطمئنة.

ألقي نظرة خاطفة على المستشفى، وقلبي يرتعد عندما لا أتمكن من رؤية الدكتور زياد بين الناس الذين يتدفقون. وبعد ذلك صدمني الإدراك.

الأطفال في الحاضنات ما زالوا بالداخل.

تنقبض معدتي وأمسك بالحائط للحصول على الدعم. أحتاج إلى العودة. أنا بحاجة لإنقاذ الأطفال. لكن ساقى مثقلتان بالخوف، ونصفي يصرخ ليظل في مكانه، ليظل آمناً. ويعيد الآخر عرض وجه سمر الشاحب والبارد بينما كنت أحتفظ بحياتها كرهينة. أصرُّ على أسناني، وأبعد الخوف، وقبل أن أتمكن من إعادة التفكير في قراري، ألقيت بنفسي من خلف الجدار وركضت نحو المستشفى.

«سلامة!» يصرخ كنان.

اندفعت عبر الطريق، مندفعة عبر الحشود، عبر الفناء، ثم أصعد السلالم.

الردهة فارغة، وهو مشهد لم أظن أنني سأراه أبداً. وتناثرت البياضات على الأرض، وانقلبت بعض الأسرة بسبب الذعر. يظهر شخصان من الردهة. يوازن الدكتور زياد صندوقاً ضخماً من الورق المقوى تحت إحدى ذراعيه ويحمل شكلين صغيرين باليد الأخرى. يرفرف حجاب نور الأبيض وهي تركز بجانبني، وهي تحتضن طفلين بالقرب منها.

يتوقف الدكتور زياد ويسلمني الأطفال. وهم ملفوفون في بطانيات بيضاء رقيقة، كل منها بحجم رغيف خبز صغير. بشرتهم حمراء، وأفواههم صغيرة، وأصابعهم بالكاد مرئية.

يقول الدكتور زياد وهو يلهث بشدة ويضع الصندوق جانبا: «هناك ثالث هنا». التجاعيد حول عينيه تتعقق. ألقى نظرة داخل الصندوق وأرى طفلاً يستريح فوق كومة صغيرة من عبوات الأدوية. «هل يمكنك حمل الصندوق؟ احتاج...».

«أعطني إياه». وصل كنان بجانبه، أنفاسه ضحلة. يضع الصندوق تحت ذراعه، ويلتف على كعبيه، ويهرب. يستدير الدكتور زياد ويتجه مباشرة نحو الحاضنات.

«دكتور!» أنا أصرخ، متجذرة في المكان. «دكتور!» لا ينظر إلى الوراء.

«سلامة! تعالي!» يصرخ كنان من الأمام. تنفجر الدموع من عيني، وأبكي وأنا أعانق الأطفال وأركض خلفه.

بمجرد أن نعبّر الطريق، نسمع ذلك. الطائرة. وصلنا إلى الجدار حيث كان شقيقا كنان يحتميان، خائفين للغاية.

«لا»، أختنق، وأنظر إلى المستشفى وأعانق الأطفال. «من فضلك أخرج!».

لا يزال المرضى وعقالات الإنقاذ والموظفون يتدفقون من الأبواب الأمامية. وفي اللحظة الأخيرة أراه. ويكاد يتعثر ويحمل طفلين آخرين أثناء جريه. معطف المختبر الخاص به نصف ممزق وتبدو المسافة كبيرة بشكل مستحيل.

«يلاً»، أتوشل. «لطفًا يا رب!».

صوت القنبلة الثاقب يقطع الهواء أثناء سقوطها. «لا!» أصرخ وذراعاي ترتجفان. «يا دكتور بسرعة!».

يمسكني كنان ويخفض رأسي بينما تحطم القنبلة المكان الوحيد في حمص الذي كان يحمل الأمل.

تهتز الأرض وتتشفق كما لو أن زلزالاً وقع. طنين طبلية أذني يدوي من القوة والدخان المليء بالحطام يعمي ويخنقني. أطرافي ترتعش وأنا أنحني محاولة حماية الأطفال الرضع.

بعد بضع دقائق قلب، حيث الصوت الوحيد هو انهيار أعمدة المستشفى، تهرّ صراخ الحزن السماء المليئة بالغبار. صرخات ودعوات تؤلم القلب وتهزه. «هل أنت بخير؟» أتوجه إلى كنان. استقرّ الغبار بما يكفي لأتمكن من رؤية شكله.

«نعم»، يقول وهو يسعل بصوت أجش، ويجفل. يلجأ إلى أخويه ليتأكد من أنهم بخير. «كنان، خذ الأطفال»، أمره. «أحتاج إلى العثور على دكتور زياد».

يهزّ رأسه بشدة. «أنا...».

تقول نور: «سلامة، أعطني إياهم»، وأنظر إليها، وقلبي يحلق للحظة. إنها سالمة. «لا يمكنهم البقاء هنا. إنهم بحاجة إلى الهواء النقي. ويعاني البعض بالفعل من دون حاضناتهم». يقف خلفها متطوعان، وأسلم الأطفال إلى أحدهما بينما يلتقط الآخر الصندوق الكرتوني.

«إذا وجدت الدكتور زياد...». تتوقّف نور وصوتها يرتجف. «أخبريه... أخبريه أننا سنكون في منزله».

أومئ برأسي وأقف على الرغم من ركبتني المتذبذبة. الحطام يلقي بي في دوامة أخرى من اليأس. لقد انتهت المستشفى الذي قضيت كل أيامي فيها.

إنها مقبرة.

لقد تحول المبنى إلى صخور. وتناثر المتطوعون فوق البقايا، في محاولة يائسة لإزالة الأنقاض.

عندما اقترب، أسمع الصراخ الخافت لأولئك الذين ما زالوا محاصرين في الداخل. إنه يمزق قلبي إلى نصفين. معاناتهم تجعلني أنسى سبب مغادرتي. ومن الدخان يخرج خوف مرفوع الحاجبين، ولا تمسه ذرة من الدمار.

يقول ببرود: «سلامة، ليس هناك ما يمكنك فعله. لا تجربين على إعادة التفكير في قرارك. لقد سقط المستشفى. تم تدمير مكان عملك. لم يبق لك شيء هنا. عائلتك ماتت أو ألقى القبض عليها. أعلم أنك لا تريد أن تكوني التالية».

أشبح بنظري بعيداً عنه، والدموع تنهمر على وجهي، وأتقدم للأمام رغم ارتعاش أطرافني من الخوف.

«دكتور... زياد!» أناديه بصوت أعلى من الأنين. «دكتور!».

بيطاء، يستقر الغبار. تعمل أشعة الشمس على إحداث تقوب من خلال أعمدة الدخان. يقل الرنين في أذني، وعندما أصرخ باسمه للمرة الرابعة أسمع ردًا خافتًا. «سلامة!».

أنظر حولي بجنون، وأتجه نحو البوابات الرئيسية، لأجد الدكتور زياد جالساً على الرصيف. هناك جرح في جبهته، والدم يسيل على خده. وجهه رمادي شاحب، وأطراف شعره ومعطف المختبر محروقان. «دكتور!» صرخت، وسقطت على ركبتني أمامه. «هل تأذيت؟».

يرتجف وهو يمد ذراعيه بيطاء ليكشف عن رضيعين في حضنه. «كان عليّ أن أختار». يصمت، وجهه أبيض وعيناه خاليتان من العاطفة. «لقد

ركضت مع الأشخاص الذين اخترتهم. لكن... لم
أستطع سماع نبضات قلوبهم».
أبتلع ريقى بآلم.

يهمس قائلاً: «لقد حاولت إنقاذهم». الدموع
تندحرج على خديه. «كان علي أن أختار. والباقيون
لا يزالون في الداخل. لقد قتلوا الرضع».
أمسح عيني. «إنهم في الجنة يا دكتور. إنهم لا
يعانون بعد الآن».

يرفعهم ويطبع قبلةً على كل واحد من جباههم.
يهمس لهم: «سامحونا». «سامحونا على تقصيرنا».
أجلس هناك معه، في حداد. لقد كانوا سابقين
لأوانهم، وكانت فرصهم في البقاء على قيد الحياة
بدون حاضناتهم ضئيلة. سكون... سكون.

وبعد دقائق قليلة قلت: «نور أخذت الأطفال
الآخرين إلى منزلك. أعتقد أنهم على قيد الحياة».
ينظر للأعلى. «شكراً لك».

أهز رأسي. «نحن نفعل ما هو صحيح. نحن لا نفعل
ذلك لكي نُشكر».

أعطاني طفلاً واحداً. إنها فتاة مقمطة ببطانية
وردية اللون. أحضنها. هل كانت الطفلة سلامة
صغيرة إلى هذا الحد؟ أرتجف وأتمكن من الوقوف
بحذر. وجه الطفلة ساكن، وإذا أغمضت عيني،
أستطيع أن أتظاهر بأنها نائمة.

«سلامة»، يقول الدكتور زياد وأنا أنظر إليه. يمدُّ
ذراعاً واحدة وأعيد الطفل إليه بلطف.

وقال بعد فترة من الصمت: «لقد أنقذت الكثير من
الناس اليوم. لولا تفكيرك السريع -شعورك الغريزي-
لم أكن لأكون أمامك الآن». يزهر. «كان يجب أن
أعرف أن هناك خطأ ما عندما لم تتم مكالماتي مع

الجيش السوري الحر، لكن ذهني كان مشوشًا بعد هجوم الأمس».

«نحن بشر فقط. لا يمكن لأحد أن يتوقع منك توقع كل شيء».

تتحول ابتسامته إلى حزن. «إذا كان ضميري المذنب يمكن أن يوافق فقط».

«ماذا تنوي فعله؟» ألقت إلى المستشفى. «أين سيذهب الناس؟».

ظهره منحني، وتلحق به السنون، وفي عينيه أرى الخراب. ينظر حوله إلى المستشفى المدمر، ويستوعب كل شيء فيه.

يهمس قائلاً: «سوف نبني واحدة جديدة». ثم يقيم ظهره... «مدن أخرى، مثل الغوطة، تقوم بإنشاء مستشفيات تحت الأرض. سنبنّي أنفاقًا ومتاهات في عمق الأرض. يمكنهم قصفنا كما يريدون، ولن ننحني أبدًا».

صموده يذلني.

تمت: «فليحفظك الله». أشعر أنه لا ينبغي لي مغادرة سوريا دون إخباره. سيكون قلقًا جدًا إذا لم أحضر مرة أخرى أبدًا. «دكتور، سأغادر غدًا».

المفاجأة تنتقل إلى الحزن، ولكن ليس هناك حكم في عينيه. «لقد كان شرفًا وامتنيازًا العمل معك يا سلامة. أدام الله عمرك وعافيتك. من فضلك لا تنسونا في دعواتكم».

الجزء الخلفي من عيني يحترق، وتمكّنت من الإيماءة. يبتعد وهو لا يزال يحمل الجثتين كما لو كانا طفليه.

منزل ليلي مرعب. يبدو الأمر كما لو أنه يعلم أنني

سأغادر غذا.

كنان يعرج على الأريكة بمجرد دخولنا. لم نغادر موقع المستشفى إلا عندما لم نتمكن من الوقوف. ظل كنان يحمل الحطام حتى ارتجفت ذراعاه. لقد كان ضعيفًا بالفعل من الضرب الذي تعرض له بالأمس، وكان يقمع الألم حتى أخذه الإرهاق.

لمى ويوسف يتزاحمان بجواره، وجوههما خائفة. أشعل الشموع بسرعة.

«أنا بخير»، يقول كنان وهو يغمض عينيه ويتنفس بسرعة. «أنا فقط بحاجة إلى دقيقة واحدة».

«هل يمكن لأحد أن يجلب لي كوبًا من الماء؟» أفتح حقيبتني وأبحث في محتوياتها عن البنادول. هناك شريط في مكان ما.

يهرع يوسف إلى المطبخ، حيث يغرف الماء من دلو المطر في كوب، ويعود مسرعًا.

همس قائلًا: «ها هو...»، فتجقّدنا جميعًا.

يتفاعل كنان أولًا، وتُخفّف الصدمة من حدة التوتر في تعبيراته. بيد مرتجفة، يضع الكوب على الطاولة أمامه قبل أن يمدّ يده. يوسف يأخذها. يقزبه كنان منه دون أن يجفل من الألم، ويعانق شقيقه بقوة. انفجرت لمى في البكاء، وذرفت أنا بعض الدموع السعيدة أيضًا.

ثم تقفز لمى على يوسف وتقزبه منها بينما تنهداتها تختمر على كتفه.

أهمس: «كنان، خذ البنادول الخاص بك»، وأعطيه القرص، فيبتلعه مع الماء.

لمى ويوسف يبتعدان عن الطريق، ولكن ليس بعيدًا عن كنان حيث أساعده على الاستلقاء. يمسك كنان بيد أخيه ويبتسم. «ربما يجب أن أتأذى كثيرًا».

يحمز يوسف خجلاً، وينطلق كنان في حكاية مبالغ فيها عن الطرق السخيفة التي سيصاب بها بينما يضحكان. أدرك الجهد المبذول في كلماته والسهولة الفجيرة في لهجته. إنه يحاول صرف انتباههم عن الدمار الذي شهدوه اليوم، من ملجأ تحول إلى رماد. «أو ربما سادع الحوت يلتقطني!» هو يقول.

لمى تضحك ويوسف لا يستطيع مقاومة الابتسامة على شفثيه. «غير واقعي للغاية؟» يقول كنان بعد تفكير. «حسناً، سأنزلق على موزة كما في تلك الرسوم المتحركة! ما الذي قد تقوله لهذا؟».

يوسف يلکم ذراعه بخفة. «أنت غريب». تلمع عينا كنان بالفرح. «أنا أحب الأشياء الغريبة».

يبقون على هذا الحال لفترة من الوقت قبل أن يقنع كنان إخوته أخيراً بمحاولة النوم. مع الأمل الجديد في عيونهم، انتقلوا إلى غرفتي. أساعدهما، وأسحب الأغطية فوق جسديهما الصغيرين، وأؤكد من عدم تسرب البرد عبر الشقوق. أقبل خذ لمى وأبتسم ليوسف. يتردد للحظة قبل أن يبتسم. قلبي ينبض وأنا أهمس: «تصبحان على خير. نأما جيذاً... غداً يوم عظيم».

أغلق الباب برفق، وأسير على رؤوس أصابعي في الردهة، وأتوقف عندما أصل إلى غرفة ليلي وحمزة. تتراقص أصابعي على المقبض النحاسي. لست بحاجة للدخول. مرة واحدة كانت أكثر من كافية. أضع رأسي على الباب وأقول: «وداعاً».

أخذت الحقيبتين اللتين حزمتهما مع ليلي وتوجهت إلى غرفة المعيشة. كانت عينا كنان مغمضتين، لكنهما انفتحتا عندما دخلت وجلست على السجادة أمام الأريكة. أخلع حجابي، وأمزر أصابعي في شعري، وأجفل من الألم في فروة

رأسي. الجرح الموجود في حلقي يؤلمني، لكنني لا أجرو على لمسه تحت الضمادات.
«كيف حالك؟» يهمس.

«أحاول النجاة»، أهمس بدوري. «هل تشعرين بالألم؟» يتجه لي بجسده ببطء. «البانادول يساعد. الخبر السار هو أننا سنلتقي بأم مېكزا».

يقول: «عندما تحدثت مع عمي قبل بضعة أيام، قال لي إنه سيسافر بالطائرة إلى سيراكيوز اليوم.» «سوف يقابلنا على الشاطئ. السيناريو الأسوأ، أننا سنتصل به».

الأمان قريب جدًا لدرجة أنني أكاد أذوقه. أخرجت شريحة USB من حقيبة ليلى، ومررت إبهامي على غلافها المعدني، وأنا أبتسم. شكرا يا حمزة.

«كما هو متفق عليه، سندفع له فقط خمسمائة دولار والقلادة الذهبية بعد أن أصبحت ليلى...» توقفت وأنا أتنفس بعمق.

مزر كنان أصابعه على خدي ونظرت للأعلى. لمستته مريحة.

ابتسمت له ابتسامة سريعة قبل أن أفتش في حقيبة ليلى وأخرج الذهب. أخبرتها في الجيب الداخلي لحقيبتي وأحكم إغلاق الشخاب. أحسب محتويات الداخل مرة أخرى. ثماني علب تونة، وثلاث علب فاصوليا، وعلبة بانادول واحدة، وشهادة الثانوية العامة وجواز السفر، وجوارب، ومجموعة واحدة من الملابس.

يقول كنان: «لقد حصلت على الليمون». يشير برأسه نحو المطبخ. «في الثلاجة».

«شكرا لك». أقفز على قدمي وأسرع للحصول

عليهم. «أين الكاميرا الخاصة بك؟» أسأل وأنا أضع
الليمون في الحقيبة.

يتذمر. «لقد دمرتها ليلة الهجوم الكيميائي».
فمي يسقط مفتوحاً.

يهمس: «لا بأس. لقد قمت بتحميل جميع مقاطع
الفيديو على يوتيوب أولاً».

أمسك يده بإحكام. «أوه، كنان». ابتسامته حزينة.
«إنها مجرد كاميرا». أقول له «سأحضر لك واحدة
جديدة».

يضحك بخفة ويقبل مفاصل أصابعي. عندما
يمسح خدي، ترفرف رموشي.

«أنا آسف» يتمتم، والشعور بالذنب يملأ صوته.
«لماذا؟» قول عابسة.

فكّه يرتجف. «لما حدث في المستشفى عندما
كنت... عندما حدث ذلك».

أهز رأسي. ذكرني رعب تلك الفتاة الصغيرة بشفر.
بخطيئتي. «لم أستطع السماح له... أن يذهب إلى
تلك الفتاة الصغيرة».

«أعلم»، يهمس كنان. «لا بأس. لقد فعلت ما يجب
عليك فعله. أنا سعيد لأنك آمنة». أصابعه تمسح
الضمادة على حلقي. «قد تكون ندبة».

أومئ برأسي وأنا أعبت بأكامي، أحتاج إلى
الراحة، فأسأل: «هل تقبل ذلك؟».

يطلق ضحكة لا تُصدق. «زوجتي لديها ندبة
معركة. إنها بلطجية».

أهز رأسي مبتسمة. «إنها ليست الندبة الوحيدة
التي لدي».

يرفع حاجبيه. «تقصدان ما على يديك. أنا أحبهم».
ابتسامتي تتعمق.

«هنا». أمسك بيده وأضعها عند قاعدة جمجمتي، تحت شعري. «هل تشعر بها؟».

«نعم». يتتبع تضاريس رأسي بخفة؛ لمستته لطيفة. عيناه واسعتان من العجب. «هل تؤلمك؟».

«لا. حدثت لي عندما قتلت تلك القنبلة ماما. بعدها بدأت أرى خوف».

أعبس. عندما حذرني خوف من تعرّض المستشفى للقصف، شعرت وكأن العصاة التي لم أكن أعلم أنني ارتديها قد سقطت من عيني. الآن، أستطيع أن أرى بوضوح أكثر من ذي قبل، لكنني لا أعرف ما الذي أراه.

«هل أنت بخير؟» كنان يسأل وأنا أغمض. تنزلق أصابعه للأسفل، ويمرر إحداها عبر خاتم زواجي.

«نعم». أبتسم فيبدد القلق على وجهه. «هل أنت بخير مع هذا؟» يشير إلى شفتيه المكسورتين. «قد تكون ندبة أيضًا. أعلم أنك وقعت في حب وجهي الجميل».

أضحك وأمرر إبهامي بدقة على الغرز الموجودة على حافة شفته السفلية. رموشه ترفرف. «أعتقد أنني سأحبها أيضًا». ثم يتحول تعبيره إلى الجدية ويجلس ويصل إلى يدي. «مهما حدث غدا، سنكون بخير. حتى لو...»، يأخذ نفسًا عميقًا ويضغط جبهته على جبهتي. «اعلمي أنه حتى في الموت، أنت حياتي».

قلبي يقفز بنبضه. ليس لدي كلمات لأحولها إلى وعد أبدي يتحدى العالم. لذلك أطبع قبلة هادئة على شفتيه.

يتنهد وبعد ثوانٍ قليلة يقول: «أخبريني شيئًا جيدًا يا شيئًا».

أخجل. «هل تحاول صرف انتباهي عن اليوم؟» هو يضحك. «والهي نفسي أيضًا».

أتنفس الصعداء. «سوف تحب هذا. في اليوم الذي كان من المفترض أن تأتي فيه، كنت سأقوم بنفسي بعمل الكنافة كاملة».

عاد بظهره إلى الخلف، وظهر بصيص مختلف في عينيه، حتى إنني ظننت أن ضوء الشموع محصور فيهما. «هل تعرفين كيف تُصنع الكنافة؟».

«من عجينة السميد إلى الجبن إلى ماء زهر البرتقال المرشوش فوق الفستق واللوز»، أتمتم وأربت على جبهتي. «كل شيء محفوظ هنا».

هناك سعادة حقيقية في تعبيره، وقد اختفت كل آثار الألم. «أنت مثالية»، يقول.

أضحك وأنا أضع أصابعي في يده. «وأنت لست بهذا القدر من السوء».

وفي تلك الساعات الأخيرة من تواجدنا في حمص، يشفى قلبي المكسور بهدوء. خلية تلو الأخرى.

36

عادة ما يكون الحي الذي أعيش فيه في حالة من عدم اليقين المتكرر. تحمل الريح ضحكات الأطفال المترددة والبكاء عبر الأطلال اليانسة. يلون الأمل أحاديث المتظاهرين المازين قرب باب منزلي، ويتردد صدى خطواتهم فوق الحصى. أب يواسي ابنته ويمزج لها نصيبه من الطعام. تتفتح بتلات أزهار الياسمين نحو الشمس. تزهو على أرض مشبعة بدماء الشهداء. لبعض الوقت، ونحن نعيش. وبعد ذلك، عندما تزار الطائرات عبر السحب، ترتعش الحصى الموجودة على الرصيف. ونتوقف عن العيش ونبدأ في محاولات النجاة. اليوم لا يختلف، ولكن اليوم أقول وداغا لنفسي. نفسي القديمة.

كان وإخوته موجودون بالفعل عند الباب الأمامي، ووجوههم جدية. سالتني أم بعد ثلاثين دقيقة. بينما أقف عند مدخل غرفة نومي، تمر عبري موجة من الحنين. باتسة وفارغة كما يبدو، كان هذا منزلي. لفترة وجيزة. لن يبقى فارغاً لفترة طويلة. قد تلجأ إليه عائلة فقدت منزلها، أو إذا اجتاحت الجيش حمص القديمة أخيراً، فسوف ينهبون المكان. أحاول ألا أفكر في ذلك.

أتبع الممر إلى غرفة المعيشة وأهيم في المدخل، وألقي نظرة طويلة أخيرة على لوحة ليلي. معلقة في الظل، تبدو الأمواج حية، وتعلق حواف الإطار، وتستيقظ قصة في ذهني.

«دعونا نذهب»، أقول، وأنا أقلب على عقبي قبل أن تخونني شجاعتني.

نخرج من مكاننا، وحقائب الظهر مليئة بكل ما

نملكه في العالم، وأغلق الباب خلفي.
 «وداعًا»، أهمس وأطبع قبلة على الخشب الأزرق.
 يد كنان تنزلق في يدي. «سنعود».
 أومى.

لمى بين يوسف وكنان، ونسير معًا، والعصافير
 تغني لحن الوداع العذب.

يقع مسجد خالد على بُعد عشر دقائق. نسلك
 المفترق الثاني من الطريق المؤدي إلى المستشفى،
 وبينما نسير، أحاول أن أحفظ كل شجرة مزهرة
 وكل مبنى مهجور نمرّ به. بين الحين والآخر ألمح
 علم الثورة المرسوم فوق الأعمدة المعدنية لجراج
 أو جدار. هدوء هذه اللحظات الأخيرة الهشة لا
 يكسره إلا الحشود الواقفة خارج محل البقالة
 وجنود الجيش السوري الحر وهم يتجولون.
 وجودهم يهذئني، وأدعو لهم سريعًا بآلا ترتعش
 أيديهم، وأن يقودهم حبهم لهذه الأرض وشعبها إلى
 النصر.

يقع مسجد خالد وسط منطقة واسعة من المباني
 السكنية نصف المنهارة. نحن نخطو بحذر فوق
 الأسفلت المتصدع والأسلاك الكهربائية الفاصلة.
 ومن مسافة قريبة، جدران المسجد مخدوشة،
 والنوافذ المتربة متشققة، وكذلك الدرجات المؤدية
 إلى الباب الأمامي. إنه مفتوح قليلًا، ويكشف عن
 حطام يغطي السجادة الخضراء الداكنة التي يجلس
 عليها عدد قليل من الرجال في أوضاع مختلفة
 للصلاة.

«كم مرّ من الوقت؟» يسأل كنان. يوسف ولمى
 يجلسان وأرجلهما معلقة فوق السلم. يهمس لها
 يوسف بشيء فتقترب لتسمعه قبل أن تومئ
 برأسها.

أجيب: «بقيت خمس عشرة دقيقة أخرى»،
وأعصابي تنتفض، وأركز على وجه كنان، وأحصي
الكدمات التي تزيّن جلده. هناك حوالي سبع في
المجموع، وقد اتخذت عينه المصابة بالصدمة ظلاً
خوخياً. كتفاه متهاكتان، لكن نظراته تطير في كل
مكان، محتفظاً بزرقة السماء في ذاكرته.
«كنان». أمسك بيده وأقرّبه.

يبدو يائساً، وحسرة القلب مكتوبة على وجهه.
ليس لدي أدنى فكرة عما ينبغي قوله لتخفيف حزنه.
إنه نفس الحزن الذي يمرّ قني، لذلك ألتفّ حوله
بذراعي وأضع رأسي تحت ذقنه.

أهمس قائلة: «سوريا تعيش في قلوبنا. وستكون
دائماً». يعانقني، ويطبّع قبلة على الجزء العلوي من
حجابي.

نبقى هكذا، نتمايل ونحدّق في مدينتنا. الخمس
عشرة دقيقة تمر. الناس يدخلون ويخرجون من
المسجد ومع كل دقيقة إضافية يزداد قلقي. ماذا لو
لم يظهر أم؟ ماذا لو حدث له شيء؟

إذا لم يأت، فمن الأفضل لنا نحن الأربعة أن نحفر
قبورنا هنا.

لكن الهستيريا التي أصابني تهدأ عندما أسمع
صوتاً خافتاً لسيارة تقترب على الطريق. إنها سيارة
تويوتا رمادية قديمة، جوانبها ملطخة بالطين،
وزجاجها الأمامي يحتاج إلى الغسيل. حتى من
هذه المسافة، أستطيع أن أرى أم جالسا خلف عجلة
القيادة. ينزلق أمامنا ويتوقف.

«ادخل». سيجارة تتدلى من شفتيه. «نحن نسير
على جدول زمني ضيق، وقد تأخرنا خمس دقائق».
«تعني أنك تأخرت خمس دقائق»، أجبت وأنا

أطوي ذراعي.

يحدّق. «هل تريدان الدردشة أم المغادرة؟ اجلسي في الخلف، و...». يتوقف، ويعذّنا، ويتجهّم. «أين ليلي؟».

تحترق عيناى وأحارب الفراغ الموجود في معدتي، وأنظر بعيدًا. يتحوّل تعبير أم إلى الغضب. يقول: «لذلك، هذه دفعة أقل»، وعلى الرغم من أن لهجته ليست خبيثة على الإطلاق، إلا أن الرغبة في لكمة تتزايد بداخلي.

يد كنان تثقل على كفتي ويومئ لي. أفتح الباب بحذر ويدخل يوسف أولًا، ثم لى وكنان. ثم أتسلل أنا فتجلس لى على ركبتى كنان. نترك المقعد الأمامى فارغًا، نريد أن نكون قريبين من بعضنا البعض.

أرجع أم السيارة إلى الخلف، وعيناها تنعكسان في مرآة الرؤية الخلفية. يقود سيارته على الطريق، وبينما كنت ألقى نظرة من النافذة، بدأ جسدي يرتجف من الترقّب والحزن. نمزّ عبر شوارع ضيقة، ونقترب من حدود الجيش السوري الحر.

«هل أصابتك تلك الكدمات عندما اقتحم الجيش المستشفى؟» يسأل أم كنان وهو ينظر إليه في المرأة.

«نعم»، يجيب كنان. صوته لا يزال متأثرًا بالذنب. «هل سيشكلون أي مشكلة لنا؟» سألت وأنا أضع يدي حول يده وأثبتته معي.

يقود أم بيد واحدة، والأخرى تُلقي الرماد من سيجارته. «كان من الأفضل لو لم تكن مصابًا هكذا، لكن الحراس لن يسبّوها لنا أي مشاكل طالما أعطيتهم المال. الحدود الأولى ستظهر خلال دقائق

قليلة».

تنقبض عضلاتي، ويدق قلبي بسرعة، وألقي نظرة على كنان وأرى نفس الخوف في عينيهِ. حتى لو لم يتم إيقاف أم من قبل، فهذا لا يعني أن ذلك لن يحدث اليوم. العقول والقلوب يمكن أن تتغير. ربما يكون الجنود الذين أبرم معهم صفقة قد سئموا من ترتيباتهم.

أخيذا تمكنا من الخروج من حمص القديمة، مروزا بدبابة مزيّنة بعلم الثورة على الطريق.

بعد وقت قليل، تظهر نقطة عسكرية تابعة للنظام. أنعزف عليها من خلال حشود الجنود وصفوف السيارات المتجمعة خلف بعضها البعض. كلما اقتربنا، ارتفعت الأصوات، وأسمع صراخاً. أدير رأسي ببطء لأرى، خائفة من أن تنبههم هذه الحركة إلينا. انحرف أم إلى أقصى الحدود، ومن نافذتي أرى ثلاثة جنود يركلون رجلاً ممّداً على الأرض. كل ضربة تجعلني أقفز، ويد كنان تشدّ على يدي.

يهمس قائلاً: «لا تنظري»، وأبعدت عيني عنهم، نظرت إلى ركبتي حتى حسبت أنني أحدثت ثقباً بهما. ما زلت أسمع الرجل يعوي من الألم وحنجرتي تنفلق.

لطفاً يا رب. إذا لم ننجح، فلا تدعهم يأخذوننا، ادعوا بشدة. من فضلكم دعهم يقتلوننا.

يتوقف أم أمام جندي يرتدي نظارة عسكرية داكنة اللون. شعره الأسود مصفّف إلى الخلف ويبدو عليه الملل. يفتح أم النافذة ويقول: «صباح الخير. كيف تجري الأمور؟».

«بخير»، يجيب الجندي قبل أن يميل رأسه إلى الجانب ليتفحصنا في الخلف.

شعرت بلمسة نظراته وألصقت عيني على ركبتني.
أنا خائفة جدًا من إلقاء نظرة على كنان وإخوته
لمعرفة ما إذا كانوا يفعلون الشيء نفسه.

يقول الجندي: «افتحوا النافذة الخلفية»، فضحك
أم بعصبية.

«هل هذا ضروري؟ نحن...».

«افتحوها»، صرخ الجندي. تحتج النافذة بينما
يقوم أم بتحريكها لأسفل.

قلبي في حلقي. يضع الجندي ذراعيه على حافة
النافذة. أدركت أن بندقيته تنقر على سقف السيارة،
وبدأ الجرح في رقبتني يحترق.

«أين وجهتكم؟» يسأل، ونحن جميعًا مجمدون.
تنحنحت، وقبل أن أتمكن من قول أي شيء، قال:
«انظري إلي عندما أتحدث إليك».

صوته هادئ، لكن لا يوجد شك في مدى فتكه.
أتجه نحوه بثقل.

أقول: «طرطوس»، وينقطع صوتي.

فمه يتجه نحو الأعلى، مستمتعًا. «طرطوس؟ ماذا
ستفعلين هناك؟».

إنه يلعب معي كما تلعب القطعة مع الفأر. يدرس
حبة العرق التي تشق طريقًا أسفل خدي.
«زيارة العائلة»، أكذب على أمل ألا يسمع ذلك في
صوتي.

يبتنسم، كل أسنانه تظهر، لكن ليس في ابتسامته
أي دفء. «عائلة».

يقول ذلك بإثارة كما لو كان هو وأنا على علم
بالسر. عيناه تحدقان في عيني وهو ينتظر أن
ارتبك. لكنني أقاوم. وأخيرًا أومأ برأسه إلى كنان
وسأله: «ماذا حدث لك؟».

أغمض عيني لفترة وجيزة. من فضلكم دعهم يقتلوننا.

يميل كنان رأسه محاولاً حشد أي ذرة من الفخر. أضغط على يده، وأتوشل إليه بصمت أن يترك هذا الأمر يمر. أجاب بنبرة مهذبة مجبرة: «لقد قفزت». «لقد أذبولك، أليس كذلك؟» يسأل الجندي. يتوثر فك كنان. «نعم».

«هل أنت متأكد من أن ذلك لم يكن لأنك كنت تحتج وحصلت على ما تستحقه؟» يقول الجندي باستهزاء، والرعب يكاد يوقف قلبي. يوسف ولمى أصبحا تمثالين. حتى أم اهتز في وضع مستقيم قبل أن يلتفت في مقعده.

«لن يكون لدي مجرمون في سيارتي»، يقول كما لو أن الفكرة نفسها تسيء إليه. وجه كنان لا يكشف شيئاً، لكنني أشعر بمدى تأثيره. «نعم».

«ما رأيك أن أبحث في أغراضك للتأكد من أن لا أحد منكم يشكل تهديداً لهذا البلد؟» يسأل الجندي. نحن لا نحمل أي شيء من شأنه أن يديننا، لكن الأمر لن يهمه. إذا أراد، يمكنه القول على الليمون قنابل. أو ادعاء أن وحدة USB التي تحتوي على صور عائلتي مليئة بالمعلومات السرية.

لكنني أعرف ما يفعله الجندي. التعذيب ليس جسدياً فقط.

ترتفع يدي وأنا أحمل حقيبتني، وأستسلم لهذا المصير.

لن أرى البحر الأبيض المتوسط أبداً. يخطفها ويفتحها، ثم يهزها بعنف، فيتحطم كل شيء بداخلها ويتدحرج بعيداً. لحسن الحظ، تم

إخفاء جواز سفري وشهادتي المدرسية والذهب في الجيب الصغير. لم يعلق على غرابته ما حزمته لزيارة العائلة. إنه يعرف إلى أين نتجه بالفعل.

قال بتكاسل وهو يلقي الحقيبة على الأرض: «كل شيء واضح. اجمعني هذا القرف».

ألقي نظرة سريعة على كنان قبل أن أفتح الباب وأنحني لأجمع متعلقاتي الملقاة على الأرض.

الإذلال يحرقني. كان بنطالي الجينز ملطخًا بالأوساخ والحصى الحاد يخز يدي. سقطت ليمونة واحدة تحت السيارة. بعد الإمساك بها، استقممت، دافعة الكراهية في عيني. وضع الجندي إحدى ذراعيه على الباب المفتوح وعيناه تجوبانني من الرأس إلى أخمص القدمين. الأشمزاز يهدد بخنقي. عدت إلى كرسي السيارة بحذر وأغلق هو الباب بقوة حتى قفزنا جميعًا.

يقول لأم: «أعطني المال»، يدفع أم بسرعة.

يعدّ الجندي المال وهو راضٍ ويضعه في جيب صدره. يصل إلى نافذتي المفتوحة ويسحب بخفة نهاية حجابي. ينزلق قليلاً، وشعري يتساقط.

«ستكونين أجمل بدونها». ابتسم وهو يرفع رأسه إلى الجانب متوقعًا الإجابة. ومن الطريقة التي يتحرك بها كنان، أعلم أنه في نقطة الغليان - على وشك القيام بشيء متهور - ويجب أن أتدخل.

«شكراً لك»، تمكّنت من ذلك، دون أن أرغب في شيء أكثر من اقتلاع عيني الجندي.

«استمتعي مع... العائلة»، يقول الجندي ويصفع مؤخرة السيارة.

يضغط أم على دواسرة البنزين، ونسمع صوت الإطارات، ويتصاعد الغبار من الخلف كأننا ننتقل

في السباق.

بمجرد أن نكون بعيدين بما فيه الكفاية، أطلقنا
نفسًا جماعيًا، وأرتعدت، وأدس خصلات شعري
داخل حجابي.

«هل أنت بخير؟» سألتني كنان على الفور، فأومئ
برأسي مغمضة العينين، قبل أن أسند رأسي على
كتفه وأشبك ذراعي بذراعه.

«أنا بخير»، أهمس. «لا شيء يهم طالما أننا
خرجنا».

«كان ذلك خطيرًا»، يتحسس أم جيبه، ويخرج
سيجارة أخرى مجفدة.

«كم عدد الحدود المتبقية؟» أسأل وأنا أستنشق
رائحة ليمون كنان.

«من خمس عشرة إلى عشرين».

ياخذ كنان نفسًا حادًا وأنا أناؤه.

«لا تقلقوا. عادة ما يكون هذا هو الأصعب لأنه
الأول بعد مغادرة حمص. والباقي أقرب إلى بعضهم
البعض وهم أكثر تساهلًا بعض الشيء».

كدت أزق من النبرة غير المقنعة التي استخدمها
وأغلق النافذة، لعدم الرغبة في المخاطرة في البرد.
«كيف لم تحاول الخروج أبدًا؟» أسأل أم بصراحة.
«هذا ليس من شأنك».

أحرق به في المرأة الصغيرة، فينظر إلي من جديد.
«أنا أجني أموالًا جيدة هنا، حسنًا؟ تجارة اللاجئين
تزدهر».

أنظر له نظرة اشمنزاز.

«أيا كان»، يتمتم، وهو يعرف بالضبط ما يدور في
ذهني. «يمكنك أن تدعيني بما تريدين، ولكن هذه

الحقيقة».

كلما زاد عدد الحدود التي نعبدها، زاد قلقنا. على أحد الحدود، اضطررنا للانتظار لمدة ساعتين. وفي مكان آخر، يتم تفتيش أم وأتعرض أنا للمضايقة. لاحقًا، يتعرض كنان للسخرية والإهانة. وعلى الحدود الأخيرة، يشير جندي بقوة إلى أنه سيأخذ لى بعيدًا. فقط هي.

«إنها جميلة بالنسبة لفتاة صغيرة جدًا». ينظر الجندي شبقًا ويتحول وجه كنان إلى اللون الأبيض كالورقة.

لى تلتصق بكنان، وذراعاها النحيلتان ترتجفان. تمكن أم من إلهاء الجندي ببعض الأسئلة حول الاقتصاد السوري. في النهاية سمح لنا بالذهاب ونظر أم إلى لى في مرآة الرؤية الخلفية.

«أنت بخير؟» يسألها. تتجعد لى في حضن كنان لتعانقه. ترتعش بجانبه وهو يحتضنها وكأن حياته تعتمد عليها. هناك شفقة في عيون أم. لى في نفس عمر سمر تقريبًا.

بعد نقطة التفتيش الأخيرة هذه، يستغرق الأمر منا ساعة من القيادة دون توقف للوصول أخيرًا إلى طرطوس. مع تشقق النافذة الأمامية قليلًا، نشم رائحة البحر قبل أن نراه.

البحر المتوسط.

وعلى الجانب الآخر، الأمان وليس الحرية. سأترك الحرية خلفي، وأشعر بحزن الأرض عندما أخرج من السيارة. تحاول الأعشاب المتعبة أن تطوق كاحلي، وتتوسل إلي أن أبقى. يتمتمون بقصص عن أسلافي. أولئك الذين وقفوا حيث أقف. الذين شملت اكتشافاتهم وحضارتهم العالم أجمع. الذين

تجري دماؤهم في عروقي. تفوص أثار أقدامي عميقًا في التربة حيث جرفت أثار أقدامهم منذ فترة طويلة. إنهم يناشدونني: إنه بلدك. هذه الأرض ملك لي ولأبنائي.

أتقدم بضع خطوات نحو البحر، أستنشق هواءه البارد المالح، وأشعر أنه يطهرني.

البحر الأبيض المتوسط غاضب اليوم. تحت أمواجه المضطربة تهب عاصفة. أراه يرتعد ويتقلب داخل نفسه. أسمع بقايا من سبقني يمشون على الرمال، يرمون الحجارة في أعماقه، يحاولون فهم ما يحدث منذ أكثر من خمسين عامًا.

«القارب هناك»، صرخ أم ونظرت. لو كان لدي أي توقعات، ربما كنت قد سقطت في ذلك الوقت هنا.

إن تسميته بالقارب سيكون أمرًا سخيفًا. ذات مرة كان لا بُدَّ لونه أبيض. الآن أصبح مٹسحًا ومتضررًا، مع خدوش بنية صدئة تُخفي لونه الحقيقي. يطفو ببراءة بعيدًا عن الشاطئ. أنا لست خبيرة، ولكنني أرى بالفعل ما لا يقل عن عشرة مخاطر. العدد الهائل من الناس بالفعل على متنه واحد منها. يبدأ طفل في البكاء، وينضم إليه آخر. أتخيل أن خطوة واحدة خاطئة، سوف تقلب الزورق.

«لقد وصلنا في الوقت المناسب أيضًا!» يفتح أم صندوق سيارته ويخرج أربع سترات نجاة مماثلة لتلك التي يرتديها الأشخاص الموجودون على متن القارب. البرتقالي، حتى نكون مرئيين. يرميهم للأطفال.

«ما هذا بحق الجحيم يا أم؟» أسأل عندما أجد صوتي.

يقف كنان ساكنًا تمامًا، وعيناه لا تغادران القارب أبدًا.

«ماذا؟». قام بربط لى بإحكام في سترة النجاة الخاصة بها. «ماذا تقصد بماذا؟». أبصق. «هذا قارب صيد ملعون، أليس كذلك؟». «نعم؟».

«أنا متأكدة من أن قوارب الصيد لا تستطيع حمل قرية صغيرة! هناك عدد من الناس أكبر مما ينبغي». «هل كنت تتوقعين سفينة سياحية؟» يتجول ويرمي سترة النجاة في وجهي. أقبض عليها ببراعة. «أنا أسف لأننا لم نتمكن من الحصول على واحدة وفقًا لمعاييرك يا صاحب السموا!». «أنت تعرف بالضبط ما أعنيه. هذا القارب هو قبلة موقوتة!».

يقول بحزم: «سوف تنجين. هذا ليس القارب الأول الذي أرسلناه. لقد قام هذا القارب بالرحلة مرات لا تحصى».

أنظر إلى كنان بلا حول ولا قوة. ماذا نفعل؟ خلفه تقف جبال طرطوس قوية. ومن خلفهم؟ جحيم. وأنا أدرك الموت. يقول كنان بصوت منخفض: «إذا بقينا نموت. وإذا غادرنا، قد نموت».

لا يمكننا البقاء. ليس هناك ما يضمن أننا سنعود إلى حمص. أفضل أن أغرق على ألا أبقى هنا. يقول أم: «سيغادر القارب بدونك».

ألقي نظرة واحدة على سترة النجاة الخاصة بي قبل أن ارتديها، ثم أساعد كنان على ضبط خاصته. يضغط جبهته على جبهتي، ويده على مؤخرة رقبتي.

يهمس قائلًا: «ثقي في إيمانك يا حبيبتي». أشبك معصمه وأومئ. اغرورقت عينا كنان بالدموع وهو يلقيها إلى جبال طرطوس.

«نحن جاهزون». أنتقل إلى أم، استنشاق بصوت عال.

يقول: «المال والذهب». أخرجهم وأسقطهم في يده.

يعدّ النقود بصوت منخفض، ويفحص القلادة والخاتم، ثم يضع النقود في محفظته والذهب في جيوبه.

«حسنًا، اذهبوا» يدفعنا نحو القارب. «فقط نقفز بها؟» أسأل.

«نعم». يصعد إلى سيارته ويشغل المحرك. «لقد رأي قبطان السفينة، ولن تعودوا معي، فهو يعلم أنكم قمتم بالدفع. اذهبوا!».

أحاول ألا أظهر مدى شعوري بالتوتر. كيف يبدو هذا... سهلاً هكذا؟

عندما لا نتحرك، يتنهد أم بصوت عالٍ ويتضرع إلى الله أن يمنحه الصبر. «سلامة، بقي بي. أبذك بحياة ابنتي أن هذا القارب سيأخذك إلى أوروبا. اذهبي!».

إذا كان هناك أي شيء سائق به من أم، فهو أنه يحب ابنته.

«بالطبع إذا تركتها تموت لن تكون هناك ابنة لأقسم بحياتها. معاذ الله أن يسمحوا لك بالعمل مرة أخرى». يتمتم، لكنني أسمع. أغمض عيني، وأخذ نفساً عميقاً.

أدور حولي، وأسير مباشرة نحوه. يتوقف. أقول: «أعلم أنني كدت أن أدمر حياتك بما فعلته. لكنك طلبت مني أن أفني نفسي. أنت لست قديساً. وأنا أيضاً لست كذلك. لكنني على الأقل أشعر بالندم».

أذهب بعيدًا، لا أريد أن أسمع رذّة. وبعد ثانية، يبدأ
 المحرك في العمل وينطلق هو بعيدًا.
 «دعونا نذهب»، أقول لكان ويوسف ولمى. يضع
 كان يده على عينيه، ويبتعد عن الجبال. بعيدًا عن
 قبر ليلى. عن ماما وبابا. عن حمزة.
 أمسك بيد لمى و كان يأخذ بيد يوسف. نخوض
 في الأمواج التي تصطدم بركبنا محاولة دفعنا إلى
 الخلف، فحذرة إيانا. لكننا لا نستمع. نحن نرفض
 الاستماع.

37

كلما اقتربنا من القارب، كلما بدا لنا أن الناس يتسزبون من حوافه. الشخص المسؤول -القبطان على ما أعتقد- يرحب بنا بفضاظة ويساعد يوسف ولمى على الصعود. تستقبلنا الوجوه ونحن نشق طريقنا على متن السفينة بطريقة خرقاء ونحاول أن نجد مكانًا للجلوس، كانت وجوهًا جانعة وباردة وفارغة. إنهم يشعرون بالانزعاج من عدد أكبر من الأشخاص الذين يزدحمون بالقارب الممتلئ بالفعل.

نجد مساحة صغيرة فارغة ونجلس بسرعة ونتكى على جانب القارب. ترتعش أطرافى بارتياح، وتصطك أسناني وأنا أقترب من كنان. يلف ذراعه حول كتفى ويعانقني أقرب. الجينز ومعاطفنا مبللة حتى الركبتين. لمى تتمسك بيوسف وجسدها يرتعش. معطفها لن يجف في أي وقت قريب، لذلك أخرجت سترة وألقيتها ليوسف، وأدعو الله ألا نموت بسبب انخفاض حرارة الجسم.

«ضعها حولها. إنه ليس كثيرًا، لكنه سيفعل شيئًا ما». همس يوسف: «شكرًا لك».

السماء رمادية، تطابق لون البحر، ولو لم يكن الوضع بهذه الصعوبة، لكنت استمتعت بهذا الطقس. لن أكون معرضة لسوء التغذية، وبدلاً من ذلك سأكون مغطاة بالمعاطف والأوشحة مع كوب من الشاي الساخن في يدي.

تتجول عيناى في الأشخاص الآخرين الذين يسافرون معنا. هناك أطفال أكثر من البالغين. ينفطر قلبي عندما أرى امرأة حاملاً، وأنظر بعيداً قبل أن تراني أحذق بها. كنان يتأوه بهدوء، وأنا في لحظة مريضة أشعر بالسعادة بسبب الإلهاء.

«ماذا بك؟» أسأل، التفتُ للنظر إليه.

«أنا بخير». يفلق عينيه ويتنفس بعمق. أمل أن يخف أثر الارتجاج عليه. «هل... هل يمكنك أن تعطيني بانادول؟».

«نعم!» فتحت سريعا حقبتي وأخرجت قرصا واحدا، ومزرتة إليه سزا. فيضعه على الفور في فمه، ويبتلعه بدون ماء. إن الإرهاق الناتج عن تحريك الحطام الثقيل بعد تعرضه للركل والضرب وعدم الحصول على قسط كافٍ من النوم ينهكه. ناهيك عن أن ملابسنا المبللة لا تساعدنا.

أدرك كنان تعابير القلق وابتسم، وسحبني إليه، فحُفَّت ارتعاشاتنا. «أنا بخير. لا تقلقي. فحصني الدكتور زياد». يشير إلى وجهه الذي لا يزال منتفخا وإلى الكدمات. «إنها مجرد كدمات مزعجة».

«هل تشعر بالغثيان؟ صداع؟» أخرجت هاتفي، وأسلط الضوء في عينيه. يتفاعلان بشكل طبيعي.

«لا يا دكتور سلامة»، يقول كمريض مطيع. «أريد فقط أن أجلس هنا مع زوجتي». يفرك يده على ذراعي. «أنت بردانة».

أتراجع. إنه حقا متعب فقط.

«قليلا»، أعترف، سعيدة بأنه يحتضني. «هل تريد أن أخبرك شيئا جيذا؟».

«نعم، من فضلك».

«لدي فكرة قصة جديدة».

أنظر إليه وهناك وميض في عينيه. يقل التوتر في حواجبه. «أخبريني».

«لقد جاءت إلي قبل أن يغادر المنزل. عندما كنت أنظر إلى لوحة ليلي».

«إنها لوحة جميلة».

أرئت على خذه، وهو يميل على كف يدي. «إنها قصة عن فتاة صغيرة تعثر على صور سحرية تأخذها إلى عوالم بديلة. ولكن للعبور، عليها أن تضحي بشيء ذي قيمة».

يبقى صامتًا لبضع ثوانٍ ثم يقول بهدوء: «لا أريد أن أرسوم هذا. أريد أن أجعلها متحركة». انا أبتسم. «تعاون آخر؟».

«سيكون شرفًا لي أن أعمل مع عبقرية مثلك مرة أخرى».

«امدحني أكثر وستجد اتفاقًا».

يضحك بخفة ويسعدني أن أتمكن من إبعاد ذهنه عن رعب الرحلة هنا. «سلامة، حب حياتي، يا سماني، وشمسي، وقمري، ونجومي، هل تحققين أمنيته الفانية هذه؟».

أظهار بالتفكير في الأمر بينما تحمض أذناي. «حسنًا حسنًا». «نحن نغادر الآن!» يقول القبطان بصوت عالٍ، ونعود إلى الواقع. يختفي الهمس، وكأننا في انسجام تام، ننظر جميعًا إلى الشاطئ.

يبدأ القارب في التأرجح بعيدًا بلطف، وتصطدم الأمواج بجسده، محاولة العثور على ثقب للدخول من خلالها. أنا أعرف السباحة. علمني بابا وحمزة. أخبرني كنان أنه وإخوته يفعلون ذلك أيضًا. لكنني لا أريد أن نختبر قوتنا ضد البحر. ليس اليوم.

مرة واحدة يتوقف الطنين في دماغي، ولا أسمع سوى البحر وائين وطني. أرفع رأسي لإلقاء نظرة جيدة وطويلة على سوريا.

تتجول عيناي على الشاطئ، محاولة بيأس حفظ ملامحه قبل أن يختفي، وهناك أرى فتاة في الثامنة من عمرها، تضحك، تركز على طول الشاطئ،

وفستانها الوردي يبدو في غير مكانه. يقع شعرها
البنّي المجعد تحت كتفيها، وعندما تنظر نحوي
تبتسم. أعرف ذلك الوجه، والشّنّ الأمامي المفقود،
لأنّ لديّ صورًا لي وأنا أبدو هكذا. عشر سنوات
ستفعل الكثير للوميض الفائق في عيون تلك الفتاة.
عشر سنوات ستعلّمها كيفية البقاء على قيد الحياة.
سوف يحشر تراب سوريا تحت أظافرها. على الرغم
من كونها صيدلانية، فإنها ستعرف أن بعض الجروح
لن تشفى أبدًا.

أغمض عيني وتختفي.

تبدأ أغنية. من أغاني الثورة التي تقارن سوريا
بالجنة. الجنة. أستمع كأنها المرة الأولى التي أسمع
بها. أتلقي الكلمات وأرسمها على قلبي. وأدركت أنني
لا أهلوس بالأغنية، فكل من على متن القارب يغني.
يضيق حلقي عندما تمتزج الأصوات المبحوحة مع
الريح، حاملة لحننا إلى عنان السماء. أستطيع أن
أسمع الدموع تتساقط على خدودهم، وأستطيع أن
أذوقها في فمي. إنهم مالحون مثل البحر.

وسرعان ما انضم صوتي إلى أصواتهم، وأغني
من خلال بكائي الصامت الذي يقطر، يقطر، يقطر
على ألواح أرضية القارب، ويفوص في الخشب
القديم. حتى يوسف يغني وصوته مجروح من قلة
الاستخدام.

وفي النهاية، نرفع أعناقنا جميعًا نحو سوريا وهي
تختفي ببطء خلفنا. يتكّن كنان على كتفي محاولاً
أن ينظر بشكل أفضل، فتنهمر دموعه على يدي.
نظرت إليه وأدركت أننا سوريا حقًا الآن. تمامًا كما
قلت له. عائلتنا الصغيرة هي كل ما تبقى لتتذكر
بلدنا به. أعانقه وأبكي وهو يبكي أيضًا.

نحن لا نرمش. نحن لا ننظر بعيدًا حتى لا نتمكن

من رؤيتها بعد الآن.

38

في البداية لم ألاحظ مدى برودة الجو. أوم ذلك على الأدرينالين الذي يسبح ببطء في دمي، والذي يرتفع عندما يصطدم بي كنان أو عندما أسمع موجة عالية تتحطم على جانب القارب. كان الركاب الآخرون متجمعين بجانب بعضهم البعض، ووجوههم مبللة بالدموع، وكل منهم غارق في معاناته. يفركون أيديهم في محاولة لاستحضار بعض الدفء. أشعر بالارتياح عندما أرى لى بخير، على الرغم من لسعة البرد. لكن كنان يقلقني. تتدلى عيناه، ويومئ رأسه وكأنه على وشك النوم.

«مرحبًا»، أهمس، وأتحرك قليلًا لتوفير مساحة أكبر. «ثم على كتفي».

ينظر إلى الأعلى ويهز رأسه، لكن عندما أمسك بمقدمة سترته وأرشده إلى الأسفل، لم يبد أي مقاومة. كتفي العظمية ليست بمثابة وسادة، لكن حجابي ناعم على الأقل.

يهمس: «سلامة... أنا بخير...».

«صه. نحن على بُعد خطوة واحدة من تناول الكنافة. احلم بذلك».

يتنهد ويستغرق الأمر ثلاث ثوانٍ حتى ينام. أدعو الله أن يخفف البنادول آلامه.

أتطلع إلى السماء، أشاهدها تتغير ألوانها ببطء إلى اللون الرمادي الداكن؛ مما يشير إلى نهاية حياتي القديمة وبداية حياة مجهولة. أشغل نفسي برؤية الغيوم وهي تأخذ وقتها وهي تتبذد أمام الشمس، مثل الخادמות اللاتي يتبعن ملكتهن. بدلًا من ذلك، يرتفع القمر، ويلقي توهجه المؤلم على المياه السوداء. تهتز الأمواج بلطف على القارب، وتنتشر

اهتزازاتها عبر المعدن حتى تصل إلى بشرتي.
بدأ الناس يتساقطون في النوم واحدا تلو الآخر.
لكن ذهني، على الرغم من كونه أكثر استنزافاً من
أي وقت مضى، إلا أنه مستيقظ تماماً. لا أستطيع
التوقف عن رؤية النجوم وهي تخرج من الظلام،
وأدرك أن آخر مرة رأيت فيها هذه الكويكبات كنت
مع كنان في أنقاض منزلي المهجور. من الصعب
تصديق أن ذلك قد حدث قبل أقل من أسبوع. يبدو
وكأنه سنوات. دهور.

أركّز على النجوم، وأربطها بخطوط خيالية حتى
أرى الخيط الفضي الذي يستحضره عقلي.
إنه هنا. أنظر إلى الأسفل لأجده جالسا على حافة
القارب، متدلّيا بقدميه في الماء وظهره نحوي.
قال: «ليلة هادئة»، وأنا أرتعش. إنه يبدو جميلاً
بشكل مؤلم في ظل ضوء القمر. قلبي يقفز.
«ما الذي تفعله هنا؟» أعبس. «ألم تقل إنك مشجه
إلى سوريا؟».

يستدير نحوي، ويؤرجح ساقيه إلى الداخل. «هل
أنت حريصة على التخلص مني؟».
«أسفة، لم يكن لدي الوقت للحداد على غيابك،
بسبب الرعب الشديد الذي أصاب ذهني طوال
الطريق هنا». قلت بفضب، على الرغم من أن
وجودي هنا لم يكن ممكناً على الإطلاق إلا بسبب
تأثيره. من خلال تحفّل عقلي المسؤولية.
بيتسم.

«هل كذبت علي؟» أسأل. هل سيفي بوعده حقاً
ويتركني وشأني؟ أرتعد عندما أفكر في الاستيقاظ
ذات صباح عشوائي في ألمانيا لأجده يحوم عند
أسفل سريري.

يهز رأسه. «ما زلنا في المياه السورية». أحثق به.
«لن أكون معك في سيراكيوز. أعذك»، يقول وهو
يضحك.

أتأمل كلماته. «هذا ليس صحيحًا»، أهمس. «أنت
جزء مني، تمامًا كما أنت جزء من الجميع هنا».
يشير إلى الظلام. «وكل هؤلاء من أخذهم إلى
البحر... كل أولئك الذين صاروا عطفًا وتربًا؟».
يتنهد. «إنها حقيقة. لقد أخبرتك من قبل، عندما
سألتني أين سأذهب. أنا في كل مكان. لكنني لن
أكون معك جسديًا. ليس كما هو الحال في سوريا».
أرتجف. «في كل مكان»، أقول وأنا أتذوق الكلمة
على لساني. وكان الجواب على وجوده هناك طوال
الوقت.

أستطيع أن أرى التاريخ منسوجًا بين قزحية عينه.
«في كل مكان. منذ بداية الزمن، استيقظت في
قلوب الناس. لقد أعطيت العديد من الأسماء في
عدد لا يحصى من اللغات. في لغتك أنا خوف. باللغة
الإنجليزية، fear. في الألمانية، Angst. لقد استمع
البشر إلى همساتي، وأصغوا إلى مجلسي، وذاقوا
قوتي. أنا في كل مكان. في أنفاس ملك أعدمه
شعبه. في آخر نبضات قلب جندي ينزف وحيدًا. في
دموع فتاة حامل تموت على عتبة بابها».

أنظر بعيدًا وأمسح ذراعي على عيني. ليلى. أختي.
يقول خوف بلطف: «لم يكن خطأك».

«إذن لماذا يبدو الأمر كما لو كان كذلك؟» أهمس،
وتركت دموعي تتدفق على خدي. الحزن ليس ثابتًا.
يتأرجح وينسحب ويضعف مثل أمواج البحر.

يبتسم بحزن. «لأنك إنسان. لأنه مهما كان الأمر،
فإن لديك قلبًا ناعمًا جدًا، لدرجة أنه يتعرض

للكدمات بسهولة. لأنك تشعرين».

صرخة منخفضة تهرب مني.

ويتابع خوف: «لكن هذا لم يكن خطأك. تذكرين ما قاله أم؟ إذا كان من المفترض أن تكون في ميونيخ، فسوف تكونين هناك، حتى لو كان العالم كله ضدك. لأنه مصيرك. لم يكن مصير ليلي. ولم يكن مصير والديك ولا حمزة أيضًا».

مصير. كلمة معقدة تحمل أبوابًا كثيرة تؤدي إلى مسارات لا حصر لها في الحياة، كلها تتحكم فيها أفعالنا. ولذا، فأنا متمسكة بإيماني، بمعرفة أنني ويلي بذلنا قصارى جهدنا للبقاء على قيد الحياة. بمعرفتي أنها في الجنة، تعيش مع الطفلة سلامة. مع العلم أنني سأراها إن شاء الله عندما يحين وقتي. أنني سأرى ماما وبابا وحمزة.

«في قلبي، أعلم أنه لم يكن خطئي»، أتمتم وأنا أنظر إلى السماء المرصعة باللؤلؤ. سأعطي أي شيء لأعائق ليلي الآن. «لكن الأمر سيستغرق بعض الوقت حتى يقبل ذهني ذلك. وهو يؤلم. أكثر مما أستطيع أن أتحمّل. أنا فقط... اشتقت لها كثيرًا».

«أنا أعرف».

يقف خوف فجأة، ويقفز قلبي لرؤيته متوازنًا على حافة المركب، كأنه يهمس للسقوط. لكن وضعه مستقيم ومتوازن تمامًا.

«لقد كبرت في العام الماضي يا سلامة. أنا أشجعك، كما تعلمين. لقد تغلبت على الكثير من الصعوبات وأنا أشعر بالتواضع تجاهها. قد لا تعتبريني صديقًا، لكني أفكر فيك كصديق».

«ستفادرن؟» أسأل، معدتي تنقبض.

يضحك وينظر إلي. «تبدين متوترة جدًا». «أنا

لست كذلك»، أتمتم، لكن على الرغم من ذلك، غطاء من الكأبة يغمرنى. لولا خوف لذفنت في مكان ما في حمص، حيث لا يتذكرني أحد. لولا ظهور ليلى لي، لم أكن لأجد الشجاعة للعيش من أجل سوريا، للقتال من أجل بلدي.

يمسح شعره إلى الجانب، وعيناه تتلألآن بظل بتلات الكوبية. «لقد قمت بعملتي. لقد وضعتك على متن القارب. كل ما سيحدث بعد ذلك متروك لك. لكن بغض النظر عن الأمر، أنا فخور بك». يمد إحدى ساقيه خلفه، مخلفاً انحناءة قصيرة.

«وداعًا»، أهمس، وعندما أرمش، يكون قد رحل. أجدق في المكان الذي اختفى منه، معتقدة أنه قد يظهر مرة أخرى، لكنه لا يفعل. أرفع يدي وألقي نظرة عليهما، باحثة في روعي عن أي اختلاف، فأجده في الطريقة التي يشعر بها قلبي بخفة قليلًا. لقد تغير شيء ما في الهواء أيضًا. مثل شحذ الواقع واستقراره في مكانه.

يتحرك كنان ويرفع رأسه إلى الأعلى، وترفرف رموشه بالنعاس.

«مرحبًا»، أهمس وأنا أميل نحوه وأضغط بكف على جبهته. دافئ، ولكن ليس دافئًا جدًا. «كيف تشعر؟».

عابس. «دوار البحر قليلًا».

لمى ويوسف ناما بسرعة، ورأساهما فوق حقيبتيهما، وأنا سعيدة. إذا كانوا مستيقظين، فسيهانيان أيضًا من الغثيان.

«دعني أحضر لك ليمونة». أخرج واحدة مع السكين من حقيبة كنان، وأقطعها إلى نصفين، وأمزر له قطعة. أقضم شريحتي وأستمتع بالطعم

الحامض.

أستقر بجانب كنان. «كيف حال ظهرك؟ صدرك؟
راسك؟ لقد رأيت ما فعله الجنود بك».

يقضم الليمون، وتتألم تعابير وجهه من حموضته،
ويسعل. «إنها بخير».

«كنان».

يتنهد. «لقد ساعدني البنادول قليلاً، على الرغم
من أنني لا أزال متألفاً».

لا يمكن تناول جرام واحد من البنادول إلا كل أربع
ساعات، وإلا سيكون هناك خطر التسمم. لقد تناول
واحدة قبل أقل من ساعتين قبل أن ينام.

قزرت صرف انتباهه بدلاً من ذلك. «رحل خوف».
«للأبد؟».

«إلى حد ما».

يقول راضياً: «حسناً، جيد. لأنه الآن أستطيع أن
أخبرك أنني لم أحبه».

أضع يدي على فمي وأضحك بصمت. «هل كنت
غيوزاً؟».

ابتسامة باهتة ترسم على شفتيه. «في الواقع،
أردت أن ألكمه لأنه أزعجك، لكنني لم أرغب في أن
تعتقدين أنه أزعجني. أو لأذكرك به في غيابه».

«آه... أنت بطلي». يكشر. «أحاول».

اقتربت أكثر، وانتهينا من قطع الليمون. «قولي
لي شيئاً جيداً يا سلامة»، يتمتم قائلاً وهو يضغط
جبينه على جبيني.

أبدأ ببطء: «في العام الماضي، كانت سوريا رمادية
اللون، المباني والطرق المدمرة. وجوه الجائعين
رمادية. في بعض الأحيان السماء. أصبحت حياتنا
حرفياً أحادية اللون، بالتناوب مع اللون الأحمر

القاسي. بينما كان البعض قادراً على رؤية ما هو أبعد من ذلك، نسيت أن هناك ألواناً أخرى. لقد نسيت أن السعادة ممكنة. لكن عندما أريتني غروب الشمس على سطح منزلك ورأيت اللون الوردي والبنفسجي والأزرق... شعرت... وكأنني أرى الألوان لأول مرة». ألقي نظرة عليه وأرى عينيه تتلألأ بالعاطفة.

أتابع: «تخيل كيف ستكون ألمانيا. تخيل طلاء شقتنا باللون الأزرق مثل لوحة ليلي. وكنت أفكر في رسم خريطة لسوريا على أحد الجدران».

يقول كنان على الفور: «أنا أحب ذلك. أنا أحبك». ابتسم، وفي تلك اللحظة أعلم أن ليلي ستكون مضغوطة، وعيناها تتلألأ بالدموع السعيدة، لو استطاعت أن تراني هكذا: عالقة في وسط البحر الأبيض المتوسط، والمياه الباردة تحاول التسلل تحت ملابسني، وبدلاً من ترك الرعب يسيطر عليّ، اخترت التركيز على المستقبل حيث أنا على قيد الحياة. حيث أكون في أمان.

أستيقظ مع هزة. كم من الوقت نمت؟ لا بُدَّ أن تأثير الليمون قد زال، لأن معدتي تقلب والغثيان يعكر دمي.

أشكال الناس تغيب عن رؤيتني، وأصواتهم خافتة في أذني. أفرك عيني وأنا أتأوه من التشنجات، وعندما أفتحهما مرة أخرى، كل شيء ينهار بحدة في مكانه. لا بُدَّ أن الصباح قد حل الآن ولكن الشمس مخفية خلف سحب كثيفة. شخص ما يهزني، والتفت إلى كنان.

«ماذا؟» أسأل غير واعية. صرخة تخترق الهواء، فتوقظني من سباتي.

يمسك كنان بكتفي بقوة، وبصوت رزين لا أعرفه، يقول: «سلامة، الطقس سيئ».

يقمع رجفة، وأنا أرفع رقبتني لأدرس البحر. وبمساعدة الريح، تضرب الأمواج نفسها بقوة على القارب، فتتهزّه وقلبي أيضًا.

«هناك الكثير من الناس. القارب ليس جديداً لا يمكنه التعامل معنا جميعاً. ليس لدينا وقت»، يقول بهدوء، ولكن الرعب واضح في كلماته.

لا أفهم. قام هذا القارب بالرحلة مرات لا تحصى. أم وعدا

كنان يسحبني إلى الخلف. الكدمة تحت عينه تبدو كالحبر الأسود.

«عندما يفرق القارب، عليك أن تبقي بالقرب مني قدر الإمكان، هل تفهم؟» يقول بحزم.

لمى تبكي، وهي ليست الوحيدة. إن الصراخ والتوسل والصلاة تصمّ الأذان، وأتساءل عفا إذا كانت الأصوات قد وصلت إلى الأرض.

«كم نبعد عن إيطاليا؟» أسأل.

يقول كنان: «يحاول القبطان إرسال إشارة إليهم الآن. لكن حتى لو جاؤوا، فسوف يستغرق الأمر ساعات. سنكون بالفعل في الماء».

أضغط بيدي على جبهته. دافئ.

«الماء بارد إلى حدّ الشجفد. أنت مرهق وربما محموم. إذا سقطت في الماء، لا أعرف ما الذي سيفعله ذلك بجسدك». سوف يصاب بانخفاض حرارة الجسم. قلبي ينبض بآلم في صدري.

يهزّ رأسه. «ليس لدينا خيار». أقول: «قوارب النجاة؟».

«سلامة، هذا قارب صيد. ليس المقصود منه

السباحة لأكثر من بضع ساعات في البحر. لا توجد قوارب نجاة».

لا بد أن علامات الضيق تظهر علي لأن كنان ضم خدي بيد واحدة وقربني منه.

يهمس قائلاً: «تحلي بالإيمان. سننجو. كوني قريبة مني وكوني مؤمنة».

أومئ برأسي، وأعصر بعض الدموع. يستقيم وينظر إلى أخويه اللذين يشعران بالرعب، لدرجة أنهما لا يستطيعان التحرك.

قال: «حسنًا يا رفاق»، وأنا مندهشة من مدى هدوئه. «أريدكم أن تظلوا مقًا، وبمجرد أن نكون في الماء، اركلوا ساقيكم قليلًا لتظلوا واقفين، حسنًا؟ سترات النجاة الخاصة بكم سوف تقوم بالباقي. من المهم ألا يسيطر علينا الذعر. خذوا نفثًا عميقًا، وسنكون بخير إن شاء الله».

لمى تتمسك بيوسف وكلاهما يومئ برأسه. أربط حقيبتي بستر النجاة ويفرق قلبي، أعلم أنه عندما نفوس تحت الماء، لن ينجو جواز سفري وشهادتي. تبدو السماء قريبة، وكأنها تبشرنا ياغراقنا باللون الرمادي الداكن أيضًا.

معظم الناس واقفون بالفعل، لذلك يطلب منا كنان أن نفعل الشيء نفسه. يميل القارب بشكل خطير إلى اليسار، ونفقد توازننا وننتعثر على الأرض. الناس يصرخون. إحدى الأمهات تعاني من حالة هستيرية، وهي تحمل طفلها على صدرها، وأنا أنظر بعيدًا. لا أستطيع مساعدة أي شخص. يتمايل رأسي مع كل حركة يقوم بها القارب، والماء يغمرنا بالكامل مع تزايد خطر الانقلاب. أمسكت بيد كنان، واقترب لمى ويوسف منه بشدة بينما كان القارب يترنح ويدفع الناس نحونا.

نتنظر، ولا نعرف ماذا نفعل. هل يجب أن نقفز؟ أو البقاء على متن القارب حتى يفرق؟ فكري يا سلامة، فكري!

وفجأة، صوت واحد، حاد مثل الزجاج، يرن في رأسي، يحذرنني من القفز.

لا تقفزي، صوت خوف يتردد في ذهني. إنه فعل انتحاري. أنت لا تعرفين ما ينتظرك في الماء. القارب أكثر أمانًا. كلما قفز عدد أكبر من الناس، زادت احتمالية عدم غرقه. لا تقفزي.

أغمض عيني وأتنفس من أنفي، وأتخيل زهور الأبقحوان. خوف ليس هنا، لكنه يعيش في رأسي، ويجعلني أشك في كل قرار. لكن هذه ليست طريقة للبقاء على قيد الحياة، ولا توجد طريقة للنجاة.

أقول: «كنان». تبدأ الدموع بالتدفق على وجهي. النهاية قريبة. «نحن بحاجة للقفز عندما يفرق القارب، سيخلق تيارًا لن نتمكن من السباحة ضده». ينظر إلي ويومئ برأسه بشكل ألي. الأمواج المتلاطمة على جانبي القارب تنذر بالعنف. ربما كانت القفزة هي الخيار الأفضل.

وفجأة، قفز رجل يحمل ابنته من القارب إلى الماء. كانت تتمسك بظهره، وهي تبكي، وهو يستخدم كل طاقته للهروب. يستغرق الأمر من الجميع خمس ثوانٍ بالضبط ليتبعوه.

كنان يمسك بيدي بقوة. كلانا أومئ. يقول: «الآن».

يذكرني البرد بشهر ديسمبر الماضي، عندما عدت من المستشفى وكان الثلج يتساقط والصقيع. كانت ليلى على الأريكة، ترتدي كل ملابسها. تكوّمث بجانب هلوستي ونمّث، معتقدة أنني أقوم بتدفئة نفسي، لكن البرد استمر في تغطية عظامي، ودفع نفسه إلى الداخل.

لكن على الرغم من ألفته، فإن هذا البرد لا يهددني لأنام. وبدلاً من ذلك، فإنه يرسل موجة صدمة بعد موجة صدمة عبر جسدي. أغرق تحت البحر، وأفتح عيني على اللون الأزرق الداكن الذي يمتد لأميال.

خوف يتصارع معي. ينقبض قلبي، وتضيق القصبات الهوائية، وتبرد أطرافي لدرجة أنها تحترق. قبل أن أتمكن من الصراخ، أطلقتني سترة النجاة خارج الماء.

«ماما»، أبكي دون تفكير. «ماما، أنقذيني!».

ركلت ساقي في الماء، وتحول الخوف إلى هستيريا. أختنق ببكاء وتنهيدات متقطعة عندما أتذكر أن هناك أسماك قرش في البحر الأبيض المتوسط.

«ماما»، أصرخ، متمسكة بتلك الكلمة الواحدة وأتركها تتوسع وتغمرنني. «ماما. ماما. من فضلك من فضلك ساعديني. لو سمحت. لا أستطيع تحمّل هذا بعد الآن!».

في هذه اللحظة، أنا نصف مجنونة، أركل ساقي لإبعاد أسماك القرش، كما لو كان ذلك مفيداً في مواجهة أسنانها الحادة وأعينها التي لا روح لها. كل فكرة تختفي. لقد نسيت اسمي ومع من كنت. الذي

من المفترض أن أكون معه. كل ما يمكنني التفكير فيه هو كيف سيتم سحبي للأسفل.

«سلامة!» صوت يخترق الهستيريا، فحاولت أن أستدير بشكل أخرق، والدموع الساخنة تنهمر على خدي. البرد يخترقني حتى ضلوعي. يؤلمني التنفس.

تصبح الأشكال غير الواضحة حادة وأرى شخصاً يتمايل بعيون مذعورة. يوسف. وخلفه مباشرة لى. قلبي يعاد ضبطه. نعم. لا أستطيع أن أخسر نفسي. عائلتي هنا. يوسف. لى. وكنان.

كنان. أين هو؟

«لى! يوسف!». لا بُدَّ أن ضغط الماء انتزع يدي من يد كنان. في كل مكان، يسبح الناس بحثاً عن أحبائهم، وترتفع صرخات مألوفة مع الريح الباردة. لا تزال حقيبتى محاصرة تحت سترة النجاة. «أين كنان؟»

تنهدت لى: «لا أعرف».

«كنان! أين أنت؟» أصرخ. اللهم اجعله يعيش. لقد اكتفى.

أدور بلا حول ولا قوة، وعيناي تقفزان من جسد إلى آخر، لكنني لا أرى سوى الغرباء.

أقول: «علينا أن نبتعد عن القارب». أنظر إلى الوراء وقد بدأت في الغرق. أوما برأسيهما وحاولا السباحة ورائي بجهد. نحن نواصل البحث وننادي كنان. أبحث حولي، وسترة النجاة الخاصة بي تجعل من المستحيل التحرك بسهولة. أجهد نفسي وأفشش القارب بعيني، لكن لا يوجد أحد.

«هناك!» تصرخ لى وهي تشير إلى شخص عائم. ذراعه مفتوحتان كأنه يحاول احتضان البحر،

ورأسه يتدلى إلى الجانب. أتوجه إليه وأبعد شعره عن وجهه للتأكد من أنه هو.
«أوه، الحمد لله» صرخت وأنا أحتضنه بقوة. «إنه هنا. إنه هو!».

بشكل مربك، أحاول فحص لبضه. إنه أضعف مما أريد. لا بُدَّ أن صدمة الماء قد جعلته يفقد وعيه، ولا يمكنه البقاء على هذه الحال لفترة طويلة. وجهه بارد كالثلج.

«هل هو بخير؟» يسأل يوسف، وأنا أرفع رأس كنان. عضلات رقبتة مرتخية تمامًا.

قلت: «إنه فاقد للوعي»، وسمعت القارب يغرق أخيرًا، لكن لا يمكنني الاهتمام بذلك الآن. «كنان. استيقظ!».

وبعد دقائق من صفع وجهه والدعاء لله، ترفرف عيناه ويتمتم بشيء غير متماسك. «مرحبًا»، أقول بلطف، وأمسك خديه ثم أمسك بيد واحدة لأرى أن أصابعه قد ازرقَّت. «مهلاً»، يهمس.

«نحن في الماء. لقد غرق القارب للتو، وكنت فاقدا للوعي. لا يمكنك النوم. هل تفهم؟».

«نعم»، يقول بضبابية ويتجه من البرد.

«حسنًا»، صرخت، وأنا أضع يدي تحت سترة النجاة الخاصة بكنان. «نحن بحاجة إلى التوجه إلى مكان وجود الآخرين ومعرفة ما إذا كان القبطان قد اتصل بخفر السواحل الإيطالي».

«أنا أشعر بالبرد»، تشهق لى.

«هذا هو الشيء الآخر. أحتاجكم جميعًا لمواصلة التحرك. حافظوا على تدفق الدم. وإلا فسوف تنامون، وهذا ليس جيدًا».

يتمتمون بنعم، ونحن نسبح بهبط نحو مجموعة

الناجين العائمين. رجل يرش الماء بشدة ويصرخ من أجل ابنه الصغير. نجذف بجانب أجساد، إما جثث أو فاقدين للوعي، لا أعرف، ولا أستطيع التوقف لمعرفة ذلك.

«... اتصلت بهم وأخبرتهم، لكنني لا أعرف متى سيأتون»، يصرخ القبطان في وجه الحشد المذعور. «نحن بعيدون عن الشاطئ. سيستغرقون بعض الوقت للوصول إلينا. ساعات على الأقل».

تومض شعلة الأمل الصغيرة في عيون الجميع مثل شمعة تحتضر. لا أحد يهتم بمجموعة من اللاجئين السوريين الذين تقطعت بهم السبل في وسط البحر الأبيض المتوسط. نحن لسنا أول أو آخر من يفعل ذلك. فماذا لو بقي مائة أو نحو ذلك حتفهم؟ سيكون عنواننا رائعا لتحفيز احتجاج صغير أو حملة تبرعات قبل أن ننسأهم مرة أخرى مثل رغوة البحر. لن يتذكر أحد أسماءنا. لن يعرف أحد قصتنا.

«ك... كنان» أتلعثم. «ل... ل... لا نثم!».

أوما، لكنه يستهلك كل أوقية من الطاقة التي يحتاجها للبقاء مستيقظا. أسحبه بالقرب وأحاول تشجيعه على ركل ساقيه. سترة النجاة هي الشيء الوحيد الذي يبقيه على سطح الماء، وهي بالكاد تفعل ذلك. تنكاثف الغيوم أكثر حتى نشعر وكأننا محاطون بالبحر والسماء. لا يصل إلينا شعاع واحد. «لمى. يوسف. استمزا في التحرك»، أتلعثم بأمر. «ستأتي المساعدة».

«أنا متعبة»، تتذمر لمى، وهي تتأرجح في الماء بفتور. يوسف يركل ساقيه وذراعيه لمدة دقيقة قبل أن يستسلم.

«لا»، أصرخ، وأنا أقرب منهما وذراع كنان مطوقة

في يدي. «استمروا، تحزكا!».

يمسك يوسف بيدي لمى ويبدأ في هزهما؛ مفا
يؤدي إلى إرسال تموجات على طول الماء.

«سكون بخير»، أثرثر، مركزة على كلماتي وليس
على انخفاض حرارة الجسم الذي يغلق ببطء كل
خلية. يقتلني ببطء. أحاول ألا أفكر في أسماك
القرش. «سكون بخير».

لقد استسلم بعض الناس بالفعل للبرد، وتلاشى
صراخهم وبكاؤهم، وأنا أعلم دون أن أنظر أن البحر
الأبيض المتوسط قد استحوذ عليهم.

«لمى، تحدثي معي». ألق الملح من شفتي
فيحرق حلقي. إنه يحرق الجرح على رقبتني.
«أنا بخير». صوتها بالكاد مسموع. «يوسف؟».
«نعم». يهمس.

أمسك بأكتاف كنان وأهزه، فيبدأ. «كنان، إياك
والنوم».

«لن أفعل»، يقول ويسعل ويركل بساقيه قليلاً.
يضع يده الحرة خلف حجابي المبلل، ويضغط
جبهته على جبهتي.

دفعت الأمواج ببطء لمى ويوسف بعيداً عثا،
واقتربنا مرة أخرى، لنشكّل دائرة، ممسكين بأيدي
بعضنا البعض.

«جيد»، أشجعهم. «الآن، استمروا في الزكل!».

نخلق زبداً صغيراً على سطح البحر بينما يتحرك
الدم ببطء في عروقنا. تلتصق ملابسنا بجسدي
المرتعش، وينزل حجابي ببطء، لكنني أواصل الركل.
أقول: «كنان، انظر إلى الألوان»، وهو يحدق في
الأفق.

لا يوجد شيء سوى السماء الرمادية والبحر. ليس

مثل الرمادي في حمص.

رمادي مثل لوحة ليلي مع كشط اللون الأزرق بين الخطوط.

أحاول رؤية الظلال الأخرى، لكن يبدو أن اللون الرمادي قد استقر في خلايا شريان شبكيتي. أدمع عيني على عائلتي، وأحفظ وجوههم.

«أتذكر كيف كانت الشوارع ثضاء بالفوانيس في رمضان»، أتلعثم، والجميع ينظرون إلي. «لا تفكروا في البرد. تذكر كم كان الخبز دافئًا. طازجا من المخبز».

ينضم كنان. «لمى... يوسف... تذكرنا عندما كنا نذهب إلى الريف. إلى مزرعة جدو وقطف المشمش. كيف كنت أصعد وأرميه إليك يا لمى. يوسف، هل تتذكر عندما وجدت عش الحمام؟».

يومئ يوسف برأسه وأسنانه تصطك.

أهمس: «في كل صيف، كنا نقيم أنا وليلي في منزل أجدادها الريفية أو في منزلي. كنا نسبح في حمام السباحة. كنا نلعب مع الدجاج. حتى إننا ركبنا الخيول. أخذنا جذها إلى أحد الجيران الذي كان يربّيهم».

أتذكر ذلك جيدًا. كنت في الخامسة عشرة من عمري وكنت قد بدأت للتو في ارتداء الحجاب. كان يرفرف في الريح بينما كان الحصان يعدو حول الحقل وليلي على حصانها بجانبني. صيحات فرحنا تعلو حوافر الخيول.

يوصل كنان تشجيع إخوته على الحركة والتحدث، وتذكر الماضي والأمل في المستقبل، حيث تنتظرهما ذكريات جديدة. يلتفت نحو يرفع يدي، فتعود قطرات الماء إلى البحر.

«سلامة، سنتناول تلك الكنافة». خذاه مبتلآن، وأعلم أن ذلك ليس من البحر فقط. شفتاه تلامسان مفاصلي المصابة بالندوب. «إن لم يكن في ألمانيا ففي الجنة».

أبتلع دموعي، ويومئ هو.

نعود إلى الحديث ونحاول التركيز على شيء غير بارد. نحن نتذكر حياتنا القديمة. تصور سوريتنا وترسم أماكن لن نراها مجددًا أبدًا.

سوريا التي لن نعرفها أبدًا.

تغطي التلال مساحة لا نهاية لها من اللون الأخضر، حيث يحمل نهر العاصي الحياة إلى الأرض، وتنمو زهور الأقحوان على طول ضفتيه. تحمل الأشجار ليمونًا ذهبيًا كالشمس، وتفاخا صلبًا وحلًا، وخوخًا ناضجًا ومتلألئًا مثل الياقوت. أغصانها منخفضة، تحثنا على قطف الثمار. تغني الطيور أغنية الحياة، وترفرف أجنحتها في سماء زرقاء لازوردية.

يتلاشى الريف ببطء حيث يحل الرصيف محل العشب وتغطي أصوات الناس الذين يتجولون في السوق على زقزقة الطيور العرضية. يبيع التجار فساتين حريرية وسجادًا عربيًا غنيًا باللون الأرجواني ومزهريات كريستالية ثمينة. تكتظ المطاعم بالعائلات والأزواج الذين يستمتعون بيوم مشمس جميل، وتوضع أمامهم أطباق اللحم المشوي وصحون التبولة. يرنُّ الأذان بصوت عالٍ من المآذن ويتجمع الناس للصلاة في المساجد الفسيحة ذات التصميم الدقيق والتي ظلت قائمة هناك منذ قرون.

أطفال يركضون حول أطلالنا القديمة، يقرؤون تاريخ أجدادهم المنسوج بين الحجر الجيري. يتعرفون على الإمبراطوريات التي حوّلت بلادهم ذات يوم إلى قلب الحضارة النابض. يزورون

قبور مقاتلينا، ويقرؤون على أرواحهم الفاتحة، ويستذكرون قصصهم. ويحاولون إبقاءهم على قيد الحياة في ذكرياتهم. يفخرون بأجدادهم وجداتهم الذين ضخوا بحياتهم حتى يكبروا في أرض الهواء فيها فحلى بالحرية.

وأنا عالقة في ضباب انخفاض حرارة الجسم، أحلم بسوريا تلك. سوريا التي ليست روحها مكبلة بالحديد، أسيرة من يوذ أذيتها وأذية أبنائها. سورية حمزة التي قاتل ونزف من أجلها. سورية كنان التي حلم بها وبرسمها. سورية ليلي التي أرادت أن تربي ابنتها فيها. سوريا، حيث كنت ساجد فيها الحب والحياة والمغامرة. سوريا حيث، في نهاية حياة طويلة، سأعود إلى الأرض التي ربّنتي. سوريا هذه.. هي بيتي.

يمر اليوم وأنا أفقد الإحساس بالوقت. حلّ الظلام أخيرًا ولم يعد لدي أي طاقة، وتوقّفت شفتاي عن الحركة. لقد غزا البرد كل عصب. لا أعرف إذا كان كنان قد توقّف عن الكلام أيضًا أم أنني فقدت القدرة على السمع. يتطلب الأمر كل ما في داخلي لأتذكر مكاني وأني بحاجة للتنفس.

في مكان ما بعيدًا، يظهر وهج من الضوء فجأة. أرمش، حدة الضوء تؤذي بؤبؤي. أرمش مرة أخرى. هل مُث؟

يزهر ليلك شاحب في الأفق بينما تشرق الشمس ببطء عبر الظلام. يأخذ فجر سبتمبر في تورونتو العديد من ظلال الطيف، ولكن يبدو في أيامنا هذه أنه يفضل القفز من اللون الأرجواني إلى اللون الأزرق الساطع بينما تختفي النجوم بهدوء.

أنا في الشرفة، استحمّ في الوهج الناعم وأحرق في الزاوية التي تحولت إلى حديقة صغيرة.

الأقحوانات. زهر العسل. الفاونيا. لافندر. لقد قمت
بزراعتها جميعًا بنفسى، وأعتنى بجذورها وبتلاتها
الصغيرة بعناية، وأتمم بكلمات الحب.

«أنت جميلة جدًا»، أهدل لزهرة الأقحوان الصغيرة
وهي تنشر بتلاتها بخجل على الندبات الموجودة
على يدي. «أنا فخور جدًا بك».

نسيم خفيف يقنعني بسحب بطانيتي بحزم أكبر
حول كتفي. على الرغم من أنني أرتدي بيجامة من
الصوف، إلا أن برد البحر الأبيض المتوسط لم يذُب.
كنا أنا وكنان في تورونتو منذ أربعة أشهر، وما
زلت لم أعتد على البرد. إنها مختلفة جدًا عن برلين،
لكن كلاهما يتمتعان بنفس النوع من الهدوء في
صباح يوم السبت: هدوء يكسره أحيانًا هدير طائرة
تحلق فوقها. لقد استغرق الأمر مني أنا وكنان عامين
حتى لا نصاب بالخوف من هذا الصوت. وفي بعض
الأحيان ما زلنا ننسى، وتعود الصدمة إلينا على
شكل أيد مرتجفة وأعين مليئة بالذعر.

«ها أنت ذا»، يقول كنان وهو يتجول في الخارج
ومعه كوبان من شاي الزهورات المبحر.
ألقي نظرة عليه، مبتسمة.

لقد أصبح أكثر مقاومة للبرد ولا يرتدي سوى
بنطال بيجامة بسيط وقميصًا أبيض. شعره أشعث
من السرير وما زالت عيناه مغطأتين بالنوم. لقد
استغرق الأمر بعض الوقت والكثير من العمل الشاق،
ولكن كلانا الآن يتمتع بوزن صحي. نظرت إلى
عضلاته، وأشعر أن خذي يسخن وهو يسلمني كوبي.
«شكرًا لك»، أهمس، لا أريد تعكير صفو السلام.

يجلس بجانبى. قمت بضبط البطانية بحيث تكون
ملفوفة حولنا وأضع رأسي على كتفه.

يقول بهدوء: «لقد استيقظت مبكراً. حلم سينا!».
 هناك أوقات تتسلل فيها الكوابيس خلال نومنا
 مثل سمّ البلادونا. أحياناً توقظ كنان. يلهث بحثاً
 عن الهواء، والعرق يسيل على جبهته. تملأ رأسه
 الكوابيس، تقنعه بأن لمى ويوسف محاصران في
 حمص أو يغرقان في البحر الأبيض المتوسط.
 فقط عندما يتصل بعمة في ألمانيا للتحدث معهما
 يهدأ. فقط عندما أضمه إليّ وألعب بشعره، وأهمس
 بـ«شيء جيد»، يسترخي ويعود أخيراً إلى النوم
 على صدري.

وبينما اختفى خوف من حياتي مثل حلم الحمى،
 التقطت الكوابيس من حيث توقّف. سمومها
 تصيبني بالشلل، وأنا محبوسة في ذهني، أصرخ.
 في بعض الأحيان، يستغرق كنان بعض الوقت
 ليوقظني، ويقنعني بأنني هنا حقاً، لكن ذراعيه
 موجودتان دائماً لتثبيتتي، لإعادتي.

يضع كنان أصابعه في يدي ويقبّل جانب رأسي.
 «لقد وعدنا بأن نتحدث مع بعضنا البعض، شينا».
 أتوجه إليه وعيناي حنونتان. لقد فعلنا. وعندما
 لا نعرف كيفية العثور على الكلمات، لدينا آخرون
 لمساعدتنا. غرفة هادئة تنظر إلينا فيها امرأة
 متعاطفة من خلال نظارتها المستديرة. تبتسم
 بلطف، والطريقة التي تلمع بها عيناها تذكّرني بنور.
 عندما تصبح المحادثة صعبة، كل ما عليّ فعله
 لتخفيف الثقل هو تذكّر الطريقة التي كانت تقول
 بها: «الع لا اا ج».

بمجرد أن استقررنا أنا وكنان في برلين مع خاله
 وعمه، ذابت الصدمة التي مررنا بها ببطء وتحوّلت
 إلى ألم أصبح من الصعب التحدث عنه مع مرور كل
 يوم. ليلي وماما وبابا ذفنوا في حمص. نسيت

للحظات كيف أتجاوز عذاب حياة حمزة في سوريا. ألمس دوما الندبة الموجودة على رقبتني. وفي حين أن الندبة بالجزء الخلفي من رأسي مغطاة بشعري، فليس من السهل تجاهل التي برقبتني. تبدو وكأنها قلادة، وعندما تصبح أفكاري سوداء، أستطيع أن أشعر بها تقريبا تضيق حول حلقي. ينظر كنان إليها، والإدراك يتجفد في عينيه.

يضع قدحه جانبا قبل أن يخفض رأسه لتقبيل الندبة. أربط ذراعي حول كتفيه، وأعانقه عن قرب. «أي خطط اليوم؟» أهمس.

يبتعد قليلا وخذاه ورديان. «سأقابل طارق للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام فيما يتعلق بقبولنا في الجامعة».

«من بين كل المستقبل الذي تصوّرته لنا، لم يكن العيش والالتحاق بالجامعة في تورونتو واحدا منها».

يعبس. «ليس تطوّزا سيئا».

لقد أصبح كل ذلك ممكنا بفضل أحد أصدقاء حمزة. قبل وقت قصير من بدء الثورة، انتقل أحد أصدقائه المقربين في المدرسة الثانوية إلى كندا لدراسة الطب. وقد عرض الآن -وهو مواطن كندي- أن يرعى انتقالنا إلى تورونتو. ساعدنا على مواصلة تعليمنا، والعثور على وظائف، والعيش حياة جيدة وأمنة. لقد تواصلنا بعد أن قمّت بإعادة حسابي على الفيسبوك في برلين، حيث قدّمت العائلة والأصدقاء البعيدون كل أنواع المساعدة.

عندما عرض طارق المساعدة، جلسنا أنا وكنان ودرسنا الأمر من جميع الزوايا. نحن نعرف اللغة الإنجليزية أكثر من الألمانية. فيما يتعلق بالرسوم

المتحركة، تتمتع كندا بخيارات أكثر، وقد وقعت على الفور في حب برنامج الصيدلة في الجامعة. كان يوسف ولمى يتأقلمان بشكل جيد مع مدرستهما وحياتهما الألمانية، وكان عمهما وخالتهما يتدخلان كما لو كانا طفليهما. سيكون الأمر مجرد مغادرتي أنا وكنان. في الوقت الراهن، نحن أصغر من أن نعتني بطفلين. وأنا أعلم أن الانفصال عنهما يكسر قلب كنان كل يوم. لكن كوننا لاجئين يحد من خياراتنا، وأنا أعلم أيضاً أن وضعنا أفضل بكثير من العديد من العائلات السورية الأخرى لأن لدينا عم كنان وخالته، وعادة ما تكون الأسر التي ليس لها أقارب يعيشون في الشتات ممزقين ومتناثرين في عدد قليل من البلدان اعتماداً على البلد الذي يقبلهم.

لم يغير كنان شاشة قفل هاتفه من لمى ويوسف، رغم أن الخلفية هي أنا وهو. إنه يتصل بهما كل يوم ويخطط لكيفية تمكنه من السفر إلى ألمانيا لرؤيتهما.

«لا أستطيع أن أصدق أن الجامعة ستبدأ خلال أسبوع». أهرأ رأسي. «لا أستطيع أن أصدق أننا نجلس هنا نشرب الزهورات بعد ثلاث سنوات».

«لا أستطيع أن أصدق أنك معي». يقبل خاتم الزواج في إصبعي، ثم يقبل ندبة مقطوعة في معصمي. «كيف أوقعت بك وأنت أعلى من مستواي؟ كيف نجحت في التقاط شخص خارج دائرتي؟».

أضحك ضحكة مكتومة. «لقد أغريتني بكلامك عن ستوديو جيбли».

يبتسم ابتسامة عريضة. «ميازاكي لا يستخدم سيناريوهات في أفلامه. إنه يرتجل الأحداث أثناء العمل على الفيلم».

أتظاهر بالارتباك، وأخْبِن وجهي. «يا إلهي!».
يضحك وننتهي من تناول الشاي. وبمجرد أن غطى
ضوء الشمس السماء، نعود إلى الداخل.

إنها شقة صغيرة بغرفة نوم واحدة ولكنها بيت. لا
تزال بعض الصناديق متناثرة على الأرض. قام طارق
وأصدقاؤه بتجهيز الشقة لنا، واضطرت للاختباء
في الحمام لأبكي من الامتنان لمدة عشر دقائق
متواصلة قبل أن أتمكن من مواجهة أي شخص.

تنتشر على طاولة الطعام كراسات الرسم الخاصة
بكنان، وكلها مليئة برسومات لقصصنا. وبجانبيهم
صينية كنافة نصف فارغة. الصورة الفحمية التي
رسمها لي عند بوابة براندنبورج محاطة بإطار
خشبي، معلقة فوق الأريكة في غرفة المعيشة.
الجدران عبارة عن لوحة فنية لخيالنا، وقد قمنا
برش اللون الأبيض بدرجات مختلفة من اللون
الأزرق. يستضيف أحد الجدران عمل كنان المستمر
لخريطة سوريا، بينما قمت بحفر قصيدة لنزار قباني
على طول سطح الجدار الآخر لأنه ائضح أن خطي
أفضل من خطه. هذا ما رأيته في مظاهرة ذكرى
الثورة.

«كل ليمونة ستنجب طفلاً وفحال أن ينتهي
الليمون».

نضع الأكواب في الحوض، ونناقش العناصر
المختلفة لسرد القصص المستخدمة في الأميرة
مونونوكي. أفتح خزانة لأخرج طاولة الإفطار.
كل خزانة مليئة بأكياس الأرز والفريكة والحمص
المعلب والكشك. أفرغ الطعام بأكمله، دون أن أترك
حتى فتاتاً، قبل رمي الغلاف في سلة المهملات.

أخرج كنان دجاجة من الشلاجة ليتركها تذوب،
وأجد نفسي أتعجب من حقيقة أن لدينا دجاجة

بينما حمزة لا.

أتصفح يوميًا صفحات الفيسبوك وتويتر التي تنشر تحديثات منتظمة عن السجناء في المعتقلات السورية الذين تم إطلاق سراحهم، وكذلك الصفحات التي تحتوي على معلومات عن السجناء الذين ما زالوا داخلها. أبحث عن اسم حمزة حتى تكلم عيناى، لكنه لا يظهر أبدًا. وفي قلبي أدعو الله أن يصبح شهيدًا. أدعو الله أن يكون مع ليلى في الجنة، بعيدًا عن هذا العالم القاسي.

ألقي نظرة بعيدًا وأشعر بيد كنان على خدي. «مرحبًا»، يهمس وهو يعرف ما يدور في ذهني. «كل شيء سيكون على ما يرام».

أرتجف بينما أتنفس وأوما برأسي قبل أن أمز عبر غرفة المعيشة. لإلهاء نفسي، أفكر فيما إذا كنت سأقرأ كتابًا عن الصيدلة أو أعمل على فيديو جديد. بعد وصوله إلى برلين، واصل كنان نشاطه من حيث توقف، وبعد بضعة مقاطع فيديو أخرى، بدأ يجذب انتباه العالم. تدرّبت على لغتي الإنجليزية من خلال الانضمام إليه، وكتابة المقالات وصنع مقاطع الفيديو حول ما واجهناه في حمص. قمت بربط قصصنا معًا، وكان الأمر صعبًا في البداية. لقد انفجرت في البكاء بعد خمس ثوانٍ من المونولوج، وتذكرت الشعور بجسد الجثة البارد.

أمسك كنان بذراعي، وأدارني، فسقطت على صدره، مندهشة.

«والأوامر ماذا تفعل؟»

يبتسم وهو يرفع هاتفه. أغنية إنجليزية لا أعرفها تنطلق. «أرقص مع زوجتي».

تلتمع عيني. نحن ننسج الفرع بين نوبات العذاب.
تذكير بعضنا البعض بأننا ما زلنا هنا.

أسقط الهاتف على الأريكة بجانب حاسوبه
المحمول، وهو يهزني بالموسيقى.

«أنا أرتدي بيجامة»، أتمتم، وأضغط جبهتي على
عظمة الترقوة.

يهز كتفيه. «وكذلك أنا». قام بتدوير إصبعه من
خلال خصلة من شعري، والآن طوله بالكاد يصل إلى
ذقني. «أنت جميلة في بيجامتك».

«وأنت أيضًا».

يضحك. من بعيد، نسمع صوت طائرة منخفضة ولا
يفوتني شئ يد كنان في يدي لجزء من الثانية.

«ما رأيك في الإضافة الجديدة لعائلتنا؟» أعيده
إلي.

وهو ينظر إلى الشرفة. «لقد مضى عليها شهران
ولم نر سوى أوراق خضراء».

أضحك. «الليمون يستغرق وقتًا يا كنان. نحن
نزرع شجرة. إنها بحاجة إلى الصبر، تمامًا كما يفعل
التغيير».

يعطيني ابتسامة غير مترددة. «أنا أحبك عندما
تحدثين عن التغيير».

أقهقه وهو يضع جبهته على كتفي، ويدندن على
أنغام الموسيقى.

تسجول عيناى فوق كتفيه نحو القدر الخزفية
الزرقاء الموضوعة مباشرة تحت أشعة الشمس.
ظهرت بتلات في التراب تقاوم الجاذبية، وهي
تذكرني بسوريا. بقوتها وجمالها. بكلام ليلى وروحها.
ماما وبابا وحمزة.

تذكرني أنه بينما تنمو أشجار الليمون، لن تموت

(1) - Spirited Away movie.

(2) - زهرة.

(3) - شيش برك أو ششبرك أو أذان الشايب؛ هو طبق مشهور في بلاد الشام وآسيا الوسطى وجنوب القوقاز والشرق الأوسط؛ يعود أصله إلى أوزبكستان. يتكون الطبق من عجينة تملا بداخلها لحم غنم مفروم وتُلف على شكل أذن الإنسان.